رواية

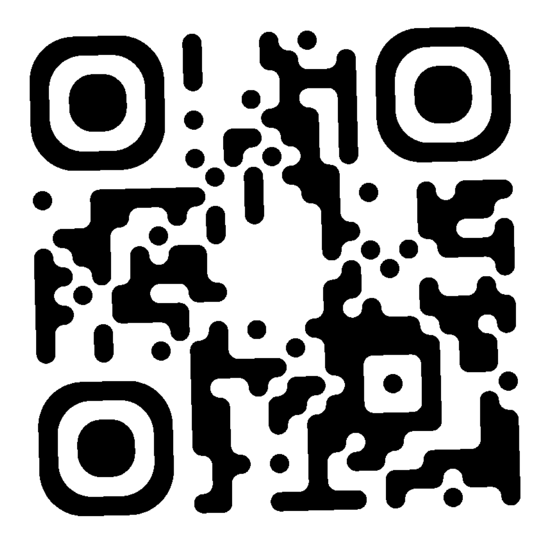
مكتبة

شيرلوك هولمز
وفأر سومطرة العملاق

جوانا كامبل سلاتر   كيه. جيه. لوتون

ترجمة: معتز حسانين





شيرلوك هولمز

وفأر سومطرة العملاق

جوانا كامبل سلان   كيه. جيه. لوتون

Author: Joanna Campbell Slan & CJ Lutton

Sherlock Holmes and the Giant Sumatran Rat

Translated from English by:
Mutaz Hasanin

ترجمها عن الإنجليزية:
معتز حسانين

Book Design:
Sarwar Murad

تصميم الغلاف والإخراج الفني:
سرور مراد

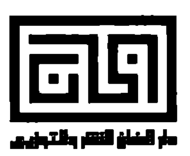


الطبعة الأولى | أكتوبر 2023

ISBN: 978-9921-712-78-0

رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية - دولة الكويت:

2010-2023



+965 99462291 / +965 51088000



info@daralkhan.com

رواية

شيرلوك هولمز

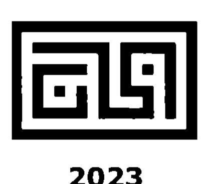
وفأر سومطرة العملاق

الكتاب الأول من ملفات دكتور واطسون السرية

جوانا كامبل سلان   كيه. جيه. لوتون

ترجمة

معتز حسانين

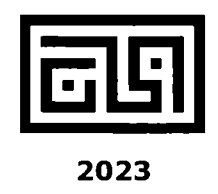


2023

Author: Joanna Campbell Slan & CJ Lutton

Sherlock Holmes

and the Giant Sumatran Rat



2023

ملاحظات المؤلفة

التزمت بطريقة التهجئة البريطانية في الكتابة كلما أمكنني ذلك. أيضًا، استعملت لفظة (صيني) وهي للأسف تحمل مدلولًا مهينًا، ولكنها تتفق مع زمن أحداث الرواية. فعلت ذلك بعد صراع داخلي طويل. في النهاية، آمل أن إدراج مصطلح مسيء كهذا يقف بمثابة تناقض صارخ مع طبيعية الشخصية النبيلة التي يشار إليها بهذا التوصيف، ومن ثم، يذكر القارئ أن التحيزات المسبقة ليست سوى شكل من أشكال الجهل.

جيه. سي. إس.

من ملفات دكتور واطسون السرية

لم يكن ليخطر ذلك على بال أحد قط.

على الأقل، لم يخطر ذلك على بالي قط.

حينما نشرتُ تفاصيل حياتي مع شيرلوك هولمز لأول مرة، لم يكن لدي أدنى فكرة أن محاولتي تلك ستجعل من شريكي في السكن شخصًا مشهورًا، كذلك لم أعرف أن ذلك الحدث سيغير مهنتي من طبيب إلى مؤلف.

كما تبين، فقد جعلت كتبي من حياتي وحياة شيرلوك عرضة لأنظار العامة وأحاديثهم.

كان عليّ أن أدرك ذلك مبكرًا. أنه ما إن يخطو المرء بقدميه إلى الساحة العامة، تحت الأضواء الباهرة والقاسية، حتى يجرّد من ملابسه ليصبح عاريًا كما لو كان طفلًا رضيعًا. رغم معرفتي بأن هذا عادة ما يكون عليه الوضع مع مؤدي العروض على المسرح، وأنه ليس له أدنى علاقة من قريب أو بعيد بشخص يخربش بعض الكلمات.

مع ذلك، كيف يمكن أن أعدَّ نفسي لمواجهة جحافل من آراء الغرباء، والتي أجبر على الاستماع إليها دون إرادتي؟ كذلك،

حينما أجدهم يهرعون في اتجاهي، وفي سرعة وحماسة، كالرصاص الذي أطلق ناحيتي حينما كنت في أفغانستان؟

كان رد فعلي التلقائي هو أن أعثر على مخبأ آمن مثلما كنت أفعل في أرض المعركة.

لسوء الحظ، لم يكن هناك من مكان للاختباء!

أعني، بالأخذ في عين الاعتبار الزحام الرهيب لمدينة لندن، ولكوننا نعيش في قلب المدينة، وعادتنا في التجوال في الأرجاء، ناهيك عن اللوحات الرسومية بالأبيض والأسود لوجوهنا المنشورة في الصحف المختلفة، والتي كشفت عن ملامحنا للعامة. لذا كان من السهل التعرف علينا إذا لم نبذل جهدًا كافيًا لإخفاء وتمويه ملامحنا.

ولكن، بمرور الأيام، لم تعد عملية تنكر وجوهنا غير مجدية فحسب، بل باتت مزعجة ومضيعة للوقت أيضًا.

لذلك، لم يكن هناك من حل سوى أن يرفع المرء رأسه عاليًا ويمضي قدمًا للأمام.

في كل صباح، أغادر منزلي رقم ٢٢١ من شارع بيكر، أجهز نفسي لاستقبال وابل من السهام والنبال، وأعيد تذكير نفسي بأنني حصدت ثمار نجاح حياة الشهرة.

في الواقع، كانت ثمار ذلك النجاح ترن داخل جيبي.

فكما ترون، ليس على المرء سوى أن يواجه لعنة الشهرة بروح من الدعابة.

في أغلب الأوقات، كنت أرجع إدارة شعبيتي إلى كل تلك الأخلاق الرفيعة التي يعرف بها الرجال النبلاء.

أعطي توقيعات للقراء، أصافح عددًا لا نهائيًّا من الأيادي، أنصت إلى الثرثرة اللا نهائية التي تغطي كل عناصر مغامرات هولمز بالتفصيل المملّ، وبدون إضافة أي ذرة من التفكير الجديد.

فعلت كل ذلك، لإيماني بأنني مدين لكل هذا الجمهور، وأنه يجب أن أولي اهتمامًا بهم، في مقابل الحصول على نقودهم التي كسبوها بعرق جبينهم.

صحيح، قد يبدو الأمر مضحكًا حينما يجازف أخٌ مواطنٌ بإبداء رأيه عن الشخصيات أو أحداث الكتاب في حماسة وحيوية - أعني، كما لو أنه يمكنني التحكم في هذا الجمهور وسلوكهم. يظن بعض القراء أنني مثل محرك الدمى، وأن كل ما علي فعله هو أن أحرك بعض الخيوط. ولكن بدلًا من تذكيرهم بما هو عكس ذلك، أجدني أبذل كل ما في وسعي للابتسام، وموافقتهم بطريقة لطيفة.

وفور أن تتلاشى حماستهم، أجد نفسي في الكثير من الأوقات وقد تأخرت عن مواعيدي ومهامي اليومية، وهذا

الأمر يجعلني غاضبًا بكل تأكيد؛ بما أنني شخص دقيق في مواعيده بحكم العادة.

أتساءل مجددًا، كيف يمكنني أن أعد نفسي لمواجهة سيل من آراء الغرباء، والتي أجبر على الاستماع إليها دون إرادتي؟

في الوقت ذاته، ومع تزايد أعداد قراء كتبي، ارتفع صوت مطالباتهم بمشاركة كل التفاصيل التي يمكنني مشاركتها عن حياة هولمز وقضاياه أيضًا.

برزت هناك شكوى واحدة مشتركة بين الجميع: القراء يريدون أن يعرفوا عن قضية فأر سومطرة العملاق. إذ كانوا يتذكرون تعليق هولمز العابر: "إن العالم ليس مستعدًّا بعد للاستماع لهذه الحكاية".

من بين كل ما كتبته في حياتي، لا توجد عبارة واحدة تسببت في إثارة الفضول والعديد من التعليقات مثل تلك العبارة العابرة.

تناقشت مع هولمز بخصوص هذه المسألة لمدة طويلة. كان كلانا يعرف أنه ما أن يتم الكشف عن تفاصيل تلك القضية، فإنها سوف تؤثر على أمن أمتنا، بل وأمن القارة بأكملها.

لأسباب عديدة، كنت مترددًا في الالتزام بكتابة هذه الحكاية الاستثنائية على الورق، ناهيك عن كشف الستار عنها أمام العامة.

فأوّلًا وقبل أي شيء آخر: مجددًا، وجدنا أنفسنا نخوض غمار أحداث لا يمكن تفسيرها تفسيرًا علميًّا، ولا حتى عن طريق التفكير المنطقي العقلاني. وأعني بذلك، أننا وجدنا أنفسنا مرغمين على قبول حدث لا يمكن سوى تصنيفه بـ الما ورائي. أو لأكون دقيقًا... حدث خوارقي.

وهذا أمر يزعجني، لأن كل التدريبات التي خضعت لها بمثابة طبيب تتعارض مع الاعتراف بوجود مثل هذه الظواهر الخارقة للطبيعة.

ومع ذلك، وخلال تلك القضية غير الاعتيادية والمثيرة للمشاعر، وجدت نفسي مرغمًا على القبول بوجود مثل هذه الظواهر!

ناهيك عن أن هولمز حذرني من أن الكشف عن تلك الأحداث المظلمة للعامة، سيتسبب -وبلا شك- في السخرية والاستهزاء بكل مجهوداتي. إذ كان قلقًا من أن قرائي من ذوي النزعة العلمية ربما يعتقدون أنني شخصٌ أحمقُ.

بالطبع، كان هناك رأي آخر يجب وضعه في الحسبان، وهو رأي مايكروفت هولمز.

كنا نعلم جيدًا أن شقيقه الأكبر سيعترض وبأشد لهجة ممكنة على سرد التفاصيل المتعلقة بهذه القضية بمنتهى الشفافية.

ومع ذلك، ها قد مر عقد من الزمان، وتأكّد لي أن مخاوف مايكروفت لم يعد بإمكانها إخفاء هذه المغامرة تحت غطاء من

السرية، فهذه القصة تصرخ بأعلى صوتها حتى يتم حكايتها! العالم يحتاج إلى أن ينصت، ويدوّن الملاحظات، ويثمن لحظات الشجاعة الموجودة في قلب هذه المغامرة. مع الأخذ بعين الاعتبار أن ثلاثة من الأبطال الرئيسين لهذه الحكاية كانوا صغارًا جدًّا! والأهم من ذلك، هناك عددٌ من عناصر هذه الحكاية جديرٌ بالاهتمام.

أومن بأن هذه الحكاية يمكن عدّها بمثابة قصة تحذيرية وملهمة في الوقت نفسه. ولذلك، فقد قررت، وبدون تأخير، أن أكتب كل تفاصيل هذه الحكاية في أسلوب سردي سهل ومتماسك.

في الوقت الذي وقعت فيه تلك الأحداث، كانت الإثارة والأحداث المتسارعة المصاحبة للقضية تشي بوضوح بأنها مثل السلعة النادرة. وكنا نحن مثل المهور الفائزة في سباق الخيول، ولكن تحت أيدي متسابق قليل الخبرة. كانت رؤوسنا تتطاوح في كل اتجاه، وعلى نحو عشوائي. كما لو أن القوى التي تتحكم بنا، تعاني بدورها لتحديد أي اتجاه يجب علينا أن نسلكه.

وعند نهاية الرحلة، رحلتنا من الظلمات إلى النور، كنا متعبين، ومبللين، ومنهكين حتى النخاع.

لذلك، أعتقد أنه يمكنكم أن تتهاونوا معي حينما تجدون خيط أفكاري مشوشًا في بعض الأوقات.

على أقل تقدير، أرجو من قرائي حينما يحكمون على تلك القضية، أن يتذكروا أننا كنا مدهوشين من أحداثها كحال كلِّ واحد منكم. إذ إنه منذ ذلك الوقت رأينا الكثير مما كان يفترض أنه غير مرئي، وفعلنا الكثير من الأشياء التي يفترض أنها مستحيلة.

ولكننا في ذلك الوقت، كنا أكثر براءة، وسريعي الوثوق بالآخرين...



الفصل الأول

في كثير من الأحيان، تبدأ أكثر المغامرات التي لا يمكن تخيلها بحدث اعتيادي. وبالتأكيد لم يكن هناك من حدث ينبئ بأن هذا اليوم تحديدًا عن سائر كل الأيام سيمهّد لأكثر مغامراتي غرابة مع صديقي شيرلوك هولمز.

كنا قد انتهينا من تناول وجبة الفطور، وكانت الخادمة تزيل الأطباق من على المائدة، بينما كانت هناك نسمة هواء ربيعية تحرك الستائر الموجودة عند النافذتين العملاقتين، لتموج معها إلى أعلى وأسفل.

وعلى الرغم من أن شوارع لندن معروف عنها بأنها عرضة لروائح روث الخيول، إلا أن نسائم هذا اليوم تحديدًا جلبت معها هدية غير متوقعة؛ روائح أزهار الربيع العطرة، رائحة أزهار إبرة الراعي الحادة، ورائحة زهور البتونيا الحلوة. بينما خففت الأجواء المعتدلة من آلام الجرح الذي أصبت به أثناء تأدية خدمتي بوصفي طبيبًا ملحقًا بكتيبة مشاة في جيش جلالة الملكة.

في كل الأحوال، كان صباحًا من نوعية الأصباح التي تجعلني سعيدًا لكوني على قيد الحياة.

أما عن شريكي في السكن شيرلوك هولمز، فقد انتهز الفرصة للجلوس على مقعده المفضل، ليبدأ تصفحه بالطريقة المنهجية والمنظمة ذاتها لكومة من الصحف الصباحية التي يغرم بقراءتها. وبصحبة شريكه الأسود الشرير والصغير، ذلك الغليون الصغير القذر، نافثًا سحبًا متتابعة من التبغ، بينما كنت أعمل على إعداد جدول ليومياتي، وهي المهمة التي كنت أؤجلها لعدة شهور.

طرق ساعي بريد على الباب، لم يكن سوى صبيٍّ يافع، بينما كانت الرسالة التي يحملها بيده قذرة ومجعدة. وعلى الرغم من ذلك، فقد منحته حفنة من العملات المعدنية بقشيشًا، لأجد وجهه النحيف وقد أشرق، معبرًا عن لهفته للحصول على وجبة من الطعام بدون أدنى شك.

كانت الرسالة كالتالي:

عزيزي الدكتور واطسون،

أرجو أن تصلك هذه الرسالة وأنت في أحسن حال، وفي مزاج جيد. كما قد تتذكر، بعد شفائي من جروحي التي أصبت بها في أفغانستان، عدت مباشرة إلى منزل عائلتي في مقاطعة

ويلتشير. مع ذلك، لم تسر حياتي هناك كما كنت آمل. قَبلتُ مؤخرًا وظيفة في مستشفى بيت لحم للأمراض العقلية. وهذا تحديدًا سبب كتابتي لك. إذ إن لدينا هنا قضية غير عادية، من النوع الذي أومن بأنك ربما تجدها مثيرة للاهتمام. فالرجل المعني بهذه الرسالة شارك في عمليات عسكرية خارج البلاد.

رجاءً، أبلغني إذا ما كنت متاحًا اليوم. أكره أن ألح عليك، ولكن حالة هذا الرجل خطيرة وفي تدهور مستمر.

المخلص لك،

توماس هنري نوف

ملاحظة: أود أيضًا أن نعيد إحياء صداقتنا القديمة.

أثار التوقيع عند نهاية الرسالة طوفانًا من الذكريات، إذ تشاركت معه فترة خدمتي بمثابة جراحين في أفغانستان.

مستشفى بيت لحم للأمراض العقلية. يا إلهي، مستشفى بيت لحم أو كما يعرف باللهجة العامية بمستشفى بيدلام. كان يعد بمثابة وصمة عار في تاريخ أمتنا. المستشفى الذي بدأ كمؤسسة خيرية مُحمَّلة بالنوايا الطيبة، ولكنها سرعان ما تحولت إلى بؤرة من الفساد المنتن، لدرجة أن دخولها يعد أفضل بقليل من حكم الإعدام.

فقبل عقود مضت، أدت الوصمة العامة المحيطة بالمكان إلى إلقاء الضوء على الظروف المروعة المحيطة به ووضعه أمام المساءلة الشعبية، وهو ما تبعه غضب شعبي عارم تحول إلى حافز لإجراء التحسينات التي كان المستشفى في أمس الحاجة إليها.

ومع ذلك، لا يسعني سوى الاعتراف بأنه لن يطاوعني قلبي بأن أرسل ألد أعدائي إلى مستشفى بيت لحم للأمراض العقلية.

كانت مجرد فكرة أن ينتهي المطاف بتوماس هنري للعمل في ذلك المكان مثيرة للفضول. لأنه كما تسعفني ذاكرتي، فتوماس هنري يعد بمثابة سليل عائلة ثرية للغاية، وهو من نوعية الرجال الذين لا يمكنهم الاعتياد على حياة الحرمان والمشقة على أرض المعركة.

ومن بين جميع زملائي، كان دائم التذمر، مندداً بالحالة التي يوجد عليها العالم، ومتحسراً على الحالة الباعثة للأسى لانعدام القيادة وافتقارها، والتي تسببت في الكابوس الذي عايشناه على الأرض القاحلة الرملية التي تدعى أفغانستان.

وكما أتذكر، كان توماس هنري يترقب موعد عودته إلى المنزل بعد إنهائه مدة خدمته في جيش جلالة الملكة، كان يخطط لإعادة افتتاح عيادته الخاصة في القرية التي يملكها والده فور عودته بأمان إلى حضن محيطه العائلي، وهو الأمر

الذي يمكن اعتباره كمكافأة مرضية له على إنهائه لمدة خدمته تجاه الملكة والتاج.

ولكنه الآن يعمل طبيبًا في واحد من أسوأ المستشفيات الممكنة في البلاد.

بالطبع، سأستجيب لطلب زيارته على أسرع وجه ممكن.

إذ على أقل تقدير، سترضي تلك الزيارة فضولي. وفي أحسن تقدير؛ ربما أتمكن من تقديم بعض المساعدة، والمساهمة في تحسين ظروف حياة فرد للأفضل.

وعلى الرغم من أنني في كثير من الأوقات، أطلب من هولمز مرافقتي في مثل هذه المواقف، وخاصة إذا ما كنت أعتقد أن القضية المعنية قد تكون مثيرة للاهتمام، إلا أنه بدا راضيًا اليوم بقراءة الأعمدة المخصصة للأشخاص المفقودين في الصحف المختلفة في تركيز تام. كانت الصحيفة المرفوعة -والمقطوعة من الورق المخصص للصحف لتناسب الفراغ الكائن بين يدي المرء- تحجب وجه صديقي.

لذلك، كتبت له ملاحظة، ووضعتها على طاولة الطعام بدلاً من مقاطعة قراءته.

***

كتب الكثير عن مستشفى بيت لحم، وعلى الأخص تلك التقارير الدقيقة، التي تتحدث كيف حولها المكلفون بإدارة

المكان إلى وصمة عار وطنية. و كيف تحول المستشفى الذي تم بناؤه بنوايا حسنة إلى بذرة أنبتت في مخيلة العامة أن الأمراض العقلية تحول البشر إلى عرض للفكاهة والسخرية.

فمقابل حفنة قليلة من الشلينات، يمكن للعامة التجول داخل مستشفى بيت لحم مثلما يتجولون داخل حديقة حيوانات لندن.

في الواقع، فإن تلك المقارنة في محلها تمامًا؛ إذ إن طريقة التعامل مع المرضى ليست أفضل من معاملة الحيوانات بل أحيانًا تكون أسوأ منها.

كان يتم وضعهم داخل أقفاص معلقة، ومفروشة بالقش فقط. بينما أغفل مقدمو الرعاية تلك الرغبة الإنسانية في الخصوصية، وكانوا لا يتوقفون عن نقد الأشخاص الذين يعانون بالفعل من الوقوع في فخ أحدهم، وهو الأمر الذي قد يدفع أكثر الأشخاص من ذوي قوة الإرادة إلى الجنون.

كان المتفرجون يستفزون هؤلاء المخلوقات المسكينة والمرتبكة، ويقذفونهم بالطعام، وينعتونهم بأوقح الأسماء.

للأسف، لم تكن هناك من طريقة للمرضى للهروب! ولا حتى طريقة للاختباء من الوحشية التي تقرع الباب عليهم لزيارتهم.

أما بالنسبة للمرضى الذين لديهم إمكانية الوصول إلى الأموال (أو الأقارب الذين لديهم استعداد لجمع الأموال) فقد

كانوا يدفعون لمساعدي التمريض مقابل الحصول على الحد الأدنى من ضروريات الحياة.

بالطبع، لم تكن هناك من طريقة للتحقق من أن مساعدي التمريض أعطوا المرضى احتياجاتهم بطريقة عادلة. ولذلك، كانت تلك المبادلات دومًا ما تكون أحادية الجانب، وتميل إلى مصلحة مساعدي التمريض بدلًا من مصلحة المرضى المحجوزين.

وإضافة إلى ذلك الوضع الفظيع، كان هنالك ذلك السلوك الغريب الذي تسبب في أن يجد العديد من الأشخاص أنفسهم بمثابة نزلاء داخل مستشفى بيت لحم. فإذا أزعجت امرأة زوجها، أو إذا ما وجدها غير مريحة، أو، فقط، إذا ما سئم منها، يمكنه بكل سهولة أن يحصل على توقيع طبيبين على تقرير صحي ضد زوجته، وكان هذا يعد كافيًا لفتح أبواب مستشفى بيت لحم أمامها، وإغلاقه بإحكام وراءها، لتبقى محبوسة بالداخل إلى الأبد.

العديد من السيدات الثريات وجدن أنفسهن وقد تم تجريدهن من ثرواتهن وكرامتهن على يد هذا النوع من الرجال الأوغاد، ولكن ما هو أسوأ من ذلك، هو أنهن وجدن أنفسهن محبوسات داخل أقفاص، لا يمكنهن معها رؤية ضوء النهار مجددًا! لماذا حدث كل هذا؟ لأن هناك طبيبين تم دفع أموال لهما ليؤكدا أنهن يعانين من الهستيريا، وهو مرض أنثوي غير اعتيادي.

وبينما كان يتم تزويدهم بتدفق مستمر من المرضى، تمتع الممارسون الطبيون المختلون بمطلق الحرية في إجراء التجارب البشرية. وفي انعدام وجود رقابة حكومية، ولا سلطة إدارة تنظيمية وهرمية لمراقبة أنشطتهم، فقد زيف هؤلاء الدجالون -الذين يميلون إلى الأعمال الشائنة- التعذيب على شكل علاجات للمرضى.

فعلى سبيل المثال، كان يتم استخدام علاج الكرسي الدوار السيئ السمعة، والمشهور برجرجة أدمغة المرضى حتى يسبب لهم شعورًا قويًّا بالإعياء، وانعدام القدرة على الوقوف بثبات لفترة طويلة. ولكن هل نجحت تلك الطريقة في إعادتهم لرشدهم؟

لا، لم تفعل. كما أنها لم تكن تستند إلى أية أبحاث طبية منطقية.

أتذكر أنني ذهبت في مناوبة عمل داخل مستشفى بيت لحم بعد أن تلقيت شهادتي الطبية في شبابي. ولا داعي للقول، بأنني فررت من المكان مصدومًا وغاضبًا. استغرق الأمر ليلة واحدة فقط حتى تتأكد لي أسوأ شكوكي. كان يتم إجبار المرضى الضعفاء على النوم على قش متعفن، ورطب، وذي رائحة كريهة طوال ساعات المساء دون أن يتمكنوا من الإحساس بأي راحة.

كان هناك قلة قليلة لديهم أَلحِفة. وكان الجميع يعانون من القمل والبراغيث. وإذا كانوا محظوظين بعض الشيء؛ كان

يمكنهم إفراغ فضلاتهم المحفوظة في الدلاء في اليوم التالي. أما لو كانوا غير محظوظين، فقد كانوا يستعملون الحشائش المجففة ذواتها التي تشكل فراشهم الليلي. لم يكن لديهم أي فرصة لتنظيف أنفسهم، ولم يكن مسموحًا لهم بملامسة الملابس المريحة والجديدة.

مجمل القول، كانت الرائحة الكريهة لهؤلاء الأشخاص مقززة وتملأ الأجواء، لدرجة تجعل المرء معها يتنفس بعمق لعدة مرات.

بل في اعتقادي الشخصي، هناك هو ما أسوأ من ذلك، وهو تسرب تلك الرائحة الكريهة إلى ملابسي داخل خزانتي الشخصية. كذلك لم يكن هناك أي نوع من عمليات التهوية، والتي يمكنها إزالة تلك الرائحة القوية!

كما يُذكرني هذا الشيء بمدى سوء تغذية هؤلاء المرضى. فإذا ما تحدثت عن المؤن المخصصة لإطعامهم، فيمكنني القول بكل ثقة إن ما يتم إطعامهم به لا يرقى إلى الحد الأدنى من المعايير التي يمكن لأي أحد أن يطلبها أو يتوقعها.

كان انتشار الخنافس شائعًا في أرجاء المكان، وكان مثل هذا النوع من الدخلاء بالكاد يستحق أي لحظة من التفكير بالنسبة للنزلاء ممن قضوا فترة كافية في ذلك المكان قبل أن يقبضوا عليها ويلقوا بها إلى داخل أفواههم الجائعة.

لذلك، بتعاقب الليل والنهار، أسهم مستشفى بيت لحم في إضعاف الجسد والعقل، بل وما هو أكثر من ذلك إثارة للحزن، جوهر الإنسانية.

وهكذا، بصدر ممتلئ بالريبة، خطوت بقدمي إلى داخل تلك المؤسسة الطبية الفاشلة، التي تفوح منها رائحة منتنة.

قادتني رئيسة الممرضات إلى الطابق الثالث، ومن ثم إلى منتصف المبنى، ورافقتني حتى غرفة الانتظار.

كانت الغرفة متواضعة، وذات رائحة عفنة، وممتلئة بمقاعد تصطف بمحاذاة الجدران.

افترضت أن هذه هي الغرفة التي ينتظر فيها الأشخاص الذين يرغبون في الحصول على الاستشارات الطبية حتى يحل دورهم.

أشارت رئيسة الممرضات نحو أحد الأبواب المفتوحة، وقالت: "مكتب الدكتور نوف".

كان يمكنني من زاويتي -وبالتلصص عبر الكوة المفتوحة- رؤية رفوف كتب من الخشب الداكن تمتد من الأرض إلى السقف. كانت مجلدات الكتب الضخمة غير مرتبة على الرفوف، وكان هناك عددٌ ليس بقليل منها ملقًى على جوانبها. تراقصت ذرات الغبار داخل خيوط أشعة الشمس، بينما هاجمتني موجة حارة رطبة. وأثناء اقترابي من مدخل المكتب،

لاحظت مقعدين وثيرين مغطيين بالجلد يتموضعان بعضهما بجوار بعض، ومن خلفهما أريكة مبطنة بشعر الخيل، وأسفل منها سجادة، وإن كنت أشك أن تلك السجادة ثمينة، ولكن أضاف وجودها لمسة من البهجة على محيطها الكئيب.

قلت مناديًا قبل أن أعبر مدخل الغرفة: "مرحبًا؟ توماس هنري بيرسفيل... إنه أنا... جون واطسون".

"بحق كل ما هو مقدس. واطسون... إنه أنت بالفعل!".

نهض توماس هنري من مقعده من وراء مكتبه، وصافح يدي في حبور. لكني ذهلت من فوري عند رؤيتي لمدى شحوب بشرته، وعروق رقبته البارزة، ولُغدٍ لم يسبق لي رؤيته من قبل.

في ذاكرتي، كان توماس هنري شابًّا ممتلئًا بالحيوية، ورغم مصاعب الحياة التي ألقت بآثارها علينا جميعًا إلا أنني لم أتوقع رؤية زميلي يبدو أكبر بعقد من الزمن مما كان عليه عن آخر مرة رأيته فيها قبل عدة سنوات.

لاحظت أيضًا خلال مصافحته رعشة خفيفة، وهي علامة تشي في كثير من الأحيان بحاجة المرء إلى تناول كوبٍ من الماء.

بالإضافة إلى بروز ياقة رقبته، والتي تشير إلى أنه فقد مقدارًا كبيرًا من وزنه، وأنه لم يكلف نفسه عناء زيارة الخياط لإعادة ضبط مقاس سترته.

أصابتني رؤية توماس هنري بالحيرة. في ذاكرتي، كان دومًا ما يكون حريصًا فيما يخص محتويات خزانته، بل وعلى نحو مبالغ فيه أيضًا.

قلت: "يا له من مكتب رائع! إنه حقًّا مؤثث بشكل لطيف". ثم تابعت: "هنيئًا لك يا رجل!".

سألني رفيقي القديم وهو يعدل من جلسته على مقعده الدوار من خلف مكتبه: "وأنت ماذا تفعل هذه الأيام؟".

كم تبدو غرفة مكتبه غريبة! وذلك بالأخذ في الحسبان حالة إعداد المكان وما تثيره من إحساس طاغ على النفس... المكتب العملاق المصنوع من خشب السنديان بينما تمتد على جانبيه خزانات الكتب. الرفوف المكتظة بالأوراق، والكتب، والكتيبات. وكل تلك الكتب والأوراق باختلاف أنواعها التي تهدد بالانفجار في أي لحظة، لتغرق أرضية الغرفة بطبقة عميقة من فوضى الأوراق. والمقعدان الجلديان اللذان يواجهان المكتب، والأريكة المبطنة بشعر الخيل بجوارهما.

لم يكن بوسعي تمييز نوعية لون أثاث الغرفة تحت ضوء المصباح الخافت، هذا إن كانت حقًّا تمتلك أي طبقة من الألوان!

قلت: "للإجابة عن سؤالك، فإنني أعرض خدماتي الاستشارية هنا وهناك. وإلى جانب معاشي التقاعدي، يتوفر

لدي قدرٌ من المال يكفي لتغطية نفقاتي ويزيد. يمكنك القول إنني أتدبر أمري بطريقة جيدة".

قال: "تفضل يا واطسون. علينا أن نعوض ما فاتنا من أخبار في حديثنا".

ثم مال إلى الأمام، وتابع: لقد أُصبتَ أثناء خدمتك، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح... ولا يزال جرحي يؤلمني حتى الآن. كذلك لا يمكنني تجاهل الوهن الذي يسببه مرض الزحار. لن يمكنني العودة أبدًا للعمل في الخدمة العسكرية. وهذا لا يعني أنني مهتم بالعودة على الإطلاق".

"هذا صحيح... صحيح جدًّا".

ثم استعاد جلسته السابقة، ليستقر بشكل مريح في مقعده، وتابع: "لقد أصبتُ أيضًا، وفقدتُ نصف قدمي اليسرى. إنها تؤلمني حد الجحيم. في رأيي، أجد أن الملكة بالغت كثيرًا في أوامرها لنا. الملكة وبلدنا هذان سلبا كلَّ شيء مني... كل شيء أحببته وقدرته".

أدهشني كلامه هذا، إذ إنني اقتنعت منذ فترة طويلة أن عودتي على قيد الحياة -وبإصابة طفيفة- تعد أمرًا يستحق الاحتفال، وذلك نظرًا لأنني ساهمت شخصيًّا في حصر أعداد الموتى، أو الذين أصيبوا بجروح خطيرة لدرجة أن حياتهم لن

تعود أبدًا لما كانت عليه في السابق. ناهيك عن أن الجميع سيموتون عاجلًا أو آجلًا.

بالنسبة لي، أجد تضحية المرء بحياته لأجل بلاده تعد من أكثر الطرق نبلًا يمكن للمرء أن يطلبها للرحيل عن عالمنا.

على أقل تقدير، أعرف أنهم سيعدُّونني بطلًا إذا ما مت على أرض المعركة، وسينقش اسمي على نصب تذكاري في القرية الاسكتلندية التي ولدت بها. أجد هذا أفضل من الموت بسبب وقوع مجلد ضخم على رأسي!

وحتى لا يُفهم من كلامي أنني قد أبدو شجاعًا أكثر من اللازم. أعترف بأنه ساورتني العديد من المخاوف، ولكني شاهدت أعمالًا باسلة واستثنائية خلال فترة خدمتي في السلاح، جعلتني أضع مخاوفي تلك جانبًا، وأحزم أمري، وأن أجد أن الموت في خدمة هؤلاء الجنود الشبان والشجعان هو الاستغلال الأمثل لقدراتي.

لا شك أن توماس هنري تنبه إلى حيرتي بشأن آرائه تلك، إذ تابع موضحًا: "عندما عدت إلى البلاد وجدت حبيبة طفولتي وقد تزوجت من شخص آخر، ووجدت أخي قد تسبب في إفلاس أعمال العائلة، وبددتْ والدتي ثروة عائلتنا. باختصار شديد يا صديقي العزيز لقد وجدت كل شيء حاربت لأجله قد اختفى تمامًا قبل أن أتمكن من العودة لكل ما كنت أعده عزيزًا على قلبي. لا، لقد دُمرت حياتي تمامًا. لم أعد ذلك الصيد

الثمين الذي كنت عليه من قبل. وباتت مشيتي عرجاء. عندما أصيبتْ قدمي، وقعت على الأرض، وارتطمت كما ارتطم رأسي، فسبب ذلك لي صداعًا مزمنًا رهيبًا".

ثم فتح الدرج العلوي لمكتبه، ومد يده إلى الداخل، وسحب قلم حبر. كان جليًّا أن الهيكل الخارجي للقلم مصنوع من العقيق اليماني. وبالطبع، كان من الواضح أنه باهظ الثمن. أخذ يتلاعب به، ويقلبه بين أصابعه. ثم تابع: "لذلك، وبينما كان الابن الأكبر للملكة يعبث مع المطربات والممثلات والنساء المتزوجات بكافة أنواعهن، كنت أهدر قوتي وشبابي للقتال من أجل ثروته التي سيرثها، ولقبه، وأمه. هذا صحيح، الملكة فيكتوريا لا تعبأ بتضحياتنا، ما تهتم به هو ألا يزعجها أحد خلال فترة حدادها بينما يعبث ابنها في أرجاء لندن، ويبذر أموال أمتنا باليد الطليقة نفسها ذاتها التي تبذر بلا حساب حياة شباب أمتنا!".

كنت أجد صعوبة في إيجاد الكلمات المناسبة. فاجأتني شكاوى توماس هنري على حين غرة مني.

قلت: "يؤسفني سماع ذلك. لم أكن على علم بمصاعبك".

ولقد كنت فعلًا كذلك. غيرت من وضعية جلستي، وتساءلت في سريرتي: هل هذا الخطاب القاسي هو الغرض الذي أحضرني من أجله توماس هنري إلى هذا المستشفى؟ أن أسمعه يتحدث عن الأشياء التي فقدها؟

في الوقت الذي كنت فيه أتفهم سر حاجته لأذن تسمع وتتعاطف معه، إلا أنه بدأ يتنامى بداخلي شعور بالانزعاج.

اعتلت وجه توماس هنري علامات المرارة والحسرة فقال: "لولا المرتب الذي تدفعه لي هذه الوظيفة كنت لأكون معدمًا".

ثم حدق إلى قبضته التي أراحها على المكتب، بينما أخذ يطبق ويرخي قبضته على قلم الحبر، ثم تابع: "بدلًا من ذلك، ربما يقول البعض بأنني أملك بعض الحظوة، لأن لدي الفرصة لعلاج الأشخاص الأقل مني حظًّا".

فكرت أنه من الأفضل تجاوز هذا الموضع من الحديث بدلَ الاستماع إلى إسهابه عن حياته التعيسة. قلت: "هذا صحيح. ولهذا طلبت مقابلتي هنا؟ هل يمكنني أن أعرض عليك مساعدتي كطبيب؟ أن أصف لك شيئًا ما لعلاج صداعك؟".

"لا. أنا قادر تمامًا على الاعتناء بنفسي!".

وسرعان ما حدجني بنظرة من عينيه. على وجهه الذي هو على هيئة مجرفة، تتابع أغرب استعراض من المشاعر يمكن للمرء أن يراه على وجه أحدهم. ضم شفتيه في ابتسامة ساخرة، ولكنه سرعان ما اكتشف ذلك، فأرخى عضلات وجهه، ليتابع محاكاته الهزلية من سلوكيات الآداب العامة، التي يفترض أن يستقبل بها المرء ضيوفه.

"لا. لقد أردت أن أقابل صديقي القديم، كذلك لدي حالة غريبة أريد أن أسمع رأي آخر عنها. في الواقع، أثناء حضوري

لحفل غداء في نادي ديوجينيس، أشار صديقي إلى وجودك في المدينة. وأعتقد أنك كتبت بعض الخربشات يا بطل؟ لقد أخبرني أنك كاتب ذو أعمال منشورة، وأنك نشرت كتابًا مبتذلًا عن الجريمة، أو هكذا ما أخبرني به صديقي".

حدث ذلك بعد فترة قصيرة من نشري للكتاب الثاني عن شيرلوك هولمز، وعلى الرغم من أنه لا يمكنني الادعاء بأي حال من الأحوال بأنني ثروة قومية لبلادنا إلا أنني تلقيت قدرًا يسيرًا من الاستحسان على كتاباتي تلك. ولذلك، وبشكل يمكن تسويغه، خامرني دومًا إحساسٌ بالفخر نتيجة لمسعاي ذلك في الكتابة.

لذا، إن أسمع أحدهم يصفها بـ " الخربشة" أثُر حنقًا لأبعد مدًى. لقد سمعت من قبل عن هذا النوع من الأحاديث التي تفتقر لاحترام الكُتَّاب، وأي شخص لا يظهر احترامه للجهد الشاق والحثيث للكُتَّاب، يستحق ما يلاقيه من غضبتهم عليه. وهكذا، وجدت أنه قد حان دوري أنا الآخر لاستعراض موكب من المشاعر المتتابعة على وجهي. أظهرت غضبي، وحنقي، واستيائي، وإحساسي بالمهانة.

قال توماس هنري: "أوه، يا إلهي! لا بد إنني أسأت إليك بحديثي هذا. يا إلهي! هذا ليس قصدي على الإطلاق. أرجوك تقبل خالص اعتذاري".

تمتمت: "بالطبع. والآن، دعنا نعدْ إلى موضوعنا الأساسي. أود أن أرى مريضك الذي تحدثت عنه".

***

قادني توماس هنري عبر ممرات ممتلئة بالحجرات على كلا جانبيها، والتي تراوحت بين النظيفة والمنظمة ويقطنها مرضى وديعون بالقدر الكافي، وبين غرف أخرى مساحتها أكبر بقليل من الزنازين التي تقيد حيوانات وحشية. في نهاية جولتنا الحزينة تلك، وصلنا إلى زنزانة قيد بداخلها رجلٌ في قميص أبيض، بطريقة تتقاطع فيها ذراعاه فوق صدره لتمنعه عن الحركة تمامًا.

كان المريض مرتميًا على كومة من القش وعيناه مغلقتان. للوهلة الأولى، اعتقدت أن هذا المسكين ميتٌ. وظللت مؤمنًا بذلك حتى أخرج توماس هنري حلقة حديدية كبيرة تضم عددًا كبيرًا من المفاتيح من جيب بنطاله الخلفي ليفتح باب الزنزانة.

قال توماس هنري: "دكتور جون واطسون. من فضلك قابل السيد رين. لقد عُثر عليه يتجول في شوارع لندن. هو لم يعانِ من نقص حاد في الفيتامينات -والذي تسبب في تغيير لون جلده- فحسب، بل عانى أيضًا من حالة من الجفاف الحاد. راقب من فضلك".

ثم جلس القرفصاء، ودفع يده عبر سترة القيد المصنوعة من الكتان ليكشف عن ظهر إحدى يدي السيد رين.

بعد ذلك، قرص بلطف موضعًا من جلد السيد رين بين أصبعيه، ثم أفلته. وببطء، بطء شديد جدًّا، عاد جلد السيد رين إلى وضعيته السابقة.

كان الجلد الذي يتخذ هيئة "الخيمة" ثم يعود لحالته العادية ببطء، يعد طريقة شائعة وفعالة للتحقق من مستوى السوائل داخل جسد السيد رين إذا ما كانت منخفضة أم لا. وبالفعل، كان الرجل المسكين مصابًا بحالة من الجفاف الحاد.

نهض توماس هنري من موضعه بعد انتهائه من إجراء تلك التجربة بدون أن يتفوه بأي كلمة، مشى باتجاه القضبان الحديدية التي شكلت أحد جوانب الساحة التي ضمت بداخلها السيد رين، ثم أطلق تنهيدة، واستند إلى تلك القضبان.

بحكم العادة، انحنيت لأتفحص مريضي، أخذت أقيس نبضات قلب الرجل، فوجدتها بطيئة ومستقرة. كذلك كشف جلده عن أن درجة حرارته طبيعية، أما عيناه فقد كانتا كلتاهما منتفختين للغاية، لتشيا بأن أحدهم ضربه على وجهه مرارًا وتكرارًا. وكان لون بشرته المائل للصفرة يبعث على القلق.

بحذر شديد، وبينما أتمتم بكلمات تطمئنه، أخذت أتفحص جسده. في النهاية، اكتشفت -وعلى نحو مثير للدهشة- أن لديه بنية عضلية، أو لأكون دقيقًا كان يمتلك بنية عضلية فيما مضى ولكنها آخذة في التدهور الآن.

رفعت أحد جفنيه لأعلى، فكشف عن عينٍ ضبابية. انتفض الرجل في مرقده.

قلت آسفًا: "أيها السيد؟ أرجوك اعلم أنك بين أصدقائك".

كان رد السيد رين هو حماية وجهه في التجويف الموجود بين ذراعيه بأكبر قدر ممكن له.

قلت: "سيد رين، من فضلك أخبرني عن جروحك". بينما ربت على رأسه بيد حانية. كان شعر الرجل متسخًا، ولم يغسل، ولونه أسود فاحم.

"لا".

كان ذلك كل ما همس به.

حاولت حثه على الكلام لعدة مرات قبل أن أستسلم في النهاية.

نهضت من موضعي، وسألت: "توماس هنري، ما نوع الخلفية أو المعلومات التي تملكه عنه أو يمكنك مشاركتها معي؟".

انضم إليّ توماس هنري في التحديق إلى الرجل المقيد، والذي استلقى في تعب على كومة من القش أمامنا، ثم قال: "أحضره رجال الشرطة إلى هنا. عثروا عليه مختبئًا بين عدة براميل خشبية مخزنة خلف إحدى الحانات. وحينما سئل

عن اسمه قال إنه "رين"... هذا كل ما قاله. فكرنا في أن نطعمه ونجعله يكتسب بعضَ الوزن قبل أن نعيده إلى الشارع أو أحد الملاجئ، ولكن في الليلة الماضية حدث شيء غير عادي. ذلك الرجل -بهيئته الضعيفة والجلية للعيان- فاجأ أحد مساعدي التمريض، وتغلب عليه، وفرّ إلى خارج المستشفى. من الصعب تخيل ذلك، أليس كذلك؟ ومع هذا، فقد رأى مساعد تمريض آخر كل ما حدث! بالطبع حدث كل هذا قبل أن نلبسه سترة القيد.

حينما عُثر عليه، كان ذلك المخلوق مغطًّى بكل الأشياء المثيرة للاشمئزاز. دماء، وأحشاء، وغائط، وريش، وأعشاب، وكل هذا على سبيل المثال لا الحصر للبقايا التي وجدناها عند اغتساله. أيضًا، كان يعاني من خراج في مؤخرة رقبته. وكان ضخمًا إلى حد ما. اعتقدت أن محتويات ذلك الجرح المتقيح قد تعطينا تلميحًا عما يشكو منه. هل تساعدني في عملية تفريغه واستخراج المادة الكريهة داخل الخراج؟".

قلت: "بكل تأكيد".

خلال الفترة التي قضيتها في الخدمة، رأيت أكثر الأشياء المثيرة للاشمئزاز، ومع ذلك فقد كانت مثيرة. كوكبة من الطفيليات والالتهابات التي يمكنها أن تنمو وتزدهر تحت جلد المرء. تلك المستعمرات من الطفيليات -والتي إذا ما تركت على حالها- يمكنها أن تسرب السموم إلى داخل مجرى الدم،

لتُمرض جسد الشخص بأكمله. لم يكن لديّ أدنى شك أن خراجًا مثل الذي وصفه توماس هنري ينهك من الحالة الصحية للسيد رين شيئًا فشيئًا.

كان لدى توماس هنري غرفة جراحة مجهزة عند الطرف الآخر من الردهة. وبعد أن أعطى تعليماته لمساعد التمريض بإحضار السيد رين إلينا. جلسنا معًا لنتناقش عن نوع الإجراءات الطبية الذي سيكون أكثر فعالية.

***

بعد مرور ساعة، استقللت عربة تجرها الأحصنة في طريق عودتي إلى منزل رقم ٢٢١ ب في شارع بيكر. ومع الأخذ في الحسبان الفضول الشديد لشريكي في السكن، حملتُ في جيوب معطفي عددًا من الأظرف الورقية الشفافة والمصنوعة من الغلاسين. جمعت بداخلها عينات من جسد السيد رين، وذلك بعد أن طمأنت توماس هنري بأن هولمز شخص موثوق به، ولديه خبرة في مثل هذه الأمور، فسمح رفيقي القديم لي بأخذ تلك العينات إلى المحقق هولمز.

تساءلت ما الذي يمكنه أن يعثر عليه. بالتأكيد أن جزءًا من هذه العينات سيزودنا بمعلومات عن حالة السيد رين الغريبة.

بالمصادفة، وجدت هولمز يخرج من الشقة مسرعًا بينما كنت أنزل من العربة.

صاح هولمز مشيرًا ناحية العربة: "توقف! توقف في مكانك!". ثم تابع قائلًا: "واطسون، أقصدك بكلامي أنت والحوذي".

بعد ذلك، ركض من أمامي، وقفز إلى داخل العربة ليجلس على المقعد الخلفي. وعلى الرغم من اللياقة البدنية التي أظهرتها حركته الأكروباتية تلك، إلا أنه نجح أيضًا في الإمساك بي من ذراعي وجرني معه جزئيًّا إلى داخل العربة.

"واطسون، عليك أن تأتي معي".

بعد تردد لفترة قصيرة، عدت إلى داخل العربة، واستأنفت جلستي على البقعة الدافئة ذاتها من المقعد، والتي جلست عليها سابقًا. ما أن استعدت رباطة جأشي حتى سألته: "ما هو الأمر الهام للغاية لهذه الدرجة؟".

إلا أن هولمز كان مشغولًا بالنظر إلى العنوان الذي كتب على عجالة. وبطرقتين منه على سقف العربة، أشار إلى الحوذي بمواصلة المضي قدمًا. عندما توقفنا عند تقاطع الشارع، أعطى هولمز العنوان إلى الحوذي لنتابع رحلتنا تلك.

تمتم هولمز قائلًا: "إنهم يحاولون دفنها. إخفاءها. كنسها أسفل السجاد. هذا جنوني! لا يمكنك إخفاء سلسلة من جرائم القتل شديدة الدموية، والوحشية، وإسكات كل من شاهد تلك المذابح. لا يمكنك إخفاء هذه المأساة على عيون العامة. ستنجلي الحقيقة بشكل أو بآخر. كذلك، الأشخاص

المرتبطون بهذه الحوادث سيختارون أكثر جوانبها حساسية ويحسنون استغلالها لمصلحتهم. كان من الأفضل لهم أن يشركوا الصحافة معهم منذ اليوم الأول. أن يخبروهم بالحقيقة، وأن تجعلهم يعتمدون عليك! هكذا يمكنك التحكم فيما يحدث".

سألت: "عن ماذا تتحدث؟".

قال: "عن تلك الموجة من الهجمات الوحشية. ألم تسمع بما حدث بعد؟ عُثر على فتاة شابة أخرى في أحد الأزقة في شارع إيست إند. نُزع جزءٌ من أحشائها بدورها هي الأخرى. ليستراد أرسل إليّ هذه الملاحظة".

ثم لوح بيده كاشفًا عن ورقة مكرمشة بين أصابعه.

"وعن ماذا تدور هذه الملاحظة؟".

"ضحية أخرى يا واطسون. ذلك الوحش ذبح فتاة أخرى".

***

يمكنك أن تتوقع حدوث مذبحة في ساحة المعركة، ولكن ليس في شوارع هذه المدينة. كان المنظر من أمامنا مزعجًا إلى أقصى حد. ولولا قضائي فترة من خدمتي بمثابة طبيب ملحق بوحدة المشاة، لم أكن لأتحمل الصدمة والمشهد المخيف الذي طلب منا فحصه عن قرب.

وصل جي. ليستراد قبلنا، وهو مفتش من سكوتلاند يارد، شخص له وجه ابن عرس، قصير القامة، ويفتقر إلى المخيلة الخصبة.

تمت دعوة هولمز بمثابة محقق استشاري، وهو رجل يمتلك بصيرة حادة لا مثيل لها حينما يتعلق الأمر بالوسائل الحديثة في تحقيقات الجرائم. طلب هولمز مني مرافقته بمثابة طبيب، على افتراض تقديم تقييم مهنيٍّ عن أيٍّ ما كانت ستكون عليه طبيعة الفاجعة البشرية التي وقعت أحداثها اليوم.

سرعان ما أجيب عن تساؤلاتنا فور أن خطت أقدامنا خارج العربة.

ففي زقاق ضيق بين بنايتين، تجمهرت مجموعة من رجال الشرطة والمتفرجين حول جسد مسجًّى على أرضية الزقاق المصنوعة من الحجارة والحصى. وما أن اقتربنا منهم حتى انقسمت المجموعة إلى نصفين لتسمح لنا بالمرور. بعدها، كان رد فعلي غريزيًّا للغاية، إذ تمنيت على الفور لو أنهم لم يفسحوا لنا الطريق للمرور.

كان المخلوق الباعث للأسى أمامنا قد قطع رأسه بالكاد تقريبًا، وبدون استخدام ضربة قاطعة، وهو الشيء الذي لم يصادفني من قبل قط. التمع الغضروف الأبيض لقصبتها الهوائية تحت دمائها القرمزية الرطبة. ومزق لحمها الوردي بشكل غير متساو بطول رقبتها الطرية الغنية والمخضبة بلون

الدماء. تجمدت عيناها الزرقاوان من الرعب وفتحتا على آخرهما، بينما أخذ ثغرها الجميل وضعية مثالية لما يمكن أن يكون عليه حينما يصيح المرء بـ "أوه!" من الرعب المفاجئ. انتشرت خصلات شعرها الحريري ذي اللون الأصفر الشاحب على هيئة هالة من حول رأسها، كذلك كانت شبه مغمورة في برك صغيرة من الدماء الجافة.

ألقى شخص ذو روح طيبة، أو شخص جرحت مشاعره بلحاف حصان من فوقها ليغطي جسدها من أول ترقوة رقبتها وحتى قدميها. علقت باللحاف الرائحة النتنة للدماء، والبول، والبراز، وبدا كما لو كان غطاء من القذارة. كشفت لطخات من الدماء على أذرعها الممدودة أنها لم ترغب طواعية بالسفر إلى العالم الآخر. في الواقع، أفضت التمزقات المتقاطعة بطول ساعديها بأنها قاومت ببسالة من أجل حياتها.

أما بالنسبة لشرفها، فمن يمكنه أن يعرف؟ ففي الظروف العادية، يمكن لأي طبيب أن يفحص أعضاءها الداخلية ليحدد إذا ما كانت المرأة المسكينة لا تزال عذراء أو سيدة تقدم خدماتها لمن تشاء.

أقول: "في ظل الظروف العادية" لأن ما نراه لا يمكن تصنيفه بأي حال من الأحوال بالظروف العادية. مؤخرًا، تشاركت المعيشة مع هولمز في الشقة ذاتها، ولذلك كنت لا أزال أتعلم عن مدى نطاق عمله. جعلني هذا أعاني بعض الشيء في محاولة فهم ما الذي يفعله المحقق الاستشاري بالتحديد.

والآن، أجد نفسي أحدق إلى الجسد البارد الذي كان يعود ذات يومٍ لامرأة بينما أتساءل في نفسي؛ ما الذي يمكنني فعله بهذا الجسد المنتهك للمرأة الشابة!

حاولت سحب لحاف الحصان بعيدًا عن جسد الضحية بأصابع يدي حتى أحصل على رؤية أفضل لها. ومثلما توقعت، كانت الدماء متجلطة، وتعلقت بألياف اللحاف وهو ما تسبب في تصلب قماش اللحاف بها. بعد عدد من المحاولات الفاشلة، تخليت عن مناوراتي الدقيقة في سحب اللحاف، وانحنيت بالقرب من الجسد الممدد على الأرض. مددت يدي الوحيدة التي لبست بها قفازًا نحوها، وأمسكت بركن مغبر من اللحاف المصنوع من الصوف، وسحبته بعيدًا عن جذع الضحية الغارق في الدماء حتى أتمكن من فحصها.

صاح أحدهم: "توقف! توقف عندك".

ليظهر رجلٌ من لا مكان مرتدٍ حلة مفصلة وباهظة الثمن، أو هكذا ما بدت عليه. صرخ غاضبًا في وجه المحقق: "ليستراد؟ تحرك جانبًا! أخبر ذلك الرجل بأن يبتعد عن جسد الضحية!".

تبادلت نظرات جانبية مع هولمز، نظرات صامتة تؤكد فضوله مثلي بخصوص ذلك الشخص الذي قاطع عملنا. تركت لحاف الحصان المتسخ.

قال ليستراد في تملق: "أستميحك عذرًا يا غوف. ما لدينا هنا هو شابة صغيرة حسناء. أو هكذا ما كانت عليه قبل موتها.

لا أعرف تحديدًا كيف قتلت. ولدينا هنا الدكتور واطسون، وهو ربما يمكنه إخبارنا عن ذلك".

أضاف هولمز: "إن واطسون جراح. وعلى وجه الأخص، هو جراح أُثبتت خبراته العملية في ساحة المعركة".

قال الرجل ذو الملابس الأنيقة: "أنا لا أكترث البتة إذا ما كان واطسون هو الأدميرال نلسون بشحمه ولحمه. ولا حتى أنت يا ليستراد. إنني أمثل حكومة جلالة الملكة. ولذلك، فأني أمرت بالتحقق من أنك ستتوقف تمامًا عن إجراء أي نوع من الفحوصات". كان الرجل يلهث بسبب ركضه حتى يتمكن من إيقافنا. كانت مهمته تلك ملحة للدرجة التي جعلته يلفظ بكل تلك العبارات دون أن يتوقف حتى لاستعادة أنفاسه.

قال ليستراد معترضًا: "نحن لدينا مسرح جريمة هنا. وهذه هي منطقتي!".

قال الرجل: "هذا لا يهم أبدًا. منطقتك! ليستراد إنها منطقتك بسبب القوى التي استثمرت فيك وفي اسكوتلاند يارد. وحينما نقول إنك فقدت وظيفتك الشرفية... إذًا هذا ما سيكون عليه الأمر!". تغير أسلوب الرجل الوافد من شخص بالكاد يمكنه التقاط أنفاسه وفي عجلة من أمره، إلى شخص صارم ومتطلب.

إلى هذا اليوم، لست متيقنًا إذا ما أدرك ليستراد المسكين الإهانة المبطنة له عندما وصفت وظيفته بأنها "شرفية" أم لا. أيًّا

كان ما أدركه الشرطي، فقد سمع ما يكفيه من الحديث اللاذع ليقرر التراجع بعيدًا عن جثة الفتاة الميتة. أما أنا -على عكسه- فلم أكن مستعدًّا لأكون جبانًا مثله هكذا. لقد قطعت مسافة طويلة برفقة هولمز من أجل الوصول إلى هذا المكان، والآن بعد أن تعرضتُ للغش ومنعي من أداء واجبي بصفتي طبيبًا، شعرت بالغضب.

قلت: "انظر هنا. لقد أراد ليستراد الاستعانة برأي خبير في هذه القضية، وهذا ما أنوي فعله بالضبط". ولكن حينما تقدمت من جديد للإمساك باللحاف، أمسكني هولمز من أعلى ذراعي، وقال بنبرة صوت مخالفة لطبيعته الشخصية تمامًا: "لا تفعل". ثم استدار ناحية الوافد الجديد، وأضاف: "يا للأسف. كنت أتمنى أن أحظى بفرصة لشق بطنها لمعرفة محتويات وجبتها الأخيرة. ربما -وبسهولة تامة- دلنا ذلك إلى حانة محلية ما.

ازدردت ريقي. تسببت طريقة حديث هولمز بكل هدوء عن الطعام هكذا، في انتشار موجة جديدة من الإحساس بالغثيان بين أفراد الشرطة. اهتزت تفاحة آدم للجميع في اللحظة ذاتها تقريبًا، وتبدل لون بشرتهم من الوردي الصحي إلى الأخضر. لوحظ أحدهم لسلوكه الفظ؛ إذ دار على عاقبيه وركض مبتعدًا عنا، ولكنه لم يكن سريعًا بالقدر الكافي ليعفينا من الاستماع إلى صوت تقيئه العالي. غطيت فمي بيدي بسرعة لأمنع نفسي من الضحك. في الواقع، لدى الشرطي كل الحق في أن يشعر بالاشمئزاز. لقد رأيت العديد من الرجال

في لحظات الاحتضار، ولكني لم أرَ نساء صغيرات على هذه الحالة من قبل. ولأنني تعلمت في سن مبكرة أن أحمي النساء الموجودات في محيطي الشخصي. ولصياغة الأمر على نحو لطيف، فقد أثارت جثة الفتاة الميتة شعورًا داخلي بالانزعاج.

قال ذلك ليستراد بصوت عال موجهًا حديثه إلى الوافد الجديد: "أرأيت؟! لقد أحضرت هولمز ورفيقه لأنهما يتمتعان بتفكير جيد حينما يتعلق الأمر بالجرائم. ليسا أفضل مني بالتأكيد، ولكن لديهما مزاياهما الخاصة".

سأل هولمز: "كم وصل عددهن الآن؟". لم تكن هناك من حاجة إلى توضيح مغزى سؤاله؛ فالجميع يعرفون ما يقصده بذلك.

رفع ليستراد ذراعه في إشارة فاترة، وقال: "خمسة. على أقل تقدير، هذا الرقم هو ما نعتبره من أعمال ذلك الشرير. البعض يقول إن علينا تضمين المزيد. لست أدري".

علق هولمز متجاهلًا الرجل الذي قاطع تحقيقه قائلًا: "لقد قمت بعمل رائع في إخفاء تفاصيل هذه الجرائم على عيون الصحافة. هل هذا عادلٌ يا ليستراد؟ ألا يتعين على الناس أن يعرفوا أن هناك وحشًا يحوم في شوارع المدينة؟ أن هناك حيوانًا وحشيًّا طليقًا بيننا يتصيد النساء الصغيرات؟ أليس من العدل أن نحذر الجميع، وعلى وجه الأخص النساء الصغيرات، أن نخبرهن بتوخي الحذر عند الخروج من منازلهن؟".

قال ليستراد: "إنهن لسن سوى محض بائعات هوًى، لذلك لا تقلق نفسك كثيرًا. فشارع إيست إند يمتلئ بهن على آخره. يمكنك رؤيتهن في كل مكان تذهب إليه. كم هذا مثيرٌ للاشمئزاز! أقول لك، من الأفضل أن أزج بهن جميعًا في السجن".

حدق هولمز نحوه في غضب وقال: "بلى يمكنك أن تفعل ذلك، فقط إذا ما كان بوسعك أن تقبض على زبائنهن أيضًا. انظر إليها! إنها بالكاد تزن شيئًا. هل تعتقد حقًّا أنها تستمتع ببيع جسدها لمن يدفع أعلى سعر؟ هل تبدو لك كما لو أنها تحظى بحياة سهلة؟ ماذا تقول؟ هل يمكنك رؤية أي شيء مهما كان صغيرًا يجعلها تتطلع إلى حياتها مستقبلًا -مع الأخذ في الحسبان جسدها الهزيل والقذارة التي تغطيها- عدا العيش والنجاة ليوم آخر؟ والآن شخص خسيس وحقير سلبها ذلك أيضًا. جاك السفاح... بلى! لو كان قتلها بضربة حاسمة وسريعة، وأفقدها وعيها، لكان ملاكًا للرحمة. كنت لأضمن ذلك له. ولكنه لم يفعل. لقد تلاعب بها كما يتلاعب القط بالفأر. عدد محدود جدًّا من قاطني شارع إيست إند يمكنهم العيش لما بعد سن الثلاثين، ولكن هذه السيدة الشابة لم تحظَ بتلك الفرصة بأية حال!".

حاولت أن أضيف شيئًا أقوله، ولكني وجدت هولمز قد وصل لأقصى حده. فرمق الرجل الذي يرتدي الملابس الأنيقة -والذي قاطعنا من قبل- بنظرة غاضبة، ثم قال: "هيا

بنا يا واطسون. هؤلاء الرجال لا يحتاجون إلى مساعدتنا. إنهم يملكون زمام الأمور جيدًا. هذه هي الضحية الخامسة التي تم قتلها على يد القاتل نفسه. ربما لا يزال هناك المزيد على قائمته أيضًا، ولكنهم اختاروا إلصاق تلك الجرائم بهذا الشيطان. هذه الضحية التي لدينا هنا تم ذبحها مؤخرًا، ولكن الآلية العظيمة لمنع الجرائم البريطانية لا تحتاج إلى مساعدتنا".

على مضض، درت على عقبي للرحيل برفقة صديقي، وحالما فعلتُ، وجدت هولمز يلوح بقبضته ناحية ليستراد ومشرفه: "أيها الحمقى! أنتم لا شيء سوى درجة زلقة أمامها على سلم الحياة. ليستراد؟ لقد أحضرتني إلى هنا لأرى تلك المسكينة، لتجعلني أشعر بقلة الحيلة مثلك... ولكنْ كلانا يعلم أن لديك كل الوسائل التي تحتاجها. المشكلة ليست في أنك لا تستطيع الإمساك بذلك المجنون. بل المشكلة أنك لا تهتم بفعل ذلك! بل تحبذ أن ترى نساء مثلها يمتن!".

الفصل الثاني

كان وقت وجبة الغداء قد مر، وكما لو كان هناك اتفاق مسبق فيما بيننا، لم نشعر بحماسة لتذوق الطعام الذي تقدمه الحانات المنتشرة على طول شارع إيست إند. لوح هولمز بيده ليوقف عربة أجرة. وبعد أن جلسنا على مقاعدنا، طرق بحدة على سطح العربة من الداخل، وصاح: "إلى نادي ديوجينيس".

التفتُّ جانبًا لأحدق إلى خارج النافذة حتى لا يفضح وجهي مدى صدمتي و(سعادتي). كنت أجد الأمر مثيرًا للحيرة أن شخصًا مقتصدًا في معيشته مثل هولمز يمكنه أن يتحمل مصاريف عضوية واحدة من أكثر المؤسسات الخاصة غلاءً في لندن. ولكن بإعادة التفكير في الأمر مجددًا، فإن هولمز غالبًا ما يكون ممتلئًا بالمفاجآت. ففي كل صباح، أفتح عينيّ، وأتساءل: "ما الذي سيفعله اليوم؟". ربما أغادر غرفتي المريحة لأجده منحنيًا فوق طاولة من المواد الكيميائية، مستغرقًا في خضم إحدى تجاربه التي يمكنها أن تسقط المنزل فوق رؤوسنا. أو ربما أجده جالسًا خلف كومة من الكتب المفتوحة. في إحدى

المرات التي لا يمكن نسيانها، وجدته يجري تجربة على يد مقطوعة لضحية ما، في محاولة للتحقق إذا ما كان يمكن العثور على آثار بارود على أصابع الضحية.

كان من حسن حظنا أن مالكة المنزل، السيدة هدسون شخصية ودود للغاية. ولسبب ما لا يمكنني فهمه، كانت تعتبر هولمز شخصًا غريب الأطوار ومسليًا. حتى الحوادث الصغيرة التي يتسبب فيها، مثل حادثة إشعال النيران في وسادة تم تطريزها بالإبرة؛ لأنه وضع غليونه المشتعل في جيبه الخلفي، لم تستدع سوى ردة فعل صامتة من مالكة المنزل العزيزة. فحينما رأت الوسادة المحترقة لم يكن منها سوى أن تهز رأسها في تعجب وتقول: "لقد أفسدتها بصورة ممتازة يا سيد هولمز".

وحينما ظننت أنها ربما ستهجم عليه مثلما يهجم الديك على آخر في حلبة مصارعة الديكة، ابتسمت وتابعت: "لم أهتم بهذه الوسادة قط. كانت عمتي هي من قامت بتطريزها، ولكنها كانت تتذمر دومًا مع كل غرزة خاطتها بإبرتها. لم يكن بمقدوري تحمل النظر إلى تلك الوسادة دون تذكر كم كانت عمتي صارمة. أخيرًا سأتخلص منها. أتدري ماذا! دعني أرمِها خارجًا".

بدأت الدقات العالية لساعة بيج بين ترتفع شيئًا فشيئًا أثناء اقترابنا من نادي ديوجينيس. ولأتجنب التسبب في إحراج نفسي لاحقًا، غمغمت بيني وبين نفسي في اعتراض مكتوم

على قائمة الأسعار. نظر هولمز إليّ نظرة حائرة، وحرك رأسه في دهشة، وقال: "اعتقدت أنك تعلم!".

"أعلم ماذا؟". بدأ ضغط دمائي بالارتفاع. فهذا النوع من العبارات المباغتة لم يكن محببًا لي قط، هذا لو أردتني أن أصف ذلك بعبارة لطيفة. ومع ذلك، ها أنا ذا يخامرني إحساس بعدم الارتياح.

"لا شيء يا صديقي العزيز. هذا خطئي بالكامل. لقد تجاهلت إخبارك بأن أخي مايكروف هو أحد مؤسسي النادي. وبما أنني أخطط لمناقشته عن جريمة القتل التي شاهدناها، فإنني لا أشعر بالحرج في الحصول على وجبة جيدة ووضع الفاتورة على حسابه".

"أليس من الأفضل سؤاله أولًا؟". أحسست بالصدمة من حديثه. فعلى الرغم من أن الطعام هناك رائعٌ، إلا أنني لا يمكنني تسويغ أسعاره المبالغ فيها. كذلك صدمتني حقيقة أن هولمز يخطط لتمرير ثمن هذه الوجبة على حساب أخيه.

قال هولمز ضاحكًا وهو يحاول طمأنتي: "لا حاجة لسؤاله". ثم خرج من العربة وأنا من ورائه، فتابع قائلًا: "بالمناسبة، لقد رتبت لك الحصول على عضوية في النادي".

لم أدرِ ماذا أقول. وعندما استعدت رباطة جأشي، قلت متسائلًا: "ولكن ماذا عن رسوم الانضمام للنادي؟!".

قال هولمز: "تم التكفل بها. فما تقدمه من معاونة قديرة تستحق أكثر من هذا المبلغ الزهيد. ثق بي في هذا الأمر. لقد أعطى أخي موافقته بالفعل".

كنت أود لو كان في مقدوري الاستماع لمحادثتهما تلك على وجه الخصوص.

تناقش العديد بشأن الزخارف التي يتميز بها نادي ديوجينيس، ولكن بالنسبة لمن يفضل منكم الاستماع إلى تقرير مباشر، فاسمحوا لي بإعطائكم صورة عامة عن الواجهة الكلاسيكية للنادي: فالسلالم مصنوعة من الحجر الجيري، والأبواب الأمامية مصنوعة من أشجار الماهوجني الثقيلة، وملحق بها مطرقة نحاسية، كانت الردهة مصنوعة من الرخام الرائع، أما بالنسبة لكبير الخدم (أو بتعبير أدق المدير؛ بما أننا داخل النادي) فقد استقبلنا كما لو كنا صديقيه اللذين لم يرهما منذ زمن طويل. بيد أنه نبهنا بأن نسجل أسماءنا في دفتر الزائرين. طلبنا منه إعداد طاولة ووجبة الغداء، فما كان منه إلا أن وعدنا بأنه خلال فترة انتظار قصيرة، ستصبح هناك طاولة متاحة لنا في صالة الغداء.

كان من المفترض أن تلقى محاضرة ما في إحدى غرف الاجتماعات. لقد كان متاحًا حضور مثل هذه الفعاليَّات لغير الأعضاء من الضيوف. وتحت رعاية شيرلوك هولمز، حظيت بفرصة للاستماع إلى عدة آراء متنوعة. أما اليوم، وبينما كنا

ننتظر الانتهاء من إعداد مائدتنا، انجذبنا إلى غرفة المحاضرات لاحتمالية الاستماع إلى محاضرة أحد السويديين، وهو إس. إيه. أندريه، والذي تحدث بإسهاب عن ارتباط التغيرات المتزامنة بين الكهرباء الجوية والمغناطيسية الأرضية. هو رجل مذهل يتمتع بلياقة بدنية عالية، ذكرني بأحد آلهة النورديين. كانت عيناه زرقاوين مائلتين للرمادي، وأنفه ضخم، وملامحه وسيمة، تميزه عن غيره في غرفة مليئة بالرجال. كان المستكشف هادئًا للغاية لدرجة أنه بدا كما لو كان لا يكترث لما يدور حوله. سافر أندريه حول أوروبا على أمل الكشف عن اختراعات يمكنها أن تساهم في الحياة اليومية العادية. من خلال هذا، يمكن اعتباره واحدًا من المبشرين بالعلوم إلى حد ما، لأنه بالرغم من سلوكه الهادئ إلا أنه يتمتع بشخصية قوية. استمعت وهولمز إليه بينما يتم إعداد طاولتنا. عند مرحلة ما من حديثه، مال هولمز ناحيتي بالقدر الذي يسمح له أن يهمس: "سمعت أنه يخطط لاستكشاف القطب الشمالي".

همست بدوري: "على قدميه؟". فهذا النوع من الرحلات الاستكشافية دومًا ما ينتهي بمأساة.

"بل بواسطة منطاد هواء".

نقر نادل ما على كتف هولمز كما لو كانت إشارة صامتة لقول إننا يجب أن نذهب إلى صالة الطعام ونجلس إلى طاولتنا. تم اقتيادنا إلى طاولة الملكة آن المخصصة لفردين في

وسط غرفة الطعام التي غمرتها أشعة الشمس. سرعان ما ظهر خادم ما، وبطريقة درامية، فض مناديل المائدة، ثم وضعها على حجرنا. كان أمامي طقم طاولة صيني مصنوع من البورسلين، مزين بشعار النادي. كانت الأناقة التي يتمتع بها المكان قد تم حسابها بدقة، لتهدئ من روع الأعضاء بعد معاناتهم أثناء أشغالهم في العالم الموجود خارج هذه الجدران.

لم يمر وقت طويل حتى بدأنا نستمتع بشوربة كريمية لذيذة من الكُرَّاث، أُتبِعَت بقطع من لحم الضأن، وجبنة وينسليديل، وشرائح من الخبز الشهية. وعندما انتهينا من وجبتنا، رفع هولمز حاجبه على نحو لعوب، وقال: "أعتقد أنه من الضروري زيارة مايكروفت".

قلت: "بالفعل". على الرغم من أنني وهولمز لم نكن شريكي سكن لفترة طويلة إلا أن كلينا وقع بسهولة في عادات الحديث التي يتميز بها الأزواج غالبًا. أعني، كنا فقط بحاجة إلى إيضاح أفكارنا دون الحاجة إلى قول تفسيرات طويلة وشاملة.

اتبعنا موظف الاستقبال من صالة الطعام إلى مدخل موجود تحت مجموعة من السلالم، والذي يقود بدوره إلى مجموعة من السلالم الأخرى. في النهاية، عبرنا ردهة ناحية فسحة رُص فيها عدد من المكاتب المتقاربة بعضها من بعض. بالنسبة للأشخاص الذين قرؤوا مغامراتنا الأخيرة

سيلاحظون أن مخطط هذا الطابق المهمل تغير كثيرًا على مدار السنين. آنذاك، كانت تلك المكاتب تحت الأرضية مخصصة للأشخاص الذين يعملون من وراء الستار، ويديرون الشؤون الحكومية، كانت أشبه بتجمع لخلدان حائرة عن نظام حكومي محكم. اليوم، يشغل مايكروفت مكتبًا زجاجيًّا في وسط خلية النحل من الموظفين الدؤوبين، ولكن في وقت هذه المغامرة، لم يكن قد تسلق بعد إلى موقعه المرموق الحالي حيث يحظى باستحسان جلالة الملكة.

ومع ذلك، فمنذ أيامه الأولى في منصبه، وخلال عمله لمصلحة حكومتنا، عُرف عنه أنه تنتظره أمور عظيمة. في واقع الأمر، أنا على يقين تام من أنه عُرض عليهما مناصب إدارية في الحكومة بعد أن أظهرا براعتهما خلال دراستهما. بالتأكيد ساهم كلٌّ من قدرات والدهما وذكاء والدتهما مبكرًا في إعدادهما لفعل أمور عظيمة، ناهيك عن لقب عائلتهم الذي لا تشوبه شائبة. ولكن شيرلوك اختار أن يشق طريقه الخاص بنفسه، بينما وافق مايكروفت على الكدح من خلال طريق مألوف. أومن بأن هذه هي النقطة التي اختلفت عندها طموحات وأهداف كلا الأخوين، حيث لم يتمكن أيٌّ منهما من أن يفهم أو يقدر اختيارات الآخر تمامًا.

بهذه الطريقة، لم يكن شيرلوك منبهرًا أو منزعجًا من ترقي أخيه في سلم الحياة السياسية، وبالمثل لم يشعر مايكروفت بأي إحساس بالتقدير عند وضع إنجازات شقيقه في الاعتبار.

لذلك، فإن هذه البيئة المثيرة للإعجاب من حولنا، لم تثنِ هولمز عن مهمتنا الأساسية. اقترب من مكتب أخيه في خطوات سريعة لتمنع الآخرين من اعتراض طريقنا. سمع مايكروفت وقع أقدام أخيه، فرفع رأسه ليحدق نحونا من وراء كومة مخيفة من الأوراق. قال بنبرة غير مرحبة: "ما هذا؟".

قال هولمز: "نحتاج إلى أن نتحدث". ثم انتظرنا في موضعنا.

كان مايكروفت ليكون مخطئًا تمامًا لو ظن أنه في مقدوره خداع أخيه إذا ما استمر في تجاهلنا هكذا. بعد مرور فترة انتظار بدت لا نهائية، ولكنها فعليًّا كانت مجرد بضع دقائق، مال مايكروفت برأسه، وحرك ذقنه الممتلئ كمؤشر ليحثنا على الحركة باتجاه باب مغلق، لم تعلق عليه أي لافتات، شكل ثلثيه السفليين ألواح خشبية ثقيلة مصنوعة من شجرة البلوط بينما شكل ثلثه العلوي نافذة زجاجية يمكن من خلالها رؤية ستارة متحركة تملأ بقية الفراغ. وقف هولمز في موضعه كالتمثال بدلًا من قيادتنا ناحية الغرفة، إشارة إلى أن أخاه هو من يتوجب عليه النهوض من مكانه ومرافقتنا إلى الغرفة، وذلك حتى لا نجد أنفسنا نضيع وقتنا عبثًا في انتظار مايكروفت وهو يؤدي بعض الأعمال التافهة ليثبت بها أهمية مكانته. عندما أدرك أن حيلته قد كشفت، لم يكن منه سوى أن يهمهم معترضًا، ويطرق قلمه الرصاص بقوة على مكتبه. صدر عنه صوت شخير كثور شرس، وبصعوبة نهض من مقعده، وتوجه ناحية الباب المغلق.

بمجرد دخولنا إلى الغرفة، والتي كانت خالية سوى من طاولة متهالكة، وأربعة كراسي خشبية غير مريحة؛ توقفنا في موضعنا لمراقبة مايكروفت وهو يغلق المزلاج، ويخفض الستارة المتحركة لأسفل؛ لينبئ الآخرين بأن الغرفة مشغولة. لم تكن الغرفة مصممة لأن تكون مكانًا مريحًا، أو للدقة، اكتشفتُ ذلك حينما جلست على المقعد الخشبي الصلب. همس شيرلوك بصوت يكاد يكون مسموعًا: "يا له من مكان تعِس... لا أحد يمكنه أن يشعر بالنعاس هنا".

جر مايكروفت مقعدًا خشبيًّا بعيدًا عن الطاولة، ليجلس عليه، ثم حدق ناحية هولمز، وقال: "لتقل ما عندك بسرعة، فأنت تقاطع عملي".

قال شيرلوك بنبرة هادئة: "هذا صحيح. وأنت أيضًا قاطعت يومي بإرسالك لـ (ليستراد) ليطلب مني الذهاب إلى شارع إيست إند. إنني أعلم حيلك جيدًا يا أخي. بالإضافة إلى أنني أحضرت طبيبًا فاضلًا معي، وهو ما ضيع من وقته أيضًا".

قال مايكروفت هازئًا: "حقًّا؟ ولماذا ترى ذلك تضييعًا للوقت؟".

"بسبب ظهور رئيس ليستراد، وأمرنا بالتوقف عما نفعله".

طفت العديد من المشاعر المختلفة على وجه مايكروفت الممتلئ، وعلى الرغم من أن ذلك لم يدم سوى عدة لحظات إلا أنني تمكنت من رؤيتها.

تابع هولمز: "إذًا ما هي لُعبتك هنا يا أخي؟".

ندت عن مايكروفت ابتسامة مصطنعة. كان وجهه الممتلئ يظهر تشابهًا طفيفًا مع أخيه، ولكن هولمز كان يتميز بأنف يشبه منقار الصقر يعطيه صفة خارقة، وهو ما يفتقده. وعلى الرغم من سرعة بديهة مايكروفت إلا أنه دومًا ما يفشل في الاحتفاظ برباطة جأشه أمام أخيه. قال: "ماذا؟ هل تتهمني بإرسالك في مهمة عديمة الجدوى؟ أظن أنك تقدم على هذا النوع من المهمات بدون أي مساعدة مني".

تابع شيرلوك قائلًا: "لا تحاول تجنب الإجابة عن سؤالي يا أخي. لماذا تريدني أن أرى تلك المرأة المسكينة دون أن أفعل أي شيء بخصوص موتها المأسوي؟".

قال مايكروفت بصوت أشبه بالصفير: "كنت آمل أن تساعد الشرطة المحلية، ولكن بعد رحيلك بفترة وجيزة، وصلت إلي مذكرة أُمرت من خلالها بإبعادك عن التحقيق في هذه القضية. كانت الرسالة حرفيًّا تقول: أبعد أخاك المتطفل، ومساعده الأعرج عن هذه القضية، وإلا...!".

كرر شيرلوك هذا في عدم تصديق: "مساعده الأعرج؟ هل هذا ما يوصف به أبطال الحرب في هذه الأيام؟ يا لها من طريقة تظهر من خلالها أنت ورفاقك حبكم للوطن! يا لامتنانكم! أتساءل ماذا ستقول عائلات الجنود القتلى حينما يسمعونكم وأنتم تقللون من قدر بسالة أبنائهم!".

كنت في حاجة ماسة إلى قيلولة بعد وجبتنا الضخمة والمحاضرة التثقيفية الطويلة، ولكني وجدت الحديث الذي يدور بينهما مهينًا، فقلت: "توقفا! كلاكما. شيرلوك، لتقل ما يتوجب عليك قوله، ودعنا نرحل من هنا. إن كان أخوك يحمل تقديرًا ضئيلًا لمجهوداتي الجُندية، إذًا ربما يمكنه الخدمة بنفسه في الجيش خلال المناوشات القادمة. وإلى ذلك الحين، سأتجنب المشاركة في ذلك. لقد تم وصفي بما هو أسوأ من ذلك من قبل رجال أفضل منهم".

فغر مايكروفت فاهه عن آخره. إذ أحدثت إهانتي له التأثير المطلوب. ولكن يجب أن أعترف أنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه واعتذر عن إهانته لي. أشحت بيدي أمام اعتذراه غير الصادق، وتابعت: "أخبرنا صراحة يا مايكروفت... ما الذي كنت تأمل بتحقيقه من جعل ليستراد يطلب من هولمز الذهاب إلى شارع إيست إند ثم إبعادنا بعد ذلك؟".

انكمش مايكروفت قليلًا في مقعده، وقال: "كنت قد أرسلت دعوتي إلى أخي بالفعل عندما جاءني أمر من أعلى بمنعكما من التحقيق في هذه القضية".

تبادلت وهولمز نظرات من الحيرة وعدم التصديق. قال هولمز: "من أعلى؟ ماذا تعني بكلامك هذا؟".

قال مايكروفت ساخرًا: "ما تعنيه تمامًا. أشخاص أعلى مني في القيادة أرسلوا إلي مرسومًا، أو أمرًا إذا ما أردت وصفه

بذلك، يطلب إبعادك عن التحقيق فى موت النساء الصغيرات في شارع إيست إند".

أشخاص أعلى مني في القيادة؟ علقت هذه العبارة في ذهني تمامًا إذ إن هناك عددًا محدودًا جدًا مؤهلين بأن يكون لديهم سلطة أعلى من مايكروفت.

فكرت: من يكونون؟ ولماذا يفعلون ذلك؟ ولماذا يمنعوننا من تقديم المساعدة؟ يا لهذا الهراء. نهضت من مكاني، وقلت: "دعني أخبرك بذلك... هذا العجوز الأعرج لن يقف متفرجًا ليسمح بوحش يجول في الشوارع. حتى لو كانت ضحاياه من النساء من ذوات السمعة السيئة أو النسب المتدني. إنهن يستحققن أفضل من ذلك. أنت وشاكلتك من المسؤولين يجب أن تخجلوا من أنفسكم! كيف تجرؤون على أن تطلبوا مني عدم التدخل حينما لا تهتمون بهؤلاء النساء المسكينات البتة!".

قال مايكروفت: "تمالك أعصابك يا دكتور، وحاول أن تجعل حديثنا متحضرًا. هناك العديد من الأسباب لطلب إيقافكما عن التحقيق. وليس لدي أدنى شك في كونها أسبابًا جيدة. هناك أوقات يجب السماح فيها لمن هم في السلطة بأن يفعلوا كما يرون. بالتأكيد، بما أنك ذو خلفية عسكرية، فأنت تدرك ذلك جيدًا!".

حك هولمز ذقنه، وقال: "إذًا أنت تقول إننا يجب أن نقف جانبًا لأن هناك شخصًا آخر، شخصًا يفوقك مكانة، أمرك

بذلك؟ أم أنك اتخذت هذا القرار بمحض إرادتك على أمل أن يتعثر رئيسك ويفشل؟ هل هذه هي اللعبة التي تلعبها يا أخي العزيز؟".

قلت في إصرار: "ولكن ماذا عن النساء؟". لم أعد للجلوس مجددًا على مقعدي ساعتها، لذلك رفعت المقعد لأعلى وألقيته على الأرض كطريقة للتشديد على وجهة نظري: "بينما أنت ورؤساؤك تأخذون وقتكم في تنفيذ خططكم هذه؛ فإن هؤلاء النسوة محكوم عليهن بالموت!".

رد مايكروفت: "لا على الإطلاق. في الواقع، يمكنني أن أؤكد لك أن بقاءكما بعيدًا عن هذه القضية سيسهم في حل هذه الفوضى في وقت أسرع مما سيكون عليه إذا ما تدخلتما فيها. هناك قوًى تعمل في الخفاء هنا، ونحن في حاجة للتعامل معهم بحرص شديد. ولو تسببتما في إخافتهم أو إذا ما شموا رائحتكما في الأرجاء، فستدفعانهم إلى البحث عن مخبأ، أو الاختفاء تحت الأرض، وعندها لن أتمكن من جعلهم يغادرون جحورهم".

فكرت. آها! وقع مايكروفت بلسانه. لقد قال: "لن أتمكن" بدلًا من: "لن نتمكن". إذًا هو يخطط ذلك بنفسه!

كان هذا منطقيًّا بعض الشيء. ربما ليس بشكل كبير، ولكنه كان كافيًا لطمأنتي وشيرلوك بأنه لم يتم إبعادنا عن القضية لسبب غير حقيقي تمامًا. نظر شيرلوك إلي بنظرة راجية لكي

أتراجع عن موقفي. كان ردي صامتًا ولكنه محمل بالتحدي: فقط لو وعدتني بأن العدالة ستأخذ مجراها.

في نهاية المطاف، كان هذا هو أفضل حل يمكننا أن نأمل حدوثه.



الفصل الثالث

خارج النادي، تناقشنا عن أفكارنا الخاصة قليلًا. لوح صديقي باتجاه عربة أجرة قادمة في طريقنا. وجه سائق العربة فرسه من سلالة الكميت -والذي كان يختال في حركته- ناحية حافة الرصيف. فتح باب العربة، ليخرج منها وزير الدفاع اللورد ريجينالد هيسلوب، والقبطان جوناثان بيكرينغ، وهو ضابط بحري معروف بآرائه الحادة عن السيادة البريطانية. وبالرغم من أنني لم أقابلهما بشكل شخصي من قبل إلا أن صورهما كانت تظهر بشكل دوري على صفحات صحيفة ذا تايمز. ولكن بالمقارنة بصوره، فقد كان هيسلوب ممتلئًا أكثر مما توقعت، وغطى صلعته بقبعة من اللباد من طراز البَوْلَر. وعلى الرغم من ارتدائه لسترة وبنطال فاخرين إلا أنه كان يمكن للمرء ملاحظة أن جسده ممتلئ بالشحم أكثر من اللحم. باختصار، كان مظهره العكس تمامًا لما يجب أن يكون عليه الرجل المناسب لخوض المعارك. أما بيكرينغ فقد كان ذا بنية عضلية تعطي انطباعًا بأنه ذو شخصية قيادية، ووجهه مزين بسالفين مشذبين وطويلين يصلان إلى شاربه الذي فتل

حافتيه لأعلى، ولديه عينان حادتان لدرجة أن حدقتيه بدتا كما لو كانتا على هيئة حد سكين. أما الجزء القليل المتبقي الظاهر من فمه، والذي يمكن للمرء رؤيته، فقد شكل تعبيرًا متجهمًا يشي بقسوته. تحرك الرجلان بطريقة تعلن عن "أننا شخصان مهمان جدًّا جدًّا".

ألقى هيسلوب نظرة فضولية ناحيتنا قبل أن يقرر أننا لا نستحق وقته أو اهتمامه. بدا كأنه قد تعرف على هولمز حينما مر من أمامنا.

تمتم هولمز: "هيسلوب أحد معارف أبي القدامى. هذا مثير للفضول. أتساءل ما الذي أتى بهما إلى هنا؟ لقد فوتا موعد المحاضرة، وتجاوز الوقت وجبة الغداء. ولا أتذكر أنني رأيت أسماءهما في سجل الأعضاء".

كان يجب ألا أتفاجأ من فكرة أن هولمز لديه صلاحية غير محدودة للوصول إلى سجل أعضاء النادي، أو أنه يتفحصها بشكل دوري. ومع ذلك لم يمنع ذلك شعوري بالدهشة. ولكني سرعان ما استعدت رباطة جأشي. وبنبرة لعوب، همست قائلًا: "هل نذهب لنرى سبب الترحيب بهما هنا؟".

قال هولمز: "فكرة عظيمة".

ثم أشار لسائق العربة بأن يمضي في طريقه. وبمجرد أن أصبح الشارع خاليًا، أسرعنا إلى الوجهة الخلفية للبناية التي تضم نادي ديوجينيس. تبعت هولمز للتسلل خلف البناية،

والذي طرق بدوره على باب المطبخ. أطل نادل برأسه مذهولًا، وقال ببطء: "نعــ... نــعم؟".

قال هولمز: "أنا شقيق مايكروفت هولمز. وقد زرته قبل قليل في مكتبه بالطابق السفلي. لقد نسيت عصا المشي في مكتبه. لتفسح لي الطريق من فضلك". ثم تابع طريقه قدمًا على نحو جعل معه الرجل يمتلك عددًا قليلًا من الخيارات المحدودة. فعليًّا!

من ناحيتي، كنت راضيًا بمتابعة خطا صديقي بينما أخذنا ندفع أنفسنا عبر أفراد طاقم المطبخ المذهولين. كانت الرائحة اللذيذة للبصل المطبوخ والأعشاب تطفو في الأجواء من حولنا بينما كنا نهرع عبر الباب الدوار الذي يستخدم في توصيل الطعام. بلا أدنى شك، كنا نرى معاينة مباشرة لما ستكون عليه وجبة العشاء. أسرعنا عبر الرواق، وتفادينا الخدم الذي يحملون الصواني والمشروبات والمقبلات الصغيرة. في ظروف أخرى، كان ليعد منظر هولمز مضحكًا، وهو يتحرك متسللًا هكذا عبر الرواق، ولكني لم أجرؤ على الضحك بعد الأخذ في الحسبان غرابة ما نحن بصدد القيام به. عوضًا عن ذلك، قلدت أفعال صديقي حتى وصلنا أمام باب غرفة الاجتماعات، والتي تشبه تلك الغرف التي يقام بها محاضرات من قبل محركي البالونات الطائرة، ولكنها كانت أصغر بكثير. اقتربنا بحذر نحو الباب، وكورنا أيدينا بجوار آذاننا حتى نتمكن من الإنصات بشكل جيد.

قال هيسلوب بنبرة شديدة موجهًا حديثه إلى مايكروفت: "هل يمكنك أن تؤكد لي يا سيد هولمز أن شقيقك لن يتدخل؟ بعد كل شيء، هذا أمر يخص الأمن القومي".

"سيادة الوزير... لو أفصحتَ عن أسبابك، فربما يمكنني أن أخفف من...". صاح بيكرينغ: "أسبابه؟ هل أنت معتوه يا هولمز؟ إنه وزير الدفاع وليس محض مرؤوس ما. أنت لست في موضع يسمح لك بالسؤال عن أسبابه. وظيفتك هي أن تتلقى الأوامر وتنفذها!".

"وهذا ما سأفعله. ولكني أشرح فقط صعوبة مهمتي التي تتعلق بشقيقي الذي ليس سوى محض شخص مدني".

قال وزير الدفاع في انفعال: "هولمز... هذا الأمر يتعلق بالأمن الوطني. هل تشكك بي، أو في قرارتي، أو بالقرارت الملكية؟ هل لديك أدنى فكرة عن المشكلات التي ربما نواجهها...".

لم نستطع الاستماع لبقية حديثه إذ أوقع خادم إناءً؛ أحدث رنينًا مشابهًا لكل النغمات المتنوعة التي تتميز بها ساعة بيج بنج.

رد مايكروفت، وبنبرة تعبر عن اعتراضه الطفيف: "أوكد لك يا سيادة الوزير. لقد فعلت كل ما طلبته مني وأكثر، وبما أنك أمرتني وأصررت على حجب المعلومات، فلا يمكنني أن أعدك بسماع أي خبر جيد يا سيدي. أنت توجه أوامرك

إلى مواطن مدني! وكما يصل إلى علمك، فإن شقيقي لديه عادة... كيف يمكنني أن أصوغها... عادة بالتورط والتدخل في القضايا؟ وعلى الرغم من أنني نجحت في إبعاده عن حالات القتلى، إلا أنني لا أستطيع مراقبة كل أفعاله وفي كل وقت. لذلك، فإنه خارج نطاق مسؤوليتي طمأنتك بعدم تدخل شيرلوك في تلك القضية".

كنت وشيرلوك نتشارك البقعة نفسها خارج الباب في محاولة منا للإنصات لحديثهم دون أن يتم رؤيتنا. والآن، التفت إلي صديقي... كانت عيناه واسعتين عن آخرهما. وبالمثل، أحسست بالقدر نفسه من الصدمة. كان مايكروفت يتذلل أمام وزير الدفاع ويوبخه في الوقت ذاته! كان ذلك الحوار المتبادل بينهما يعد استثنائيًّا على مختلف الأصعدة.

رفع بيكرينغ من مستوى صوته: "انظر هنا! لن يكون التاج سعيدًا بموقفك الرخو هذا يا هولمز! إذا تسبب ردك السخيف هذا على طلبي في تصاعد حملة الافتراءات والتشويه بخصوص هذه العملية، فعندئذ سيتبع ذلك رأسك... هل تسمعني؟ رأسك! ولن أتدخل لمحاولة إنقاذك، حتى لو غرقت في المياه القذرة لطموحك الملتوي هذا".

بيد أن مايكروفت لم يتراجع عن موقفه، إذ قال بصوت سلس وهادئ كسطح جدول مياه في يوم صيفي ساكن: "أنا على استعداد للقبول بهذا النوع من العواقب يا كابتن بيكرينغ،

ولن أصادر مواطنًا من حريته في مملكتنا هذه... أكرر، لقد بذلت قصارى جهدي. والآن إذا سمحتا لي، فإنني لدي أمور ملحة أخرى عليّ التعامل معها".

كدت وهولمز نوقع بعضنا بعضًا خلال توجهنا إلى نهاية رواق الخدم. أثبتت مناورتنا هذه أهميتها؛ لأننا في اللحظة ذاتها التي وصلنا فيها إلى الباب الموجود عند نهاية الرواق المغطى بالسجاد؛ تمكنا من رؤية وزير الدفاع والكابتن بيكرينغ وهما يهرعان إلى الناحية الأخرى من الرواق. كانا يسيران بطريقة تشي باستيائهما، وحينما وصلا إلى منتصف الرواق، خرج مايكروفت من غرفة الاجتماعات بدوره. لحسن حظنا، كان ظهره العريض هو ما يواجهنا وليس وجهه. لم يكن مدركًا تمامًا لاحتمالية كوننا نحوم في الأرجاء. ثم تابع طريقه إلى نهاية الرواق.

بعد عودتنا إلى المطبخ ومن ثم إلى الخارج، تنفست وهولمز الصعداء.

قلت: "لا يبدو أن وزير الدفاع والكابتن بيكرينغ يثقان بشقيقك. في الواقع، يمكنني القول إن كليهما ليس على وفاق تمامًا".

رد هولمز بدون إيضاح: "هناك ما هو أكثر من هذا".

وعندما وصلنا إلى الشارع، أوقف عربة أجرة.

بالطبع، كان محقًّا في كلامه. هناك ما هو أكثر مما يظهر للرائي، فقط ما يمكننا رؤيته هو قمة جبل الجليد بينما الأجزاء الغدارة مختبئة أسفل المياه. ولكن في ذلك الوقت، لم يكن لدينا أي طريقة لمعرفة ما إذا كان مايكروفت محقًّا أم لا أو كيف ستؤثر عواقب تصرفاته على حياتنا. حتى عندما ركبنا العربة، أخذت أفكر مليًّا في مخاوفي. ربما أعطتني فترة تدريبي العسكرية سببًا مقبولًا للانحياز إلى جانب رأي وزير الحربية، لذا، كنت أميل إلى الوقوف بجانبه بشكل أعمى. ولكن ربما كان هناك سبب محتمل آخر يدفعني إلى أخذ جانبه. ورغم أنني أشعر بالأسف لكتابة ذلك، إلا أن الحقيقة يجب أن تظهر. أنا لم أثقْ ولن أثقَ بمايكروفت هولمز. الآن تعرفون! ها أنا ذا أزيح هذا الشعور عن صدري! إذا ما قرأ هولمز هذا الكتاب، ولم يدرك أن هذه هي الكلمات الصادقة لصديق مخلص بعد مرور كل هذه السنوات؛ فإنه لن يكون الرجل الذي حسبته يكون.

***

تسببت وجبة الغداء الرائعة، والمشاعر القوية المصاحبة لمسرح الجريمة بإحساسي بالاستنزاف نوعًا ما. وبما أنني كنت لا أزال أتعافى من إصابتي نتيجة الفترة التي قضيتها في أفغانستان، بالرغم من أن جراحي شفيت نظريًّا إلا أن الأنسجة تأخذ وقتًا أطول من العظام عند التعافي. أضف إلى ذلك أنني

عانيت من مرض الزحار، كذلك المشاق العامة التي شكلت جزءًا واضحًا من الحياة العسكرية. وعلى كل هذا فإنني أبدو شخصًا لائقًا لكل من يقابلني، إلا أن إرهاقي يجعلهم يتراجعون سريعًا عن هذا الاعتقاد. استقللت وهولمز عربة أخرى. وما أن توجه الحوذي صوب شارع بيكر، حتى التفتَ صديقي ناحيتي، وقال: "أشعر بالندم على توريطك في هذا يا واطسون. كانت كلمات أخي وضيعة. دعني أعتذر لك بالنيابة عنه".

ضحكت وقلت: "إن شقيقك قادر تمامًا على الاعتذار بنفسه عن أفعاله. كلانا يعلم ذلك. إنني لم أتاذَّ من كلامه، فما قاله هو الحقيقة. ومع ذلك، فإنني حانق بسبب خداعه الرديء لنا. الأمر واضح وضوح الشمس؛ إنه أبعدنا لاكتشافه أن بعض النبلاء متورطون في هذه القضية".

ربما يُصدم شخص عادي من طريقة كلامي، ولكن ليس شيرلوك هولمز. فبدلًا من أن يبدي ضيقه أو يحاول مناقشتي وتغيير رأيي، اكتفى بهز رأسه قائلًا: "أنت محق. هذا هو النوع الوحيد من السلطة التي يمكنني التفكير فيها، والتي لديها القدرة على التحكم في إظهار مدى حدة الحادثة. إذا لم يكونوا من النبلاء، فحتمًا سيكون أحد الوزراء. ولكني أشك في هذا. لا، كلهم يتنافسون ويتصارعون لأجل نيل المناصب. هل شاهدت أحد سباقات الباليو من قبل؟ ذلك السباق الذي يقام في مدينة سيينا بإيطاليا؟".

"لم أفعل. ولكني سمعت عنه. أنت تقصد السباقات التي تقام منذ العصور الوسطى، أليس كذلك؟".

أجاب هولمز بهزة من رأسه: "بلى. حيث لا توجد أي قواعد. يقام السباق في ميدان في منتصف المدينة المسورة. حيث يأمل كل سكان الأحياء المختلفة في المدينة بأن يتم اختيار حيواناتهم وسباقيهم للمشاركة في المنافسة. وفي ذلك اليوم، يقام مهرجان كبير. يلوح سكان الأحياء المختلفة بأعلامهم، ويراهنون على انتصارهم. ويرتدي الموسيقيون ملابسهم الرسمية، ويمشون في استعراض حول الميدان، ومعهم العمال من الاتحادات العمالية المخلتفة، بالإضافة إلى مسؤولي المدينة، بينما يتعلق المتفرجون بأسوار الشرفات لمشاهدة الحدث. يستغرق الأمر العديد من المحاولات لصف الأحصنة المتسابقة، بحيث تلامس جميع أنوفهم الحبل ذاته في الوقت نفسه. لا يستغرق وقت السباق أكثر من دقيقتين. إليك النقطة التي أرجو أن أوضحها لك: فور أن يبدأ السباق وتبدأ الأحصنة بالعدو، يمكن للمتسابقين أن يضربوا بعضهم بعضًا بأسواطهم، ويركلوا بعضهم بعضًا، ويفعلوا أي شيء يضمن لهم الفوز. هكذا هي الحال بالنسبة للرجال الذين يعملون في خدمة التاج. ففي سباقهم نحو القمة يمكنهم فعل -بل وعلى استعداد لفعل- أي عدد من الحيل الدنيئة. يمكنني بسهولة معرفة أن أحدهم يغطي آثار أحد أعضاء العائلة الملكية، أو شخصًا ما يظن أنه يغطي آثار عضو من أعضاء العائلة الملكية.

في كلتا الحالتين المحصلة النهائية واحدة. تحذيرنا من التحقيق في حوادث قتل النساء الصغيرات لأن أحدهم يعتقد أن هناك شيئًا يمكنه أن يحرزه من وراء ذلك، وأن تدخلنا واستكشافاتنا في القضية ربما تُحرج وريث العرش. الحيوات المفقودة لا تعني شيئًا بالنسبة لمن يتنافسون على رهانات كبيرة".

تنهد هولمز. كان هناك الكثير مما لم يفصح عنه لأنه لم يكن في حاجة لقوله. لقد تسبب حداد ملكتنا، لفترة طويلة، في جعل بلادنا في حالة من الفوضى. لم تُدر الملكة فيكتوريا حكومتنا... هذه هي الحقيقة، ولكنها كانت بمثابة دفة السفينة لبلادنا وشعبنا. بدونها، ستبحر السفينة في دوائر بلا أي هدف. تسبب انسحابها من الحياة العامة في ترك الحبل على الغارب، وهذا فتح الباب على مصراعيه أمام من لديهم دوافع خفية.

تفكرت في التعليقات والملاحظات الأخرى التي اختار هولمز عدم مشاركتها معي. على الرغم من أن الأمير ألبرت الراحل قد أثار ضحك العامة في البدايات بسبب لهجته الألمانية، وأسلوبه المحافظ، وطريقته الجادة، إلا أنه مع مرور الوقت، رأى الشعب البريطاني مدى إخلاصه لزوجته. كنا نعلم أنه عامل دوؤب ممن يعملون بكد وإخلاص. سواء كان ذلك لتوفير نفقات القصور من خلال عدم رمي بقايا الشموع، أو جرد المخزون الملكي من البياضات. وكوالده، شاهدنا مدى إخلاصه. ذلك الرجل الذي أرسله والده بعيدًا حينما كان لا يزال صبيًّا. لا أحد منا يمكنه أن يشكك في حبه

لزوجته، فيكتوريا، أو رغبته في تأدية مهامه بوصفه رئيسًا للعائلة الملكية.

أما ابنه فقد كان له شأن آخر مختلف كليًّا. فأثناء خدمتي في جيش جلالتها، انتشرت عدة إشاعات حول مزاج وريث العرش الشاب. كان بيرتي هو الوقواق المجنون الذي تسلل إلى داخل عش العائلة الملكية، ونجح في إفساد كل الأعمال الطيبة لوالديه وأشقائه. كان من المتوقع وجود بذرة سيئة في القصر، ولكن بيرتي لم يتوقف عند هذا، بل أخذ بزراعتها بالمكيال، وسقيها بدموع والدته الملكة. صراحة، كان هذا الأمر محيرًا... كيف يمكن لتفاحة أن تقع بعيدًا عن شجرتها. في البداية، سمعنا على استحياء إشاعات عن شقاوته في فترة حضانته. ثم قصصًا من زوار القصر الذين صعقوا لسلوك الصبي الوقح. والآن، وهو على حافة البلوغ وأن يصبح رجلًا، كنا نأمل جميعًا أن يعود بيرتي الشاب إلى رشده، ولكنه بدلًا من ذلك بات أكثر سوءًا بمرور كل يوم. يمكن إرجاع اهتمامه بالنساء الخليعات إلى عم والدته جورج الرابع، دوق كِنت، وجده لوالده، الدوق إرنست الأول. ومع ذلك، كنا نأمل جميعًا أن تظهر قبضة والده القوية ومكانة والدته كملكة حكيمة أفضل ما عنده.

لكن ذلك لم يحدث. ولا أي شيء آخر نجح في فعل ذلك. عامًا تلو الآخر، قست العائلة الملكية بسبب حوادث درامية، واحدة بعد الأخرى، لتورط بيرتي مع نساء غير مناسبات. كنا نأمل عند تزوجه من ألكسندرا من الدنمارك، أن يبعده

حب امرأة طيبة عن التصرفات الطائشة. للأسف، لم يحدث ذلك. بل نجح في إضافة المزيد من العادات السيئة إلى عاداته القديمة، وشمل ذلك فضيحته عندما تم اتهامه بالغش خلال لعبه للباكارا.

نظرًا لتاريخ بيرتي الشائن مع النساء المتزوجات، وسيدات المسرح، والعاهرات. لم يتطلب الأمر قدرًا كبيرًا من الخيال لتخيله وهو يمرح في شارع إيست إند. بالطبع، أُشير إليه بالتسبب في إحدى قضايا الطلاق، لذلك يدرك العامة جيدًا أنه لا توجد طريقة لتقويم سلوكه حينما يتعلق الأمر بالعلاقات الغرامية. هل هناك احتمالية بأنه قتل هؤلاء النساء ليبقيهن صامتات؟ لست أدري. ولكن السبب الأكثر احتمالية هو أن هؤلاء النسوة تم قتلهن بالنيابة عنه في محاولة لإسكاتهن.

في كلتا الحالتين، فإن شقيق مايكروفت هولمز يمكنه أن يشكل تهديدًا إذا ما تحرى في الأرجاء عن الحقيقة وكشفها للعامة. إن مطالبتهم من مايكروفت تحذير شقيقه وإبعاده عن القضية، كانت بمثابة حركة ذكية على رقعة الشطرنج. فمن خلال إبعاد شيرلوك عن المشهد، كان يمكنهم التعامل مع موقف محرج بهدوء وكنسه إلى أسفل السجاد. إن إبقاءنا على مسافة، سيضمن لهم أننا لن نتسبب في إثارة المشكلات للتاج، مشكلات يمكنها أن تنعكس بالسلب على مكانة مايكروفت. لقد أثبت شيرلوك من خلال تتبعه خيط القضايا بغية حلها أنه لا يعبأ بالمكايد السياسية. وبدلًا من ذلك، كان يركز على المهمة

الموضوعة أمامه، والأشخاص الذين ربما يمكنهم إلقاء الضوء على ما يسعى إليه من تساؤلات. وسواء كانوا من نسل نبيل أو نسل وضيع، لم يشكل ذلك أمامه أي اختلاف يذكر. فهو يمتلك قدرة مذهلة على التعرف على الخصائص المهمة للجريمة، والتحرك نحو الحل، بغض النظر عن أي عقبات تعترض طريقه.

هناك أحدٌ ما في الأرجاء، شخصٌ ذو نفوذ، يعتبر شيرلوك هولمز عقبة أمامه، وقرر أن يبذل جهده ليتحقق من أن شيرلوك لن يفسد خططه. مثلهم مثل السياسيين الذين كانوا يعبثون في الأرجاء بينما روما تحترق! بلا شك، لم يكن ليستراد يتمتع بالفطنة اللازمة لحل قضية مثل قضية جاك السفاح. كذلك كان يفتقر لذلك النوع من العزيمة التي تجعله يركز على هدف واحد مثلما يفعل شيرلوك هولمز مع قضاياه. في وسعي تخيل ليستراد -مجازيًّا- وهو ينفض يديه عن جريمة القتل (أو جرائم القتل) التي وقعت في شارع إيست إند؛ وذلك لقلة طموحه، والذي إذا ما اجتمع مع رغبته في عدم التورط، وشبح احتمالية إحراج التاج الملكي، لكان كل ذلك أكثر من الكافي لوضعه في مكانته الحقيقية.

راقبت شوارع لندن وهي تمرق عبر نافذة العربة، وفكرت في أن كل ما أحتاج إليه هو قيلولة طويلة. كان اليوم دافئًا، ورائحة روث الخيول استيقظت من سباتها على إثر حرارة الجو والزحام. ومع ذلك، لم أجد الراحة تنتظرني.

يومنا الممتلئ بالمفاجآت لم ينته بعد. في الواقع، قابلتنا السيدة هدسون عند باب المنزل رقم ٢٢١ ب من شارع بيكر، كانت مضطربة بينما تعصر أطراف ردائها. قالت: "أيها السيدان! لدي ضيف في مطبخي. يقول إنه هنا لأجلكما. كنت لأرسله بعيدًا عن هنا، ولكن... حسنًا، هناك بعض الأسباب جعلتني لم أفعل ذلك. هل يمكنني إرساله لكما بعد أن تحظيا ببضع دقائق لترتيب أموركما؟".

صاح هولمز وهو يلتفت إلى وراء كتفه عندما وصل إلى منتصف الدرج: "بالتأكيد". ثم تابع أثناء دخولنا إلى الشقة: "كان يمكنك أن تخبرني إذا ما كنت تتوقع قدوم ضيف يا واطسون. كنت لأعجل من الانتهاء من مهامنا بالخارج".

قلت معترضًا، وبقدر ضئيل من الانزعاج لمنعي من قيلولتي: "ولكني لم أتوقع زيارة أحد. بل على الأرجح، أن ذلك الشخص التعس يسعى لتوظيف قدرة التحريات العظيمة للرائع شيرلوك هولمز".

تضمنت نبرتي بعضَ ما يشي بقلة الاهتمام، ولكن على المرء أن يتذكر أنني في ذلك الوقت لم أكن على دراية تامة بقدرات شيرلوك المذهلة مثلما أفعل اليوم. بالطبع، رأيته وهو يعمل على استنتاجاته الساحرة على الغرباء، وكنت من أوائل من شاهدوا قدراته المدهشة على إدراك التفاصيل الدقيقة وتمييزها وتفسيرها. ولكن آنذاك، لم يكن النطاق الكامل

لمواهبه واضحًا لي مثل اليوم، ويمكنني إرجاع ذلك بسهولة إلى أن هولمز كان لا يزال في مرحلة تحوله إلى العبقري الذي هو عليه اليوم، وهو يستعرض قدراته في كل فرصة تقع أمامه.

ما أن وصلنا إلى غرفة المعيشة، إلَّا وندت عنه همهمة بمثابة ردٍّ على كلامي. وكان هذا قرارًا حكيمًا؛ إبقاء رده الحاد طي الكتمان... هذا إن جاز التعبير. أثبت اختياره ذلك حدة بصيرته إذ ارتفع صوت طرقات خجول على باب شقتنا لتنبهنا بقدوم الزائر. ولكن قبل أن أتمكن من عبور الغرفة للرد على الطارق، هاجمتني رائحة قوية ومقززة لدرجة أنها أعادت تذكيري برائحة الفتاة المقتولة.

قلت: "يا للهول!". فأخرجت منديلًا من جيبي، ووضعته على أنفي. أوقفني هذا التدبير الوقائي عن فتح الباب، فما كان من هولمز إلا أن أسرع ومر من جواري ليفتح الباب.

الفصل الرابع

قال صوت عميق بلهجة شمالية: "أستميحك عذرًا يا سيدي. لقد أخبرتني أن أزورك حينما أكون في حاجة لمساعدتك يا سيد هولمز... وبحق كل ما هو مقدس، فإنني أقف أمامك اليوم لأنني لا أعرف أحدًا غيرك لأطلب مساعدته! الأرانب تم تمزيقها بشدة، وأيًّا كان من فعل ذلك، فقد قتل الكلب أيضًا. عُطيل، وهو كلب صيد إيرلندي. لقد مُزق كليًّا، وليس لدينا أدنى فكرة عن ماهية المفترس الذي نتعامل معه هنا. لذلك أخبرت صديقي ديكي بأنني سأطلعك على ما حدث معنا".

تسبب ذلك السرد السريع في إثارة حيرتي: "عطيل؟ ديكي؟ كونيز؟".

ابتسم هولمز بطريقة رأيتها عدة مرات منذ أن التقينا. ارتسم على وجهه تعبير يعبر عن اهتمامه بينما يهدئ من روع ضيفنا. "أرجوك اهدأ قليلًا يا لاندوڤر. أنا حائر قليلًا. من الأفضل أن تحكي من البداية. لقد حسبتك تقاعدت من العمل في قصر موسغريف".

لم أكن في حاجة للتفسير هذه المرة، إذ إن قصر موسغريف كان بمثابة منزل الأجداد لعائلة هولمز.

"هذا ما فعلته يا سيدي. لقد تقاعدت منذ خمسة أعوام. كما ترى، لقد كنت أزور صديقي ديكي... جون دوكوورث، وكما ترى، فهو يعمل حارسًا لمنطقة الصيد في ضَيْعة ليست ببعيدة عن قلعة وندسور. كنا رفيقين منذ طفولتنا. صباح اليوم، كنا سنحصي عدد الأرانب، وعندما وصلنا إلى الحظيرة وجدناها في فوضى. وكما توقعت، فقد هرع ديكي لإحضار سيده، والسيد جونستون، وقال: 'يا إلهي! ديكي، ما معنى هذا؟ يجب أن توقف هذا!'، وأمر صديقي بأن يضع حدًّا لما حدث، ولكن كيف بوسعه أن يفعل ذلك؟ فهو لا يعرف أي نوع من الفخاخ يجب عليه أن يعده، ولا أي طعم يجب أن يستخدمه، أو أي شيء! لم أر شيئًا يصدمني بهذا القدر في حياتي كلها مثل هذا. دعني أخبرك، كان ديكي مضطربًا تمامًا، لم أره متوترًا في حياته هكذا، لذلك قلت لنفسي يجب أن أطلب المساعدة من السيد الشاب. أومن بأنه إذا لم يخبرني السيد شيرلوك هولمز بماهية هذا الشيء، فلن يستطيعَ أحد آخر معرفته".

لو كان بمقدوري الحديث بدون أن أتقيأ؛ لكنت اقترحت أن يدور لاندوفر هذا على عقبيه ١٨٠ درجة، ويبتعد عن هذا المكان. أيًّا كان ما يبيعه ذلك الرجل العجوز هنا، فأنا لا أريد أن أكون جزءًا منه! فبمجرد إلقاء نظرة واحدة على قبعته المسطحة، ولحيته الرمادية غير المشذبة، وملابسه الرثة، تأكدت لي

احتمالية كونه مصدر الرائحة المروعة التي تهجم علي أنفي. ومع ذلك، لم يكن ذلك صحيحًا! استوعبت بعد فترة قصيرة عندما دفع العجوز بجوال من القماش ناحية هولمز، أنه كان مصدر تلك الرائحة؛ إذ أيقظت تلك الحركة كل رائحة كريهة في ذاكرتي ارتبطت بروائح الجثث في أرض المعركة.

قال هولمز بنبرة مهذبة كما لو كان أحد رجال البلاط وهو يخاطب الملكة: "دعنا نأخذ هذا إلى الخارج يا لاندوڤر".

قال الرجل العجوز موافقًا: "أنت محق يا سيدي الشاب".

وقبل أن يلحق هولمز بضيفنا إلى أسفل الدرج، توقف لفترة كافية ليضيف قائلًا: "واطسون... إذا سمحت، قد تكون خبرتك في التشريح مفيدة لنا".

سألته بينما أغلق فتحتي أنفي: "هل يحمل جثة شخص في هذا الجوال؟".

"أشك في هذا"

قلت: "إذًا ماذا؟". أعترف، استمعت جزئيًّا إلى نواح الرجل العجوز لأنني كنت أبذل قصاري جهدي للحفاظ على وجبة غدائي داخل جوفي.

أجاب هولمز: "أشك بأنه يوجد بداخله أرنب أو اثنان، بالإضافة إلى الكلب الذي أشار إليه في حديثه".

قلت: "إذًا لن يكون لخبراتي العلمية أي فائدة تذكر هنا. أستطيع أن أبذل أفضل ما لدي، ولكن ستمثل الاستعانة بشخص لديه تدريب متخصص فائدة أكبر بلا أدنى شك". ثم فكرت لعدة لحظات قبل أن أضيف: "انظر، أعرف شابًّا يافعًا اسمه فلور. قابلته في إحدى المحاضرات. هل أبعث إليه برسالة؟ أراه شخصًا جيدًا بما فيه الكفاية".

أشرق وجه هولمز، وقال: "هو الشخص الذي أريده بالضبط! سأنادي على ثاديوس ويغينز. هل يمكنك يا واطسون أن ترسل رسالتك، بينما أجعل لاندوڤر يكشف لي عن غنيمته؟ ربما من الأفضل أن نحمل ذلك الجوال إلى الساحة الخلفية. أعتقد أن السيدة هدسون لا تزال تمتلك صندوق الثلج هناك، أليس كذلك؟".

فكرة تقديم مالكة المنزل اللطيفة، صندوق الثلج، من أجل الجثة الكريهة الرائحة -أيًّا تكن ماهيتها- والتي أحضرها لاندوڤر في جواله القماشي؛ أثارت موجة جديدة من الغثيان. لا شك أن تعابير وجهي لم تظهر اشمئزازي، إذ سرعان ما تدخل هولمز قائلًا: "هيا يا واطسون، هذا ليس وقتًا مناسبًا للحساسية المفرطة. سأشتري للمالكة الطيبة صندوق تبريد جديدًا إذا ما كانت هناك حاجة لذلك. لن يقطع لاندوڤر كل هذه المسافة لو لم يكن لديه سببٌ وجيهٌ لذلك".

"هل تعرف هذا الرجل؟". بينما كنت أفكر في أن أسرار صديقي تخصه وحده، إلا أن معارفه من الأشخاص الغريبين

والمتنوعين لم تتوقف عن إدهاشي قط؛ إذ إن هولمز يجمع مصادره من الأخبار كما يفعل بائعو الكتب الذين يبحثون عن الكتب النادرة. بدا كما لو أنه يعرف شخصًا من كل حرفة وصنعة! لا يعد هؤلاء الأشخاص أصدقاءه بأي شكل من الأشكال، ولكنهم مثل الروافد التي تغذي نهرًا عظيمًا، يجمعون مياه الأمطار والثلوج الذائبة، ويوجهونها إلى مصدر واحد: هولمز.

قال هولمز: "لقد عرفت لاندوڤر طوال حياتي". ثم أسرع مفسرًا: "كان يعمل حارسًا لمنطقة الصيد في ضيعة عائلتي، قصر موسغريف، لمدة أطول مما يمكنني أن أتذكرها. ولم يكن هناك من رجل طيب وكريم مثله على سطح هذه الأرض. والآن، أرجوك اكتب رسالتك وابعث ويغينز لإرسالها".

دعني أحدثكم قليلًا عن ثاديوس ويغينز: لم أر في حياتي طفلًا متناقضًا مثل ويغينز قط، فتًى مشاكس من الدرجة الأولى، ومخلص لشيرلوك هولمز للغاية. يعيش الصبي في مهجع ليس بالبعيد عنا، برفقة مجموعة من أطفال الشوارع المشاغبين، والذين من المفترض أن يكونوا تحت رعاية أشخاص بالغين. عندما يكون وجهه نظيفًا -وهو حدث غير اعتيادي- تنكشف ملامحه المميزة، والتي تدفع الرائي إلى افتراض أن والديه شخصان جميلان. كانت عيناه بلون البندق، وهو ما كان ليتناسب مع شعره البني، ولكني لا أستطيع التيقن من لون شعره تمامًا؛ إذ لم أره مغسولًا قط. حينما ظهر الصبي لأول

مرة، كان نحيلًا ويعاني من سوء التغذية. منذ ذلك الحين، قرر أن يلتحق بهولمز، وهو أغرب نوع من التحالفات التي يمكنني أن أتخيلها. ورغم أن معيشة الصبي لا تختلف عن معيشة جرذ المدينة إلا أنه يأكل جيدًا بفضل هولمز. من النظرة الأولى، يمكن اعتبار ويغينز كومة متحركة من الأسمال البالية، ولكني أومن بأن هولمز يتحقق من ارتدائه لملابس دافئة. أما بالنسبة للملابس الممزقة والرثة التي تتهدل من على جسد ويغينز، فهي على حسب ما يسميها "أتنكر أنا". لا تدع طريقة حديثه المشوهة تخدعك، فهذا الصبي ذكي ومقلد بارع من الدرجة الأولى، فهو يمكنه التحدث ببلاغة مثل أي مثقف إذا ما أراد ذلك.

في هذا اليوم، كان من الواضح أن ويغينز يتسكع في الأرجاء لأنه هرع يتخبط إلى داخل المنزل رقم ٢٢١ ب، وصعد الدرج قفزًا، وكاد يطرحني أرضًا لولا أنني كنت أمسك إطار الباب بإحدى يدي؛ كل هذا من شدة حماسته لتقديم خدماته. أصدرت تعليماتي له: "خذ هذه الرسالة. هل ترى العنوان؟ انتظر حتى تحصل على الجواب". ثم ألقيت بعملة معدنية إلى ويغينز: "هاك. فتًى طيب".

رد بنبرة بدت جادة تامة للدرجة التي جعلتني أبتسم معها: "آي... آي... كابتن".

لم تمر فترة قصيرة على رحيل ويغينز حتى عاد كلٌّ من هولمز ولاندوڤر. عرض هولمز على لاندوڤر استعمال حوض

غسيل اليدين الخاص به، بعد أن أعد له إبريقًا من المياه. بالنسبة لي، أوضح هولمز أنهما قاما بنقل صندوق التبريد إلى الخارج، وأودعا محتويات الجوال ذي الرائحة الكريهة داخل الجهاز المذكور. قال هولمز مفسرًا: "لدي آمال كبيرة في أن تخفف البرودة من حدة تلك الرائحة المروعة".

ما أن اغتسل لاندوڤر، أو حاول إحداث بعض التغييرات الطفيفة بعد استخدامه للمرحاض، دعاه هولمز إلى غرفة المعيشة، وقدم له كوبًا من المياه المنعشة. تجرع لاندوڤر الكوب ليطفئ عطشه. وعندما انتهى من شرب الكوب، طلب هولمز مني أن أدون الملاحظات بينما يقوم باستجواب الرجل بلطف. "ماذا أحضرت إلي يا لاندوڤر؟".

"مثلما كنت أقول، أرنبين، وما تبقى من عطيل". عندئذ، مسح الرجل عينيه بكمه، وتابع: "لم يتبق شيء يذكر من الكلب. لا شيء".

استغرق هولمز في التفكير، وانسحب إلى داخل عقله الرائع، ثم قال: "على ما أتذكر، فإن عطيل هو كلب صيد إيرلندي. هل هذا صحيح يا لاندوڤر؟".

"صحيح يا سيدي. حصل عليه ديكي حينما كان لا يزال جروًا. لقد أحب ذلك الكلب كثيرًا، أحبه بالفعل. أنا أيضًا كنت أحبه. لقد كان كلبًا رائعًا".

قلت للرجل العجوز: "آسف حقًّا على ذلك... تبدو خسارة مأسوية". كانت دموعه تنهمر الآن على وجنتيه بلا قيد، لتستقر على لحيته مثل قطرات الندى على عشب الصباح.

"أجل. إنها حقًّا كذلك".

سألته: "ما معنى كوني؟ لقد سمعت هذه الكلمة من قبل، ولكنها لا تذكرني بشيء".

قال هولمز مفسرًا: "أرنب... أرانب بلجيكية تربى من أجل الحصول على لحمها، كذلك يستخدم فراؤها كلباد في عددٍ من المنسوجات. في قصر موسغريف، كان لاندوڤر يشرف على الأقنان... جحور الأرانب. كان يُعرف عنا تربيتنا لأرانب ممتازة لسنوات. كان القن كبيرًا وآمنًا، يصل ارتفاعه لقدمين عن سطح الأرض، ومزودًا بفتحات يمكن إغلاقها عند حلول المساء، وشبكة تحيط بالجحور تمثل طبقة أخرى من الحماية. أظن أن هذه الإعدادات مماثلة للأقنة الموجودة عند مكان عمل ديكي يا لاندوڤر، أليس كذلك؟".

أومأ الرجل برأسه.

سأله هولمز: "أخبرني يا لاندوڤر، هل سمعتما أي شيء في الليلة التي تمت فيها مهاجمة الأرانب وعطيل؟".

أخذ الرجل العجوز نفسًا عميقًا كما لو أن استعادته لذكريات تلك الليلة تتسبب في إيلامه: "أجل. لقد سمعت

أنت تلك الأصوات أيضًا يا ولدي، تلك الصرخة الطويلة، والصرير الذي تصدره الأرانب عندما يكونون في خطر مميت. لقد سمعته مرارًا وتكرارًا، ولكني أقنعت نفسي بأنني أحلم فحسب؛ لأنك مثلما وصفت المكان، لا أحد ولا شيء يمكنه أن يدخل قن الأرانب. على الأقل، هذا ما كنت أومن به. الآن، سأخبر كل شخص أقابله بأنني أعرف عكس ما يؤمنون به!".

واصل هولمز طرحه للأسئلة، وسأل عن تفاصيل محددة مثل عدد الأرانب في الأقنان والجحور، وعن الوقت الفعلي الذي سمعوا فيه أنين الأرانب، وأسئلة أخرى من هذا القبيل.

"لستين عامًا، أخذ ديكي يرعى تلك الأرانب، هذه هي أول مرة يحدث فيها أمرٌ كهذا. كان يربي ستة وثلاثين زوجًا من الأرانب. الآن، بات عددهم عشرة أزواج. لم ير ديكي شيئًا من هذا قط في حياته".

كنت مشوشًا، فسألت: "قطة صغيرة؟".

قال هولمز موضحًا: "أرنب صغير".

تهدج صوت لاندوڤر: "لكن لم يحدث شيء كذلك... أبدًا. والكلب! هذا الحيوان الرائع! لم يخطر على بالي أنه يمكن هزيمة عطيل قط. فهذا الكلب وزنه لا يقل عن وزنك يا سيدي الشاب! كانت مهمة ديكي حماية الماشية، وسيده غاضب جدًّا، وأخشى أنه سيطرد ديكي المسكين بدون سابق إنذار أو إشارة".

لحسن الحظ، أنقذنا صوت خطوات قصيرة وسريعة تصعد الدرج من سماع المزيد من حديث لاندوڤر البائس. فتح ويغينز الباب دفعًا.

أشار هولمز بأصبعه ناحية الصبي: "ثاديوس! ماذا قلت لك من قبل عن طرق الباب؟".

"آسف يا سيدي. إنهما على بعد بناية واحدة من هنا. ظننت أنك ستود أن تعرف ذلك".

كرر هولمز قائلًا: "هما؟ لقد كنت أتوقع زيارة فلور فحسب".

"أنت محق يا سيدي، ولكن كان هناك صديقٌ له يزوره، وذلك الصديق بدا مهتمًّا بما قلته، لذلك دعاه السيد فلور لمرافقته إلى هنا. أستميحك عذرًا يا سيد هولمز، ولكن ذلك الرجل العجوز الذي يرافق السيد فلور يبدو شخصًا حاد الذكاء، إنه حقًّا كذلك. فالسيد فلور كان يسأله العديد من الأسئلة المختلفة في طريقنا إلى هنا -لم أشعر بالسعادة من ركضي بجوار العربة مثل هذه المرة من قبل قط، أجل كنت كذلك- وتلك الأسئلة كان يصعب الإجابة عليها".

أغلق هولمز عينيه جزئيًّا. كانت هذه هي طريقته المعتادة عندما يستغرق في التفكير. في البداية، نهض من مكانه، وقال: "ويغينز... واطسون، هل تحضران صندوق التبريد من الأسفل؟ لقد تركته خارجًا في الزقاق خلف البناية. سيرغب

ضيفانا الجديدان في رؤية ما أحضره لاندوڤر لنا. آمل أن خصائص التبريد للصندوق قد نجحت في خفض مستوى الرائحة الكريهة".

انطلقت مع الصبي عبر المطبخ ومن ثم إلى الباب الخلفي. كان من السهل تحديد مكان صندوق التبريد لأن المنزل رقم ٢٢١ ب من شارع بيكر مثله مثل العديد من المنازل في هذا الوقت، كان يحتوي على مطبخ من طابق واحد أسفل الطابق الأول. عند واجهة البناية، يرحب بالزائرين مجموعتان من الأدراج للاختيار فيما بينهما. أحد الدرجين يصل إلى الطابق الأول (وهو الذي يسميه أصدقائي من الأمريكيين بالطابق الأرضي)، والدرج الثاني يؤدي إلى طابق تحت أرضي؛ وهو يتكون من المطبخ، وخزانة باردة لحفظ الطعام، وغرفة الغسيل. بالطبع، كان يستقر صندوق التبريد في مكانه في المطبخ إلى أن نقله هولمز ولاندوڤر خارجًا. كان الهيكل الخشبي لصندوق التبريد -المقدر له الوصول إلى غرفة جلوسنا- مصنوعًا جيدًا، صندوقًا محكم البناء بأرجل قصيرة، وله باب أمامي يمكن إغلاقه بقفل صغير، ويحتوي بداخله على رفوف يمكن تعديلها على حسب الحاجة، ولكن تم إزالتها ووضعها جانبًا لتوفير مساحة أكبر. كانت الخزانة الصغيرة مبطنة من الداخل بالحديد، وتصل سعتها إلى ثلاثة أرطال من الثلج.

لعدة مرات من كل شهر، تذهب السيدة هدسون إلى مستودع الثلج في شارع كينجز كروس، لتشتري قالبًا من

الثلج من المبنى الدائري الذي يتم ملؤه وإعادة تعبئته بقوالب الثلج عن طريق الصنادل القادمة من النرويج. هؤلاء النرويجيون الماهرون نجحوا في تحقيق تجارة مزدهرة عن طريق استخدام موارد طبيعية كمنتج في تجارتهم. مع بداية ظهور صناديق التبريد، بات من الممكن الاستمتاع باللحوم وأسماك السلمون القادمة من أستراليا، بالإضافة إلى الأيس كريم اللذيذ. ولفترة من الوقت، كانت المشروبات المثلجة هي المشروبات السائدة في الحفلات، ولكن بمرور الوقت تلاشت تلك الموضة.

بدا أن هولمز ولاندوڤر قد نجحا بصعوبة في وضع محتويات جوال الأخير داخل صندوق التبريد. حطم معول آخر بقايا القالب الثلجي لقطع صغيرة ليستقر فوقها الجوال الخيشي للسيد لاندوڤر. أغلقت قفل باب صندوق التبريد حتى لا تقع محتوياته خارجًا أثناء نقله إلى الأعلى. وعند العد حتى رقم ثلاثة، أخذ ويغينز أحد جانبي الصندوق بينما وقفت على الجانب الآخر. مثلت طريقة حمل الصندوق الخشبي صعوبة أكثر من كونه ثقيلًا. كان لدى هولمز بعد نظر في إرسال كلينا -ويغينز وأنا- لإحضار الصندوق، لأنه كان علينا المناورة بأكثر من طريقة لنقل صندوق التبريد إلى خارج المطبخ، ومن ثم إلى الدرج. وحتى أثناء حملنا للصندوق، تسربت الرائحة خارجًا لتكون طبقة كريهة الرائحة في الهواء. لم أستطع تخيل أن السيدة هدسون قد ترغب في استخدام ذلك الصندوق

مجددًا! وحتى لو فعلت ذلك، سيكون من المستحيل أن آكل أي طعام يخرج منه.

بالعودة إلى داخل شقتنا، انضم رجلان محترمان إلى رفقة هولمز، وكما بدا فقد قاما بالتعريف عن أنفسهما لهولمز. بالطبع، تعرفت على السيد فلور على الفور، وتبادلنا التحية بحرارة. كان الضيف الآخر يخوض محادثة عميقة مع هولمز بينما جلس لاندوقر على أحد الكراسي الوثيرة، وقد بدا تعيسًا أكثر من أي رجل بائس رأيته في حياتي من قبل.

ابتعد هولمز عن الزائر المجهول من أجل توجيهي وويغينز إلى طاولتنا، وقال: "ضعا الصندوق هناك". لم أترك الصندوق من ناحيتي، وقلت محذرًا: "هولمز... إن كنت تعتقد ولو للحظة واحدة أنك ستضع محتويات ذلك الصندوق على الطاولة التي نأكل عليها...".

قال ويغينز متسائلًا: "أوي، هل يمكننا وضع هذا الصندوق أرضًا أولًا قبل أن تبدأ في المجادلة؟".

قلت: "حسنًا... حسنًا". ثم أشرت له برأسي ناحية بقعة في منتصف الغرفة.

مرر هولمز بضع عملات معدنية إلى الصبي وقال: "ويغينز، خذ هذا". ليرحل الصبي بعدها متقافزًا في خطواته.

تابع هولمز: "واطسون... لا تكن حريصًا على المفروشات بهذه الطريقة. انظر هنا؟ إنني أمتلك الشيء المناسب لحل

مشكلتك". ثم مد يده إلى الدرج السفلي للخزانة، وسحب قطعة قماش بلاستيكي وفردها على الطاولة بطريقة استعراضية. كان علي الاعتراف بأن سطح الطاولة بات محميًّا تمامًا عندما غطاه بالبلاستيك. كذلك لاحظت أنه أشعل عدة شموع هنا وهناك، إحداها برائحة خشب الصندل، والتي ساهمت بشكل ملحوظ في إخفاء الرائحة المقززة المنبعثة من صندوق التبريد.

وفور أن انتهى هولمز من تقدير مساهمته في التغلب على الرائحة، قال: "يجب أن أعرفكم بعضكم على بعض. واطسون، أنت تعرف لاندوڤر وفلور. وأنت يا لاندوڤر؟ قابل السيد ويليام هنري فلور، إنه صديق لواطسون".

لم يقدم هولمز الضيف الآخر، وهو الأمر الذي وجدته مثيرًا للفضول.

نهض لاندوڤر من على المقعد الذي بات ملجأ له. وما أن وقف على قدميه حتى أخذت عيناه تجولان في أنحاء الغرفة قبل أن تنتهيا بمراقبته لأطراف حذائه البالي. أتبع ذلك بجرجرة قدميه في حركة ملتبسة بينما تردد وهو يحاول أن يقرر إذا ما كان سيهز رأسه أو يمد يده للمصافحة. كنت آمل أنه سيمتنع عن المصافحة يدًا بيد نظرًا للرائحة الكريهة للصُّرّة التي جلبها إلينا. وكما لو كان يقرأ أفكاري، استقر الرجل المسكين على أن يومئ برأسه إيماءة سريعة.

قلت موضحًا: "إن السيد فلور عالمٌ. لقد تقابلنا عندما سمعت محاضرة له في نادي ديوجينيس".

ومع ذلك، لم يقدم هولمز الزائر الآخر، والذي أخذ يتفحص رفوف مكتبتنا، والتي كانت غير مرتبة ومكدسة بالكتب دائمًا. ظننت أن سلوكه غريبٌ نوعًا ما. على الرغم من أن هولمز يمكن أن يتشتت انتباهه عن المجاملات الاجتماعية حينما ينغمس في دراسة إحدى قضاياه، إلا أنه نشأ على التعاليم التي يجب أن يتحلى بها كل رجل نبيل، ومن ثم، فهو دومًا ما يكون لبقًا. ومع ذلك، لم يوضح اسم ضيفنا بعد.

ولا حتى فلور فعل ذلك. في واقع الأمر، أدار فلور ظهره لزائرنا الآخر، كما لو كان يتظاهر بأنه لا يعرف الرجل! كان هذا أمرًا غير عاديٍّ. ومع ذلك، أدركت أن كلًّا من فلور وهولمز يتصرف هكذا عن قصد. أما عن سبب فعلهما لذلك، فلم تكن لدي أدنى فكرة.

لفترة وجيزة، فكرت في سؤال الرجل الرابع عن اسمه، ولكني في النهاية قررت عكس ذلك، إذ أقنعتني الحياة مع هولمز بقبول ما هو خارج عن المألوف دون التساؤل عن السبب. ومع أخذ هذه الفلسفة في الحسبان، أصبحت أستمتع بكل ما تلقي به الحياة في طريقي.

وبما أننا قررنا جميعًا تجاهل الزائر المجهول الهوية، والذي أخذ يسحب عددًا من الكتب لتفحصها في تلك اللحظة، قلت: "فلور، لم أهنئك بعد على توليك منصب مدير أقسام التاريخ الطبيعي في المتحف البريطاني في جنوب كنسينجتون".

قال فلور: "كم لطيف منك أن تقول هذا! تقول زوجتي إن هذه ليست وظيفة على الإطلاق. بدلًا من ذلك، تعتقد أنني مثل الطفل في متجر الحلويات. ربما تكون محقة في كلامها. فأنا لا يمكنني أن أتخيل طريقة أفضل من هذه لقضاء حياتي وأنا أعمل على حماية ما يمكنني الحفاظ عليه ومشاركة ما يمكنني مشاركته. في الحقيقة، هناك الكثير من الأشياء التي لا يزال علي فعلها، لكني مليء بالحماسة للقيام بها!".

قلت موضحًا: "هولمز... هل كنت تعلم أن فلور قرأ ورقته البحثية الأولى أمام جمعية علم الحيوان في لندن عندما كان في العشرين من عمره؟ وعلى الفور منحوه العضوية بالجمعية". ثم استدرت ناحية لاندوڤر، وتابعت: "إذا ما كان هناك أي شخص يمكنه تحديد نوعية المفترس الذي فعل تلك الفعلة، فإن فلور هو ذلك الشخص".

رفع فلور يده وقال: "د. واطسون، أنت تشرفني بكلامك هذا أكثر مما أستحق. لمَ لا ننتظر حتى نرى إذا ما كان يمكنني تلبية متطلباتكم كخبير؟". ثم استدار ناحية زائرنا الغامض وتابع: "بالحديث عن الخبراء، هذا هو صديقي ومعلمي تشارلي".

ولكنه لم يفصح عن اسم عائلته.

استدار تشارلي في مكانه أمام رفوف المكتبة ليومئ لنا برأسه. كان هذا كل ما فعله. نظرت جانبًا ناحية هولمز، فتأكد لي أنه يعرف الهوية الحقيقية لزائرنا الغامض، ربما كان أفضل

ما يمكن فعله هو السماح للرجل بالإبقاء على سرية هويته.

كان تشارلي أكبر سنًّا من فلور. كان كلا الرجلان يتمتعان بلحًى كثيفة وسوالف طويلة، والتي اشتهرت على يد الأمير ألبرت. في حين كان فلور يتمتع بهيئة عسكرية، حيث تشير وقفته المنتصبة بمثابة تقدير وتحية إلى فخر أمتنا، فقد كان تشارلي على عكسه تمامًا بظهره المحدودب. ومع ذلك، عندما التفت نحونا كانت عيناه تلتمعان وتفيضان بالذكاء، لذلك بدا افتقاره إلى هيئة جيدة ليس ذا أهمية كبيرة. حتى هذه اللحظة، حينما لاحظ صندوق التبريد، بدا تشارلي مفتونًا بالغموض الذي يكمن بداخله.

قال تشارلي وهو يشير ناحية صندوق التبريد: "دعونا نرَ ما لديكم هنا".

سأل هولمز: "لاندوڤر! هل تساعدني في إخراج الجوال؟ وأنت يا واطسون، هل يمكنك إبقاء باب صندوق التبريد مفتوحًا؟".

فعلت ما طلبه مني بالرغم من أنني حبست أنفاسي خلال العملية برمتها. أخرج هولمز ولاندوڤر الجوال الخيشي، ووضعاه برفق على المشمع البلاستيكي في منتصف طاولة الطعام، وببطء فتحا جانبي الجوال ليكشفا عن محتوياته. بدت الأشياء الموجودة داخل الحقيبة مثل أي فراء ولحم يمكنك أن تراهما إذا ما مرا من خلال مفرمة اللحم في محلات البقالة.

أمسك هولمز ملقطًا معدنيًّا من مكتبه، وأخذ يقلب بقايا جثث الحيوانات. يرفع قطعة من اللحم المتعفن ثم أخرى، ويضع قطع الفراء والأعصاب بحرص على الطاولة تاركًا بعض الفراغات فيما بينها حتى يتمكن من فحصها بشكل دقيق.

ولأنني كنت أضع كامل طاقتي حتى لا أصاب بالإعياء؛ لم أتمكن من ملاحظة الوقت الذي أخرج فيه تشارلي دفتر ملاحظات صغيرًا من جيب معطفه. ورسمه عددًا من الاسكتشات للمواد المعروضة أمامنا بقلم رصاص على نحو سريع.

قال هولمز برفق وهو يمرر الملقط المعدني إلى فلور: "لاندوڤر؟ أخبر صديقينا هنا ما قلته من قبل. إنهما في حاجة لمعرفة ما الذي استمعت إليه ورأيته". ثم وجه حديثه إلى فلور وتشارلي، وتابع موضحًا: "أيها السيدان! جزء من هذه البقايا يعود إلى عطيل وهو كلب صيد إيرلندي. كان الكلب مملوكًا لصديق لاندوڤر وهو ديكي، كلا الرجلين شاهدا الحيوان وهو ينمو منذ أن كان جروًا. لذا فمن الطبيعي أن تتسبب هذه المجزرة في ضيق لاندوڤر أكثر مما لو كانت اقتصرت على ذبح الأرانب فقط".

قال فلور وهو يربت برفق على كتف لاندوڤر: "أنا آسف للغاية. لقد نشأت بدوري مع كلاب الصيد الاسكتلندية وكلاب صيد الثعالب. ومؤخرًا، طُلب مني توزيع الجوائز على

تلاميذ المدارس لعطفهم على الحيوانات. مجرد رؤية حيوان يؤذى بمثل هذه الطريقة يمزق قلبي، ومعرفة أن هذا الحيوان تحديدًا كان يعد نعمة في حياتك تزيد من الألم سوءًا".

أعترف... لقد وجدت كلمات فلور كريمة للغاية، وخاصة بأخذه الظروف الغريبة في الحسبان. بعد محاضرته في نادي ديوجينيس، سمعت عددًا من أعضاء النادي يثنون على فلور لـ "طيبة قلبه". آنذاك، تساءلت في سري ماذا يعنون بكلامهم هذا. لذا، فإن رؤية هذا الرجل يرقى لمستوى سمعته أكد على انطباعي الجيد عنه في ذهني. غالبًا ما يفتقر الشخص الذي يتمتع بعقلية علمية إلى الارتباط العاطفي بالعالم، إلا أن فلور أثبت بوضوح أنه شخص يتميز بكلٍّ من الإحسان والقدرات الفكرية معًا. استخدم فلور الملقط المعدني الذي مرره هولمز إليه في حذر شديد، وأخذ يفحص اللحم والفراء. اقترب تشارلي من صديقه. تبادل الرجلان حديثًا خافتًا، وبنبرات تكاد تكون رصينة، مشيرين إلى الجروح الموجودة على الفراء، والطريقة التي افتُرس بها أحد الأرانب.

قال تشارلي: "بخصوص الأرانب، فإن استهداف الحلق أو العمود الفقري سيؤدي إلى إخضاع الحيوان على الفور".

قال فلور: "تبدو الأعضاء الداخلية للحيوان قد أكلت أولًا". ورفع جزءًا من اللحم الممزق، لتطلق موجة جديدة من الرائحة في الأجواء. لم يكن لدي أدنى شك في أنه كان يفحص الجهاز

الهضمي لأن رائحة البراز كادت تصل إلى مستوًى لا يطاق. ثم وجه حديثه إلى لاندوڤر وقال: "أخبرنا مجددًا، هل سمعت أنين الأرانب؟".

قطب لاندوڤر وجهه، وقال: مثلما تعرف فإن الأرانب عادة ما تصرخ من الألم، وبعدها... لا يحدث شيء آخر. ولكن صراخهم هذه المرة استمر لساعة أو أكثر. لقد سمعته مرارًا وتكرارًا، لكني أقنعت نفسي بأنني كنت أحلم. لا أحد ولا شيء يمكنه اقتحام القن. لا، يا سيدي... الأرانب آمنة. أو هذا ما كنت أعتقده. لا يمكنني تفسير هذا... إنه أمر مثير للحيرة حقًّا!".

واصل هولمز طرحه للأسئلة، فسأل عن تفاصيل محددة مثل عدد الأرانب في القن، وعن الوقت الفعلي الذي سمعوا فيه أنين الأرانب، وأسئلة أخرى من هذا القبيل. بالطبع كان يحاول إثارة ذاكرة لاندوڤر لأنه يدرك جيدًا أن تناول الحادثة من مختلف الزوايا والجوانب ربما يزيد من استعادة لاندوڤر لبعض التفاصيل.

"لستين عامًا، أخذ ديكي يرعى تلك الأرانب، وهذه هي أول مرة يحدث فيها أمرٌ كذلك. كان يربي ستة وثلاثين زوجًا من الأرانب. الآن، بات عددهم عشرة أزواج. بالتأكيد، من حين لآخر قد يقضم أحد الثعالب أقدام أحد الأرانب العالقة في الشبكة، أو ربما يجر ابن عرس أحد صغار الأرانب عبر فتحات الشبكة، لكن لم ير ديكي شيئًا مثل هذا في حياته قط".

سأل تشارلي: "هل يحتمل أنك حلمت بأي جزء مما قلته؟ وبالتحديد عن مدة الصراخ؟ فمن السهل أن يختلط عليك الأمر".

قال لاندوڤر: "لا يا سيدي. توجد ساعة بجوار سريري. وقد ألقيت نظرة عليها حينما بدأت أصوات الصراخ. استمرت الضوضاء لأكثر من ساعة بدون أدنى شك". ثم خفض عينيه إلى السجاد على الأرض، وتابع: "ألوم نفسي بشدة على ذلك... ألومها حقًّا. كان يجب علي أن أنهض من فراشي وأتحرى سبب تلك الجلبة".

ثم مسح عينيه بأطراف كمه، وقال: "بصراحة، أشعر أنني كبرت على هذا العمل. لقد كنت مرهقًا لدرجة أنني لم أستطع النهوض من فراشي، وهذا جعلني أشعر بعار كبير".

أتبع قوله ذلك صمت طويل يكتنفه الإحراج إذ إننا أخذنا نتفكر مليًّا في تقريع لاندوڤر الحاد لنفسه. فمن منا لا يكتنف بداخله شعورًا بالندم على أشياء فعلها وأشياء لم يفعلها؟ إن أفعالنا تطاردنا حتى الموت مهما كانت كبيرة أو صغيرة.

قال فلور متسائلًا: "أكره أن أسألك عن ذلك، ولكن هل أحضرت كل رفات كلب صديقك؟ هل تبقت أي أجزاء أخرى لم تؤكل؟ إذ إنني أفكر أنه ربما تكون هذه مجرد عينة اخترت إحضارها معك لتعرضها على السيد هولمز؟ إجابتك عن هذا السؤال ستساعدنا في الوصول إلى نتيجة".

امتلأت عينا لاندوڤر بالدموع وقال: "لا يا سيدي. هذا كل ما تبقى من رفات عطيل. لقد بحث ديكي المسكين في كل مكان ولكنه لم يجد أي بقايا أخرى. فكما ترى، كنا نخطط لدفن عطيل بطريقة لائقة".

جمع فلور بقايا الأرانب، والتي كانت متصلة لحد كبير، ثم أخذ يفحص جلد الكلب بالملقط المعدني. بذل قصارى جهده لفرشه بشكل مسطح على الطاولة، وقال: "هل لديك مسطرة يا هولمز؟".

بالطبع كان هولمز يملك مسطرة، لذلك سلمها إلى العالم. شرع فلور وتشارلي في أخذ بعض القياسات، وعند انتهائهما، هز فلور رأسه في حزن. عندئذ توقعت إعلانه أنه لن يستطيع مساعدتنا، ولكن بدلًا من ذلك، قال: "تشارلي... أوقفني إذا ما تحدثت خارج السياق، أو إذا ما وجدت استنتاجاتي خاطئة... ولكن أومن بأن هذه الحيوانات مزقت عن طريق شيء ما ليس بكلب، وبالتأكيد ليس ثعلبًا".

وافقه تشارلي على ذلك، ليستأنف فلور حديثه: "كذلك أُكلت الفريسة من الداخل إلى الخارج، بداية من الأعضاء الداخلية وإلى الفروة الخارجية. وهذا عادة ما يعني أن المفترس ليس كلبًا. كذلك، فإن قياسات العضة من السن إلى السن والموجودة على جلد كلب الصيد تتوافق مع قياسات أسنان مفترس أكبر حجمًا. ناهيك عن أنك تحتاج إلى مفترس

يجمع بين القوة والحجم الكبير ليصرع حيوانًا بحجم كلب الصيد الإيرلندي. لذلك يمكننا استثناء الثعالب وبنات عِرْس، والثدييات الصغيرة الحجم الأخرى. لو هاجم كلب آخر كلب صديقك؛ لوجدنا علامات عض على ساقه الأمامية خلال صراعه معه، ولكن لدينا هنا جزء من أقدامه، ولا توجد أي آثار عض عليها".

أومأ فلور لحارس الماشية في إشارة إلى تفهمه لمصابه، وقال: "آسف مرة أخرى على خسارتك وصديقك للحيوان الأليف. إنه أمر فظيع".

بعدها، وافق لاندوڤر على أخذ رفات الحيوان النتنة معه عند مغادرته. لم يستغرق جمع حزم الفراء واللحم وقتًا طويلًا. شكرنا جميعًا لاندوڤر على مشاركته ما يعرفه معنا. تحدث هولمز مع الرجل في نبرة خفيضة، ثم رأيت بريق عملة معدنية ينتقل فيما بينهما قبل أن يربت صديقي على كتفه ويرسله في طريقه.

شكرنا فلور والغامض تشارلي على وقتهما، ووعدناهما بمشاركة أي معلومات جديدة تصل إلينا. بعد رحيل جميع ضيوفنا، لبست وهولمز قفازات جلد ثقيلة لنستعمل الصابون في تنظيف صندوق التبريد والبساط البلاستيكي.

قلت: "هولمز، يبدو أنك تعرف اسم تشارلي الأخير. من يكون هذا الرجل؟".

غطت رغاوي الصابون قفاز هولمز، وواجهه عائق أثناء عملية التنظيف إلا أنه لم يتوقف تمامًا، وقال: "فكر يا واطسون. الرجل عالم. وهو صديق مقرب للسيد فلور. إنه كبير في العمر ويكاد يكون طاعنًا في السن. وملم بعلم التصنيف. فمن سيكون غير تشارلز داروِن؟".

"يا إلهي! أتعني أن تشارلز داروِن زارنا في بيتنا ولم أعرف ذلك! كم هذا مخيبٌ للآمال! لقد كان لدي ألف سؤال وسؤال أريد أن أطرحها عليه بخصوص كتابه أصل الأنواع، ولكني الآن فقدت فرصتي. لماذا لم تنبهني بتشريفه لزيارتنا؟".

هذه المرة، توقف هولمز عما يفعله. رمقني بنظرة تعبر عن انزعاج طفيف، وقال: "لأنه إذا ما أراد تشارلز داروِن زيارتنا دون الرغبة في الإفصاح عن هويته، فإنني لن أفسد عليه زيارته بكشف اللثام عن هويته الحقيقية. من بين العديد من الأمور التي قرأتُ عنها -وأنا واثق أنك قرأت مثلها أيضًا- فإن داروِن المسكين يُطارد خلال كل منعطف يسلكه بسبب وجهات نظره التي يزعم أنها مناهضة للدين. ليس لدي أدني شك في أن المسكين قد توقف عن مشاركة هويته منذ زمن طويل، ليتمكن من التحرك في أوساط المجتمع دون أن يقاطعه أحدهم مع كل منعطف يأخذه. فكما ترى، الانتقاد الحاد الذي تعرض له من قبل الشعب البريطاني ليس سوى مثال جيد على كيف يمكن للناس أن يزعموا أنهم متدينون دون ممارسة طقوس الدين الحقيقية!".

كان لا يزال في نيتنا التخلص من الصندوق الخشبي، ولكننا ظننا أنه من الحكمة غسله بالماء أولًا، وإزالة أي عوالق يمكنها أن تجذب تلك الفئران الكبيرة المفترسة التي تجوب شوارع لندن أثناء بحثها عن الطعام. حملنا صندوق التبريد إلى الخارج بمجرد أن انتهينا من غسله، ووضعناه في صندوق القمامة ليزيله عامل النظافة لاحقًا. بسبب إرهاقي الناتج عن بذل كل هذا المجهود، توجهت إلى غرفة نومي لغسل يدي ووجهي، وكذلك فعل هولمز. بعد مرور فترة وجيزة، سمعته يرن جرس الغرفة من أجل إحضار السيدة هدسون، والتي استجابت لندائه بروحها المرحة التي عهدناها عليها دومًا. على الرغم من أفعالنا الغريبة إلا أن المرأة لا تزال مثالًا يحتذى به لما تتمتع به من روح الدعابة. سمعت صوت هولمز يأتي من وراء باب غرفتي وهو يعتذر لها عن استيلائه على صندوق التبريد، ويعد المرأة الطيبة بأنه سيبتاع لها صندوق تبريد آخر. قررت أن أنضم إليهما بعد انتهائي من غسل وجهي ويدي، وهو الوقت الذي تصادف فيه طرح السيدة هدسون سؤالها عما نرغب في تناوله على العشاء. اتفقت وهولمز على أن عشاء يسيرًا من الخبز والجبن والبصل الأخضر سيكون بمثابة الاختيار الأمثل لعشائنا، وبخاصة بعد رؤية كل هذه الدماء واللحم الممزق منذ صباح اليوم.

قالت بعذوبة: "إذًا سأحضر لكما وجبتكما في الوقت المعتاد. وسأفترض أنكما أزلتما مصدر تلك الرائحة الكريهة أيًا كانت ماهيتها؟".

شكرت المرأة على صبرها معنا بينما قال هولمز معتذرًا: "لقد كانت حالة غير عادية يا سيدة هدسون... غير عادية للغاية. سأشعر بالندم إذا ما أزعجتك بذلك، ولكن ليطمئن قلبك، نعم، لقد أزلنا مصدر تلك الرائحة الكريهة".

قالت: "لا بأس يا سيد هولمز. كل شيء سيكون على ما يرام طالما أنك لم تحضر جثة إلى هنا".

عضضت على لساني بدلًا من أصرخ وأقول إن هولمز فعل ذلك بالضبط، حتى لو كانت الجثث تعود إلى حيوانات!

الفصل الخامس

بعد مرور ما يزيد على أسبوع، لم يصل هولمز إلى اكتشاف حل لغز ما حدث مع أرانب ديكي والكلب المسكين عطيل، ولكنني شعرت بالرضا حينما علمت أن صديقي كتب رسالة طويلة إلى رب عمل ديكي، يشرح فيها أن الهجوم الذي حدث على الأرانب يعد حدثًا استثنائيًّا. كانت هذه كلمات رسالته بالضبط: "لم يقع ذلك الحادث بسبب خطأ من السيد دكوورث". ووافقته من كل قلبي على كلامه هذا. تابع هولمز رسالته ليوضح حقيقة ما جرى: "فيما لدينا من معلومات يمكننا تحديد بشكل ما أن المفترس ربما يكون كلبًا آخر. كلبًا ضخمًا، وعلى الأرجح مسعورًا". ثم أرفق قياسات علامات العضة. كما ذكر اسم السيد فلور بوصفه شاهدًا وخبيرًا يتفق مع ما توصل إليه هولمز من تخمين لحل لغز هذه المسألة.

سألته: "هل تظن أن هذه الرسالة ستكون كافية لإنقاذ وظيفة المسكين ديكي؟".

قال هولمز: "كيف يمكنني معرفة هذا؟".

كان هولمز في حاجة ماسة إلى قضية جديدة. فحينما لا يكون لديه أي شيء يشغل عقله؛ تضطرب قوته وتنقلب عليه وتعذبه. ربما يكون هذا صحيحًا: التجول في الأرجاء مع أحد أكثر العقول الاستثنائية في زماننا هذا، أتاح لي امتياز تسجيل حكايات العديد من مغامراتنا الرائعة. ولكن كما يعلم العديد من قرائي؛ فإن هولمز يمكنه أن يكون فظًّا وسيئ الطبع حينما لا تكون هناك قضية تتحدى قدرات عقله اللامع.

حدث ذلك خلال فترة انحسار قاسية وشريرة لمعدلات الجريمة في لندن، لدرجة جعلتني أتردد في سؤال هولمز عما إذا كان قد راجع عملي بخصوص العينات التي أخذتها من السيد رين القاطن في مستشفى بيت لحم. إلى هذا اليوم، ما زلت أجهل سر طلبي المشورة من صديقي هولمز بخصوص هذه العينات، إذ إنني كنت قد توصلت إلى استنتاجاتي الشخصية عنها بالفعل. وكان من المفترض أن تكون هي المحصلة النهائية. ولكن أجبرني دافع ما -كان يثير إزعاجي- على إشراك هولمز في هذه المسألة.

كنت قد تفحصت جميع محتويات أظرف العينات الشفافة تحت المجهر الذي يحتفظ به هولمز على مكتبه. كان توماس هنري قد تحصل على عينات من جلطات دماء صغيرة، وعينات من البراز، بالإضافة إلى قصاصات من العشب، وبعض القش الذي ينام عليه مريضه الذي أصابه الوهن. أما بالنسبة للسائل الكريه الذي استخرجته من الخراج، فلم أجد أي طفيليات

تسبح بداخله. كذلك كانت هناك حزمة من الفتات وجدتها مزعجة على نحو خاص إذ بدت مثل الرمل المطحون، ولكنها لم تكن رمالًا حقًّا. كذلك لم أجد أي بقايا من حبيبات الكوارتز في العينة، وهو الأمر الذي حيرني على نحو مستمر فيما يخص ماهية طبيعتها الحقيقية على الرغم من أنني شاركت المعلومات الأخرى في خطاب أرسلته إلى توماس هنري بعد مرور يومين من زيارتي.

منذ ذلك الوقت، لم يصلني أي شيء منه، ولا حتى كلمة واحدة. كنت أعرف أن توماس هنري قد استلم رسالتي لأن الساعي أكد لي أنه سلم الرسالة شخصيًّا إلى توماس هنري. كان هذا آخر تواصل لي معه رغم أنني طلبت منه صراحة أن يخبرني برأيه في استنتاجاتي. وجدت افتقار توماس هنري إلى اللباقة اللازمة -إذ إنه لم يكتب إلي رسالة شكر، ناهيك عن أي ردود بخصوص أبحاثي المتعلقة بتلك المسألة- فهو لم يسهم في رفع معنوياتي بأي شكل من الأشكال.

في الواقع، شعرت بالسوء، وأنه تم استغلالي. لذلك، كان لدي نزر يسير من الصبر إزاء سلوك هولمز النزق ومزاجه العكر. هذا اليوم هو العاشر منذ أن شاركت استنتاجاتي مع توماس هنري، لذلك أوقفت عربة أجرة تجرها الخيول، وتوجهت إلى مستشفى بيت لحم، لأجدني أمنع من الزيارة بوقاحة عند وصولي إلى الباب الرئيس للمستشفى. وعلى حسب حديث رئيسة الممرضات المناوبة، كان زميلي في منتصف اجتماع

ما، ولا يمكن إزعاجه، ناهيك عن أنه لا يملك وقتًا لمقابلتي. فاقترحتْ علي أن أحجز موعدًا لمقابلته بعد مرور عدة أسابيع. وجدت الأمر برمته مزعجًا. والآن، ومع عودتي إلى المنزل رقم ٢٢١ ب من شارع بيكر، لم تكن لدي أي رغبة سوى أن أتخلص من الرائحة الكريهة والأجواء الثقيلة عند تعليق معطفي على الشماعة الموجودة في ظهر الباب.

كان هولمز يتصفح الجرائد وهو مستلقٍ على الأريكة. بدا واضحًا أنه لم يجد أي مقال يعجبه، إذ تناثرت العديد من الصفحات التي استبعدها في أنحاء الغرفة. ومع التفاته نحوي، وجدتُ تعابير وجهه تؤكد لي مخاوفي.

قال وهو يلقي بقية ورق الصحف في الهواء: "آه! واطسون. لدي يقين بأنك استمتعت بجولتك؟". كانت هناك نغمة ساخرة في سؤاله.

"ليس الآن يا هولمز! أنا لست في مزاج...".

ولكنه تجاهل حديثي بالكامل، وتابع التنفيس عن غضبه: "هل أصدرت الملكة فرمانًا وأرسلت كل مجرمي لندن في إجازة؟ لا يوجد أي تلميح إلى فضيحة أو مؤامرة تدور أصداؤها في أيٍّ من تلك الصحف الصفراء". وفي نوبة غضبه، ركل بقية الصحف بقدميه في الهواء، ليبعثر المزيد من الأوراق المتطايرة في الغرفة.

"يا إلهي يا هولمز. هل يجب أن تفعل هذا حقًّا؟".

لكنه تجاهل توسلاتي، وتابع قائلًا: "يجب أن أعترف... حتى هذا اليوم، كان هناك شعاع من الأمل في الأفق. كنت أتابع قضية تعدني ببعض الإثارة. ولكن اليوم، لا شيء، لا شيء على الإطلاق! لا توجد أي إشارة عن العميل المختفي! دعني أعلن أمامك ذلك يا واطسون، هل بات عقلي مشوشًا لدرجة أنني أجد هذا الخبر مثيرًا للفضول؟".

ألقى هولمز بإحدى الأوراق المتجعدة بغضب في وجهي، ونكز بأصبعه العظمي الطويل إلى قصة معينة، وقال شاكيًا: "تفشي هجمات وحشية من قبل كلب ذي مظهر غير اعتيادي. اقرأ الخبر بنفسك. أوه، لا عليك!". ثم حال دون الوصول إلى الصفحة التي عوملت بقسوة في حركة سريعة، وتابع: "سأقرأ عليك الحقائق المرتبطة بالخبر".

بذل هولمز مجهودًا مضنيًا في فرد الصفحة بالكامل براحتَيْ يديه، ثم ألقى نظرة فاحصة على المقالة مجددًا، وأشار بإصبعه كالرمح ناحية النقطة التي أزعجته وأغضبته.

قال مقتبسًا وفي نبرة مبالغة: "ذكر العديد من الشهود عن مشاهدتهم لكلب ذي مظهر وحشي ومخيف في محيط المنطقة قبيل وبعد الهجمات".

ثم واصل: "هل انحدر بي الحال إلى هذا الحد؟ هل أنا مدمن على تلك المطاردة الآن لدرجة أنني أجد مهربي في

الوصول إلى حالة من السمو من خلال مطاردة الكلاب ذات الطباع السيئة؟".

"ربما يجب عليك فعل ذلك. ربما يكون ذاته الحيوان أو الحيوانات التي أثارت قلق صديقك العجوز والمسكين لاندوڤر". حاولت أن أكون صادقًا في حديثي قدر الإمكان، ولكني كنت أشعر بالضيق أيضًا، ولم أكن في حالة مزاجية تسمح لي بتدليل شريكي في السكن.

نهض هولمز من على الأريكة، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا في غضب. كانت يداه معقودتين خلف ظهره بينما أخذ يزيح بأقدامه أكوام الصحف الملقاة على الأرض ليعصف بها في أرجاء الغرفة. وأخذت غضبته تزداد شيئًا فشيئًا. "أريد جريمة! جريمة! سأدفع أي ثمن لأجل خيط جريمة واحدة!".

قلت: "توقف عن هذه الحماقات يا هولمز! إذا كان كل ما تريده هو التحقيق في جريمة؛ إذًا ستجد مسكنك في مستشفى بيت لحم، لتحقق هناك. ستجد هناك أشنع الجرائم التي ارتكبت على ظهر البسيطة. ذلك المكان بلاء على البشرية".

خفتت حدة بريق عيني هولمز بينما توقف عن مشيته، ثم نظر إلي بوجه شاحب: "أوه، أنا آسف يا واطسون. كانت زيارتك للمصحة اليوم. لقد رأيت الملاحظة التي تركتها لي. لقد كانت لفتة طيبة منك. إذًا، كيف سارت زيارتك؟".

تنهدت وحاولت ألا أبدو كشخص بائس مثلما كنت أشعر في داخلي، وقلت: "لم تكن جيدة. لم أتمكن من دخول المستشفى".

"ولكنك أرسلت لزميلك نتائج استكشافاتك التي توصلت إليها عن طريق مجهري، أليس كذلك؟".

أومأت برأسي وقلت: "هذا صحيح. لقد أرسلت نتائج بحثي إلى توماس هنري في رسالة بعد إحضاري العينات إلى المنزل بيوم واحد".

رفع هولمز حاجبه وقال: "هل أرسل إليك ردًّا بعد؟".

قلت: "لا. في الواقع، وجدت ذلك غريبًا. أنه لم يرسل إلي أي إشارة تنبئ بأنه قرأ نتائج بحثي".

سأل هولمز: "هل تسمح لي برؤية العينات؟ فأنا يساورني الفضول بشأن ما وجدت".

قلت: "بالطبع". ثم نهضت من مقعدي لأحضر إليه العينات. ما أراد هولمز رؤية عينة الفتات، فليكن كذلك، إذ لم تكن لدي أي رغبة في الشجار مع صديقي، ولا تثبيط اهتمامه؛ لأن إبقاء هولمز مشغولًا مثله مثل إبعاد الأطفال عن التسبب في الأذى. ربما لا يحب المرء رؤية المشاهد العنيفة، ولكن لحظات السلام الهانئة التي تتبعها تستحق كل هذا العناء. مع أخذ كل هذه الأفكار في الحسبان، ذهبت إلى غرفتي، لأبحث عن

الأظرف الشفافة التي تحتوي على العينات، ثم عدت بها إلى غرفة الجلوس، وسمحت لصديقي بفحصها. أحضر هولمز دفتر ملاحظات وقلم رصاص. وبشغف كبير، وضع الشريحة الزجاجية الأولى تحت مجهره، ودون بعض الملاحظات. كرر العملية نفسها مع الشريحة الزجاجية الثانية، وأخذ يتابع على المنوال ذاته. كان هولمز لا يزال يتحكم في عدسة المجهر في حماسة عندما أطلق صرخة قوية. قال: "ياه! هل رأيت هذا؟".

ثم تنحى جانبًا ليسمح لي بفحص المادة الشبيهة بالبودرة على الشريحة الزجاجية. "نعم. لقد خلصتُ إلى حقيقة أن الرجل المسكين وقع على أرض رملية ما...".

"صحيح، ولكن... ألم ترَ ذلك بعد؟".

سألت بنبرة متعبة: "أرى ماذا؟". كنت قد حددت بالفعل ما يوجد في تلك العينة، وتسببت أسئلة هولمز المتكررة في إحساسي بالضيق.

نظر هولمز إلى الأنبوب، وببطء أخذ يحرك المقبض، مما أدى إلى التركيز الدقيق على العينة.

أخذ يهمهم بينه وبين نفسه، ثم رفع رأسه من على عدسة المجهر، وبدأ يدون ملاحظاته في سرعة. فجأة، توقف عما يفعله. تراجع المحقق الكبير عدة خطوات للوراء، ووضع يديه على خاصرتيه بينما أرخى رقبته إلى الخلف، وأغمض عينيه.

ارتسمت ابتسامة مشدودة على شفتيه قبل أن يفتح عينيه. نظر إلي، ثم غمز بعينه.

عاد إلى الطاولة، ثم أخرج الشريحة الزجاجية الموضوعة على منضدة المجهر ووضع شريحة أخرى. أمسك بالملقط، ورفع جزءًا من بقايا صدف البحر، ووضعها على الشريحة الزجاجية. ثم أخذ يدرس العينة لبعض الوقت قبل أن يحرك رأسه بسرعة. توجه إلى رفوف المكتبة، فحص العديد من المجلدات الضخمة والنصوص والأوراق البحثية المكدسة بشكل فوضوي على الرفوف.

مرر أصابعه على كعوب الكتب، ثم أمسك أحدها بين أصابع يديه، وأخرجه من ملاذه الآمن. جلس هولمز على مقعده المعتاد، وأخذ يقلب صفحات الكتاب. لم يمض وقت طويل حتى وجد ما كان يبحث عنه.

صرخ قائلًا: "كيربيديا!". ثم نهض على قدميه، وأسرع ناحية مكتبه، ثم نظر عبر عدسة المجهر، وألقى نظرة أخرى على ملاحظاته.

قلت متسائلًا: "عفوًا!"، إذ ظننت أنه يريد أن يقول: "وجدتها!".

استدار هولمز ناحيتي، وقال مبتسمًا فيما يشبه الانتصار: "برنقيل يا واطسون! برنقيل وملح البحر".

"برنقيل؟".

"نعم".

قلت متسائلًا: "لماذا يكون هذا الرجل، أو أي رجل آخر مغطًّى بالبرنقيل وملح البحر؟ فقبل أي شيء آخر، لقد عثر عليه وسط مدينة لندن".

بدا أن سؤالي أثار إزعاج هولمز بهذا الشأن أيضًا. أجاب بهدوء: "أقترح أن نسأل السيد رين شخصيًّا عن ذلك. والوقت الحالي يبدو بمثابة وقت مثالي للبحث والتنقيب في الأرجاء".

قلت: "لا يا هولمز! لن أعود إلى ذلك المكان الفظيع مجددًا! فقط المجانين هم من يمكنهم تحمله". أعترف بأني ما زلت أشعر بخيبة أمل من ناحية لا مبالاة توماس هنري إزاء جهودي. إنه حتى لم يرسل إلي ملاحظة واحدة!

حدجني هولمز بنظرة لعوب، وقال: "هذا هو ما عليه الأمر يا واطسون! أنا بالفعل مجنون. بل أنا أجن من صانعي القبعات. على الأقل سأكون مجنونًا لفترة قصيرة، يجب أن أفعل هذا. إذا لم تُصَدِّق على شهادة جنوني بوصفك طبيبي الشخصي؛ فسأذهب إلى هناك بمفردي. إذا لم تصدر شهادة تفيد بجنوني فعندئذ سأطلب منك مساعدتي لتسهيل أمر دخولي إلى المستشفى. بالتأكيد، لن تسمح السلطات بدخولي بمفردي لإجراء تحقيقاتي الخاصة. واطسون... أنا لا أحب

الاحتمالات التي تتكشف أمامي. أخشى أن الوضع أكثر تعقيدًا مما يبدو عليه".

"هاه، ماذا؟ عن ماذا تتحدث؟ أنا لم أعد أفهم ما تقول".

"أعني هذا المزيج من البرنقيل وملح البحر، وكل المواد الغريبة الأخرى التي كانت عالقة بالرجل المسكين".

"هذا هراء! أنت لا تعرف أي شيء عما وجدته".

قال هولمز: "أعرف بالضبط ما وجدته يا واطسون. لقد كتبت مسودتين عن مشاهداتك إلى توماس هنري. وألقيت بالمسودة الأولى في سلة المهملات لأنك لطخت عنوانه ببقع من الحبر. لذلك، أخرجتها من القمامة وقمت بقراءتها".

"يا إلهي يا هولمز. أي نوع من الرجال أنت لينحدر بك الحال لقراءة قمامة صديقك؟".

"من النوع الذي يملك عقلًا فضوليًّا يا واطسون. هذا كل ما في الأمر. والآن، توصلت لنتيجة أن هناك أمرًا ما مثيرًا للشك في مستشفى بيت لحم. أمرًا يتعلق بالسيد رين ومحاولة هروبه الأخيرة. لا بد وأن هناك سببًا يجعل الرجل يرفض الحديث".

هززت رأسي وقلت: "لا يوجد شك في أن ذلك له علاقة بحالته الصحية السيئة. أنت لست في حاجة إلى رؤيته يا هولمز. فبشرة الرجل لونها أصفر غريب فيما عدا الأجزاء التي تتخللها الكدمات والبقع. وعيناه منتفختان".

"وهذا ما يزيد الحاجة إلى سؤاله عن تاريخه. فمن الواضح جدًّا أن أحدهم ارتكب جريمة أو اثنتين بحقه".

كان اعتقاد هولمز قويًّا، ولا يمكنني تغييره. قلت: "هولمز، من السهل معرفة ما تفكر فيه. كما هي عادتك دومًا، عقلك يبحث عن زبون عندما لا تكون هناك أي قضية متاحة أمامك".

"ربما! ولكن ماذا لو كنت مخطئًا؟ مهلًا، لدينا صحبة هنا يا واطسون!".

ارتفع صوت طرقة خافتة تنبئ بوصول ضيف غير متوقع. كيف عرف هولمز أن هناك شخصًا ما قادمًا! الإجابة عن هذا السؤال ستكون خارج نطاق قدراتي.

صاح هولمز: "ادخل!"، بينما ذهبت لاستقبال ضيفنا.

فور أن فتحت الباب، لم يكن بوسعي سوى قول: "توماس هنري! ما الذي جاء بك إلى هنا؟". كنت أعد نفسي شخصًا كريمًا للغاية لأنني لم أضف إلى كلامي: لماذا كنت تبدو مشغولًا جدًّا لترفض مقابلتي قبل بضع ساعات؟ لا، لم أفعل. تمالكت أعصابي قبل أن ألقيَ بهذه الاتهامات في وجهه، إذ أخبرتني ملامح وجهه المضطربة بأنني يجب أن أتوقف عن متابعة هذه المسألة.

سألته بينما أحثه على دخول الشقة: "ما الأمر؟ ما الذي حدث؟".

ترنح توماس هنري في مشيته، وقال: "جون... لقد اختفى!".

قلت: "ماذا تقول؟ هل هرب السيد رين مجددًا؟ بحق الجحيم، كيف نجح في تحرير نفسه ليهرب هكذا؟". إذ تذكرت سترة القيد التي كانت تحكم حركة السيد رين. لا بد وأن الرجل تلقى مساعدة ما... بل في الواقع، لا بد وأنه تلقى الكثير من المساعدة.

رد توماس هنري: "ليس لدي أدنى فكرة. كل ما بوسعي إخبارك به أنه اختفى!". كما لو كان هذا يعد ردًّا على سؤالي. تمكن رفيقي القديم من الانهيار على المقعد القريب من الباب، وتابع قائلًا: "هذه المرة لم يهرب بنفسه. لقد أخذوه!".

"أخذوه؟ من؟".

تأوه توماس هنري، ووضع مرفقيه على ركبتيه، وغطى وجهه بكلتا يديه، وقال: "السيد رين!".

"لا يا توماس هنري. ما أعنيه من تقصد بقولك: ‹لقد أخذوه›؟".

صب هولمز كأس براندي لتوماس هنري ووضعه في يدي ضيفنا المرتعشتين. بعد ذلك، حدق هولمز إلى الرجل المعذب في اهتمام شديد، وقال: "د. نوف؟ الآن، ابدأ من البداية وأخبرنا بما حدث".

توتر جسد توماس هنري بشكل ملحوظ. "أرجوك، اغفر لي وقاحتي، ولكني جئت إلى هنا للحديث مع جون. هذا الأمر يجب أن يكون تحت طي الكتمان". أبدت الكلمات التي استخدمها توماس هنري عن مشاعره المضطربة، إلا أن ملامح وجهه كشفت نقيضها تمامًا. في الواقع، كان وجهه خاليًا من أي تعابير!

لم يكن بوسعي مسك لساني هذه المرة، فقلت: "أيًّا كان ما ستقوله لي يا توماس هنري يمكنك أن تقوله في حضرة هولمز. المدهش في الأمر، أننا كنا نتناقش حالة السيد رين قبل وصولك".

أدار توماس هنري رأسه في اتجاهي. بدت نظرة انزعاج واضحة في عينيه، وكان هذا الانزعاج يستهدفني شخصيًّا. ولكني تجاهلت نظرته تلك، وجلست على المقعد المواجه لضيفنا. تصرف هولمز كما لو أنه لم يلاحظ الانزعاج البادي على وجه توماس هنري. بدلًا من ذلك، مشى المحقق باتجاه رفوف المكتبة واتكأ عليها في لا مبالاة. "د. نوف؟ لماذا لا تخبرنا بما حدث؟".

ارتشف توماس هنري رشفة من البراندي، ومسح جبينه بمنديل، ثم قال متنهدًا: "من أين أبدأ؟"، ثم تابع في استسلام: "فما حدث يجعلني في حيرة من أين أبدأ".

ثم أنهى مشروب البراندي في جرعة واحدة، وتابع في تردد: "واطسون؟ لقد أخبرتني رئيسة الممرضات عن زيارتك

وأنك كنت تأمل مقابلتي. أوضحت لها أنني كنت في اجتماع مهم ولن أكون قادرًا على رؤيتك. على أقل تقدير، لم أكن قادرًا على مقابلتك في ذلك الوقت تحديدًا. انتهيت من اجتماعي بعد مغادرتك. وبعدها ذهبت إلى غرفتي، وطلبت عشائي. كنت أسجل ملاحظاتي في دفتر يومياتي بينما كنت أتناول الطعام، فتذكرت تعليقًا أدلى به السيد رين أثار حيرتي كثيرًا. وضعت عشائي جانبًا، وعدت إلى زنزانته لأستفسر منه أكثر بشأن كلامه ذلك. ولكن فور وصولي لاحظت أن باب الزنزانة مفتوح! وهو ما أثار قلقي لأنني كنت أتثبت من إغلاقه عند مغادرتي دومًا. وعلى الرغم من أنني دخلت الزنزانة، لم يكن لدي أدنى فكرة عما ينتظرني بداخلها. فكما تعلم، لم أكن حددت بعد إذا ما كانت حالة السيد رين خطيرة أو لا. لكن تبين أن احترازي لم يكن ضروريًّا؛ إذ كانت الغرفة فارغة".

كان هذا شيئًا لا يصدق. لقد كنت أعلم أن إغلاقه للأبواب عند مغادرته لكل زنزانة بات بمثابة عادة راسخة لديه. لقد رأيته يفعل ذلك عددًا لا يحصى من المرات. سألته: "هل تعني أن السيد رين لم يكن هناك؟".

قال: "أعني، أنه لم يكن هناك أي شيء بالداخل. كل شيء اختفى. بدا الأمر كما لو أن الزنزانة لم تستخدم من قبل قط. لقد نظفت تمامًا".

ثم علق هولمز قائلًا: "تابع حكايتك..."، وأشار إليّ بأصابعه الطويلة ليخبرني بأن أدون الملاحظات. نهضت

من مقعدي، وتوجهت إلى المكتب، وأمسكت بورقة وقلم، ثم عدت لأستأنف جلستي السابقة. كانت كتابة وتدوين الملاحظات تتناسب مع الموقف الحالي. بغض النظر عما إذا كانت ستفضي إلى قضية أم لا. فقد تعلمت في العديد من المناسبات أن أصغر الانحرافات في حياتنا تنتشر في الأرجاء، ثم تعود إليك فجأة، لتحمل في جعبتها معاني ودلائل أكثر مما خصصناها بها في الأساس.

تابع توماس هنري في حديثه: "ظننت أنني دخلت الزنزانة الخطأ بسبب إرهاقي، فتحققت من الزنزانتين المجاورتين لها. ففي صباح اليوم السابق، كانتا مشغولتين بمريضين آخرين. ولكن تينك الغرفتين كانتا فارغتين مثل غرفة السيد رين. لم يكن هناك أي أثر لشاغليها السابقين. كل دليل يشير إلى إقامته داخل الغرفة اختفى بشكل دقيق".

سألت بينما ألقيت نظرة على صديقي: "ما رأيك بخصوص ما سمعته يا هولمز؟". كان هولمز لا يزال يقف متكئًا إلى رفوف المكتبة.

قال هولمز متجاهلًا سؤالي: "تابع حديثك يا د. نوف. لديك جمهور مشدوه بما تحكيه". وبصورة غريبة، أخذ يتشمم الهواء.

"أرجوك يا سيد هولمز، كما أخبرتك من قبل، أنا لا أتبع البروتوكول داخل هذا المستشفى. لا أحد يناديني بلقبي

هناك. اسمي هو توماس هنري. في حقيقة الأمر، جميع الأشخاص الموجودين في المصحة ينادونني بتوماس هنري، حتى المرضى يفعلون ذلك. مُتابعًا لما كنت أقول، بحثت عن الحارس المسؤول عن السيد رين. وعندما عثرت عليه في الخزانة، وجدته فاقد الوعي ومقيدًا كإوزة عيد الميلاد".

أثناء حديث توماس هنري، سار هولمز خلفي. راقبني المحقق بينما كنت أدون كلمات توماس هنري.

قال توماس هنري: "كانت هناك كدمة مروعة على رأس الحارس، ولكنه سرعان ما استعاد وعيه وأخبرني عما حدث. أخبرني بأنه كان يقوم بجولاته، وتحقق من وجود السيد رين، والذي بدا غارقًا في نعاسه".

قلت مقاطعًا: "هولمز؟ دعني أوضح لك هذه الجزئية؛ لا توجد حاجة لدخول الزنزانات من أجل التحقق من وجود المرضى".

أومأ هولمز برأسه، ومشى باتجاه المكتب حيث استقر غليونه في حامله. سحب عود ثقاب من علبة الثقاب التي يحتفظ بها في الدرج، فدبت الحياة في العود عندما حكه في باطن حذائه. توهج رأسه بوميض جحيمي انعكس في حدقتي عيني هولمز باللون الأحمر. وسرعان ما اختفى المحقق العظيم وراء سحابة من الدخان. ولأنني كنت أفهم طبيعته تمامًا، كان بمقدوري تخمين أنه يفكر، يفكر بعمق.

أحس توماس هنري أنه يجب أن يزيد من إيضاح النقطة التي أشرت إليها، فقال: "كل ما يجب على المراقب فعله هو تحريك القرص الدائري المخصص للمراقبة إلى جهة اليمين ليتمكن من رؤية ما يوجد بداخل الزنزانة دون الحاجة إلى دخولها شخصيًّا".

ثم استأنف حديثه السابق: "بعد أن انتهى الحارس من التحقق من وجود السيد رين، تابع جولته ليتفحص بقية الزنازين الأخرى. بدا المريض في الزنزانة الأولى نائمًا هو الآخر، وعندما وصل إلى الزنزانة الأخيرة، وجد شلنًا ملقًى على الأرض؛ فانحنى لالتقاطه. طبقًا لروايته، بمجرد أن انحنى أرضًا، فتح الباب بعنف. وضرب المعتدي الحارس على رأسه. أخشى أن هذا هو كل ما تذكره". تنهد توماس هنري كما لو كان يضع بذلك حدًّا لحكايته.

ذرع هولمز الغرفة جيئة وذهابًا إلى أن وقف مباشرةً خلف توماس هنري. تجمد المحقق العظيم في مكانه عندما حدق نحو كتفي زميلي. ببراعة، أزال شيئًا ما من على كم معطف توماس هنري دون علم الأخير بذلك.

قال توماس هنري وهو يميل برأسه إلى الوراء ليتطلع إلى هولمز: "أوه، هناك شيء آخر يا سيد هولمز. لست واثقًا مما يعنيه ذلك، ولكن العامل أصر على أمرٍ ما كان غريبًا بعض الشيء. لكني واثق من كونه مخطئًا، لكن...".

سألته في محاولة لصرف انتباهه عن حقيقة أن هولمز يكاد يتشمم رقبته: "أجل، ما هو ذلك الأمر؟".

قال توماس هنري في تردد كما لو أنه سيندم على خروج هذه الكلمة من فمه: "كلب".

سألته: "ما الذي تعنيه بكلب؟". هذا حقًّا لا يحتمل. أن تتم الإشارة إلى الكلاب لمرتين في الشهر، الحيوان الأكثر تقديرًا من بين جميع الحيوانات الأليفة، وكلتا المرتين مرتبطتان بمهمتين للتحقيق في جريمتين. بالطبع، هذا لو افترضنا أن حادثة قتل الأرانب يمكن تصنيفها على كونها جريمة. ولكني واثق أنها تعد جريمة من وجهة نظر لاندوڤر وديكي.

"لقد أقسم العامل على أنه رأى كلبًا غريب الشكل يصعد الدرج بسرعة قبل أن يفقد وعيه".

سأل هولمز: "حسنًا، ماذا يكون؟". وبعد أن أكمل هولمز دوارنه حول توماس هنري، توجه صوب الأريكة ليدور من حولها دورة جديدة.

تورد وجه توماس هنري خجلًا، وقال: "كلب ضخم جدًّا. يصعب تصديق تقريره، أليس كذلك؟ فنحن لدينا العديد من العاملين الذين يعرفون بشربهم للنبيذ في النوبات الليلية، لذلك لا يمكنني أن أعدك بأن هذا العامل لم يبالغ في روايته".

كان سماع ذلك مزعجًا، ولكنه لم يكن مفاجئًا. إذ يعرف عن لندن أنها مدينة موبوءة بالحيوانات. كلاب، قطط، وفئران،

كل تلك الحيوانات تجوب شوارعها. تقتات على القمامة، والفضلات، وبراز الخيول، وأي فتات يجدونه في الأنفاق التي تجري تحت المدينة، التي تشبه قرص نحل عملاقًا. ففي الوقت الذي تحسنت فيه حالة المدينة الصحية بعد بناء الحاجز على ضفتي نهر التايمز، إلا أن هذا يعد جانبًا واحدًا من حل المشكلة. فمن دون وجود أي جهود مركزية لجمع القمامة ونقلها بعيدًا عن لندن؛ سيكون هناك مكانٌ للحيوانات التي تفتش النفايات دائمًا... دائمًا.

تابع توماس هنري ثرثرته: "أقسم الحارس أنه رأى ذلك المخلوق الضخم والغريب الشكل يصعد الدرج بسرعة قبل أن يفقد وعيه. على الأرجح أنه كان مخطئًا. لا شك وأنه كان مشوشًا بعد أن ضُرب على رأسه".

"هل ذكر أبعاد ذلك... المخلوق؟".

احمر وجه توماس هنري خجلًا، وكور قبضته ليغطي بها سعاله، ثم قال: "من الصعب تصديق ذلك، لكنه أقسم أن... هممم... الحيوان كبير، في حجم رجل بالغ. كما لو أنه كلب بالغ الضخامة".

وجدت تقريره ذلك صادمًا، ولكنه لم يزعج هولمز على الإطلاق إذ عاد ليستلقي على مقعده المفضل، وغطى عينيه بذراعه ليسترخي في جلسته في هدوء. في حقيقة الأمر، استمر هولمز على وضعيته تلك لفترة طويلة لدرجة أنني ظننت معها

أنه استغرق في النوم. تبادلت نظرة حائرة مع توماس هنري. هززت كتفي في لا مبالاة، وجلست في مقعدي بدوري.

فجأة، حرك هولمز قدمه ناحية الأرض، وقال: "دكتور، هل رأيت بنفسك أي حيوانات في المستشفى؟". ثم نهض من مكانه، وتحرك مسرعًا صوب المجهر. كان بوسعي رؤيته من موضعي، وهو يحمل عينة بين أصبعي يده. على الأرجح كانت تلك العينة هي ذاته الشيء الذي وجده على كتف توماس هنري. وضع هولمز العينة على الشريحة الزجاجية، وبصورة عادية لا تسترعي الانتباه، راقب العينة عبر عدسة المجهر.

ضحك توماس هنري في عصبية وقال: "هي حيوانات صغيرة بكل تأكيد. لقد رأيت دلائل على وجودها داخل المستشفى. لقد أحضر أحد الحراس قطة للقضاء على مشكلة الفئران والجرذان المنتشرة بين جنبات المستشفى. كان للقطة مطلق الحرية في التجول في أرجاء المستشفى. خلال ذلك الوقت، لاحظت انخفاضًا في كمية فضلات الفئران، كذلك أتذكر أن القطة تركت فأرًا ميتًا بالقرب من مكتب ذلك الحارس. كما لو كانت هدية تعطيها للحارس... هذا إن جاز التعبير عن ذلك. لكن هكذا هي الحياة في أكبر مدن العالم، أليس كذلك؟".

لم أجب وهولمز على سؤاله البلاغي الأخير. فتابع توماس هنري: "ولكني لم أر حيوانًا بضخامة رجل بالغ! بعد أن أبلغني

الحارس بتلك الحادثة الغريبة، أمرت عمال الحديقة بأن ينشروا بعض الفخاخ في المكان، وأن يتحققوا منها بشكل دوري. فكما تعلمان جيدًا، لا يمكن لأحد إيقاف الفئران والجرذان من التجول في الأرجاء خلال رحلة بحثها عن الطعام ومكان مريح. أما الكلاب فهي حيوانات ذكية بكل تأكيد، لكن في حقيقة الأمر، نادرًا ما أراها في المستشفى. في الواقع، يمكنني القول إنني لم أر أي كلاب داخل المستشفى خلال الأعوام الماضية سوى مرتين فحسب".

علق هولمز متجاهلًا ما قاله توماس هنري: "آها". تشكلت ابتسامة ماكرة على وجه المحقق العابس. ومن جديد، أخذ هولمز يمشي جيئة وذهابًا في أرجاء الغرفة قائلًا: "من المؤسف أنكم لا تسمحون بوجود الحيوانات الأليفة داخل المستشفى. هناك العديد من الدراسات التي تشير إلى أن الحيوانات الأليفة لديها تأثير رائع في تهدئة المرضى العنيفين. بالمناسبة، هل تملك كلبًا أو قطة؟".

كرر توماس هنري مثل الببغاء من خلف صديقي: "هل أملك كلبًا أو قطة؟".

قال هولمز: "هيا هيا يا دكتور... ليس لدي وقت كاف للتلاعب والمرواغة بالكلام معك! كذلك فأنا أكره تكرار ما أقوله. إنه سؤال واضح وصريح، والإجابة بنعم أو لا ستكون كافية".

أجاب توماس هنرى: "آسف"، ثم استعاد رباطة جأشه، وتابع: "لم أكن أحاول أن أتذاكى عليك. في الإجابة عن سؤالك؛ ستكون إجابتي لا. بخصوص هذا الموضوع. لا، أنا لا أملك كلبًا! أو قطة. وإذا كنت تريد أن تعرف ذلك حقًا، فإنني أكره الاقتراب من الحيوانات. وذلك هو أحد الأسباب التي أثارت انزعاجي بعد الاستماع إلى تقرير الحارس عن مشاهدته لأحد تلك الحيوانات!".

سأل هولمز: "ماذا تعني بذلك؟ كيف أثار ذلك انزعاجك؟". ثم قطع الغرفة باتجاه توماس هنري ليميل بجسده ناحيته، ويتابع: "هل تخاف من الحيوانات ذات الفراء، أم لسبب فسيولوجي؟ فأنا شخصيًّا أعاني منها للسبب الأخير. في الواقع، إنني أعاني من نوبة لا نهائية من العطاس إذا ما اقتربت منها".

كانت هذه معلومة جديدة بالنسبة لي! للعديد من المرات، اقتربنا من محيط الكلاب. ولم ألاحظ أبدًا أيًّا من نوبات العطاس تلك التي وصفها صديقي لتوه.

ارتبك توماس هنري من مدى قرب هولمز منه؛ إذ بدا المحقق العظيم كما لو كان يجثم فوقه مباشَرَةً، فانكمش توماس في مقعده أكثر، وابتسم في ضعف، ثم قال: "أعرف ما تعنيه. فأنا لدي المشكلة نفسها. لا يمكنني الاقتراب منها أيضًا". ثم هز رأسه، وندت عنه ضحكة كما لو كان يسخر بها من حاله.

أجاب هولمز بنبرة لاذعة: "أجل، بالطبع". ثم عاد إلى الأريكة، وتابع: "أخبرني يا دكتور. هل سمعت أي ضوضاء في الليلة الماضية؟".

أومأ توماس هنري برأسه، وقال: "من العجيب أنك سألت هذا السؤال. أبلغ أحد حراس البوابة أنه سمع صرخة عالية وحادة. قال إنها شبيهة بالصرخة التي يصرخها الأطفال حينما يقرصهم أحدهم. صرخة غريبة... شبيهة بطريقة غناء اليوديل. لقد قال إنه سمع الناس وهم يغنون بهذه الطريقة لمرة واحدة في مهرجان ألماني".

قال هولمز بوجه خال من التعبيرات: "حقًّا؟!".

ابتسم توماس هنري بشكل غريب. تمنيت لو كنت أعرف ما الذي يدور بينهما. كان الأمر واضحًا تمامًا أن لا أحد منهما يستلطف وجود الآخر. لم يكن بوسعي الوصول إلى سبب هذا العداء فيما بينهما، على الرغم من أن هذا هو لقاؤهما الأول. عادة ما يكون هولمز منعزلًا وغير مبالٍ طالما لم يثرْ موضوع ما اهتمامه، ولكنه شخص مهذب للغاية لدرجة لا تجعله ينحدر لهذا المستوى من الوقاحة الصريحة. لقد شاهدت صديقي لمرات وهو لا يبدي أي اهتمام لبعض الموضوعات المزعجة أو المثيرة للجدل، كذلك شاهدته وهو يهرول خارج الشقة حينما تثير فكرة ما اهتمامه. ومع ذلك، هذا النفور الواضح الذي يبديه يمثل جانبًا جديدًا من شخصيته، جانبًا لم ألحظه

من قبل، ولم أحبه بشكلٍ خاص. حدج هولمز توماس هنري، وأبدت لغة جسده المُحَقِّقَة أنه كان منزعجًا للغاية.

غير هولمز من دفة الحديث وقال: "يبدو أن السيد رين مهمٌّ لبعض الأشخاص وأنهم يريدون إبقاءه على قيد الحياة، أو أنهم يريدون إسكاته وإبعاده عن طريقهم. أيًّا كانت الإجابة، فإن الاحتمال الأكثر ترجيحًا هو أن السيد رين في خطر مميت. يجب أن نتوصل إلى معرفة هويته الحقيقية، وعلامَ تدور رحى هذه القضية. يجب أن أرى زنزانته. ربما يمكننا عندها اكتشاف شيء ما. هل يمكنك إدخالي هناك يا د. نوف؟ إنني أعمل بأفضل صورة حينما أكون موجودًا في المكان الذي حدث فيه الـ... الاختفاء. لقد دربت نفسي على رؤية ما يغفل عن رؤيته الآخرون".

مجددًا، رفض هولمز مناداة توماس هنري باسمه الأول. ومعه بدأ يتنامى شعور غير مريح في داخلي. فتساءلت في سري، ما الذي يحدث؟

أجاب توماس هنري في توتر: "بالطبع يا سيد هولمز. بالتأكيد يمكننا فعل ذلك. ولكن ليس في الوقت الحالي. يجب أن أحصل أولًا على تصريح من إدارة المستشفى. سيمثل ذلك بعض المتاعب، وبخاصة أنني لا أرى أي فائدة مرجوة من ذلك. فكما شرحت لك من قبل، كانت الزنزانات خالية من أي إشارات ودلائل".

أمال هولمز رأسه في زاوية غريبة وقال: "ربما. على الأقل، هذا ما تعتقده. لكن من يدري ماذا يكون قد غاب عن ملاحظتك؟".

وبهذا الحديث، وجدت أننا وصلنا إلى خاتمة زيارة توماس هنري الغريبة لمسكننا. نهضت من مكاني لمرافقة زائرنا إلى باب الشقة. عندئذ سألته: "ألست مهتمًّا بما وجدناه في ملابس السيد رين، والعينات التي أخذناها من جلده؟".

بدا توماس هنري مصدومًا كما لو أني لم أشارك هذه المعلومات معه مسبقًا، إذ قال: "بالطبع!".

أشار هولمز برأسه ناحية المجهر. فالتحق توماس هنري به، ومال على عدسة المجهر. سحب هولمز أظرف العينات الشفافة من رف الخبز المحمص الذي

"استعاره" من السيدة هدسون من أجل مهمة حفظ العينات تحديدًا، جهز هولمز العينات الزجاجية، ووضعها على حامل الشرائح ليتمكن توماس هنري من فحصها.

عندما وصلا إلى الشريحة الأخيرة، تلك التي تحتوي على عينة من بقايا الرمال والبرنقيل، فجأة، انتصب توماس هنري في جلسته. اتسعت عيناه عن آخرهما كما لو رأى شيئًا أثار خوفه. اندفع مبتعدًا عن المكتب، ومسح على جبينه. ثم استدار على عقبيه لترتطم يداه بكومة من الكتب عن الجرائم البحرية، وتسقطها على الأرض جميعًا.

غمغم بينما ينحني لالتقاط الكتب: "آسف جدًّا". ولكن عندما قرأ العنوان المطبوع على كعب أحد كتب هولمز، ندت عنه أنة. شحب وجهه كليًّا، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه، ووضع الكتاب على سطح المكتب. وبينما كنا نراقبه، التقط د. نوف الكتب واحدًا تلو الآخر ليعيدها إلى مكانها السابق. بمجرد أن انتهى من ذلك، هرع ناحية الباب وقال: "انظرا إلى الوقت. يجب أن أرحل حقًّا. لقد شغلت الكثير من وقتكما اليوم. أتمنى أن تسامحاني على ذلك".

كانت يد توماس هنري تمسك بمقبض الباب حينما قال هولمز: "ألا تريد مساعدتنا في البحث عن السيد رين؟ فهذه الشرائح تشير إلى...".

أجاب توماس هنري في نبرة قوية: "لا. لقد كنت مهملًا في مسؤولياتي. لم يكن علي مشاركة أي معلومات شخصية مثل هذه عن أي من المرضى أبدًا! لا يمكنني تصديق أنني قلت كل هذا. كل ما بوسعي فعله هو أن أتوسل لكما بأن تنسيا ما قلته! تذكرا أني صدمت حتى النخاع. وبخاصة مع الأخبار التي أشارت إلى حيوان بحجم رجل بالغ. ولذلك أسرعت إلى هنا دون أي تفكير. أرجوكما... انسيا أنني كنت هنا. أتوسل إليكما... لا تتحدثا عن زيارتي لأي شخص... أي شخص!".

عندئذ، فتح زميلي القديم الباب، ركض مباشرة إلى أسفل الدرج.

وبينما أخذ صوت خطواته في التلاشي، سألت: "ما الذي حدث يا هولمز؟ أعني، ما الذي يدور بينك وبين د. نوف؟".

قال هولمز بنبرة أشبه بالفحيح، جعلتني أجفل في موضعي: "إذا كان صديقك الدكتور نوف لديه حساسية من الكلاب، فلطفًا منك، اشرح لي لماذا وجدت شعر كلاب على سترته؟".

"إذًا هذا ما وجدته على كتفه. حقًّا يا هولمز. شعرة كلب واحدة لا تعني أي شيء. أنت تطلق تكهنات جامحة وتقفز إلى الاستنتاجات هكذا".

"واطسون. إذا لم تتعلم مني أي شيء حتى الآن، فلتتعلم ذلك: أنا لا أخمن أبدًا، ولا أقفز إلى الاستنتاجات أبدًا... أبدًا!". كانت نبرة صوته عالية وغاضبة لدرجة جعلتني أصمت معها من صدمتي. تابع هولمز قائلًا: "كيف فاتك ذلك يا واطسون؟ الرجل غارق في الشعر حتى أخمص قدميه بما يكفيه ليحيك به حيوانًا آخر. ورائحته! لا يمكن لروائح كل الأدوية والمواد الكيميائية والمراهم الموجودة في العالم أن تخفي رائحة الكلب الأجرب العالقة به. هناك رائحة أخرى أيضًا... رائحة مختلطة برائحة الكلب. لم أتمكن من تحديد ماهيتها بعد، لكنها مألوفة لي. سأكتشفها لاحقًا. لا يا واطسون. إن توماس هنري نوف أو أيًّا كان اسمه الحقيقي، ليس كما يدعي أنه غير معتاد على وجود الكلاب من حوله. هناك ما يحيط بصديقك أكثر مما تراه العين. لقد كنت أعلم أنه يكذب، وهو يعلم أنني أعلم أنه يكذب".

الفصل السادس

مرت الأيام القليلة التالية على نحو متكاسل، وتتابعت على هذا المنوال لتصبح ثلاثة أسابيع كاملة. ازداد عدد أُصص الزهور المزروعة على شرفات المنازل الكائنة في شارع بيكر. ونتيجة لذلك، في اللحظة التي تفتح فيها نافذتنا؛ تعطر روائح الأزهار المبهجة أجواء شقتنا المشبعة بروائحنا الذكورية. وجدت أن روائح الأجواء الربيعية مبهجة، وبخاصة عندما تختلط مع رائحة التبغ القادمة من غليون هولمز. لكن هذا الصباح، طغت عليها رائحة اللحم المقدد اللذيذة، التي أرسلتها إلينا مالكة المنزل الكريمة مع فطورنا.

نظرت إلى الطبق الذي احتوى على شرائح اللحم المقدد، والذي أصبح فارغًا الآن، وقلت: "أظن أنه بوسعي آكل اللحم المقدد كل يوم لبقية حياتي".

قال هولمز: "أتفق معك".

سألته: "حسنًا يا صديقي. أي نوع من القضايا التي وصلت عبر بريدك اليوم؟". كانت هذه الجملة تشبه الافتتاحية فيما

بيننا. أسأل هولمز عن أخبار أي قضايا مثيرة للاهتمام، بينما هو يجاريني في الإجابة لإشباع فضولي. أفعل ذلك لأنه نادرًا ما يتم استدعائي لأداء مهامي بصفتي طبيبًا، ولذلك كنت غالبًا ما أتمكن من مساعدة صديقي. كذلك، لدي دافعان لذلك:

١. لأنها تثير اهتمامي وتحفز عقلي على التفكير.

٢. لأنها تولد أجرًا هامشيًّا لا بأس به، وهو ما أجده إضافة مقبولة للغاية إلى معاش تقاعدي الشهري.

وبالطبع، هناك فائدة ثالثة، وهي السماح لي بمراقبة ما يفعله هولمز. على مدار السنتين اللتين تشاركنا فيهما السكن معًا، أثبتت تصرفات هولمز أنه ينتمي إلى نوعية الرجال الذين يتمتعون بمزاج متقلب. لذلك فإن إبقاء العين عليه أفضل بكثير من تركه يختفي لعدة أيام أو ظهوره المفاجئ بعد اختفائه لمنتصف الليل. في الواقع، استمتعت بوضعنا الودي بمثابة شريكي سكن. لم أكن أرغب في خسارة شريك سكن مثله! لذلك، وجدت أنه من المقبول أن أبقي عيني عليه.

قال هولمز بصبر نافد: "لم يأت بعد... ساعي البريد ذاك. هل اسمه كيران؟ يبدو أنه يتأخر في إحضار البريد كل يوم عن ذي قبل. وهو ما أجده مزعجًا للغاية".

تصادف أني كنت أعرف أن العجوز كيران يعاني من حالة بالغة السوء من الروماتيزم، وهي التي تسببت في جعل جولاته بوصفه ساعيًا عجوزًا أمرًا شاقًّا عليه. وكان الدرج الواصل بين

الطابقين الأول والثاني منحدرًا في منزلنا، وكان صعوده يتعب كيران على وجه خاص.

قلت موافقًا: "نعم". بينما كنت أعاني في داخلي للوصول إلى طريقة لإخبار هولمز عن معاناة الرجل العجوز، ولكنني لم أستمر على هذه الوضعية كثيرًا إذ قاطع هولمز حبل أفكاري.

"تفضلي يا سيدة هدسون!".

لم أسمع قدوم السيدة هدسون. ومع ذلك، ها هي ذي تفتح باب شقتنا. دخلت مالكة المنزل، وسلمت هولمز ظرفًا، وقالت: "آسفة على إزعاجكما أيها السيدان. سيد هولمز؟ رجل ما قال إن الأمر عاجل، وهو يقف منتظرًا جوابًا. لقد كان مصرًّا للغاية، وفظًّا جدًّا".

رد هولمز: شكرًا لك يا سيدة هدسون! الآن، ما عساه يكون ملحًّا للغاية هكذا؟". مزق هولمز الظرف، وفتح الرسالة الموجودة بداخله. وبينما هو يقرأ محتويات الرسالة، علق قائلًا: "قصيرة ومباشرة!".

سألت: "ما فحواها يا هولمز؟".

أجاب قائلًا: "يبدو أن لدينا خطيبًا مفقودًا. الأمر عاجل لدرجة أن كاتب الرسالة لم يقوَ على انتظار إرسالها عبر مكتب البريد".

هززت رأسي في استياء، بينما كنت أصرخ في داخلي. كانت قضايا العشاق المفقودين أمرًا شائعًا للغاية. لقد كان الرجال يحاكون سلوك الأمير ألبرت كزوج حتى الآن فقط. إذ أثبت الأمير الراحل نفسه أنه كان زوجًا مخلصًا في كل شيء يفعله. ولكن للأسف، هنالك هؤلاء الرجال الذين رأوا أن إخلاصه الذي أبداه ليس سوى لأصوله الألمانية المتحفظة، وليس كعلامة على حبه الحقيقي للملكة. وفي الوقت الذي باتت النساء فيه أكثر إعجابًا بسلوك الأمير ألبرت الذي يفضل امرأة واحدة؛ ازداد غضب الرجال أكثر وأكثر. أخبرني أحد أصدقائي القدامي في الجيش: "لقد وضع العزيز ألبرت حاجزًا عاليًا أمام جميع الرجال، لقد فعل ذلك، وجميعًا علينا دفع ضريبة ذلك. تتحدث زوجتي معي دائمًا عن مدى روعة الأمير! لقد سئمت من هذا حقًّا. دعني أخبرك بشيء... ليس معنى أنه والملكة مثل عصفورين متحابين في عشهما أنه علي التوقف عن النظر إلى النساء الحسناوات".

فما حدث هو أن النساء بتن يتوقعن تصرفات جيدة أكثر من ذي قبل من الرجال الموجودين في حيواتهن، إلا أن عددًا قليلًا من أبناء جلدتي سخروا من ذلك علانية، ليثبتوا لأنفسهم أنهم هم من سيضعون شروط زيجتهم، وأنهم لن يأخذوا في الحسبان رغبات زوجاتهم. كانت المحصلة النهائية لكل ذلك، هو أنه في الآونة الأخيرة وجد العديد من الشباب ممن كانوا يتطلعون للزواج أسبابًا تجعلهم يتشككون في قدراتهم على تحقيق

التوقعات المرجوة منهم بوصفهم أزواجًا. لقد شهدنا حالات كثيرة من الهاربين من الزواج، أكثر من آباء مختفين أكثر من أي وقت مضى. أو هكذا بدا الأمر. أو فقط، ربما لم يعد الناس يهتمون بإخفاء مشكلاتهم مثلما كانوا يفعلون في الماضي.

تابع هولمز بينما يتطلع إلى الرسالة: "آمل أن يذهبوا جميعًا لإحدى محررات عمود القلوب الحائرة لتحل لهم مشكلاتهم ويتركوني في حالي! مشكلاتهم التافهة تضجرني حد الموت! ولكن لا ينبغي أن أرفض هذه الرسالة على اعتبار أنها ثرثرة امرأة هستيرية، لأن من كتب هذه الرسالة في الواقع هو والدها... وعادة، لا يستسلم الآباء بسهولة أمام حالات الهستيريا لبناتهم. ربما تثير هوية كاتب هذه الرسالة من اهتمامك بعض الشيء".

ثم ناولني إياها. قرأت الرسالة لنفسي: اختفى خطيب ابنتي منذ ثلاثة أسابيع. أحتاج إلى خدماتك. حالًا! بناءً على نصيحة شقيقك م. هولمز. ننتظر وصولك هذا المساء. أرجوك تعال. الكولونيل جارنت. إيه. كالدويل.

بدا الاسم مألوفًا، إذ تم تقليد كالدويل بطلًا لإظهاره تميزًا خلال خدمة جلالتها أثناء القتال في السودان.

لم تمر فترة قصيرة بعد ذلك حتى وجدنا عربة حصان، لنتجه صوب كننغتون في جنوب لندن. قال هولمز: "طباع مايكروفت تشي بأن أخي لديه غرض معين يجعله يريدني أن أتورط في هذه المسألة. أتساءل ماذا يكون غرضه!".

لم أعلق. كنت أعرف أن من الأفضل ألا أتدخل فيما يدور بين شيرلوك هولمز وشقيقه... أو أي شقيقين آخرين. أما بالنسبة لهذا الأمر تحديدًا، فأنا لم يكن لدي أدنى حد من الثقة بأن مايكروفت يتصرف بحسن نية مثلما يعتقد شيرلوك هولمز.

لاحت الدار في الأفق من أمامنا، كانت عبارة عن قصر مبني من القرميد، وغطيت جدرانه بألواح خشبية بيضاء، ومحاط بسور من الحديد المطاوع تنتهي عند حافتها العليا ما يشبه أوتادًا بارزة. طلب هولمز من الحوذي أن ينتظرنا. كان هناك ممر حجري قصير يفصل الحديقة عن الشارع. لحسن الحظ، كانت البوابة مفتوحة، لذلك أسرعت وهولمز باتجاه الباب حيث استقبلنا الخادم بصوت جهوري، ومن ثم اقتادنا عبر الدرج إلى مكتبة صاحب البيت. كان هناك مكتبٌ مصنوعٌ من شجرة خشب الورد، كان عبارة عن قطعة فنية بحق، تتضاءل أمامه جميع قطع الأثاثات الأخرى الموجودة بالغرفة. ولم يكن عاديًّا إذا ما أخذنا حجمه والإحساس المهيب الذي يصدر عنه في الحسبان. كان هناك مقعدان يواجهان المكتب، ولكن بدا واضحًا جدًّا أنه تم إضافتهما إلى المجموعة لاحقًا. أعترف أنني دومًا ما أجد في مثل هذه المواقف فرصة للتعرف على ما يقرؤه الآخرون، لذلك في الوقت الذي جلس فيه هولمز على المقعد الجلدي، وشرع في عادته الغريبة بتأمل الأحداث اليوم، أخذت أتنقل بشغف بين رفوف الكتب، لأحيط خبرًا بعناوين الكتب التي لم تكن مألوفة لي.

فتح الباب الواقع خلف ذلك المكتب الذي فاقت صنعته الخيال، ليدخل الغرفة رجل ذو هيئة رسمية وصارمة. كان يرتدي قميصًا أبيَض مشدودًا بدون أي تجعيدات، وحلة قديمة الطراز مصنوعة من مادة جيدة. كان بوسعي تخيل أن الكولونيل -ومع سنوات بقائه في الخدمة- لم يكن لديه أي داع لارتداء ملابسه المدنية حتى الآن. كان الكولونيل كالدويل يعاني من المياه البيضاء، والتي شبعت عينيه بالغيوم، ومع ذلك كان هناك بريق مهيب يتوارى خلف تلك الغيوم. ومن الطريقة التي كان يجر بها إحدى ساقيه؛ كان يمكن التكهن بأنه عانى من إصابة خطيرة، أو ربما تكون تلك القدم ليست سوى قدم اصطناعية. بصعوبة شديدة، شق الكولونيل طريقه إلى مكتبه، وأثناء جلوسه، سقط على المقعد تقريبًا. وبما أنني كنت لا أزال واقفًا في مكاني، مددت يدي نحوه، وقدمت نفسي. وسرعان ما انضم إلي هولمز في تقديم نفسه هو الآخر.

لم يكلف كالدويل نفسه عناء تقديم أي مشروبات خفيفة لنا. كانت علامات القلق التي ارتسمت على وجهه تشي بأن الانتباه لتفصيلة مثل المجاملة في تقديم المشروبات للضيوف ستكون غريبة وغير اعتيادية في هذه الحالة. بدا الكولونيل كما لو كان يمعن التفكير في أمر ما قبل أن يتمتم أخيرًا: "تبًا... تبًا! تبًّا لكل ذلك!".

عاد هولمز ليجلس على مقعده بينما جلست على المقعد الآخر، فقال صديقي بهدوء: "إذا استطعت أن تبدأ من البداية

أيها الكولونيل، فسيكون لدي فرصة أفضل في فهم حالتك وتقديم يد المساعدة".

وضع الكولونيل رأسه بين يديه. فعل ذلك بطريقة خرقاء، تجعل المرء يظن معها أن الرجل نادرًا ما يستسلم لمشاعره الجياشة. استعاد الكولونيل رباطة جأشه، ثم رفع رأسه لأعلى قليلًا كما لو كانت علامة توحي بأنه قام بتوبيخ نفسه داخليًّا لكي "يكمل حديثه".

قال: "أجل، أجل، بالطبع. ابنتي الوحيدة، نور حياتي أيها السيدان. قد أفعل أي شيء... أي شيء على الإطلاق من أجلها. هي تبلغ اثنين وعشرين عامًا، وأعترف أنها قد تأخرت في الزواج إذا ما أخذنا عمرها في الحسبان، ولكنها مع ذلك فتاة مميزة للغاية، وليست بفتاة طائشة على الإطلاق. ربما بسبب طبيعة وظيفتي، أدركت وطأة الحياة التي تحمل هدفًا في طياتها. في حقيقة الأمر، كنت أعتقد مع زوجتي أنها ربما لن تتزوج أبدًا. وكنت أتقبل ذلك الأمر؛ لأنني كنت أستمتع بصحبة إينيس في المنزل.

خلال حفلة موسيقية لجمع تبرعات من أجل مدرسة عامة للبنين، التقت مصادفة بأحد زملائها الأكبر سنًّا، والتر بينسون. كان لدى بينسون تاريخٌ مثيرٌ للاهتمام، كانت هناك فجوة زمنية لفترة من حياته تخص مكان وجوده. كان قد عاد لتوه إلى المدرسة ليعمل مدرسًا لمادة الجغرافيا. كانت حالة

الانجذاب بينه وبين إينيس واضحة وفورية. وسرعان ما طلب بينسون يد ابنتي للزواج. أعطيته مباركتي على الفور، فكونه من عائلة آل بينسون، والتي تمتلك عددًا من المطاحن في مقاطعة لانكشاير، جعلني أطمئن على وجود إينيس معه، وأنه لن يبخل عليها بشيء، والأهم من ذلك، كان يمكنني رؤية كيف كان يجعلها سعيدة.

كان كل شيء يسير على ما يرام، وتقدمت خطط زفافهما بسرعة. كانا سيتزوجان في شهر سبتمبر القادم. اعتقدت زوجتي أغنيس أنه من الحكمة أن تقضي إينيس بعض الوقت مع عائلة والتر في قصرهم الريفي في ضيعة بروكهافن حتى تتعرف عليهم، لأن أصهار المرء بيدهم تحويل حياته الزوجية إلى نعمة أو كابوس لا ينتهي. كذلك اعتقدت أنه من الحكمة أن تفعل ذلك، لذا عندما دعت جيليان -شقيقة والتر- إينيس لزيارتهم لمدة أسبوع، بدا كل شيء يسير على ما يرام. ووفقًا لإينيس، فقد كانت زيارتها تمضي بصورة جيدة، ثم...".

قال هولمز حاثًّا الكولونيل على متابعة حديثه: "ثم ماذا؟". مع وصول مضيفنا إلى نقطة الذروة في حكايته، تبدل لونه، وبات شاحبًا، وهو ما جعلني أشعر بالرضا عندما حث هولمز الرجل على الاستمرار في حديثه.

"أُصيبت إينيس في كاحلها على نحو سيئ خلال نزهتهم في الغابة. ساعدتها جيليان ووالتر على العودة إلى منزلهما،

وسرعان ما تولى والدا بينسون زمام الأمور. إذ قاما باستدعاء طبيب ريفي، والذي جاء على الفور. اعتقد الطبيب أن إصابة إينيس أكثر من مجرد التواء عادي في الكاحل، ووصف لها الراحة في الفراش لمدة أسبوعين على الأقل. كان وصف الوضع بالمحرج أقل ما يمكن أن يوصف به، لأن والدي بينسون كانا على وشك السفر إلى الخارج في غضون عدة أيام. ومع ذلك، ستبقى جيليان مع بعض الخدم، لذا بدا أن كل شيء ما يرام". عندئذ، تنهد الكولونيل بعمق، ثم تابع قائلًا: "بالنسبة لبقية القصة، سأدع ابنتي تكملها".

لم يقل هولمز شيئًا. أما أنا، فقد شعرت أن حاجبي ارتفعا لأعلى عند التوقف المفاجئ هذا. ولكني ارتأيت أن أحذو حذو صديقي، فجلست صامتًا في موضعي كما يفعل. بينما رن الكولونيل الجرس، ظهرت خادمة في الغرفة.

سأل الكولونيل موجهًا حديثه إلى الخادمة: "هل ابنتي مستعدة؟". وبعد أن أكدت الخادمة له أن ابنته مستعدة لمقابلتنا، تابع كالدويل: "أيها السيدان... دعونا نذهب إلى حديقة النباتات الزجاجية. إينيس موجودة هناك. إنها تجد الحديقة... مهدئة لأعصابها".

تبعت وهولمز خطا المحارب القديم المتيبسة وهو يقودنا عبر المنزل المزين على نحو جميل. من الجانب الأمامي أو الجانب المطل على الشارع، انتقلنا إلى خلف القصر. كان ضوء

الشمس ساطعًا وباهرًا عندما دلفنا إلى داخل المبنى الزجاجي، والمفتوح على العالم الخارجي من ثلاث جهات. اختار الكولونيل مسارًا عبر العديد من حوامل أصص النباتات، بينما اتبعنا خطواته من خلفه. كانت هناك العديد من أصص النباتات الضخمة معلقة فوق رؤوسنا. وفيما حولنا، كانت هناك العديد من الحوامل المنسوجة تحمل المزيد من النباتات، والتي تعرفت على أنها أنواع مختلفة من السرخس. لم يكن لدي أدنى شك أن تلك النباتات أحبت البيئة الرطبة التي يوفرها لها البيت الزجاجي. شخصيًّا، أحسست بعدم الراحة لأنها ذكرتني بالمناطق ذوات المناخ الرطب التي قضيت فيها خدمتي العسكرية من قبل. بدأ يزحف شعور غريب عبر أنحاء جسدي، ولولا أنني كنت أعرف حقيقته، لظننت أن جحافل من النمل الأبيض -مثل التي نصادفها خلال الغارات التي نشنها عبر الغابات- تزحف على جسدي. بالإضافة إلى أنني أحسست بوخز في مؤخرة عنقي، وهي علامة تنذرني بالسوء، ومع ذلك كنت أمتلك من الأسباب ما يجعلني أتجاهل هذا الدافع الغرائزي. شددت يدي على جانبي لأتحسس أن مسدسي في موضعه. وبطريقة ما، زاد هذا من إحساسي بالأمان.

مع دخولنا إلى الحديقة الزجاجية، وصلنا إلى كرسي على هيئة طاووس، وهو كرسي مصنوع من الخيرزان بظهر متشعب يشبه ذيل الطاووس. تنحنح الكولونيل وقال: "إينيس... يا عزيزتي، لقد أحضرت المحقق الاستشاري وصديقه".

تحرك هولمز في خفة هرة. حاولت قصارى جهدي في محاكاة حركته.

وقفنا في مقابل الفتاة الشابة. كانت إينيس تتمتع ببنية ضئيلة الحجم، نحيفة، ربما يصل طولها إلى خمسة أقدام. كانت تسند إحدى قدميها على مسند عثماني. وكان كاحلها ملفوفًا بإحكام يليق بما يجب أن يكون عليه الوضع عند علاج كسور العظام.

كانت إينيس كالدويل تتمتع بنظرة والدها الثاقبة نفسها عند تقييمنا، إلا أن عينيها الرماديتين اللتين تشوبهما الخضرة، كانتا صافيتين وثاقبتين. كان شعرها بنيًّا فاتحًا ومضمومًا أعلى رأسها. هناك من قد يجدها غير جذابة لحدة ملامحها، ومع ذلك فقد أحببتُ الإحساس الذي يرافق ملامحها تلك.

جلس ثلاثتنا على المقاعد المقابلة للفتاة الشابة، وقام الكولونيل بتقديمنا لها، وأخبرها بالنقطة التي توقف عندها في سرده لحكايته، ثم شجع ابنته قائلًا: "أرجوك يا ابنتي العزيزة، أخبريهما ببقية القصة".

بدت غير قادرة على مواجهة نظرات والدها. في الواقع، كانت تتفادى النظر إلى والدها، وتنظر إلى أي شيء عداه. في النهاية، بدت أنها قد اقتنعت بأننا شخصان جديران بالاستماع إلى حكايتها بعد أن تفحصتنا بنظراتها السريعة، ولكن ليس بالقدر الكافي لطمأنتها. أحس والدها بتوترها، فضرب الجرس.

عندما ظهرت الخادمة، قال: "من فضلك أحضري لنا إبريقًا من الشاي، وبعض النعناع، وبلسم الليمون".

ثم تابع بنبرة محذرة: "إينيس... لقد تخلى السيد هولمز عن قضاياه الأخرى حتى يأتي إلى هنا، سيكون من غير اللائق تضييع وقته هكذا".

نظرت إينيس إلى الأرض، وأومأت برأسها، وقالت: "كنت مخطوبة للسيد والتر بينسون. وكنت قد قبلت دعوته لزيارة بيت عائلتهم الريفي. لم يكن البيت بعيدًا عن هنا. لقد كانت زيارتي مبهجة للغاية. وعند الاقتراب من موعد مغادرتي، قمت بنزهة في الغابة. ولكني تعثرت ووقعت على صخرة مختبئة بين الشجيرات، وكسر كاحلي. تفحصه الطبيب، وضمده، وأخبرني أن أبقى في فراشي، وأقلل من حركتي. وهذا ما فعلته. في البداية، سار كل شيء على ما يرام. ولكن لاحقًا، بدأ والتر يتصرف بطريقة غريبة فجأة. لا أملك الكلمات المناسبة لوصف ذلك. بلا أدنى ريب، كان موسوسًا، وبدا أنه يخفي شيئًا في داخله، كما لو كان يحمي سرًّا غريبًا. ولكنه ليس بالسر السعيد، ليس سرًّا من نوعية إعداد حفلة عيد ميلاد مفاجئة أو شيء من هذا القبيل. لا، أيًّا كان هذا الشيء، لم يكن بالشيء المبهج. كان بمثابة عبءٍ يثقل كاهله. حينما كان يأتي لزيارتي، كنت أترك حياكتي، لانظر إليه...".

توقفت إينيس فجأة.

قال هولمز بنبرة رقيقة لم أسمعه يتحدث بها من قبل: "أرجوك، تابعي حديثك".

قالت: "وجدته يتطلع إلي بطريقة غريبة للغاية! أرجوك يا سيدي لا تسئ الظن فيه! لن أتحمل ذلك. إنني أحب والتر! إنه رجل رائع، وأنا أستمتع بصحبته جدًّا. كان آل كالدويل يمتلكون حديقة زجاجية ملحقة ببيتهم الريفي. ويمكنني القول إن حجمها ضعفا حجم حديقتنا هذه. كان والتر يعشق النباتات الغريبة، وبخاصة تلك النباتات التي تنمو في الغابات الاستوائية. هناك، عرفني على نوعيات من الزهور لم أرها من قبل. أما عن رائحتها... فقد كانت تأسر الألباب. ولكن لم يكن هذا كل شيء، كان والتر يمتلك معرفة عميقة عن العالم الطبيعي تجعل التنزه معه في الغابة متعة تفوق الخيال! كان يشير باتجاه الحيوانات المختبئة في أنحاء الغابة. كان يحيط علمًا بكل مخلوقات البرية. لا يمكنني تحمل فكرة أن أجلب العار على رجل طيب مثله!".

عدل هولمز من جلسته، وقال: "أتفهم رغبتك في الحفاظ على سمعته من أي وصمات تسيء إليه يا آنسة كالدويل. لكن دعيني أخبرك بصراحة: ربما توجد بعض المشكلات التي تخص خطيبك، والتي كان يستحيي من مشاركتها معك، وهو ما تسبب في إزعاجه وإيلامه جدًّا لدرجة أنه قرر الاختفاء. لذلك، كلما كنت أكثر صراحة معي، كان بمقدوري مساعدتك في العثور عليه. أنت تريدين العثور عليه، أليس كذلك؟".

ازدردت ريقها بصعوبة، وقالت: "أوه. بالتأكيد... بالتأكيد أريد ذلك".

قال هولمز واعدًا إياها بأن لم شملهما سيكون وشيكًا: "بمجرد أن تجتمعي به مرة أخرى، سيكون بوسعك مواجهة أي مشكلة تواجهكما".

أومأت إينيس برأسها، وتابعت: "دعني أترك وصف طبيعة سلوكه جانبًا، أعدك بأني سأعود إلى تلك الجزئية وأطلعك عليها لاحقًا".

عند تلك النقطة من حوارنا، عادت الخادمة مع صينية شاي. كانت هناك مجموعة رائعة من أوراق الشاي المتنوعة، وطبق ممتلئ بالبسكويت، بالإضافة إلى كعكات صغيرة ومدورة، محلاة بالكريمة المخفوقة ومربى متنوع. شكرت إينيس الخادمة على إحضارها للمشروبات، لتغادر الخادمة بعدها لتستأنف بقية مهامها على الأرجح.

قالت إينيس: "سمعت والتر يسأل والده لعدة مرات إذا ما كان يمكنه إرسالي إلى منزلي بإحدى العربات. أو حتى إذا ما كان يمكنه نقلي إلى خارج البيت الريفي! كذلك بدت أخته جيليان قلقة أيضًا. كانت تصرفات والدي والتر مثل القطط فوق صفيح ساخن منذ وصولي. لذلك لم تبد تصرفاتهما القلقة مفاجئة لي. فتساءلت في سري إذا ما كان لديهم أي أصول أو آداب تتسم بالغرابة، والتي تجعل معها والتر وعائلته

يشعرون بانعدام الراحة لوجودي معهم. في الليلة التي سبقت رحيل والديه إلى برمودا حيث تقع مزرعتهم. أصررت على أن يتم حملي إلى الأسفل إلى طاولة العشاء. وما أن وصلت إلى الأسفل، أدهشتني رؤية والتر وهو يتناول عشاءً من اللحم النيء دون أي شيء آخر! بلا شك، قدم له الخادم الخضار والمرق لإكمال قائمة الطعام، ولكن بدت تلك الإضافات مجرد شكليات".

سأل هولمز: "لم يعلق أي أحد على تفضيلات غدائه الغريبة تلك؟".

أجابت إينيس في حزم: "لا. في صباح اليوم التالي لرحيل والدي والتر. عقدت العزم على سؤاله عما يزعجه. وإذا ما قرر التراجع عن الزواج، سواء كان ذلك بسبب حادثة التواء كاحلي أم لا. كنت في حاجة إلى سماع الحقيقة من فمه. أخبرته أن عليه أن يخبرني إذا ما كان وجدني غير مناسبة، أو ينقصني شيء ما. وأن هذا سيكون أفضل حل لكلينا".

علقت بهدوء: "هذا صحيح". ظننت أن وجود فتاة مثل هذه الفتاة الشابة أمرٌ نادرٌ. إذ إن معظم العشاق اليافعين مع اللحظة الأولى لوقوعهم في الحب، يعجزون عن رؤية العيوب في الطرف الآخر. وحقيقة أن والتر بدا قلقًا، وأن إينيس كالدويل كانت ذكية وشجاعة بما يكفي لسؤاله عما يدور في خلده، جعلتني أوقن أن هذه الفتاة الشابة ناضجة بالنسبة لعمرها، امرأة شابة يمكنها أن تحول أي رجل تعس إلى رجل محظوظ.

تابعت إينيس: "كان سؤاله مباشرة هكذا عما دهاه يبدو أمرًا غير لائق، ولكني فكرت في ذلك كثيرًا. في النهاية، قررت أننا إذا ما كتب لنا أن نكون زوجًا وزوجة، فإن الأحاديث الثقيلة والصعبة ستشكل جزءًا من البوح المشترك في حياتنا. فبعد كل شيء، أولئك من لديهم حيوات رتيبة، لا يمكنهم مواجهة الصعاب. لذلك، استجمعت شجاعتي. وفي الليلة التي تلت مغادرة والدي والتر، انتظرت في غرفتي حتى أطل والتر برأسه عبر الباب ليتمنى لي ليلة سعيدة. قلت: 'يبدو أنك تشعر بالنفور من وجودي هنا. لقد أدركت أنني أطلت زيارتي أكثر مما يجب، ولكن أنت لا تعتقد أن هذا خطئي، أليس كذلك؟' وافقني على أن ما حدث ليس خطئي. إطلاقًا. فتابعت وقلت: 'لا أريد أن تكون هناك أي أسرار فيما بيننا. أيًّا كان ما أزعجك، أرجوك أخبرني ما سبب ذلك. إذا ما فعلت شيئًا فظيعًا، فلتخبرني حتى تسمح لي بالتكفير عن خطئي. وإذا ما قررت أنني لست المرأة التي كنت تعتقدها، فدعنا ننفصل ويذهب كل منا لحال سبيله. إذا ما غيرت قلبك ناحيتي، فعليك أن تخبرني بذلك'. ثم انتظرتُ رده".

يا لها من شابة شجاعة. كم كانت صريحة في حديثها! يا لها من شريكة رائعة يمكنها أن تجعل أي رجل محظوظًا لوجودها معه. بعد أن تخلت إينيس عن ترددها، واستفاضت في حديثها؛ احمرت وجنتاها خجلًا، واشتعلت عيناها بوهج مشاعرها. لتحولها تلك المشاعر المتأججة من امرأة عادية إلى امرأة مذهلة.

الفصل السابع

قالت إينيس: "امتقع وجهه وبات شاحبًا، وبدأ يرتجف. كانت هذه هي إجابة والتر عن تساؤلاتي. بات صوته المرتعد عنيفًا، وأخذ يتأتئ في كلامه بأنني مخطئة، ثم صحح نفسه، وأقسم أنه يحبني، ولكنه قال أيضًا إنه قلق على سلامتي. وعندما سألته لماذا يقلق على سلامتي؟ قال إن ذلك يعود إلى أن بيت عائلته محاط بغابات كثيفة من كل الجوانب، وأن أراضيهم تؤوي العديد من الحيوانات المختلفة، وهو ما أثار مخاوفه من أن يقتحم أحدها المنزل. ووفقًا لكلامه، ربما تخيفني تلك الحيوانات، وتجعلني أبكي".

توقفت عن الحديث، ثم تناولت كوب الشاي، وأخذت رشفة لتقوي من عزيمتها، وتابعت: "ظننت أن ما يقوله غريبٌ. حقًّا. فأنا لست من نوعية الفتيات التي تخاف وتهلع بسهولة. لم أومن بفكرة أنه كي تتمتع المرأة بالأنوثة؛ عليها أن تصرخ وتتصرف بحماقة. كانت مخاوف والتر لا تتناسب مع الموقف الحالي. لذلك سألته إذا ما كانت جيليان في خطر بدورها. فبعد

كل شيء، هي تعيش في ذلك المنزل أيضًا. أخبرني بأنها في خطر أيضًا، ولكنها تعلمت كيف تحمي نفسها. سألته: ‹تحمي نفسها من الحيوانات البرية؟›، فقال: ‹أجل›".

أومأ هولمز برأسه، وقال: "هل حدد نوعية الحيوانات التي تثير قلقه؟ هل أخبرك إذا ما حدث شيء مماثل كهذا من قبل؟".

قلت في ثقة: "ربما تكون خفافيش. خلال مهنتي، نلت كفايتي من رؤية الخفافيش الضالة، ومدى الدمار الذي تلحقه في طريقها. لقد قلتِ إن والتر يعيش في ضيعة؟ أرى وجودها منطقيًّا تمامًا. إذ يتفشى وجود الخفافيش داخل الحظائر القديمة والسقيفات ذوات الأسطح المائلة التي بنيت لإيواء الماشية. ويصبح من الصعب طردها إذا ما نجح أحدها في دخول المنزل، حتى لو جئت بالشياطين لطردها!".

ارتجفت إينيس، وقالت: "دكتور واطسون. أنت ذكي جدًّا. لقد اعتقدت ذلك أيضًا. لقد رأيت الفتيات في المدرسة يتصرفن بجنون حينما يواجهن خفاشًا بنيًّا صغيرًا. كانت الخفافيش تطير عبر نوافذ الغرف في الأمسيَّات الصيفية. أتذكر في إحدى الأمسيَّات عندما طاردت إحدى الفتيات الأكبر سنًّا مني خفاشًا وهي تحمل مضرب لعبة الهوكي. ولكني عندما أفضيت بذلك إلى والتر، أخبرنى أن الخفافيش لا تمثل أي مشكلة. تساءلت حتى عما إذا كان يقصد الفئران والجرذان الصغيرة بما أنها تميل إلى التسلل إلى داخل البنايات. ولكن

عندما أطلعت والتر على مخاوفي تلك؛ هز رأسه نافيًا وبدا منزعجًا أكثر من ذي قبل. قال: 'أتمنى لو كنا نتحدث عن تلك المخلوقات الصغيرة التي يمكن سحقها تحت كعب حذائك أو بمضرب كريكت، ولكن للأسف، ليس هذا نوع الحيوانات الذي أتحدث عنه'. ثم جعلني أعده بأن أغلق باب غرفتي في المساء، وكذلك مزلاج النافذة. طمأنته بأنه يمكنني فعل ذلك بسهولة. فكما ترون، في ذلك الوقت، كنت قد أتقنت استخدام العكازات إلى حد ما، لذلك كان يمكنني أن أعرج من السرير إلى عدة أماكن مختلفة داخل غرفتي دون أي متاعب".

أعادت إينيس ملء أكواب الشاي لنا جميعًا، فعبقت الجو رائحة النعناع، بينما الخواص الطبية لبلسم الليمون قد قطعت شوطًا كبيرًا في تهدئة الشابة اليافعة. ثم تابعت: "وبعد مرور يوم، سألني والتر عما إذا كنت أتذكر وعدي له بخصوص إغلاق مزلاج الباب والنافذة. فقلت له إنني أتذكر ذلك. أخبرني أن اثنين من رفاق مدرسته القدامى سيزورانه. كان هذان الصديقان هما فرانك دونلي وجورج سانت ليدجر. ولأن والتر كان يذكرهما بصورة متكررة في نبرة ودود؛ أحسست كما لو أني كنت أعرفهما بالفعل".

توقفت لبرهة لتجمع شتات أنفسها، ثم تابعت: "عندما وصلا، أحضرهما والتر لأعلى ليسلِّما علي. كان الموقف برمته حضاريًّا. وبعد مغادرتهم لغرفتي، كان بوسعي سماع أصوات حديثهم وضحكاتهم قادمة من غرفة البلياردو، لأنها

كانت تقع أسفل غرفتي مباشرة. بدا لي أن جيليان قد انسحبت عائدة إلى غرفتها، ومع ذلك كان الرجال لا يزالون يضحكون، وتتواصل أصوات ارتطام كرات البلياردو بعضها ببعض. أحسست بالسعادة لمعرفة والتر بصديقين جيدين مثلهما! بعد ذلك، استغرقت في النوم؛ ربما لأنني استمتعت بسماع أصوات ضحكاتهم".

سأل هولمز في محاولة للاستيضاح منها: "وأنت نسيت إغلاق مزلاج الباب والنافذة؟".

أجابت إينيس: "بالضبط. وحوالي منتصف الليل، دقت الساعة القديمة الموجودة في الردهة اثنتي عشرة مرة ثم غرقت في الصمت. لا بد وأن صوت الأجراس هو من أيقظني. كانت غرفتي مضاءة على نحو غريب. ولم أستطع معرفة سبب ذلك. عندئذ، أدركت أنني نسيت إغلاق الستائر، ليتدفق ضياء القمر المكتمل إلى داخل الغرفة. أمسكت بعكازاتي، ونهضت من على سريري. قطعت طريقي نحو النافذة معتمدة على العكازات، كنت أخطط لتصحيح وضعية الستائر. ولكني اكتشفت على الفور أن القمر لم يكن مكتملًا بل كان قريبًا جدًّا من الأرض، ولدرجة لم أرها من قبل! أقسم إنني لم أره بهذا القرب أو بتلك الضخامة كما كان في مثل تلك الليلة الغريبة".

الآن، كنا قد وصلنا إلى لب الموضوع أكثر من ذي قبل، وبدت حبيبات العرق تلتمع على شفتها العليا. كانت تعرق

من شدة توترها. وبدأت يداها ترتجفان في عنف، لينسكب الشاي من الكوب الذي كانت تمسك به. كان والدها يراقبها في حرص دون أن يعلق بأي كلمة واحدة، ولكن ما أن رآها على هذه الحال، حتى قفز من مقعده، واقترب منها، ووضع ذراعه حول كتفيها، وضمها إليه، وبدأ يطمئن الفتاة المسكينة، ثم أخذ يردد وهو يربت على رأسها: "لا عليك... لا عليك".

وبعد مرور فترة بدت لا نهائية، ترك كالدويل ابنته، وقال: "يجب أن تخبريهما بما رأيته يا عزيزتي. وإلا فإن كل ما حكيته حتى الآن سيكون بلا أي فائدة".

أومأت إينيس برأسها، وهي تمسح عينيها بطرف منديلها في رقة. "أجل يا بابا. أنت محق في كلامك. يجب أن أتابع حتى النهاية. سيد هولمز؟ دكتور واطسون؟ ربما تفكران أنني جننت، ولكني أقسم لكما إنني رأيت ثلاثة كلاب ضخمة ترقص تحت القمر. كان منظرًا غريبًا جدًّا لأنهم كانوا يقفون على قدمين مثلنا تمامًا! كانوا يعوون وهم يميلون برؤوسهم إلى الوراء. ملت على حافة النافذة، بينما تصارعت مشاعري المضطربة في داخلي. وفي الوقت نفسه، كنت مرتعبة، ومفتونة، ومسحورة، بما رأيته. ثم سمعت صوت خطوات قادمة من الردهة خارج غرفتي. بذلت قصارى جهدي للوصول إلى باب غرفتي، ولكن قبل أن أتمكن من ذلك، فتح الباب بعنوة. دخلت جيليان الغرفة. كانت تلبس قلادة مصنوعة من الزهور الاستوائية المربوطة معًا بشكل غريب. كان عطر الزهور يغطيها تمامًا، وكانت لتبدو

رائعة بشعرها المنسدل، وقميصها الأبيض الليلي من الكتان، إلا أن وجهها بدا متلونًا من شدة غضبها. لم أر أي أحد حانقًا بهذا القدر من قبل! مرقت من جواري، واتجهت مباشرة ناحية النافذة. أغلقت المزلاج بحركة سريعة، ثم رفعت كلتا ذراعيها، وجذبت الستائر بعنف لتغلقها بدورها، وقالت: 'عودي إلى سريرك أيتها الفتاة السخيفة. لقد تم إخبارك بأن تغلقي باب غرفتك ونافذتك! الآن، هل ترين ماذا فعلت؟! كل هذا حلم. حلم! أنت تحلمين. هل تسمعينني؟ هذا كله حلم. الآن عودي إلى فراشك!'. فعلت مثلما أمرت. وما أن تسللت تحت الأغطية، وجدت جيليان تحمل عكازي إلى الجانب البعيد من غرفتي، وهو ما يعني أنني لن يكون في مقدوري استخدامهما لأنهما كانا في أبعد بقعة في الغرفة. 'لن تحتاجي هذه العكازات لبقية هذه الليلة'. عندما قالت جيليان ذلك، تنامى في داخلي إحساس بالهلع. فقد منحتني العكازات إحساسًا جزئيًّا بالاستقلالية والاعتماد على النفس، وأن يتم وضعهما في مكان بعيد جدًّا عن متناول يدي، كان بمثابة جانب آخر مخيف لتلك الليلة. أحسست أن جيليان ليست على طبيعتها، وأنها لن تتقبل مني أي سؤال على نحو جيد، لذلك سحبت الأغطية حتى ذقني، وتظاهرت بالنوم. لا شك أنني فعلت ذلك بشكل جيد لأن جيليان غادرت بعدها بوقت قصير".

سأل هولمز بنبرة رقيقة: "هل هذا كل شيء؟". أثار إعجابي طريقته في التحكم في نغمة صوته. فمن عادته أن يكون محتدًّا

عند استماعه لحكاية أحدهم، أما نبرة صوته، فقد كانت تعبر عن نفاد صبره. لكنه لم يفعل ذلك مع تلك الفتاة الشابة!

تنهدت إينيس كالدويل وقالت: "لا. أتمنى لو لم يكن هناك المزيد. كان باب غرفتي لا يزال مفتوحًا، لأنه يمكن إغلاقه فقط من داخل الغرفة! خمنت أن جيليان نسيت تلك الحقيقة أثناء فورة غضبها. أغلقت ستائر الغرفة فقط، واطمأنت إلى أنني استغرقت في النوم، ثم غادرت غرفتي. ولكني لم أنس أن الباب غير موصد. حدقت نحو المزلاج المفتوح، وأحسست بالخوف. في نهاية المطاف، أمعنت التفكير في محاولة إيجاد طريقة لمغادرة سريري دون الاعتماد على عكازاتي. أسرعت ناحية حافة السرير، وشرعت في سلسلة من الحركات الجمبازية التي لا تليق بسلوك سيدة مهذبة، ولكن، نتيجة لتلك الحركات نجحت في الجلوس على سجادة الغرفة. بعد ذلك، قمت بعدد من المناورات للوصول إلى باب الغرفة. وما أن وصلت إلى هناك، حتى أمسكت بمقبض الباب للمحافظة على توازني، وسحبت نفسي لأعلى. عندما نجحت في ذلك، أغلقت مزلاج الباب. كنت سأعود بلا شك إلى فراشي، ولكن رائحة الزهور من حول عنق جيليان تعد بمثابة إنذارٍ ينبئني بظهورها ومغادرتها. كانت قد هرعتْ عبر الردهة متجاوزة غرفتي.

أخبرني صوت داخلي: ‹هذا يكفي، لقد رأيت الكثير بالفعل. عودي إلى سريرك، وابذلي أفضل ما عندك للتظاهر بالنوم›. لكن كانت هناك العديد من الأسئلة تدور داخل ذهني

بشأن الرجل الذي أحبه! كنت أريد معرفة المزيد عن هذا الشأن، وأيًّا كان ما سيحدث تاليًا، كنت في حاجة لخوض هذا الأمر حتى نهايته. لذلك تقافزت من مكان لآخر داخل الغرفة معتمدة على قطع الأثاث في الحفاظ على توازني. وببطء شققت طريقي عبر الغرفة. وعندما وجدت نفسي وقد عدت للوقوف أمام الستائر، أزحتها جانبًا مجددًا، ولكن هذه المرة، تواريت خلف طبقات القماش المطوية للستارة. استغرق الأمر بعض الوقت حتى تأقلمت عيني على رؤية وتحليل ما أراه. في تلك اللحظة، ظهرت هيئة ما، ترتدي رداء نوم أبيض يطفو فوق العشب. أدركت أن هذه جيليان! كانت لا تزال تلبس طوق الزهور حول عنقها! وبدت أنها تحمل جوالًا خيشيًّا. قفز قلبي داخل صدري عندما رأيت ذلك، وتساءلت في سري عما تفعله وكيف ستتصرف تلك الكلاب الثلاثة تجاهها. بل والأسوأ من ذلك، كانت الكلاب قد اختفت. فمرق على بالي أنها ربما قد تتعرض للهجوم. لفترة بدت كالدهر، تجمدت في موضعي، وكنت غير واثقة مما يجب أن أفعل، أو ما إذا كان يجب أن أفعل أي شيء!".

خلال سرد إينيس لهذا الموقف كدت أقفز من على مقعدي. كان مدى وصف إينيس للأحداث مثيرًا لدرجة أن ندت عن جسدي ردة الفعل الاعتيادية التي تحدث قبيل الذهاب إلى المعركة. كانت كل حواسي في حالة تأهب قصوى. وبدأ الوقت يتباطأ. من الناحية المنطقية، كان يمكنني بسهولة معرفة

أن الفتاة الشابة قد تغلبت على كل ما واجهها من مصاعب. فبعد كل شيء، لقد كانت جالسة بالفعل أمامنا. ولكن على المستوى الغريزي، فقد أثرت قصتها علي كثيرًا، ومن خلال نظرة واحدة نحو هولمز، أدركت أنه قد تأثر بهذه الحكاية الاستثنائية أيضًا. عندما توقفت إينيس عن متابعة حكايتها، بذلت قصارى جهدي حتى لا أحثها على مواصلة حكايتها، لأنني كنت مدركًا أنها في حالة ذهنية غير عادية، وأن أي تدخل من جانبي لن ينتج عنه سوى المزيد من التأخير.

وبالفعل لم يمض وقت طويل حتى قالت ببطء: "بيد أن جيليان لم تتعرض للهجوم عندما مشت في الخارج. في الواقع، لقد صفرت بفمها! ليس صفيرًا على هيئة لحن، لا يا سادة، لقد كان صفيرًا حادًّا كما لو كنت تصفر لمناداة كلب. فتحت مزلاج النافذة، وملت بجسدي نحو الخارج بالقدر الذي يجعلني أتمكن من رؤية ما يجري. صفرت جيليان مرة أخرى. وهذه المرة، جاءت الكلاب الثلاثة راكضة ناحيتها. كان حجم الكلاب ضخمًا جدًّا، ومكسوين بالفراء، وبالرغم من أنهم كانوا يزمجرون ويحاولون عض بعضهم بعضًا إلا أنهم لم يحاولوا إيذاء جيليان. في حقيقة الأمر، لقد فتحت جيليان الجوال، وأحسست بصدمة بالغة عندما دست يديها داخله وأخرجت منه دجاجة! دجاجة حية. تبقبق وترفرف بأجنحتها من حول رأسها و... أوه! ومحاولتها للتملص والهرب، والريش المتطاير! ولكن برمية واحدة منها، ألقت

جيليان بالدجاجة في الهواء. قفزت الكلاب الثلاثة في الهواء في وقت واحد، يزمجرون نحو الطائر ويحاولون نهشه بينما يحاول الهروب منهم، ولكن بالطبع، كانت محاولة الدجاجة غير مجدية. أحد الكلاب أمسك بالطائر في الهواء، ثم سار بجائزته بعيدًا، كررت جيليان الأمر نفسه مرة أخرى. هذه المرة كان الفائز كلبًا آخر. ولكن بدلًا من أن يبتعد بجائزته، أراح إحدى قدميه فوق الطائر، وبطريقة منظمة، أخذ يقطع الدجاجة إلى قطع صغيرة بينما كانت الدجاجة المسكينة تبقبق وتصيح من أجل حياتها".

أغلقت إينيس عينيها، وأخذت نفسًا متقطعًا، ثم أكملت: "أظن أنني لست في حاجة لإخباركما بأن جيليان كررت العملية لأكثر من مرة. أكلت الكلاب الثلاثة حتى التخمة. لم يكن بوسعي الابتعاد عن النافذة من شدة استحواذ المشهد على انتباهي. كان هناك الكثير من أصوات الزمجرة وتمزيق اللحم. وصرخت الأرانب في قن قريب من شدة خوفهم. كان يمكنني شم رائحة الدماء والفضلات وهي تشق طريقها إلى غرفتي قادمة من الأسفل. ملأت غرفتي الروائح الكريهة، وعلى الرغم من أنني لم أذهب إلى الحرب أبدًا، إلا أن تلك الرائحة ذكرتني بأن والدي خاض حروبًا، فتساءلت في نفسي...".

ثم رمشت بعينيها وقالت: "أتمنى ألا تظنا أني حيوان من نوع آخر. هرة صغيرة تخاف من ظلها. صحيح أنه خامرني إحساس بالاشمئزاز لما رأيته، ولكني أعترف بأنني أُسرت بما

رأيته. لم يكن بمقدوري إبعاد عيني عنهم. كان يصعب رؤية شيء كهذا. ومع ذلك، أحسست بالإثارة والازدراء معًا خلال مشاهدتي لهم.

أعلم جيدًا أن الموت يشكل جزءًا من الحياة. الرجال يذهبون إلى الحرب، ويبذلون أغلى التضحيات من أجل الوطن. كل الوجبات التي تقدم على طاولتي مصدرها حيوان مذبوح أو نباتات تم حصدها". وتابعت في تردد: "هذا إذا ما تغاضينا عن عدد محدود جدًّا من الطعام مثل البيض أو الحبوب أو الفواكه".

ثم برقت عيناها ببريق حاد: "ولكني لم أرَ شيئًا كهذا قط! كان المنظر وحشيًّا ومثيرًا للاشمئزاز أكثر من قدرتي على التخيل. عندما انتهت الحيوانات من تناول وجبتهم، -وباستثناء جيليان- تغطت فراؤهم بطبقة داكنة من الدماء. من كان يعلم أن أي حيوان يمكن أن ينزف دمًا كثيرًا كهذا! ولكني الآن أعرف، ورأيت الدليل على ذلك. عندما ظننت أنه بوسعي إقفال مزلاج النافذة في حذر، والعودة إلى فراشي، وفي اللحظة التي سحبت فيها نفسي لداخل الغرفة -إذ كنت سابقًا أميل بنصف جسدي خارج النافذة حتى أحظى برؤية جيدة- فقدت توازني! سقطت خارج نافذة غرفتي وسط صرخاتي. بالطبع، كان يمكنني أن أموت بسهولة. في الواقع، هذا ما كان يجب أن يحدث لولا أن ردائي الليلي علق بنتوء يشكل جزءًا من حافة النافذة المزخرفة. ذلك النتوء الصغير الذي ليس سوى إضافة

فنية للإطار الخارجي للنافذة هو ما منع سقوطي. لبضع ثوان، ظللت معلقة في مكاني بينما غطى شعري وجهي، وفقدت إحساسي بالاتجاه بالكامل، إذ كنت معلقة رأسًا على عقب. عندئذ، هاجمتني تلك الخاطرة بكامل عنفوانها... سأسقط وسط تلك الكلاب الوحشية، ووسط نهمهم الشديد وتكالبهم على الطعام. لن يكونَ هناك من شيء يمكنه إنقاذي! سأصير عاجزة مثل تلك الدجاجات. أو هذا ما كنت أخشاه".

تصارعت ضربات قلبي، وبالكاد كان يمكنني التقاط أنفاسي. بدا هولمز مصعوقًا بدوره لسماعه لحكايتها المدهشة، وصوب بصره ناحية الكولونيل كالدويل. نظرت بدوري نحوه، لم يكن متفاجئًا لرؤيته قلقًا بعد استماعه لقصة ابنته الغريبة. وتساءلت في سري، هل أدرك أنها في حاجة إلى الخضوع إلى رعاية في إحدى المصحات؟ هل هكذا سنصل إلى ختام لقائنا؟ هل سنضع الفتاة في عربة ونرسلها مباشرة إلى مستشفى بيت لحم؟

تابعت إينيس كالدويل: "لاحظت جيليان سقوطي. فركضت ناحيتي لتمد لي يد المساعدة. وبينما كانت تمسك بكتفي، وجهتني لأضع قدمًا بعد الأخرى على شبكة خشبية تمتد بطول أحد جانبي المبنى. لم أتسلق تعريشة اللبلاب بالضبط، ولكن بفضل ذراعي جيليان القويتين، نجحت في الاقتراب من الأرض. لاحقًا، أخبرتني أن سبب قوة ذراعيها هو حبها لممارسة رياضة التجديف، ولقد شكرتُ الله على

أنها تحب التجديف؛ لأن تدخلها منعني من السقوط برأسي على الأرض".

سألت: "وماذا عن الكلاب؟".

قالت: "بدا لي أنهم اختفوا. تابعت جيليان إخباري بأني كنت أحلم. حلم سيئ. أيها السيدان المحترمان، كنت أريد تصديقها حقًّا! فالمنظر الذي رأيته لم يكن منطقيًّا على الإطلاق. لهذا كان يجب أن يكون حلمًا. خلال مساعدتها لي على صعود الدرج، تركتني جيليان لعدة ثوان قبل أن تعود وفي يدها زجاجة صغيرة من اللودانوم، ثم سكبت لي مقدار ملعقة منه وجعلتني أشربها. وعلى مدار الأيام التي تلت ذلك، أعطتني العديد من الجرعات بشكل سخي. سأعترف لكما بأن المخدر كان له أثرٌ سلبيٌّ على ذاكرتي. والأحداث التي كانت واضحة لي من قبل، باتت محاطة الآن بالضباب، وتبدو لي كصورة مشوشة الآن أكثر منها كحدث حقيقي".

سأل هولمز: "هل هذا ما تعتقدينه الآن؟".

نظرت إينيس نحوه نظرة حزينة وقالت: "الآن؟ لا. والتر مفقود. كيف يمكنني تصديق أنه بخير حينما اختفى بعد فترة قصيرة من رؤيتي لذلك الكابوس عن الكلاب الثلاثة؟ لا أعرف بماذا أفكر؟ أنا قلقة عليه!".

قال هولمز بنبرة هادئة: "ما الذي تريدين مني أن أفعله يا آنسة كالدويل؟ أن أجره جرًّا إليك؟".

وجدت سؤال هولمز قاسيًا بعض الشيء، فقلت محذرًا: "هولمز!".

سألت بنبرة ساخرة: "تجره عائدًا إلي؟". ولأول مرة، التمعت عيناها بغضب، فقالت: "لا! أنا لست حتى واثقة إذا ما كنت أريد متابعة هذه الخطوبة. كل ما أريد معرفته هو إذا ما كان بخير أم لا. بعدها، وربما بمرور الوقت، يمكنني أن أنسى أمر والتر بينسون. لأن من الواضح أنه مضى قدمًا في حياته دون الحاجة إلي!".



الفصل الثامن

طرح هولمز على إينيس عددًا من الأسئلة الأخرى. عادة، كنت أستمع بعناية عندما يجري صديقي هذا النوع من المقابلات، لأنني أجد هولمز مفكرًا يتمتع ببصيرة حادة لم أرها عند أي أحد ممن عرفتهم من قبل. كانت قدرته على رؤية ما وراء الفوضى، وكشف اللثام عن الحقائق لا تتوقف أبدًا عن إثارة دهشتي. أريد توضيح نقطة ما: لا يتجاهل هولمز أي أجزاء عشوائية وغير واضحة من أي مغامرة. لا، لا، لا. ولكن على عكس البعض، هو لا يسمح لهذه الأجزاء بأن تلقي بحجب تشوه وتغطي على الحقائق التي يخفونها في كثير من الأحيان. كان هولمز يمتلك تلك الخصلة العجيبة التي تجعله يستوعب كل شيء دون أي استثناءات، ثم يلتقط الخيوط الغريبة، ويربط بعضها ببعض.

أما أنا، فعلى حسب قوله: "أرى، لكن لا أفهم". ربما أكون فقط مجرد مراقب من نوع آخر. بالنسبة لي، كان الحزن البادي على وجه إينيس مروعًا. تلك الفتاة المسكينة كانت ممزقة

بين السعادة لهروبها من حدث رهيب، وبين الحزن العميق لأن الرجل الذي أحبته رحل عنها دون أن يقول كلمة واحدة. أحسستُ أن إينيس لن تكون قادرة على الثقة بأي شخص آخر لمدة طويلة جدًّا. ولو كنت ممن يراهنون، لراهنت على أن تلك الفتاة المسكينة لن تتزوج أبدًا. كانت مصدومة للغاية بسبب الأحداث التي وقعت من حولها. عاد هولمز لمراجعة تلك الأحداث مرارًا وتكرارًا حتى اطمأن إلى أنه بات في مقدوره توقع ردودها. لم تغير إينيس من قصتها أبدًا.

أشار هولمز إلى أنه آن وقت الرحيل. تفاجأت من رؤيته واقفًا على قدميه إذ كنت شارد الذهن بينما كنت أحدق إلى وريقات نبات السرخس، مفكرًا في مآسٍ ومناخات أخرى. أخبرني أحد الأطباء ممن عالجوا جراحي بأنهم رأوا ردود فعل متشابهة كهذه من قبل رجال خاضوا معارك سابقة. كان هناك تغييرٌ يطرأ على طريقة تفكيري دون علمي، أنتقل معه من الوقت والمكان الحاليين إلى وقت ومكان آخرين، إلى موقع أكثر خطورة وتهديدًا على الرغم من نيتي الطيبة. عادة ما تفضي نتيجة ذلك إلى قضاء نهار مضطرب ينتهي بنوم سيئ في المساء. اليوم تجسد ذلك الشعور بالانزعاج في الإحساس بالانفصال والعزلة. كان يمكنني تخيل الدجاجات وهي تقاتل من أجل حيواتها. مثلما رأيت رجالًا يفعلون ذلك في ساحة المعركة.

شكرت وهولمز آل كالدويل على وقتهما وحسن ضيافتهما. على الرغم من أنني اعتقدت أن هولمز لم يتأثر بذلك – لأنه

يعتقد أن العواطف تشوه الحقائق. شكر صديقي الآنسة كالدويل على شجاعتها وصراحتها. ثم انتقلنا إلى الردهة. هناك، عمل هولمز وكالدويل على الوصول إلى التفاصيل الخاصة لترتيباتهما بخصوص التبليغ عن الحادثة وما إلى ذلك. كان الحوذي لا يزال في انتظارنا مثلما أخبرناه. صعدنا وهولمز العربة في امتنان؛ لأن ما سمعناه سابقًا مثل صدمة لنا. تركت القصة التي حُكيت لنا انطباعًا عميقًا علي. إذ كنتُ دائمًا ما أنجذب إلى الحكايات الخيالية، وقد نجحت حكاية الآنسة كالدويل في تحقيق ذلك تمامًا.

فرقع هولمز أصابعه أمام وجهي: "واطسون؟ واطسون؟". كان يمكن اعتبار هذه الحركة على أنها إشارة وقحة، لذلك اعتذر هولمز على الفور، وقال: "لقد كنت بعيدًا جدًّا جدًّا يا صديقي. تحدثت إليك لفترة من الوقت، ولكنك جلست في مكانك مثل أبي الهول بوجهه الجامد الخالي من علامات الحياة".

هززت رأسي لأستعيد رباطة جأشي، وقلت: "آسف يا هولمز. لتلك القصة تأثير غريب، أليس كذلك؟".

"هذا صحيح. لكن المشكلة التي تؤرقني هي إذا ما كان يجب علي تصديق الآنسة كالدويل أو لا".

قلت دون تفكير: "إنها ليست كاذبة!".

قال هولمز: "لا. في الواقع إنها ليست كذلك. إنها تؤمن بكل كلمة تفوهت به. لكن هذا لا يعني أنها رأت ما تعتقد أنها

رأته، أليس كذلك؟ ثم تابع بنبرة هادئة ومطمئنة، وخالية من أي أثر للتوبيخ: "تذكر، لقد سقوها لودانوم".

قاطعته قائلًا: "حدث هذا بعد أن كادت تسقط من النافذة".

"آه، لكن من يدري أنها لم تتناول ملعقة أو اثنتين في وقت سابق؟ دعنا نقمْ ببعض الافتراضات؟ ماذا لو أخذت جرعة قبل أن ترى الكلاب الثلاثة؟ ربما دواء كهذا قد يسبب بعض الهلاوس؟ أجل، بلا شك. وربما رأت الكلاب الثلاثة، ولكن أليس من الممكن بالدرجة نفسها أن تكون كلابًا عادية، وأن الدواء تسبب في تضخيم حجمهم في مخيلتها؟".

هززت كتفي، وقلت: "إن كنت لا تصدقها، فلن تكون لدينا أي قضية، أليس كذلك؟ أفترض أننا في طريق عودتنا إلى شارع بيكر".

"ليس تمامًا. لقد قررت أننا يجب أن نذهب إلى ضيعة آل بينسون دون تأخير".

"حقًّا؟".

"بالطبع. ألن تعود إلى منزلك لو كنت شابًّا تراجع لتوه عن خطوبته؟".

صفعت ركبتي وقلت: "هذه هي مشكلتك يا هولمز! أنت تفترض أنه قطعَ علاقته مع الآنسة كالدويل. ربما لم يفعل. ربما فقط ترك المنزل وهو في عجلة من أمره، ولم تسنح له الفرصة

بإعطاء مكتب البريد عنوانه الجديد لتزويده برسائله الجديدة. ربما أحد أصدقائه استدعاه في الليل، ووقعت مشكلة، وربما يمضي وقته داخل إحدى زنزانات سجن ما!".

"ربما. ولهذا السبب سنطلب من ليستراد أن يتحقق من ذلك عند عودتنا إلى لندن. من المؤكد أنه سيعلم ما إذا انتهى الحال بوالتر بينسون ميتًا أم لا. على الأقل، سيكون في وسع ليستراد البحث في المشرحة وسجلات الشرطة. بينسون رجل مفقود الآن! لذا في الوقت الحالي، أنا أعلق آمالي على ما سنعرفه في ضيعة بروكهافن".

كررت: "ضيعة بروكهافن". كانت هذه هي المرة الأولى التي اسمع فيها بهذا الاسم. ومع هذا، فقد أدركت في أعماق نفسي أنني لم أنتبه إليه من قبل؛ لأن ذهني كان مشوشًا.

بدلًا من أن أوضح لهولمز سر عدم تركيزي، أرحت رأسي على ظهر المقعد. وعلى الرغم من الانعطافات والمطبات العديدة، فقد تمكنت من النوم لمدة ساعة تقريبًا. فتحت عيني عندما تباطأت سرعة العربة، وأدركت أننا وصلنا إلى طريق ريفي. انتقل بنا الطريق إلى أعلى التل، ليمتد عبر حقول شاسعة من حقول السلجم الصفراء مثل الشمس، والجاهزة للحصاد. اصطفت مجموعة من الأشجار أمامنا، لتعلن عن طريق خاص لقصر ريفي. وبالفعل، سرعان ما وجدت نفسي أنظر إلى مبنًى مهيب من القرميد والحجر الجيري. لم يكن بمقدوري

تحديد نوعية طرازه المعماري؛ لأنه لم تكن لدي خبرة في هذا المجال، إلا أن هولمز أخبرني لاحقًا بأن القصر الريفي بني على أسلوب العمارة اليعقوبية. باختصار، كان يعد قصرًا أكثر منه منزلًا ريفيًّا. وكما قيل لنا من قبل، كان هناك بيت نباتات زجاجي ضخم ملحق بالمبنى.

مشى هولمز باتجاه البوابة الأمامية الضخمة، ورفع مقرعة الباب لأعلى وتركها تسقط لمرتين على التوالي. دفعني حجم المكان إلى التفكير في أنه ربما لن يجيب أحد علينا. على حسب تقديري، كان هناك أكثر من مئة غرفة في هذا المبنى المهول. وبما أنه لم يكن لدي أدنى حد من التوقعات لدخول القصر، ارتأيت أن أنتظر بجوار العربة. قال الحوذي: "ياه. هذا المنظر لا يمكنك أن تراه كل يوم، أنا لم أذهب خارج لندن منذ وقت طويل جدًّا لدرجة أنني نسيت مدى عظمة زرقة السماء".

كان الرجل محقًّا في كلامه، وانضممت إليه في تحديقه إلى السماء الزرقاء الرائعة من فوق رؤوسنا، وإلى السحب التي تشبه الأغنام وهي تقطع السماء. بينما حلق طائر سنونو من شجرة إلى أخرى بدون أي عناء كسحابة تطفو في السماء. لا شك أن منظرنا معًا كان غريبًا عندما عاد هولمز مسرعًا ليخبرني بأننا دعينا إلى الداخل. سمح رئيس الخدم بدخولنا إلى القصر الريفي.

ولا عجب، كان التصميم الداخلي للقصر فخمًا مثل خارجه. مشينا فوق أرضية من الرخام بينما نتبع الخادم إلى غرفة المعيشة، والتي غطى أرضيتها سجاد أوبيسوني سميك، كذلك كانت هناك كراسي مريحة، وأريكة جلدية، ومدفأة للتزويد بالحرارة عندما يصبح الطقس باردًا. كذلك وزعت حِلي رخيصة في أنحاء الغرفة لتؤكد أن هذه أسرة غنية. على إطار المدفأة، كان هناك مزهرية صينية، ومسلة من المرمر المصري يبلغ طولها قدمًا واحدًا، وساعة جميلة ذات إطار ذهبي، وشمعدانات ثقيلة. كانت هناك مجموعة من الوسائد المطرزة على المقاعد الوثيرة، وضع على ظهرها ملاءات شغلت بأحد أعمال الخياطة أو شيء ما من هذا القبيل، إذ كنت أفتقر إلى المعرفة اللازمة في هذا المجال للتعرف على طريقة صنعها. ولكن ما تمكنت من ملاحظته هو أن جميع ملاءات المقاعد صنعت بأيدٍ مُحبة. في أحد أركان الغرفة، كان هناك دب كبير محنط ثبت في وضع قائم، وكانت أسنانه بارزة. سرت قشعريرة في كامل أنحاء جسدي عند رؤيتي لهذا المخلوق. وعلى هذا النحو، كانت الغرفة عبارة عن مزيج غريب يبعث شعورًا بالهدوء والقلق معًا. بالإضافة إلى الديكور الغريب، كانت الأجواء متوترة، وتثير إحساسًا بالقشعريرة؛ افترضت معها أن مخيلتي تعمل بأقصى طاقتها. فتساءلت في سري: ما الجديد الذي سنعرفه عن هذا الشاب المفقود؟ فعائلته لم تطلب المساعدة من هولمز. هل من الممكن أن نغادر دون الحصول على أي إجابات؟

كانت لتكون هذه هي خلاصة استنتاجي في هذا الشأن، لولا أني سمعت صوت خطوات خفيفة يتردد صداها خارج الغرفة. انضمت إلينا فتاة طويلة، منتصبة القامة، ولها عينان بلون الكهرمان الفاتح. كانت عادية، لذا، لم تكن جميلة، ولا يمكنني تفسير لماذا أحسست بذلك. ومع ذلك، بدت -وعلى نحو غريب جدًّا- أنها فتاة يمكن الاعتماد عليها. كانت هناك هالة من حولها توحي بأنها من نوعية الأشخاص الذين يريدون المضي قدمًا في حياتهم مهما يحدث لهم، ولذلك، كان من أولويتها القصوى أن تتخلص من وجودنا.

قام هولمز بتقديم أنفسنا لها. تصافحنا جميعًا بأكثر الطرق تحضرًا. وبعد ذلك، شرح لها رفيقي عن استدعائنا من قبل عائلة آل كالدويل للاستفهام عن مكان وجود والتر بينسون. خلال حديثه، أبقت جيليان بينسون -وهو الاسم الذي قدمت به نفسها- عينيها مصوبتين بثبات على بقعة في السجادة، على بعد حوالي عشر أقدام من مكان جلوسها. ورغم أن وجهها أصبح شاحبًا إلا أنني لم ألحظ أي علامات أخرى تبين ضيقها. لا، كان هناك عرضٌ وحيدٌ، وظاهرٌ، يكشف عن أن المرأة تعاني من شيء ما؛ وهو ما تسبب في تهدل كتفيها في بطء. بدا أن هناك حملًا ثقيلًا على كتفي تلك الفتاة، وأقول فتاة لأني ارتأيت أنها في التاسعة عشرة من عمرها أو ما نحو ذلك.

سألها هولمز وعيناه لا تفارقان وجهها: "يجب أن أسألك بصراحة، هل تعرفين مكان وجود شقيقك؟".

ردت: "ليس بالضبط".

ألح هولمز قائلًا: "هل يمكنك أن تكوني أكثر تحديدًا في كلامك؟".

"لا".

سأل هولمز: "هل أنت صادقة في إجاباتك؟".

"نعم".

صمت هولمز. لم تكن هذه هي الإجابات التي كان يتوقعها. كذلك لم تكن إجابات يمكننا تحقيق تقدم من خلالها في تحقيقنا. صحيح أنني لم أشعر بأن الفتاة تكذب علينا، إلا أنه كان من الواضح أنها متحفظة جدًّا في كلامها معنا.

أخذ صديقي يفكر في الأمر، فصمت لفترة، وأخيرًا قال: "لا أرغب في أن أزعجك يا آنسة بينسون. ليس الغرض من زيارتي أن أسبب لك ألمًا. أنت قابلت إينيس كالدويل من قبل. إنها... محطمة. ويبدو حبها لشقيقك حقيقيًّا من وجهة نظري. ألاحظ أنك تعيشين بمفردك في هذا المنزل. أريدك أن تعلمي أنه يمكنك الثقة بنا. فكري بنا كما لو كنا قسيسين. إذا كان هناك شيء يثقل كاهلك، فربما يمكننا مساعدتك. وإن لم يكن لأجلك؛ ففكري أنه من أجل الآنسة كالدويل. إنها ليست واثقة مما يجب أن تفعله بعد. إنها لا تريد أن تتخلى عن شقيقك، ولكنها ليست واثقة من أنه سيعود و...".

لم تستطع الفتاة أن تحتمل أكثر من ذلك. صرخت: "أوه يا سيدي!". ثم رفعت ذراعيها نحو وجهها، ولوهلة ظننت أنها ستمزق شعرها. تثاقل جسدها على مقعدها في بؤس. كانت صرختها طويلة ومحملة بالآلام لدرجة أجفلتني معها. صرخت جيليان بينسون: "أوه... أرجوك... أرجوك... ساعدني! كانت إينيس ذكية في البحث عنك وطلب المساعدة منك. بالفعل، أنا لا أعرف ممن أطلب المساعدة أو كيف أتعامل مع الأمر بمفردي! لقد ذهب والداي إلى برمودا للإشراف على مزرعتنا هناك، ولن يعودا قبل بضعة أشهر على الأقل. وهذا لم يمنحني أي اختيار سوى أن أتخذ قراراتي بنفسي... وأنا لا أستطيع فعل ذلك! أخشى أن أتخذ القرار الخاطئ! لو كنت أعرف بالضبط ما يمكنني فعله إزاء ما حدث، فربما أستطيع المضي قدمًا، ولكني لا أستطيع. كل ما أعرفه هو أني أحب أخي كثيرًا. لقد فرحنا جميعًا بعودته، وعندما وجد وظيفة في المدرسة، فكرنا جميعًا أن معاناته انتهت أخيرًا. بالطبع، كانت إينيس بمثابة جوهرة لتكون زوجته! كنت أتطلع بسعادة إلى الوقت الذي ستصبح فيه أختًا لي. الآن، لا أعرف ممن أطلب المساعدة أو ماذا أفعل! أنا لا أريد أن أثير قلق والديّ في الوقت الذي ليسا موجودين فيه في إنجلترا. هناك أمور أخرى تتطلب اهتمامهما غير هذه، كما أنهما مرا بالكثير في الماضي. سيتحطم قلباهما لو كتبت لهما رسالة أطلعهما فيها على مخاوفي.

كرر هولمز: "مرا بالكثير في الماضي؟"

أومأت جيليان برأسها وقالت: "أفترض أنك لم تعرف بذلك الأمر؟".

سأل هولمز: "أعرف ماذا؟".

قلت متسائلًا: "هناك فجوة زمنية تصل لخمس سنوات في ملف السيرة الذاتية لشقيقك لم يوضح أين قضاها، أليس كذلك؟".

قالت بصوت أشبه بهسيس هواء خارج من إطار مثقوب: "بـ... بـ... بـ... بلى. تكاد تصل إلى ست سنوات".

ألححت في سؤالي: "ماذا حدث في تلك الفترة؟".

قالت: "أنا لست مخولة بالكشف عن ذلك".

توقفت لتلتقط أنفاسها، ثم تابعت: "لأن هواجسي تبدو سخيفة للغاية وبلا أي فائدة، وتفتقر للمنطق السليم، وهو ما يجعلني واثقة أن والديّ سيضحكان علي لو كانا هنا. ومع هذا، إنهما ليسا كذلك، ليسا هنا. لذا، أنا وحيدة تمامًا، ولدرجة كبيرة لست مؤهلة لحل المعضلة التي تعذبني".

قال هولمز: "إذًا، اسمحي لنا بشرف تقديم المساعدة لك".

قلت بحزم: "آنسة بينسون... من الواضح أنك تمرين بحالة من الضيق. بصفتي طبيبًا، أقترح أن تسمحي لنا بتقديم المشورة لك". يا لنا من شريكي عمل رائعين! لقد تبادلت وهولمز الدور الذي نلعبه هذه المرة.

أخذت الفتاة تقلب يديها في توتر، ثم قالت: "ولكن إذا وثقت بكما، فهل يمكنكما أن تقسما إنكما لن تخبرا أحدًا آخر بذلك؟ لأن عائلتي ستدمر لو انتشر هذا الكلام، ولن يغفر لي والداي أبدًا فعل ذلك، ولا حتى والتر ولا إينيس. أنا متيقنة من هذا! وبصراحة، لو كانت مخاوفي لها أي أساس من الصحة، فمن المحتمل أن أحزم أمتعتي وأرحل عن هذا المكان. أغادر البلاد! أهرب إلى أمريكا أو أستراليا! أو حتى إلى مزرعتنا في برمودا! أغير اسمي و...".

قال هولمز: "أرجوك، احكي من البداية. إذا شاركتِنا كل جزء من هذه المشكلة، أو كل جزء تعرفينه على أقل تقدير، فربما يمكننا أن نمضي قدمًا في حلها معًا".

عصرت جيليان كفيها مجددًا وضغطت عليهما بقوة كما لو كانتا مناشف للوجه. زادت مشاعرها المضطربة من إحساسي بالقلق عليها. بدت كما لو أنها كانت تترنح على حافة الجنون.

قلت: "يا آنسة؟ ربما كوب من الشاي قد يهدئ من أعصابك. بصفتي طبيبًا، أجد أن الشاي له آثار مهدئة رائعة. ربما يمكنك أن تطلبي بعضَه؟".

أومأت برأسها، ثم مدت يدها نحو الجرس لترنه. وعندما ظهرت الخادمة، تبادلت الاثنتان أطراف الحديث. انتابتني رغبة ملحة في الحديث مع هولمز على انفراد، ولكني كنت أخشى أن يسبب ذلك أثرًا عكسيًّا على التقدم الذي أحرزناه حتى الآن، لذا قررت أن أؤجل هذا الحديث لوقت لاحق.

قالت جيليان: "سيقدم الشاي قريبًا. كذلك، لقد اتخذت قرارًا". مكتبة سُر مَن قرأ

قفز قلبي في صدري. هل ستتراجع هذه الشابة عن قرارها؟ ولو فعلت ذلك، فهل سنعود إلى عائلة آل كالدويل بدون أن نحمل إليهم أي معلومات جديدة. لم أجرؤ على النظر إلى هولمز. كان الوضع برمته مثيرًا للقلق.

نهضت جيليان من على مقعدها ببطء، ووضعت إحدى يديها على ظهر الكرسي ليحافظ على توازنها. ذكرني ترددها بامرأة عجوز، وهو ما جعلني أفكر في أن أيًّا ما فعله شقيقها؛ فقد سبب أذًى عميقًا لها. وبجهد كبير، مرت من جواري وهولمز، ثم توقفت أخيرًا أمام إحدى تلك الخزائن الخشبية ذات التصميم المبتكر، والتي تتضمن رف كتب، وسطح مكتب صغير. ثم بدأت تبحث في جيب تنورتها، حتى سحبت مفتاحًا صغيرًا، وفتحت به الدرج. كان هناك كتاب صغير تم حزمه داخل جلد انتشر على سطحه عددٌ من الخدوش والندوب. ربطت الصحفات الصفراء والملتوية حتى لا تتساقط أرضًا. ضمت جيليان الكتاب إلى صدرها، ثم سلمته إلى هولمز. وقالت: "هل يمكنك رجاءً قراءة هذه المذكرات بصوت عال؟ لا أظن أنني قادرة على قراءتها بنفسي. وحتى تتفهم الوضع بصورة أفضل، حصل أخي على دفتر اليوميات هذا قبل ست سنوات تقريبًا بمثابة هدية عيد ميلاده الرابع عشر".

ثم عادت إلى مقعدها ببطء، وجلست عليه في إنهاك واضح، لدرجة أشعرتني بالقلق معها، فقلت: "هل تحدثتِ إلى طبيب العائلة؟". حدق هولمز نحوي، ولكن كان كل اهتمامه منصبًّا على الكتاب الذي بدأ يفتحه برفق.

ابتسمت جيليان ابتسامة قصيرة، وقالت: "يا لك من شخص طيب يا دكتور واطسون. لقد أخبرني طبيب العائلة بأني أعاني من صدمة حادة. ووصف لي مُقَوِّيات تحتوي على اللودانوم. لقد جربتها. وبالرغم من أن لها أثرًا جيدًا في التخفيف من توتري إلا أنها تسبب لي بعض الكوابيس. أعتقدُني متعبة فحسب أكثر من كوني مريضة".

ظهرت الخادمة وهي تحمل صينية ثقيلة محملة بالمشروبات والطعام. صبت جيليان الشاي، وحثتنا على تناول الشطائر الصغيرة بشهية مفتوحة، سلطة البيض مع الجرجير المقرمشة، والخيار بالجبنة الكريمية على شرائح من خبز الجاودار، وشرائح لحم رقيقة على الخبز المحمص مع الخردل. وفقط، عندما ارتأت أننا تناولنا الطعام بالقدر الكافي لاستعادة نشاطنا، سألها هولمز: "هل أحاول قراءة هذه اليوميات؟ فالكتابة باهتة في بعض المواضع".

وبالطبع، كان الجواب على سؤاله: نعم.

الفصل التاسع

ما ستقرؤه في الصفحات التالية نص بديع أشاركه بالكامل معكم. بصفتي كاتبًا، أجد هذه اليوميات مكتوبة بشكل جيد للغاية، وبخاصة أنها تعود لفتًى صغير.

ومع ذلك، سمحت لنفسي بتصحيح بعض الأخطاء النحوية من أجل تسهيل قراءتها. –ج. ه. و

***

من يوميات والتر تشارليز بينسون، هذا دفتر يومياته، وهو هدية من عرّابه السيد تشارلز ويليامز بينسون.

٢٣ سبتمبر ١٨٨٧

أبي غاضب مني مجددًا، وحدث كل هذا بسبب مزحة سخيفة.

لا أطيق معلمنا السيد هامكوت. إنه شخص ممل جدًّا وسيئ من كل النواحي، ورائحة فمه كريهة. وتفوح ملابسه برائحة الملفوف المسلوق ولحم الضأن الفاسد. إنه دومًا ما يكون قاسيًا معي. أنا متقدم جدًّا على زملائي في مادة القراءة والكتابة. أما بالنسبة للرياضيات، فإنني لن أعرف أبدًا كيفية حل المسائل في حياتي. ولا فائدة ترجى من محاولة فهمها. اتهمني السيد هامكوت بتلطيخ نسخة كتابي، ولذلك عندما أعطاني ظهره، قمت بسكب الحبر على أوراقي، وهذا أغضب الرجل العجوز جدًّا. وغضب أبي جدًّا عندما سمع بذلك لدرجة أنه أرسلني إلى فراشي بدون عشاء.

أكره المدرسة. أكرهها.

أريد أن أصبح كاتبًا. وهذا هو سبب منح عرابي دفتر اليوميات هذا لي. أحب القراءة، ولقد قرأت كل الكتب الموجودة في مكتبة والدي تقريبًا. لكن أبي يقول بأني يجب أن أصبح محاسبًا. أحاول إخباره أن الأرقام تختلط علي في رأسي، ولكنه لا يصدقني.

٢٥ سبتمبر ١٨٨٧

اليوم، اتهمني السيد هامكوت بكوني فتًى وقحًا، ولكنني لم أكن كذلك. كان يتحدث عن يوليوس قيصر، واقتبس مقولة لشكسبير تقول: "أطلقوا سراح كلاب الحرب". ولكنني صححت له العبارة: "(الدمار الدمار!) ثم تطلق كلاب الحرب".

أغضبه هذا بشدة؛ لأنني كنت على حق بينما كان هو المخطئ. ولكنه لم يعترف بذلك. بدلًا من ذلك، ضرب يدي بالمسطرة، وجعلني أقف في ركن الفصل. لا أمانع ذلك كثيرًا، لأنني كنت أقوم بتأليف قصص رائعة في رأسي أثناء وقوفي هناك، بيد أني فوت جزءًا من حصة مادة الرياضيات، وأنا بالفعل متخلف فيها. ربما كان من الأفضل ألا أقول شيئًا، لكنني كنت أعرف أن المعلم كان مخطئًا.

٢٦ سبتمبر ١٨٨٧

جلبت نسخة يوليوس قيصر من مكتبة والدي، وعرضت الصفحة التي فيها الاقتباس على السيد هامكوت. قال إنني كنت مخطئًا فيما اعتقدت أنه قاله. اكتفيت بالتحديق إليه. إنه يكذب، وكلانا يعلم أنه يكذب. كانت هناك نظرة كراهية في عينيه، وكان يمكنني تخمين أنه سيفعل كل شيء في وسعه ليجعلني أدفع ثمن إحراجي له.

ضحك أمام الفصل بأكمله، وقال إنني أضيع وقتي في قراءة شكسبير. ولأنه يعلم حقيقة أن والدي يريدني أن أصبح محاسبًا؛ قال إنني سأجلس طوال اليوم أحدق إلى الأرقام، وقال ألن تكون تلك طريقة رائعة لقضاء حياتي البائسة؟ قال: "حصيلتك اللغوية لن تفيدك كثيرًا حينما تتعامل مع المسائل الحسابية".

لم أتفوه بكلمة واحدة. الكتب هي مَلْجَئي، أما الأرقام فهم أعدائي.

٢٧ سبتمبر ١٨٨٧

كان هذا اليوم لطيفًا ومعتدلًا في شهر مطير. أشعر بالملل الشديد من المدرسة! في تصرفه اللئيم معي، أجبرني السيد هامكوت على حل المسائل الحسابية طيلة الوقت. ورفض السماح لي بالقراءة أو الكتابة. لدي فقط هذه اليوميات لتدوين أفكاري. ولذلك، عقدت العزم على أن أكون صريحًا جدًّا عندما أكتب هنا.

بدلًا من حضور الحصص المدرسية، قررت مع صديقي دادلي ركوب القطار حتى لندن. كانت خطتنا هي أن نعود بحلول موعد وجبة الغداء. بلا شك، حظينا بوقت رائع. لندن مدينة باهرة للغاية! كان هناك عرض دمى السيد بانش وزوجته جودي، ومهرجون، والموسيقيون المتجولون. وحتى كان هناك عروضٌ للاعبي أرغن بصحبة قرود ماكرة ترتدي سترًا مخملية حمراء، وطرابيش متطابقة مع الستر، وسلاسل ذهبية تتناسب معها.

كان دادلي يمتلك بعض النقود. وبعد فترة من تجولنا في أرجاء كوفنت جاردنز هاجمنا إحساس طاغ بالعطش. كانت بائعة عصير الليمون عجوزًا ذات أسنان متعفنة. أما بائع عصير

التفاح فقد زجرنا لنبتعد عنه. كانت هناك حانة رويال أوك، فقال دادلي: "إننا نكاد نكون في سن مناسب لتناول البيرة، ما رأيك؟ هل ترغب في تناول كوب؟".

ومن كوب إلى ثان وثالث. وحينما حل وقت الدفع، لم نجد معنا أي نقود. كان كل ما يمكنني تخمينه هو أن أحد النشالين سرق محفظة دادلي. كان عامل الحانة غاضبًا جدًّا، فطلب إحضار الشرطة لنا. في النهاية، اضطر أبي إلى إرسال أحد معارفه الموجودين في لندن لدفع فاتورتنا. قال أبي إنه لم يشعر بهذا القدر من الإهانة في حياته من قبل قط.

لم أقصد أن تصبح الأمور سيئة هكذا. أقسم أنني لم أقصد أن أسبب أي مشكلة. لقد كنا نحظى ببعض المتعة فحسب.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحادث فقط. لقد عانيت من سلسلة متوالية من سوء الحظ. فعلًا. قال السيد هامكوت إني غششت في امتحان الكتابة. لم أفعل ذلك. قال إن طلابه ليسوا بالذكاء الكافي للكتابة بهذا القدر من البلاغة. ولكنه كان مخطئًا في اعتقاده هذا. لقد كتبت كل كلمة بنفسي. وما زاد الطين بلة، أنني لم أراجع دروس مادة الرياضيات الأسبوع الفائت، ولذلك كان أدائي سيئًا في الامتحان. مثلما قلت من قبل. أكره الرياضيات. حاول مدير المدرسة ضربي على مؤخرتي، ولكنني أمسكت بعصاه وكسرتها على ركبتي قبل أن يتمكن من ضربي. غضب مدير المدرسة، ووشي بي إلى أبي.

وبقدر ما كان أبي غاضبًا من محاولة المدير لضربي بالعصا إلا أنه كان أكثر استياءً عند معرفته بأنني أعاني صعوبة في تحصيل مادة الرياضيات. إذ عقد عزمه على أني يجب أن أكون محاسبًا.

ولكن هذا لن يتحقق أبدًا.

أكتوبر ١٨٨٧

قرر أبي إرسالي إلى مدرسة أنطون، وهي مدرسة خاصة للبنين. يقول إنها ستمثل علامة فارقة في بناء شخصيتي. أعتقد أن هذه كانت خطته منذ البداية؛ لأنه جاء على ذكرها من قبل. توسلتْ إليه ماما ألا يرسلني إلى تلك المدرسة. كانت تبكي. سمعت صوت بكائها قادمًا عبر الباب، ولكنها لا تريد أن تعارض أبي. أظن أنها خائفة منه. ارتعدت خوفًا حينما أخبرني بأنه سيرسلني إلى مدرسة أنطون. أنا لم أقضِ أي ليلة في الخارج أو نمت في أي مكان آخر عدا سريري. سأفتقد جيليان كثيرًا، فهي ما زالت صغيرة، ولكنها تكبر بسرعة. أجد جيليان مزعجة في بعض الأيام، ولكني أحب وجودها من حولي في أغلب الأوقات. أخبرت أبي بأني لا أريد الذهاب. ولكنه قال إن رأيه نهائي ولا يمكن تغييره. لا، يا سادة، لقد أخبرني أنه طالما أردت الشرب والذهاب إلى الحانات مثل الرجال؛ فإنه يمكنني العيش كرجل بعيدًا عن أمي.

***

هذه هي ليلتي الأولى في مدرسة أنطون. أكتب هذه اليوميات على ضوء القمر بينما أبذل قصارى جهدي حتى لا أبكي. سرقت منديلًا مصنوعًا من الكتان من صوان والدتي، وظللت محتفظًا به بقوة. من اللحظة الأولى أيقنت أنني لن أتمكن من الاندماج في هذه المدرسة. رئيس الطلبة لا يحبني. اسمه بيرتراند، هو أكبر سنًّا وحجمًا من الطلبة الآخرين. قام بدفعي نحو الجدار، وتسبب في إصابة أنفي بالنزيف. يقول مدير المدرسة بأنني متخلف عن بقية الطلاب في مثل سني. وعندما سألته: "متخلف عن ماذا؟". ضربني بالمسطرة على أصابعي لوقاحتي في السؤال. لا يمكنني حل مسائل الرياضيات. لا يمكنني أبدًا. واليوم، أجبرت على لبس قبعة الحمقى، ولوحة مكتوب عليها "لا يمكنه حل المسائل الرياضية". فعلوا ذلك ليؤكدوا لي على ما ينتظرني في قادم الأيام، كذلك ذهبت إلى الفراش بدون وجبة عشاء. إنني أتضور جوعًا. أفتقد أمي. أفتقد جيليان.

ديسمبر ١٨٨٧

صباح اليوم، دفع بيرتراند وجهي في وعاء من العصيدة الحارة. لحسن حظي، لم يكن طعم العصيدة حلوًا، ولا كانت ساخنة تمامًا، ولكن لم يعجبني هذا الموقف نهائيًّا. أمس، ربط بيرتراند جميع أربطة أحذيتي على شكل عقد حتى لا يمكنني انتعالها في الصباح. وكان علي أن أختار بين أن أفوت طابور

الصباح أو محاولة انتعال حذائي، وفي النهاية اخترت أن أحضر طابور الصباح منتعلًا جواربي فحسب. غضب ناظر المدرسة مني، وأجبرني على تمضية بقية اليوم منتعلًا جواربي فقط، وهو ما دب القشعريرة في أوصالي لأن الجو كان باردًا للغاية في الخارج. ستحل عطلة عيد الكريسماس قريبًا، ولكن أخبرني أبي بألا أعود إلى المنزل لأن الناظر أعطاه تقريرًا سيئًا عني. إنني أحاول أفضل ما لدي! أقسم أني أحاول ذلك!

أخبر برتراند بقية الصبية بألا يعطوني المضرب حينما يحين دوري في لعب الكريكيت. بعد ذلك، استدعاني ناظر المدرسة إلى مكتبه، وسألني إذا ما كنت أشعر بأنني أفضل من الآخرين حتى لا ألعب معهم. وعندما حاولت إخباره بأنني لست كذلك. قال إنني وقح، وإنه سيحطم كبريائي هذا. ثم ضربني على مؤخرتي. لم أضرب في حياتي هكذا من قبل، وأقسم أن الأمر كان أسوأ مما كنت أتخيله، والآن أشعر بألم شديد لدرجة أنه لا يمكنني الجلوس على مقعدي، ولكن المعلم أجبرني على الجلوس. أنا وحيد للغاية! لم أحصل على عشاء هذه الليلة أيضًا. ولكنني كنت محظوظًا لوجود فرانك، وهو صبي جديد في المدرسة، لقد أحضر إلي قطعة من الجبن وبقايا قطعة خبز بعد العشاء.

***

فرانكلين دونلي وجورج سانت ليدجر هما صديقاي الوحيدان. رئيس الطلبة لئيم معنا طوال الوقت. لقد عرقل

فرانك أثناء لعب الكريكيت، ثم وقف على ذراع فرانك وكسر إصبعه الصغير. كذلك دفع جورج من على الشجرة، فظننا أن جورج قد كسرت ذراعه، ولكن ذلك لم يحدث. قال الطبيب إن ذراعه خلعت من مكانها. وفي الوقت الذي لا يكون فيه بيرتراند لئيمًا معنا؛ فإن أصدقاءه يعوضون مكانه. أمس، أضاف طالب من الصف السادس مسحوق الفلفل في حسائي. سعلت بشدة ولم أقدر على التقاط أنفاسي. صرخ المعلم في وجهي طيلة اليوم، إذ حاولت قصارى جهدي حل المسائل الحسابية مثلما يريد، ولكني لم أنجح بعد. كل هذه الأشياء جديدة علي.

فبراير ١٨٨٨

قررت مع فرانك وجورج الهروب من المدرسة. أمس، قدم لنا الطباخ نوعًا من الحساء مع غضاريف تسبح على سطحه. كانت رائحة الحساء كريهة جدًّا. لم أحظَ بوجبة جيدة منذ أن قدمت إلى هنا، وهذه هي الحقيقة. عندما أشعر بالجوع، لا أستطيع التركيز على حل واجباتي المدرسية، ولكن المعلم يقول إنني مجرد شخص كسول حتى النخاع، ثم ضرب يدي بالمسطرة. أصابع يدي متورمة كلها، لذلك أشعر بالألم حينما أكتب، ولكني مصر على الاستمرار في تسجيل يومياتي.

الأسبوع الماضي، ضرب بيرتراند فرانك على رأسه باستخدام كتاب مادة علم الهندسة. ولساعات، أحس فرانك بالتوعك في معدته، ولم يكن قادرًا على الرؤية بصورة جيدة.

لم أكن وفرانك الوحيدين اللذين يرزحان تحت وطأة الألم. فجورج لديه علامات ضرب على مؤخرته إثر ضرب الناظر له بعصاه.

ما يقلقنا ليس العقاب على سوء السلوك فحسب. فلقد تعطل المرجل، ومن ثم قرر الناظر أنه يجب أن نبدأ يومنا بدش بارد من أجل صحتنا وتعزيز قدرتنا على التحمل. هذا هراء. أعتقد أنه يجد أن استبدال المرجل سيكلفه مبلغًا باهظًا... هذا كل ما في الأمر. الأجواء باردة هنا للغاية خلال وقت النهار، وبخاصة مع التيارات الهوائية الباردة. كان الجليد يتكون فوق أحواض المرحاض في الليل. وعندما أستيقظ في الصباح، وأضطر إلى أخذ دش بارد، أشعر بالبرد وتصطك أسناني طوال اليوم. وعندما يحل المساء، لا أقدر على النوم من كثرة التفكير في كم هي بائسة حياتي! كذلك لا يمكنني استقبال أي بريد لأن الناظر يراني شقيًّا جدًّا. بينما يحصل الصبية الآخرون على الحلوى والرسائل اللطيفة القادمة من منازلهم. ما زلت غير قادر على تحصيل ما فاتني من دروس الرياضيات، لكنني أحاول بجد. لذلك، لا يمكنني الاستمرار في البقاء هنا. أعتقد أن هذا المكان سيقتلني.

مارس ١٨٨٨

هبطتُ مع فرانك وجورج من على الشجرة الموجودة خارج نافذتنا وهربنا من المدرسة. وجدنا عربة متهالكة محملة

بالقش الجاف في طريقها للسوق، دسسنا أنفسنا داخل كومة القش، وخمنوا ماذا حدث؟ كنا أكثر دفئًا مما كنا عليه داخل المدرسة! اتجه سائق العربة صوب المدينة، وعندما هبطنا من العربة تفاجأنا مما رأيناه. وجدنا أنفسنا بجوار البحر! لم نعرف ذلك في السابق! كانت هناك العديد من المراكب في كل مكان. بعدها، حاولنا العثور على عمل، ولكن قيل لنا إننا صغار جدًّا على العمل. لم يكن لدينا أي نقود، وكنا نختبئ خلف الصناديق على رصيف الميناء حينما سمعنا أحد الرجال يقول: "ألم ترَ ثلاثة صبية في الأرجاء؟". لحسن حظنا، رد الرجل الآخر عليه بأنه لم يرنا على الإطلاق. خاض ثلاثتنا نقاشًا فيما بيننا. قررنا أنه إذا ما استمررنا في البقاء هنا، فسوف نتضور جوعًا أو يتم إعادتنا إلى المدرسة. إما هذا أو ذاك. وبدلًا من ذلك، قررنا أن نتسلل على متن سفينة ماتيلدا بريغز. ستبحر السفينة أول شيء في صباح الغد. وهذا يعني أنه علينا أن نجد أماكن للاختباء على متن السفينة الليلة. اعتقدتُ أنه من الحكمة أن يجد كل شخص منا مكانًا للاختباء بمفرده على أن نختبئ ثلاثتنا معًا. فوافق كلٌّ من جورج وفرانك على ذلك أيضًا.

إبريل ١٨٨٨

أكتب من المحيط الهندي. لم أظن أبدًا أنني سأوجد في مكان مثل هذا. ولكن ها أنا ذا، وفي طريقي إلى وجهة لا أعلمها. عندما أنظر إلى خارج السفينة، يساورني الاعتقاد بأنها

العالم كله، وأن إنجلترا ربما لا توجد حتى!

كانت الأيام العشرة الأولى من إبحارنا سيئة للغاية. كنت في حالة مرضية سيئة أكثر من أي وقت مضى في حياتي كلها. ومثلما خططنا، اختبأ كل واحد منا في بقعة مختلفة على السفينة. ولكن البحارة عثروا علينا في الليلة الأولى بسبب كل الضوضاء التي أحدثناها. وخاصة جورج، كان منهكًا للغاية. في البداية، اعتقدت أن القبطان قد يرمينا في البحر؛ لأنه كان غاضبًا جدًّا، ولكننا مررنا بطقس سيئ جعله يقول إنه ليس لديه وقت كاف للتعامل معنا. أشفق علينا بعض البحارة. كانوا ممن بدؤوا بالعمل على السفن منذ صغرهم أيضًا. وبما أن القبطان كان مشغولًا للغاية لمنع السفينة من الانقلاب بنا، حرص أحد الرجال -وهو أب لأولاد في مثل عمرنا- على حصولنا على قدر كاف من الطعام والماء لإبقائنا على قيد الحياة. أتساءل، ما الذي سيفعله القبطان بنا...

٣٠ أبريل ١٨٨٨

لم ينتظر القبطان وصولنا إلى ميناء مناسب حتى. لا، يا سادة. لقد أراد أن نغادر سفينته. كانت خطته هي أن يضعنا في قارب صغير ويتخلص منا بالقرب من أي أرض تقابلنا، ثم يستعيد قاربه الصغير. أتساءل إذا ما كان سيترك لنا بعض المؤونة. على الأقل لن نكون ثلاثتنا هذه المرة فحسب. قرر القبطان أن يتخلص من الطباخ، لأن شين الطباخ من أصل

صيني، والقبطان لا يحب الصينيين كثيرًا. قال إنه لا يمكن الثقة بهم. لست واثقًا من ذلك، ولكن بالنسبة لي أجد شين شخصًا طيبًا. كان دومًا يمرر الطعام لنا؛ لأننا فتية في مرحلة النمو. حاولت سؤال القبطان لماذا أحضر معه الطباخ الصيني من البداية بما أنه من أعطى الموافقة على جميع البحارة والعاملين في السفينة. لم أجد ذلك منطقيًّا. لماذا يحضر شخصًا على متن السفينة ثم يعامل ذلك الشخص بقسوة شديدة. وأقول قسوة شديدة لأن القبطان جلد الطباخ الصيني بسوط قبل بضعة أيام. قال إن الطباخ كان يسرق الطعام، ولكني سألته، كيف يمكنك سرقة طعام عندما تكون على متن سفينة في منتصف المحيط؟ ما الذي ستفعله بكل هذا الطعام؟ قلت شيئًا مثل هذا للقبطان، ولكن قرصني أحد البحارة في ذراعي بقوة فما كان مني إلا أن صمت. لاحقًا، عرفت أن هناك طباخًا مبتدئًا، وأنه من عائلة القبطان، يا للمفاجأة!

***

ها نحن أولاء، على جزيرة مهجورة، ويجب أن أقر وأعترف أنني بكيت عندما رأيت السفينة تبحر بعيدًا عنا. لم تكن لدي أي نية في أن يحدث أيٌّ من هذا. أجلس أسفل شجرة جوز هند بينما أكتب هذه اليومية، إذ إن كل ما أحضرته معي هو دفتر يومياتي وقلم رصاص. مازحني صديقاي بخصوص دفتر يومياتي، ولكنني أخبرتهما أنه يومًا ما حينما نحكي مغامراتنا لأولادنا،

سيساعدنا هذا الكتاب على تذكر كل تفاصيلها. قال جورج: "هذا لو عشنا لنرى أولادنا". على الأرجح، كان جورج محقًا في كلامه. كنت أكتب هذه اليوميات بينما كان جورج وفرانك يستكشفان أرجاء المكان، ويحاولان صيد السلطعونات من أجل عشائنا. لا أظن أننا سننجو. كذلك شين بالكاد يمكنه التحرك في الأرجاء، إذ إن ظهره مغطًّى بجروح مفتوحة بعد ضربه بالسوط، ولكنه يحاول أفضل ما عنده للاعتناء بنا. علمنا شين كيف نفتح حبات جوز الهند، كذلك أحضر علبة ثقاب معه من السفينة حتى يمكننا إشعال النيران. لقد كان ذلك أمرًا جيدًا حيث إننا لا نعرف إذا ما كانت توجد أي حيوانات برية هنا! ويجب أن أعترف، رائحة النيران هنا مختلفة تمامًا عن رائحتها في منزلنا. أراهن أن هذا بسبب الخشب الذي استخدمناه هنا، فهو رطب وله رائحة شبيهة برائحة السمك.

شهر مجهول/ مايو؟

نحن هنا منذ عشرة أيام. أحسست بالحيرة قليلًا عندما حاولت تذكر أي أشهر تتكون من ثلاثين يومًا وبين التي تتكون من واحد وثلاثين يومًا. لذلك، لم أعد أعرف تواريخ الأيام الآن. ولكني أعرف أني بدأت أسأم من أكل السمك، حتى مع محاولات شين الحثيثة في تحسين مذاق الطعام. كل يوم، يبلل شين ظهره مرتين في مياه البحر المالحة. علي أن أعترف... جراح جلده تلتئم بسرعة كبيرة بهذه الطريقة.

أظن أنه علي أن أكون ممتنًّا على حالنا هذه؛ لأنه كان من الممكن أن نموت جوعًا، ولكننا لسنا كذلك. في اليوم الأول، شيدنا سقفًا مائلًا لنحتمي أسفله. بالأساس، استخدمنا عَصَوَيْنِ كدعامتين عموديتين، ووضعنا فوقهما عصًا تتقاطع معهما أفقيًّا، ثم غطينا السطح بأوراق النخيل. بعد ذلك، أخبرنا شين بإضافة المزيد من الأعمدة لتثبيت أوراق النخيل حتى لا تتطاير عند هبوب رياح قوية. فكما ترون، لم نكن نملك أي مسامير! ولكن كانت فكرة شين جيدة. شققنا الكثير من الفروع والشجيرات حتى وجدنا قالبًا ليفيًّا في إحداها، وذلك لنستخدمه كحبال. عثر جورج على كرمة خضراء، فاستخدمنا فروعها كحبال أيضًا. لذا، ربطنا الأعمدة التي وضعناها فوق أوراق النخيل، وثبتنا الأعمدة حتى تبقى أوراق النخيل في مكانها بحيث لا تتطاير مع هبوب الرياح. قد لا تبدو السقيفة التي شيدناها عظيمة، ولكنها أفضل من لا شيء، وبخاصة عندما هبت عاصفة قوية في الليلة الماضية. كانت الأمطار تضرب وجوهنا، ولكننا تجمعنا معًا داخل السقيفة، وأعطينا ظهورنا للريح، وهو ما لم يكن بالوضع السيئ تمامًا.

شهر مايو

كدنا ننتهي من بناء الجدران المصنوعة من أوراق النخيل، عندما ارتفع صوت جورج بالصراخ. خمنت أنه جرح نفسه أثناء تعامله مع أحد فروع الشجيرات الحادة، ولكنه صرخ لرؤيته

أشخاصًا قادمين نحونا. بيد أنهم ليسوا مثل الناس الذين تراهم عادة في لندن. لا يا سادة... كانوا شبه عراة، ويحملون رماحًا، وأقواسًا، وأسهمًا. أدركت على الفور أنه في حالة نفورهم منا، فلسوف نموت. أنا وجورج وفرنك فكرنا معًا في الهرب، ولكنها كانت فكرة غير منطقية تمامًا. بالإضافة، فإن شين وين -وهو بالمناسبة اسم الطباخ بالكامل- بدأ يتحدث معهم. ولم يمر وقت طويل حتى تبين أنه لم يكن في نيتهم إيذاؤنا. كان هذا خبرًا جيدًا لأننا لم نفكر في صنع أي أسلحة أو أي شيء من هذا القبيل. كنا نمتلك رماحًا للصيد، ستة رماح فقط. لم نكن لننجو في حالة نشوب أي قتال.

تحدث قائدهم مع شين كثيرًا. وفي النهاية، قال شين: "ليسوا هولنديين! ليسوا هولنديين!"، ليبتسم القائد بعدها. خمنت أن الهولنديين حاولوا السيطرة على هذه الجزيرة. كانت أشجار الفلفل تنمو في مكان ليس ببعيد عن مكاننا. لم أر تلك الأشجار بعد، ولكن أخبرني شين بأن التوابل تباع بأسعار مرتفعة حول العالم، وأن الهولنديين يريدون هذه الجزيرة بالكامل لأنفسهم. وهذا يعني أنهم لا يجدون غضاضة في قتل السكان الأصليين هنا حتى يمكنهم فعل أي شيء يرغبون به في هذه الجزيرة. حمدًا لله أن شين تمكن من إقناع فرقة الكشافين هذه بأننا لسنا هولنديين وإلا قتلنا في الحال!

بدلًا من ذلك، قرروا أخذنا إلى الراجا. الراجا هو شخص مثله مثل الملك. كنت قلقًا من أنهم سيضحون بنا من أجل

الراجا، ولكن بينما كنا نسير في طابور بعضنا خلف بعض في اتجاه القرية، أفضيت لشين عن هواجسي، فأخبرني بأنهم عفوا عن حياتنا لأننا إنجليز. يعرف الجميع أن الإنجليز والهولنديين أعداء بعضهم لبعض.

مشينا لمسافة طويلة. كانت القرية مبنية أعلى جرف يمكن الدفاع عنه، ويطل على البحر. وللوصول إلى البحر، يجب على المرء نزول سلالم محفوفة بالمخاطر، ولذلك كان أمامنا رحلة صعود طويلة على الدرج حتى نرى القرية. ولكن ما أن وصلنا، بدأ السكان في مشاركة طعامهم معنا. في البداية، لم أكن منجذبًا إلى تلك الفاكهة التي يسمونها الموز، ولكن كلما أكلت المزيد منها وقعت في حبها أكثر وأكثر.

عند وصولنا إلى القرية، دفعونا داخل خيمة ما. أثار ذلك هلعي كثيرًا، وأردت أن أبكي. خمنت أنهم يجهزوننا مثلما تجهز الماشية قبل أن تذبح. والأسوأ من كل هذا، أخبرنا البحارة من قبل عدة حكايات عن مدى قسوة السكان الأصليين. كذلك قالوا إن بعض القبائل تأكل لحم البشر! ظن جورج أن هذه مجرد كذبة لإخافتنا، ولكن فرانك وأنا فكرنا أنها ربما تكون حقيقية. رأيت صديقيّ وهما يبذلان قصارى جهدهما حتى لا ينفجرا بالبكاء. أما أنا فقد عضضت على شفتي السفلى بقوة لدرجة أنني أحسست بطعم الدماء.

ولكن شين أخبرنا بأننا سنكون بخير، وقد كنا كذلك بالفعل. كان هناك حارسٌ يحرس خيمتنا، وكان يمكننا رؤية

خارج الخيمة ومشاهدة النساء وهن يجهزن الطعام بينما يتسامر الرجال فيما بينهم. بعد فترة، جاء الراجا ليتفقد أحوالنا. كان اسمه كياوانكا، كان طويل القامة ونحيفًا، ويلبس أقراطًا عملاقة في أذنيه، تدلت حتى كتفيه. كانت هناك ندبة على جبهته على شكل فأر، وبدت كما لو وصمت بالنيران على جلده. كان هناك العديد من القلائد حول رقبته، وكان يلبس تاجًا من الريش لم أر مثله من قبل! كان فخمًا. ومثل الرجال الآخرين، كان يرتدي تنورة صغيرة بدلًا من البنطال، ولكنه كان يرتدي عباءة مخيطة من مجموعة متنوعة من الفراء الفاخر. طرح كياوانكا بضعة أسئلة على شين. تمنيت لو كنت أعرف فحوى محادثتهما ولكني لم أقدر على ذلك. وعند نقطة ما من حديثهما، بدا شين مذعورًا. حتى أنه صرخ وقال: "لا. لا! لا يمكنك فعل هذا!". كان كل ما يمكننا فعله ساعتها هو أن نقف في موضعنا ونراقبهما. ثم همس جورج لنا: "لا تبديا خوفكما. دعونا نظهر لهم أننا لا نشكل أي خطر. كما لو أننا مستسلمون، ولكن لا تجعلونا نبدو كالأطفال. كان جورج أكبر منا بعام تقريبًا، لذلك كنا ننصت لرأيه كثيرًا.

وبالفعل، قرر كياوانكا أنه لا بأس من وجودنا.

في تلك الليلة، رأيت حفلة لم أر مثلها من قبل. عزف السكان الأصليون على الطبول، ونوع آخر من الآلات الشبيهة بالصفارة. رقص الجميع. حتى أنا حاولت الرقص أيضًا! أمضت كل النساء أوقاتهن في طهي الطعام طيلة اليوم، وأكلت

برفقة أصدقائي المزيد والمزيد من الطعام. بدت بعض أنوع الطعام غريبة علينا، ولكن كان مذاقها طيبًا.

بعد الوجبة، كانت هناك مراسم قبلية. جلس الراجا على العرش، وأومأ برأسه نحو ثلاثة رجال، والذين اختفوا لبعض الوقت قبل أن يعودوا حاملين ثلاثة فئران عملاقة. على الأقل، هذا ما اعتقدناه. بلغ طول تلك الفئران ثلاثة أقدام! وكانت وجوهها قريبة الشبه من وجوه الخنازير أكثر من كونها وجوه فئران. رفعت الفئران واحدًا تلو الآخر لأعلى أمام الحشود ليبجلوها. انحنى السكان الأصليون أمام الفئران الثلاثة، ورفعوا أياديهم إلى أعلى، وأخذوا يغنون معًا. كان مشهدًا غريبًا، أما جورج فقد ظن أن ما يحدث له علاقة ما بديانتهم.

في اليوم التالي، اصطحبنا كياوانكا لرؤية المقدسين. على الأقل، هذا ما ترجمه شين لنا. اجتمع كل السكان الأصليين في صف واحد، ومشوا بخطوات هادئة، كما لو كانوا في عرس ما أو حفل تخرج. تبعنا خطواتهم. أخذونا إلى ما يشبه بناء متقنًا من الحظائر، مثل أقنان الأرانب، إلا أنها كانت فخمة بصورة مبالغ بها، ومطلية بألوان زاهية. كان هناك العديد من تلك الحيوانات داخل هذه الحظائر. أطلق شين عليهم مسمى "الفئران المقدسة". أعتقد أنهم كانوا يعتنون بها بشكل جيد. كل الفئران ترتدي معاطف لامعة... أحمر، وأبيض، وبنيًّا وأبيض، وآخر باللون الأسود، وقد كان ذلك الأخير هو الذي يقدسه السكان الأصليون. تم تحذيرنا بأنه يجب علينا عدم

محاولة لمسهم أبدًا، ومع ذلك فقد أمسك كياوانكا بواحد منها واحتضنه بين ذراعيه. لم يتمكن شين من فهم كل شيء، ولكنه أخبرنا لاحقًا بأنه سمع حديثًا عن كيف أنقذت تلك الفئران العملاقة السكان الأصليين. قال إنهم يحظون باحترام كبير بينهم. في الواقع، وطبقًا لكلام شين، فإن هذه الفئران هي من تقف حائلًا بين السكان الأصليين وأعدائهم العديدين.

تساءلنا عن هوية أعدائهم، ولكن لم يستطع شين إخبارنا. لم تكن لديه الكلمات المناسبة لشرح الأمر.

قال شين إن الراجا سيصطحبنا غدًا لرؤية أشجار الفلفل. وهي ذواتها الأشجار التي يريدها الهولنديون بشدة.

الفصل العاشر

شهر غير مُتَيَقَّنٍ

رأينا أشجار الفلفل التي يتقاتل عليها الجميع، كذلك رأينا مزروعات لشجر توابل أخرى أيضًا. همس شين بأننا نحدق إلى ثروة طائلة قد تجعلنا أغنياء إذا ما تمكنا من إحضارها إلى أوروبا. ضحك جورج وقال: "أي منزل؟ هل تعتقد حقًّا أننا سنتمكن من رؤية منازلنا مرة أخرى؟ هذا مضحك للغاية".

في حين أني أشعر بالحزن عندما أفكر في أختي الصغيرة، إلا أن الحياة هنا ليست سيئة تمامًا. يعاملنا الراجا بصورة طيبة، ولذلك يعاملنا شعبه بلطف. في أحد الأيام، قال جورج شيئًا غريبًا، ربما لأنه الأكبر سنًّا فيما بيننا، إذ تساءل: "هل يمكنكم تخيل كيف ستستقبل عائلاتنا أحد السومطريين؟ لا أعتقد أن والدي سيتردد للحظة واحدة قبل إطلاق النار عليهم، ناهيك عن إطعامه، ووضع سقف فوق رأسه.

كانت هذه الفكرة باعثة للأسى حقًّا، وفي ضوء ما أعرفه، كان كلامه حقيقيًّا تمامًا.

كانت إحدى زوجات كياوانكا الأربع تعلم شين كيف يطبخ مثلها. يعتقد شين أنه إذا ما تمكنا من العودة إلى لندن ذات يوم، فإنه سيجد طلبًا متزايدًا على مهاراته الجديدة التي اكتسبها هنا. أشك في ذلك؛ ولكن هذه الفكرة تجعله سعيدًا. بطريقة ما، تكيَّفنا جميعًا على الحياة هنا. تعلمت وفرانك وجورج كيفية استخدام القوس والسهام. أيضًا، أحرزنا تقدمًا جيدًا في كيفية صناعة واستخدام الرماح. في البداية، ضحك الأطفال من السكان الأصليين علينا كثيرًا. ولكنهم تغيروا عندما رأوا عزيمتنا وسعادتنا عند تعلم كل شيء. عرضوا علينا تعليمنا طريقة استخدام النبال أيضًا.

عقد ثلاثتنا -أنا وفرانكيلن وجورج- اتفاقًا على أن نساعد السكان الأصليين بقدر استطاعتنا، وأن نجعلهم سعداء. فإذا أخذنا كل شيء في الحسبان، فربما يقتلوننا ويأكلوننا أيضًا! على ما أعتقد، قمنا بعمل جيدٍ في إرضائهم حتى الآن. كل يوم نتعلم شيئًا جديدًا، على الرغم من أنني أعتقد أن هذه ليست هي المهارات التي توقع أبي أن أكتسبها أثناء غيابي عن المنزل. أتساءل ما الذي سيفكر فيه أبي عندما يراني الآن! بشرتي داكنة مثل لون الكستناء. يصل شعري إلى كتفي. أرتدي تنورة صغيرة تغطي أعضائي الخاصة، وعلى الرغم من أني استغرقت بعض الوقت حتى اعتدت على هذه الملابس، إلا أنها -هنا في

المناطق الاستوائية- أكثر عملية من البناطيل. أتساءل إذا ما كنت سأتمكن من رؤية أبي وأمي وجيليان مجددًا. إذا تمكنت من العودة إلى لندن؛ فسأحاول بجد أن أكون شابًا صالحًا أكثر مما كنت عليه! أراد أبي أن يعلمني درسًا، وقد حقق ذلك بالفعل، رغم أني أشك أن هذا الدرس ليس هو الدرس الذي أراد أن يعلمني إياه.

التاريخ غير مؤكد

الآن، قضينا ما مدته شهرٌ مع السكان الأصليين تقريبًا، والليلة الماضية كانت أغرب الليالي التي مررنا بها على الإطلاق. قبل حلول الظلام، أحضروا أقفاصًا إلى منتصف القرية. ثم سحبوا الحبال، وعلقوا الأقفاص الضخمة المصنوعة من الخيزران على أكثر فروع شجرة البانيان ارتفاعًا، والتي تتوسط قريتهم. كانت شجرة البانيان عملاقة، وتنمو بطريقة لم أر مثلها قط، كانت جذورها تبدأ من أكثر فروعها ارتفاعًا، وتتهدل إلى أسفل لتمتد عبر الأرض. وبهذه الطريقة، شكلت كتلة الجذور تكوينات رائعة على الأرض، حتى أنها كونت غرفًا أسفل الفروع العالية.

شرح لنا السكان الأصليون من خلال شين أن هذه الشجرة مقدسة. كان يمكنني رؤية ذلك من طريقة تعاملهم معها باحترام. تسلق ثلاثة من السكان الأصليين الشجرة، وربطوا الحبال حول أعلى الفروع. ورغم طرح شين الكثير من الأسئلة

على السكان الأصليين، إلا أن الجواب الوحيد الذي حصل عليه كان: "إنها قادمة... إنها قادمة... ستُسفك الدماء".

بطبيعة الحال، كنا خائفين للغاية. اعتقدت من كلامهم أن ذلك يعني قدوم الهولنديين، وأننا قد نقتل أو نؤخذ رهائن مقابل فدية. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يضعوننا في أقفاص؟ بالتأكيد، يمكن للهولنديين تسلق الأشجار، وفك العقد، والوصول إلينا في نهاية المطاف؟

وإذا ما كان الهولنديون قادمين حقًّا، فلماذا لم نر سفنهم في الأفق؟ كان الأمر محيرًا للغاية. تفكرنا في كل هذا لفترة طويلة. تساءل فرانك عما إذا كان سيتقاتل الهولنديون والسكان الأصليون، وسيكون المساجين في هذه الأقفاص من نصيب الطرف الفائز. أخافتنا تلك الفكرة كثيرًا!

عندما أخبرنا شين عن مخاوفنا، ضحك حتى دمعت عيناه. وقال: "يا لكم من مجموعة من أطفال قادمين من عائلات غنية! ألم تروا أسواق النخاسة من قبل؟ هذا ما سيصبح عليه حالنا في الحقيقة. سيتم تعريتنا، وسيحدق فينا المشترون، وسنباع مثل لحم الضأن".

تسبب ذلك في جعل جورج يئن من الخوف.

ما زلت أرتعد من تلك الفكرة بينما أكتب عنها. كانت تلك الفكرة تثير غثياني.

مع حلول الظلام، تم إنزال الأقفاص إلى الأرض. فتحت الأبواب. أولًا، دخلت مجموعة من النساء الأقفاص. أحضرن معهن جدائل من الزهور ولففنها حول قضبان الأقفاص، ثم خرجن منها والتحقن ببقية السكان الأصليين، الذين وقفوا إلى جانب واحد، يراقبون ويثرثرون فيما بينهم. أمرنا أحد شيوخ القبيلة بأن يدخل ثلاثتنا إلى أحد الأقفاص الكبيرة. على الأقل كنا ثلاثتنا معًا! أما شين فقد كان في قفص آخر بمفرده. كان يمكنني رؤية محاولته في أن يظل هادئًا. أنا وصديقاي بذلنا قصارى جهدنا حتى نظهر شجاعتنا، ولكن كان فعل ذلك صعبًا جدًّا. لن أخجل من قول إنني بكيت. أعتقد أن فرانك وجورج بكيا أيضًا. لم أفهم سبب انقلاب السكان الأصليين علينا فجأة، لقد كانوا لطفاء معنا. والآن يبدو الأمر واضحًا، فلسوف يسلموننا إلى الهولنديين! أو ربما يقتلوننا! أو ربما حتى يأكلوننا!

ومع بدء غروب الشمس، بدأ السكان الأصليون بإنشاد الترانيم. ترجم شين لنا ترنيمتهم: "إنها قادمة... إنها قادمة... ستُسفك الدماء".

بينما كنت أفكر في هذه الأفكار القاتمة، فاجأني السكان الأصليون مجددًا. اجتمعت ثلاث أمهات شابات مع أطفالهن الصغار عند قاعدة شجرة البانيان. وفي الجزء الخلفي من الموكب، أحضر ثلاثة رجال قفصًا آخر مثل قفصنا. منحت الأمهات الثلاث زهورًا ليضعنهن في شعورهن. وكان قفصهن

مزينًا بالورود مثل قفصنا. أظن أني رأيت هذا النبات في بيت النباتات الزجاجي عند جدتي. قالت إنه يدعى بالياسمين الهندي. كانت رائحة هذه الأزهار قوية للغاية. ما أن انتهت النساء من وضع الأزهار في شعورهن حتى حملن أطفالهن ودخلن إلى قفصهن. لم يبدون خائفات على أنفسهن أو على أطفالهن، رغمَ أنهن قبلن أزواجهن بطريقة تشير إلى أنهن يودعنهم. بعد ذلك، رُفع قفص الأمهات إلى الأعلى في الهواء مثلنا. ربطت جميع الأقفاص على ارتفاع ثلاثة عشر قدمًا إلى أغصان شجرة البانيان. سيتوجب على المرء أن يكون متسلقًا ماهرًا ليتسلق الشجرة ويفك عقد الأقفاص التي تربطها بالشجرة. كان كل قفص من الأقفاص يتدلى بحرية حتى لا يمكن لأي جانب منها أن يلمس الشجرة أو الأرض. كان قفصهن مربوطًا أيضًا إلى بقعة عالية عن الأرض. ولذلك فإن الحبل سيعمل على إبقاء القفص معلقًا بعيدًا عن أي يد قد تصل إليه باستثناء متسلقي الأشجار الماهرين.

ببطء، بدأ ضوء الشمس بالتلاشي تدريجيًّا. طيلة ذلك الوقت، وجدت نفسي أشعر بالحيرة أكثر وأكثر. حملت النساء أطفالهن، وكنّ هادئات للغاية. بدا الأمر كما لو أن تلك الأقفاص صممت لحمايتنا. ولكن من ماذا؟ لم تكن تلك الفكرة منطقية على الإطلاق! لماذا يعلقوننا في الهواء هكذا؟ كيف سيحمينا ذلك؟

وإليك ما يزيد الأمر حيرة: كانت النساء يحملن أطفالهن، ولقد رأيت كم يهتم السكان الأصليون بأطفالهم. لقد رأيتهم يحضنون الأطفال (وكذلك الأطفال الأكبر سنًّا) ويقبلونهم. هل سيتم التضحية بنا جميعًا؟ هل سيتم التضحية بالنساء والأطفال أيضًا؟ تناقشت أنا وجورج وفرانك فيما بيننا عن هذا الأمر، ولم نتمكن من الوصول إلى إجابة تتفق مع المشهد القائم أمامنا. ما السبب وراء هذا السلوك الغريب والاستثنائي؟ لم أتمكن من معرفة ذلك.

مع اختفاء آخر خيوط الشمس. تحلق جميع السكان الأصليين في المنطقة المركزية من أسفلنا. الرجال والنساء والأطفال الكبار، وقفوا جنبًا إلى جنب، ورؤوسهم مرفوعة لأعلى. شق كياوانكا طريقه في خطوات واسعة عبر الحشود، بينما ينحني الجميع له إجلالًا. كان يرتدي غطاء رأس يصل طوله لستة أقدام، ويحتوي على ريش بألوان عديدة مثل ألوان قوس القزح. كانت هناك عباءة من الفرو على كتفيه، وحمل في يديه واحدًا من تلك الفئران المقدسة. رفعه عاليًا فوق مستوى رأسه. كان يمكن التعرف على هيئة الفأر تحت ضياء القمر. بعد ذلك، سلم الراجا الفأر إلى أحد المحاربين، والذي سرعان ما ركض به بعيدًا.

ما أنا على وشك كتابته تاليًا سيكون من الصعب توصيفه بمجرد بضع كلمات... صعب جدًّا. حتى أنا بالكاد أصدق ذلك. الآن، كان القمر مكتملًا وساطعًا ومتلألئًا. كنت أصب

جل اهتمامي على المحارب الذي ركض بالفأر بعيدًا، ولكن فجأة سمعت أصوات أنين ونشيج ونباح شبيه بالأصوات التي تحدثها الكلاب. كانت أصوات الضوضاء هذه مصدرها السكان الأصليون. في الوقت نفسه، بدا كما لو أن هناك قوًى ما مروعة قد ضربت جميع السكان في الوقت نفسه؛ لأنهم تطوحوا أرضًا على أيديهم وركبهم. شاهدت أنا وجورج وفرانك السكان الأصليين وهم يلتوون كما لو كانوا يتألمون. جميعهم بلا استثناء! بمن في ذلك الأطفال. كان الاستثناء الوحيد هو النساء الثلاث مع أطفالهن الرضع الموجودين في القفص.

كنَّ يشاهدن الحدث الذي يعرض أمامنا في هدوء. استمرت أصوات الصراخ والآهات بينما أخذ يتردد صداها عبر الليل. من مكاننا في القفص، أتاح ضوء القمر لنا نوعًا من الإضاءة، ولكنها لم تكن كافية لنتمكن من رؤية كل شيء بوضوح. ارتفعت وتيرة الصراخ والنباح والتأوهات أكثر وأكثر من ذي قبل، وفجأة، لف الصمت كل شيء. بدا كما لو أن هناك تغييرًا ما طرأ على السكان الأصليين، ولكن ما هي طبيعة هذا التغيير؟ لم يكن بمقدورنا تخمين ذلك في البداية.

كل ما كان يمكننا فعله هو مراقبة ما يحدث في ذهول، ومحاولة تحليل ما يحدث أمامنا. أعتقد أن فرانك هو أول من بادر بالحديث: "انظروا! هل يمكنكم رؤيتهم؟ إنهم يتحولون إلى ذئاب!".

تاريخ غير معروف

عندما عاد نور الصباح البارد. تساءلت إذا ما كان كل ما حدث مجرد حلم.

صحيح، لقد كنت داخل قفص، ولم أتعرض لأي أذًى، ولا حتى أصدقائي. أنزلنا السكان الأصليون إلى الأرض على مهل. بدوا سعداء حقًّا عند إطلاقهم لسراحنا. كذلك أُطلق سراح الأمهات وأطفالهن، وشين أيضًا. انتظرنا حتى لم يعد أحد من السكان الأصليين بجوارنا، ثم سألنا شين إذا ما كان رأى ما رأيناه. ولن أنسى إجابته أبدًا ما حييت: "هناك سحر قوي في الأجواء بلا أدنى شك".

احترت كثيرًا عند سماعي لذلك.

***

بشكل غريب، بعد مرور شهر تكررت الطقوس أنفسها.

مجددًا، حدث ذلك حينما كان القمر مكتملًا وفي قمة ذروته. تحول أهالي القرية بالكامل، عدا الأمهات وأطفالهن، ذلك التحول الرائع من هيئتهم البشرية إلى هيئة ذئبية مجددًا. أنا على ثقة إذا ما قرأ أي أحد ذلك، سيعتقد أنني مجنون أو أنه يجب إرسالي إلى مستشفى المجانين، وأن أحتجز هناك. كنت لأقبل بذلك؛ لأن المستشفى يوجد في لندن وليس هنا.

لو لم أحتفظ بدفتر اليوميات هذا، فربما كان ليتوفر لي سبب في ألا أصدق ما رأيته في الشهر الماضي. ولكني قررت منذ البداية أن يكون هذا الدفتر بمثابة سجلٍ لي. أن أروي بداخله الحقيقة ولا شيء سواها. من الممكن أن يكون السكان الأصليون قد قاموا بخداعنا أنا وأصدقائي. ولكني متيقن تمامًا أنني لست المخادع هنا. ولو كانت هذه خدعة، فهي خدعة تحدث بشكل دوري!

مثل ما حدث قبل ثلاثين يومًا، تم إجبارنا على دخول الأقفاص مجددًا، ثم رفعت الأقفاص في الهواء. كانت الحبال التي تربطها مقيدة على نحو عال بحيث لا يمكن لأي من الحيوانات المتجولة في المنطقة أن يصل إلى البقعة التي قيدت فيها. يمكن فقط لأي بشري أن يتسلق الشجرة ويفك عقدة الحبال. ومثلما حدث من قبل، تم تزويدنا بطعام وشراب كافيين قبل أن تغرب الشمس. حبكت الزهور حول قضبان الأقفاص. كان شين في قفصه الخاص، كذلك الأمهات وأطفالهن في قفصهن الخاص. هذه المرة، كان فرانك مضطربًا للغاية، أكثر مما كان عليه في المرة الفائتة. كنا في قفصنا المصنوع من الخيزران، نتأرجح فوق مكان تجمعهم. كانت النساء وأطفالهن في قفصهم، وشين في قفصه. قال فرانك فجأة: "ماذا لو أكلونا هذه المرة؟ إنهم ذئاب. لقد رأيت الذئاب مرة من قبل في حديقة حيوانات لندن. إنهم حيوانات مفترسة وشرسة. أعتقد أننا سنموت".

قال جورج: "بالطبع إنهم ذئاب. هذا أمر واضح جدًّا".

بينما قلت متسائلًا: "إذا ما خططوا لأكلنا بالفعل، ألن تكون هذه مهمة شاقة عليهم؟ لماذا لم يتركونا على الأرض؟".

قال فرانك: "لا أعرف إجابة سؤالك، ولكن يمكنني القول بأننا اكتسبنا وزنًا أكثر هذا الشهر. لقد أطعمونا طعامًا أفضل من الذي كنا نأكله سابقًا في مدرسة أنطون. فما سبب إطعامهم لنا هكذا؟".

قلت: "ربما هم ليسوا قساة أو بخيلين مثل ناظر المدرسة".

فقال جورج مؤكدًا على كلامي: "الطعام متوفر بكثرة هنا، طالما يمكنك تقديم يد المساعدة في صيد الحيوانات أو إعداد الطعام. لذا، لماذا قد يهتمون بأكلنا؟ ناهيك عن أننا متعاونون للغاية معهم. لقد تعلمنا جميعًا مهاراتهم، وقمنا بتطبيقها. عندما وصلنا إلى الجزيرة لم نكن نعرف أي شيء".

قال فرانك: "ربما حاولوا التهدئة من روعنا أولًا، وربما الآن يأكلوننا". لقد بدا قلقًا حقًّا. رغم أننا لم نكتشف السبب الحقيقي بعد.

التفتنا نحو شين وسألناه: "أخبرنا بصدق. هل تعرف سبب ما يحدث معنا؟ هل يخططون لأكلنا؟".

نهض شين، وأمسك بقضبان القفص، ثم اتكأ بثقله عليها، وقال: "ماذا تعتقدون؟ هل تظنون أنهم سيخبرونني بذلك؟

يخبرون رجلًا صينيًّا؟ تقولون ماذا لو كانت هذه هي خطتهم؟ أنا أعتقد عكس ذلك! دعوني أسألكم أيها الفتية الأذكياء. أنتم ذهبتم إلى المدرسة. هل يعلمونكم هذه الأشياء في المدرسة؟ أنا مجرد رجل مسكين يحب الطهي! أخبروني، أخبروا شين، هل هم بشرٌ أم ذئابٌ؟ وإذا كانوا جوعى، فلماذا يضعوننا في قفص ليصعب عليهم وصولهم إلينا؟".

غضب جورج من محاولته لإثارة أعصابنا، قال: "أنت تتحدث لغتهم يا شين. يمكنك أن تسألهم! لماذا لم تفعل ذلك؟".

بصق شين، وقال: "هل تعتقد أني أعرف الكلمات التي تجعلني أصوغ هذا الكلام؟ هل تعتقد أنهم يخبرون شين بكل شيء؟ أنت فتًى مضحك. لا بد وأنك تمزح. أنا أرى ما تراه، وأنا دهِش مثلك أيضًا. في الموروث الثقافي في بلادي، لدينا العديد من المخلوقات التي تمتلك قوًى خاصة، ولكن لا يوجد من بينها من يتحول إلى ذئب.

قاطعه جورج قائلًا: "لا يا شين. ما عنيته بحديثي أنك تتحدث لغة السكان الأصليين! هل سألتهم عن هذه الذئاب؟ وماذا قالوا؟".

أشاح شين بوجهه بعيدًا. حاول جورج مرارًا وتكرارًا ليجعل الطباخ يتحدث لكنه رفض. همس فرانك نحوي: "أراهنك على شيلن -هذا لو كنت أملكه- أن شين يعلم أشياء

أكثر مما يخبرنا بها. أعتقد أنه يحب رؤيتنا ونحن نعاني".

سألته: "لماذا؟".

قال فرانك: "لأن الرجال من ذوي البشرة البيضاء الآخرين عاملوه معاملة سيئة. هذه هي فرصته للانتقام".

كان فرانك محقًّا في كلامه، إذ رأينا السلوك الفظ الموجه للطباخ الصيني، وبخاصة على متن السفينة، ولكني لم أر أي سبب يجعل شين فظًّا معنا. لقد كنا منبوذين مثله تمامًا.

بعد مرور ثمانية وعشرين يومًا

بينما كنا نقترب من اكتمال القمر مرة أخرى، تحدثنا فيما بيننا عن التحولات. هل هي حقيقية؟ وكيف يمكننا التحقق من ذلك؟

اقترح جورج القيام بعدة تجارب. طلب من كل واحد منا أن يرسم ما يراه خلال فترة التحول في اليوم التالي للقمر المكتمل.

وهذا ما فعلناه. بعد اكتمال القمر في الشهر التالي، ذهب ثلاثتنا إلى الشاطئ. وقف كل واحد منا معطيًا ظهره للآخر، بحيث لا يمكننا رؤية ما نرسمه، استخدمنا عصيًّا للرسم على الرمال. كانت الصور التي رسمناها متشابهة جدًّا جدًّا. خاصة مع أخذ قدراتنا الفنية المحدودة في الحسبان.

توصل فرانك إلى فكرة أخرى. اقترح ألا نأكل أو نشرب أي شيء طوال اليوم الذي يسبق ليلة اكتمال القمر. بهذه الطريقة، سنتحقق من أن ما رأيناه لم يكن ناجمًا عن أي مخدرات غريبة. مجددًا، عندما حل موعد اكتمال القمر، امتنعنا عن الطعام والشراب. وفي صباح اليوم التالي للتحول، قمنا بمقارنة انطباعاتنا الشخصية، واكتشفنا أننا مررنا بالتجربة السابقة نفسها.

هذه المرة، أشرت لصديقيّ بأن هناك علامات على التحول ما زالت موجودة في الأرجاء بعد مرور ليلة اكتمال القمر. أراد فرانك معرفة ما أعنيه بكلامي هذا. فقلت: كل ما تحتاجه هو أن تنظر من حولك بعناية. هناك رمال غارقة في الدماء في عدة مناطق من حول المخيم. أومأ جورج برأسه موافقًا، وقال إنه رأى خصلات من الفراء عالقة في لحاء الشجرة، والتي افترض أنها بقايا آثار الذئاب التي حاولت تسلق شجرة البانيان. أشرت إلى حقيقة أنه دائمًا ما توجد بقايا من لحم فاسد متناثرة من حول الأكواخ بعد ليلة اكتمال القمر. قلت إن هذه تعد بمثابة دلائل. أخبراني أن كل هذا يجب أن يكون حقيقيًّا، وأن عقلي لم يلعب أي نوع من الحيل معي.

بعد مرور عام

مضى الوقت بسرعة. قمت مع أصدقائي بمواصلة تتبع الأيام عن طريق إنشاء شيء ما يشبه التقويم الزمني؛ إذ باتت

الحاجة إلى وجود تقويم زمني متزايدة وضرورية كما سترون ذلك لاحقًا. كنا نعلِّم على أعمدة كوخنا الخشبية علامات تدل على مرور الأيام. لست متيقنًا من التاريخ تحديدًا، ولكنني وضعت دفتر يومياتي بعيدًا، منذ اثني عشر شهرًا، بعد أن كتبت تدوينة غريبة جدًّا استحال علي تصديقها. مرارًا وتكرارًا، أخذت أخبر نفسي بأنني كنت متوهمًا فحسب. مع ذلك، أكد لي الثلاثي فرانك وجورج وشين أن ما رأيته ليس وهمًا. في البداية، لم نحب الإشارة بالحديث إلى ما حدث تمامًا، لأننا لم نصدق ما رأيناه. اعتقد فرانك أن المياه التي شربناها تم خلطها بوصفة تسبب الهلاوس. أخبرنا شين بأن هناك أنواعًا من عش الغراب في موروثه الثقافي لا يأكلها أي شخص لأنها تسبب مثل هذا النوع من الأحلام في وضح النهار. أما جورج فقد اعتقد أن السكان الأصليين كانوا يرتدون أزياء تنكرية. أما أنا فلم تكن لدي أدنى فكرة عما يحدث!

لشهور عديدة، ظننا أننا تناولنا إكسيرًا قويًّا شوش علينا حواسنَا. وقررنا أن نكون حذرين بشأن ما نأكله ونشربه. بالطبع، كانت هذه مهمة صعبة لأننا نتشارك الطعام والشراب أنفسهما مع السكان الأصليين. في نهاية المطاف، تخلينا عن هذه الخطة كونها عديمة الجدوى.

تطلعنا إلى شين طلبًا لإرشاده، ولكنه لم يقل الكثير. وهذا جعلنا غاضبين. من الواضح أن شين يعرف أكثر مما نعرف -أو هذا ما كنا نعتقده- إذ أصبح ضليعًا بلغتهم على نحو ما،

وبالتأكيد كان بمقدوره سؤالهم عن كل الأسئلة التي تحيرنا، ولكنه احتفظ بآرائه لنفسه. في أول بضعة أشهر، ألححنا على شين، نسأله سؤالًا تلو الآخر، ولكن كانت إجابته الإمعان أكثر في الصمت. كذلك، بدأ يتصرف معنا بشكل فظ، وهو الأمر الذي أدهشنا أيضًا؛ لأنه دومًا ما كان لطيفًا معنا في جميع الأحوال. لم أكن لأعرف كيف كان يمكننا أن ننجو بدون مساعدته.

تناقشنا بخصوص ردود أفعالنا عما رأيناه، وتوصلنا إلى أن ضياء القمر في هذا المناخ الاستوائي تسبب في خداعنا. وكما هو الحال مع كل الجوانب الجديدة في حياتنا، خلصنا إلى نوع ما من التسليم بما رأيناه. وأن ما بدا غير معقول أو خياليًّا لنا ذات مرة، بات محض مغامرة غريبة يتوجب علينا تحملها.

كانت هناك مذبحة تحدث مع كل دورة اكتمال للقمر. الصيادون الذين يحضرون الغزلان الصغيرة والأرانب وما يشبهها من حيوانات موجودة على هذه الجزيرة هم ليسوا إلا السكان الأصليين الذين يتخذون هيئة الذئاب. هذا هو كل ما في الأمر... هذه هي أيسر طريقة لشرح ما نراه كل ثلاثين يومًا.

مع كل دورة اكتمال للقمر، نجد أنفسنا معلقين عاليًا داخل الأقفاص، نراقب هذه التحولات الغريبة، ونسمع أصوات الصيد والمطاردة. مثل كل الأحداث التي تبدأ بشكل غريب، ولكنها تستمر بمرور الوقت، وجدنا أنفسنا معتادين على هذه

التحولات الغريبة. فمع أخذ كل شيء في الحسبان، كان السكان الأصليون يحموننا. أليس ذلك كل ما يهم؟ إذا كانوا يعطوننا وصفة سحرية كل شهر ليجعلونا نعتقد أنهم يتحولون إلى ذئاب، فمن يهتم بذلك؟ كل ما سبق لنا معرفته في إنجلترا لا ينطبق هنا. لقد فقدت الأمل في العودة إلى موطني وإلى منزل عائلتي في مقاطعة ويلتشاير. كذلك، أنا لا أعبأ مطلقًا بسلوكيات أو طقوس المجتمع. لقد تغير مظهري. بات شعري طويلًا، ونمت لحيتي في بعض أجزاء وجهي. لن يرحب بي أحد وأنا على هذه الشاكلة. ولكن ما الذي يهم إذا ما رحب بي المجتمع أو لا؟ لا يوجد مجتمع هنا. أو حتى لو وجد مجتمع هنا، فنحن من نشكل ذلك المجتمع. كل ما لدينا هو هذه الحياة على هذه الجزيرة. لو لم أولد في عالم ما وراء هذه الجزيرة من قبل، لم أكن لأعرف أي شيء عن إنجلترا. تلك البلاد لم تعد موجودة بالنسبة لي. كل ما يهم هو ما أشعر به وأسمعه وأتذوقه وأراه. أما العالم الآخر، حياتي الأخرى، وكل ذكرياتي المرتبطة بهما، فليست سوى محض خيال.

تعمق فهمنا بخصوص هذا التحول الشهري أيضًا. عندما يقول السكان الأصليون: "إنها قادمة"، فهم يتحدثون عن القمر. إنهم يعتقدون أن القمر إلاهة ترعاهم، وأن الفأر هو حيوانها الأليف المقدس، يفعل ما تأمره به، ويعتني بالسكان الأصليين. الراجا هو مرسَل القمر على الأرض. أو على الأقل هذا أقرب تفسير يمكنني تقديمه، لأن لغتينا وثقافتينا مختلفتان جدًّا.

كان السبب وراء رفعنا داخل أقفاص معلقة في الهواء هو حمايتنا من الذئاب. بالطبع، مع الأخذ في الحسبان أن أياديهم تتحول إلى مخالب أثناء التحول؛ فلم يكن بمقدورهم تسلق شجرة البانيان أو فك عقد الحبال التي تربط الأقفاص بالشجرة. كان السكان الأصليون يحبكون أزهار الياسمين الهندي حول أعمدة الأقفاص لأنها لديها رائحة طاردة للذئاب.

خمنت وفرانك وجورج أنه عندما يحدث التحول فإن السكان الأصليين يتعرضون لقدر ما من فقدان السيطرة على أنفسهم. لذلك، فإذا ظهرنا أمامهم خلال طبيعتهم الحيوانية فقد يعرضنا ذلك للخطر. لحسن حظنا، تقضي الذئاب معظم الليل في البحث عن الطعام بدلًا من محاولة عض أقدامنا. لا أفهم سبب حجز الأمهات داخل القفص أيضًا، ولكن جورج خمن أن سر حبسهن يعود بنسبة كبيرة لحقيقة أنهن يرضعن أطفالهن. وأنه بعد أن يكبر الأطفال بالقدر الكافي لتناول الأطعمة الصلبة؛ سيكون من الممكن لهم ولأمهاتهم القدرة على التحول إلى هيئة الذئاب مثل بقية الأفراد الآخرين في قبيلتهم.

كما أننا لسنا واثقين تمامًا من الدور الذي تلعبه الفئران في كل هذا بعيدًا عن كونها حيوانات مقدسة. لا نعرف إذا ما كان يتحول هؤلاء السكان الأصليون إلى ذئاب لأنهم ورثوا هذا المرض، أو لأنهم شربوا وصفة سحرية أو أيًّا كان السبب. ربما لأنهم أكلوا أحد الفئران المقدسة؟ لسنا ندري تحديدًا.

عدا ذلك الحدث الغريب، تسير الحياة هنا على نحو عادي للغاية. أصبح شين بمثابة الأخ الكبير الحكيم لثلاثتنا أكثر وأكثر من ذي قبل. صحيح، أن أسئلتنا تزعجه في بعض الأوقات، لكن فيما عدا ذلك فإنه يعتني بنا جيدًا. بات فرانك بارعًا في الصيد بطريقة رائعة. كان يمكنه استعمال القوس والسهام بمهارة ودقة عظيمتين.

تعلم جورج كيفية الإبحار في قارب مسترشدًا بضوء النجوم. كما أنه أصبح بارعًا في صيد الأسماك وكل المأكولات البحرية الأخرى. أما أنا، فإنني أبذل قصارى جهدي لتعلم ثقافة السكان الأصليين، وكيفية استخدام النبلة.

بالإضافة إلى إلاهة القمر والفأر، فإن السومطريين (أو هذا ما يطلقونه على أنفسهم) يعبدون مجموعة متنوعة من الأرواح التي تقطن العالم الطبيعي من حولنا. وبينما مجتمعهم يمكن وصفه بالمجتمع الأبوي في معظم جوانبه، إلا أن النساء يتمتعن بحرية أكثر مما كنت أتخيلها. يتم التعامل مع الأطفال هنا بمثابة أبناء لجميع أفراد القبيلة، ويغدقون عليهم بمشاعر الحب الفطرية. أما بالنسبة للعلاقات بين الرجال والنساء، فإنها تعتبر طبيعية ولا يوجد شيء يبعث أي قدر من الخجل (ومع ذلك، فإن وجهي احمر خجلًا بينما أكتب هذا).

يبدو الأمر غريبًا حينما أفكر في والدي وكيف أخبرني بأنني طفل قبل أن يرسلني بعيدًا عن منزلنا. كنت كذلك بالفعل. لكنني نضجت من عدة نواحٍ هنا.

ثقافة المجتمع هنا هي أن لكل شخص عملًا يتوجب عليه القيام به. لذلك، فإنني أقوم بعملي هنا، حتى عندما تتغير طبيعة هذا العمل بين فترة وأخرى. الأسبوع الماضي، ذهبت مع مجموعة الصيد إلى جزء من الجزيرة حيث تنمو فيه الأشجار بكثافة، لدرجة أنه لا يمكننا معها رؤية الشمس. اصطدنا الطيور عن طريق النبال، وأحضرناها إلى النساء في القرية، واللائي قمن بإعدادها بطرق متنوعة. بعض الطيور تم إصابتها إصابة طفيفة فقط، وهي التي سيتم تربيتها من أجل الحصول على بيضها. مدَّني وجودي ضمن مجموعة الرجال بإحساس طيب حقًّا! كنا نعمل جميعًا معًا، وكل شخص يشكل وجوده أهمية ما. لم أكن ذا أهمية في إنجلترا سابقًا. ولكني ذو أهمية هنا، لذا يمكنني القول بصراحة إنني -وفي بعض النواحي- أحب هذا المكان أكثر.

تاريخ غير معروف

أمس، تم رصد شراع أبيض في الأفق. تسلق المراقبون إلى أعلى الأشجار، وأبقوا أعينهم على السفينة البعيدة. في النهاية، توصلوا إلى أنها سفينة هولندية، ولكنها سرعان ما انحرفت في مسارها بعيدًا عن جزيرتنا ليحل بعدها شعور بالارتياح العميق على القرية.

في الليلة نفسها، أخبرنا كياوانكا عما يحدث حينما يصل الهولنديون إلى الجزيرة. كان صغيرًا جدًّا حينما غزا الهولنديون

الجزيرة التي ولد عليها. أوضح لنا أن جزيرتنا تعد واحدة من بين عدة جزر تنتشر في هذا الجزء من المحيط. وجميع حكام هذه الجزر على صلة قرابة بعضهم ببعض. عندما أدرك والداه أنهم سيُهزمون على يد الهولنديين؛ ائتمنا ابنهما عند زوجين من المربين. كان هناك قارب تم إخفاؤه في أحد الكهوف خصيصًا لأجل إرسال طفل العائلة الملكية بعيدًا. أخذ المربيان كياوانكا إلى الكهف، ثم حملاه إلى داخل القارب، وتحت غطاء الليل، جدفا بالقارب حتى وصلا إلى هذه الجزيرة. تم الترحيب بالطفل كياوانكا ومربييه من قبل راجا هذه الجزيرة... عم كياوانكا. هكذا نشأ كياوانكا بين السكان الأصليين هنا. وعندما أصبح شابًّا، خرج كياوانكا في مسعًى ومهمة، أبحر عائدًا إلى الجزيرة التي ولد عليها. وهناك علم أن الهولنديين قتلوا أغلب السكان، بمن في ذلك والداه، وأجبروا الناجين على العبودية، وجعلوهم يحصدون التوابل في ظل ظروف قاسية. راقب كياوانكا كل هذا، وبالكاد نجا بصعوبة من الأسر ليتمكن من العودة إلى هنا.

كل هذا يذكّرنا كم كنا محظوظين حينما أخبرهم شين بأننا لسنا هولنديين بكل أمانة وصدق! لا عجب أن السكان الأصليين يكرهون الهولنديين كثيرًا! هؤلاء الناس يحبون حريتهم. بينما الحياة في ظل العبودية لن تكون حياة على الإطلاق.

تاريخ غير معروف

نحن نعيش بين السكان الأصليين لما يقرب من خمس سنوات الآن. في بعض الأوقات، حينما أغلق عيني، لا يمكنني تذكر حياتي قبل قدومي إلى هذه الجزيرة. تلك الأيام تبدو كحلم رأيته من قبل أو كتاب قرأته من قبل. لولا وجود هذه اليوميات، لكنت اعتبرت أن سنوات حياتي الأولى ليست سوى محض خيال تام.

هل سنتمكن من العودة إلى إنجلترا؟ بكل صدق، أشك في حدوث ذلك. حتى الآن، لم نر الأشرعة البيضاء البعيدة للسفن سوى بضع مرات. لم يأتوا أبدًا إلى هذه الجزيرة. إما كانوا يعتقدون أن هذه الجزيرة عديمة القيمة أو غير مأهولة أو خطيرة أو الثلاثة معًا.

ومع ذلك، ها نحن أولاء.

أواصل كتابة هذه اليوميات من أجل التسجيل وأن تكون مرجعًا لي. إذا ما قرأ شخصٌ ما هذه اليوميات في يومٍ ما في المستقبل، فإن لدي طلبًا أقدمه لجمهوري من القراء: عامل قصتنا بنوع من التعاطف. ففي الوقت الذي هجرنا فيه قبطان سفينة ماتيلدا بريغز هنا، كنا في الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة من أعمارنا. وبينما أكتب هذا الآن، كنا قد عشنا أقل من ثلث عمرنا بقليل على هذه الجزيرة الصغيرة. لقد

رحب السومطريون بنا بين قبيلتهم. لو لم يفعلوا ذلك، لكنا متنا بكل تأكيد!

كل هذا يقودنا إلى فصل جديد من حكايتنا، فصل أتردد في مشاركته. ومع ذلك، يجب علي أن أفصح عنه.

مؤخرًا، اتخذت مع صديقيّ قرارًا صعبًا. وفي ضوء ذلك القرار، سيحكم علينا الآخرون بقسوة بلا أدنى شك - إذا ما غادر دفتر اليوميات هذه الجزيرة يومًا، ووصل إلى ما يمكن اعتباره عالمًا حضاريًّا. بغض النظر عن هذا القرار، يجب أن أذكركم بأن ما يعتبره المرء أفكارًا مجردة ونظرية، تختلف اختلافًا جوهريًّا عما يشعر الفرد بأنه مضطر إلى فعله خلال وقوع الحدث نفسه. لم تكن لدينا أي نية لحدوث أيٍّ من هذا... أبدًا!

لقد تقبل ثلاثتنا مصابنا، أنا وجورج وفرانك. تخلينا عن أي أمل في العودة إلى إنجلترا. واحدًا تلو الآخر، توصلنا إلى أن قدرنا هو العيش والموت هنا. تناقشنا عن خياراتنا لفترة طويلة. وفي النهاية، خلصنا إلى حقيقة أنه لم يكن أمامنا أي اختيار سوى أن نتصرف مثلما فعلنا! ليسامحنا الرب على هذا!

إنني أستطرد في الكلام. يجب أن أعود إلى بداية الحدث. أنكت، وهو واحد من السكان الأصليين، جاء مسرعًا إلى القرية وهو يصرخ بعلو صوته. لقد رأى سفينة تقترب من الجزيرة. ولقد تعرف على كونها سفينة هولندية. لم يخف

التجار الهولنديون رغبتهم في الاستيلاء على هذه الجزيرة أبدًا، واستغلال أشجار الفلفل التي تنمو هنا. قص كبار السن حكايات عن زيارات سابقة للهولنديين، وكيف جاؤوا شاهرين أسلحتهم لقتل كل السكان الأصليين. وضح شين لنا أن الهولنديين يعتبرون كل من هو ليس بهولندي بشرًا أقل منزلة منهم، وبخاصة إذا لم تكن بشرتهم بيضاء. (أحزنني ذلك كثيرًا، لأنني ربما ذات مرة كان لدي هذا النوع من الأفكار، ولكني تعلمت بمرور السنين أن هذا ليس الحال دائمًا). مع ذلك، سأترك هذا الموضوع لوقت آخر. ولذلك، كان الهولنديون يتعاملون بطريقة لا مبالية إزاء حيوات السكان الأصليين.

أثار تحذير أنكت موجات من ردود الفعل بين السكان الأصليين. لم يكن يفصلنا سوى ثلاثة أيام على اكتمال القمر. لقد رأينا مدى قوة السكان الأصليين في هيئتهم الحيوانية. كان بمقدورهم القفز، والوثب، والمصارعة، والعض. كانت حاسة الشم لديهم رائعة، وكذلك قدرتهم على سماع الأصوات الخافتة. وفي صورتهم الذئبية، كانوا أسرع من البشر، ويمكنهم الرؤية في الظلام. أما بالنسبة لقوتهم، فقد كانت مذهلة جدًّا. كانوا يعملون كمجموعة عند صيدهم لفريسة ضخمة. أولًا، يقفز واحد منهم مستهدفًا عنق الحيوان، ليغرز أسنانه فيه. وبينما يقاوم الحيوان المذعور ويركل ويقاتل من أجل حياته، تعض الذئاب الأخرى أقدامه بحيث تشل قدرته على الحركة والهروب. وما أن تسقط الفريسة على الأرض، يتم محاصرتها

من قبل الذئاب التي تعض وتزمجر وهي تمزق لحم الحيوان المذبوح. بصورة تبدو غريبة، تتغذى الذئاب على الأعضاء الداخلية للفريسة أثناء عملية قتلها. وفي وقت لاحق، يبدؤون بالتغذي على لحم الفريسة.

ربما يكون لدى السومطريين، في هيئتهم الذئبية، الفرصة في إنقاذ أنفسهم من البحارة الهولنديين. أما لو كانوا بشرًا؛ فلن تكون لديهم أي فرصة في النجاة. بطريقة ما، كنا نحتاج إلى الوصول إلى خطة تجنبنا الصراع مع الهولنديين حتى حلول ليلة اكتمال القمر.

وفرت الطبيعة نقطة واحدة في مصلحتنا: فكما هو شائع في هذا الوقت من العام، كانت الرياح ساكنة. كان سكونًا مخيفًا نوعًا ما. قال السكان الأصليون إن هذا يعد نذير شؤم. وإن طقسًا غريبًا مثل هذا لا يعني سوى قدوم المصائب. كانت سفينة الهولنديين ساكنة في المياه دون أي حركة.

تناقش كياوانكا ورجال القبيلة الخيارات المتاحة أمامهم. كان السومطريون يعتبروننا رجالًا أيضًا، لذلك استمعنا إليهم وشاركنا في مناقشتهم أيضًا.

وقف شين ليتحدث. لقد أُسر على أيدي الهولنديين في طفولته، ولهذا بدأ حياته عبدًا. كان يكره الهولنديين، وكان ليفضل أن يموت على أن يخضع لهم. قال شين: "إنهم طماعون، ولا يحافظون على وعودهم". كذلك أشار إلى أن

الهولنديين يمتلكون البنادق، كبيرة وصغيرة، ولذلك لن يقدر السكان الأصليون على التغلب عليهم بسهولة.

تحدث الرجال السومطريون لفترة طويلة جدًّا. واستمعنا إليهم بحرص. إذ بات بمقدورنا فهم لغتهم جيدًا في هذا الوقت.

كان جورج يتميز بالتفكير بطريقة منطقية، فقال متسائلًا: "ماذا لو أن قدوم الهولنديين إلى هنا من أجل أخذ التوابل فقط؟ ماذا لو أخبرتموهم أنهم يمكنهم الحصول على كل التوابل التي يريدونها؟ ألن يجعلهم ذلك سعداء؟ ألن يرحلوا بعد حصولهم على ما جاؤوا من أجله؟".

فقال فرانك: "بعد ذلك لن تكون هناك حاجة للقتال". كانت طبيعته هي تجنب المشاجرات.

تبادل شين وكياوانكا نظرة فيما بينهما، نظرة ذكرتني بكيفية تواصل والديّ فيما بينهما دون الحاجة إلى التفوه بأي كلمة. فرد شين ذراعيه على اتساعهما وقال: "ربما يقول الهولنديون إنهم يريدون التوابل، ولكن هذا لن يكون كل ما يريدونه. سيريدون هذه الجزيرة لأنفسهم. سيريدون بيع السكان الأصليين كعبيد من أجل تحقيق بعض الأرباح. تذكروا، لقد كنت واحدًا من عبيدهم. إنني أعرف هؤلاء الناس. عندما يأتي البحارة الهولنديون إلى هذه الجزيرة، لن يأتوا كأصدقاء بل كغزاة. سيحرقون الأكواخ. سيقتلون أغلب الرجال والعجائز.

سيأخذون النساء والأطفال غنيمة لحربهم. سيشبه ذلك الكابوس، عدا أن هذا الكابوس سيكون عنيفًا ودمويًّا.

تحدث جورج معبرًا عنا جميعًا: "يجب أن نضع خطة تؤجل من وصولهم إلى هنا. وبعد ذلك، علينا بذل قصارى جهدنا للدفاع عن أنفسنا. ربما سنموت، ولكن إذا فكرنا مليًّا في الأمر، لو كنا نخدم في جيش جلالتها، كنا لنخاطر بحيواتنا في أرض المعركة أيضًا".

وافقته على كلامه. لم يكن هناك مكان لنا للاختباء. كان كل ما يمكننا فعله هو بذل قصارى جهدنا لمقاومة الهولنديين. لم أخُض قتالًا في حياتي قط، ناهيك عن موقف يشبه موقفنا هذا. كيف سأتصرف؟ لست أدري.

في النهاية، قرر السومطريون أنه بدلًا من مقاتلة الهولنديين، فلسوف يرحب الراجا بهم. ربما سيكون ذلك القدر كافيًا. ربما سيأخذ الهولنديون أشجار الفلفل ويغادرون. وفي أسوأ الأحوال، كان يؤمل من وراء استرضائهم كسب الوقت الكافي حتى يتمكن السومطريون من التحول إلى ذئاب.

أشار جورج إلى أن هذه الخطة تعتمد على كون الهولنديين كسالى ومتغطرسين. وقال فرانك إنهم بلا شك سيكونون متفاخرين إذا اعتقدوا أن الناس الآخرين سيمنحونهم ما يريدون فقط. أكد لنا شين أنهم بالفعل كذلك. لقد حكموا طرق التجارة البحرية لوقت طويل جدًّا لدرجة أصبحوا يعتقدون معها أنهم

لا يقهرون، وهو السبب الذي يجعلهم يفتعلون المشكلات مع البريطانيين. أظن أن هذا مجرد عذر واه لتبنى عليه الخطة، ولكني لا أفقه أي شيء عن شن الحروب، لذلك بقيت صامتًا.

***

ما أن تم اعتماد الخطة، حتى بدأ السومطريون في فعل كل ما هو ممكن من إعدادات في حالة قرر الهولنديون رغبتهم في القتال. ارتدى السكان الأصليون ملابسهم المخصصة للحروب، ونظموا معارك وهمية في منتصف مجمعنا السكني.

كان ثلاثتنا على أهبة الاستعداد للقتال معهم، بدا الأمر كمغامرة مبهجة، ولكننا كنا نشكك في قدرتنا على إحداث تغيير يذكر كمحاربين. على عكس السومطريين، لم نخضع لأي تدريبات طوال حياتنا. أخجل من قول إنه مع كل مرة نتدرب فيها على المهارات القتالية؛ يهزمنا السومطريون شر الهزيمة. (يشتبه جورج في أننا في وضع غير موات، لأنه قيل لنا منذ سن مبكرة أن نتصرف كسادة مهذبين. أما فرانك فيرى المشكلة بشكل مختلف، يقول إننا نفتقر إلى سنوات طويلة من التدريب. أتساءل إذا ما كان كلاهما على حق). كلما طالت مدة إقامتنا مع السومطريين اضطررت إلى استنتاج أننا نحن الذين في وضعية سيئة لا السكان الأصليون. كم يبدو هذا مثيرًا للسخرية، لأننا في البداية ظننا أننا متفوقون عليهم في كل شيء!

أحسسنا بالعجز نظرًا إلى مدى افتقارنا إلى المهارات والتدريبات اللازمة، ولكن كانت هناك فكرة تدور بين مجموعة من الرجال المسنين. أرادوا أن نحيط معسكرنا بما يسمونه "فخاخًا قاتلة". فإذا حدث ونشب قتال، يمكن للسومطريين تجنب هذه الحفر بينما يقودون الهولنديين إليها. لذا كان كبار السن في حاجة إلى المساعدة على حفر هذه الحفر العميقة. تطوع ثلاثتنا لفعل ذلك. كانت هذه الحفر بعمق يتراوح بين ست وثماني أقدام. وفي قاع الحفر، وضعت أوتاد تنتهي بأطراف مدببة في الجهة العليا. أُلقيت شبكة خفيفة الوزن مصنوعة من سوق النباتات المتسلقة فوق الحفرة. ونثرت أوراق النباتات فوق الشبكة لتجعل الفخ غير مرئي.

بذل ثلاثتنا قصارى جهده في عملية الحفر. كنا نعمل على الحفرة الثانية عندما جاء شين مسرعًا ناحيتنا. دار حديث بينه وبين الراجا. كان كلاهما قلقًا علينا، وكان الراجا غير واثق إذا ما كان يمكنه حمايتنا من الهولنديين.

بالطبع، كنا قد توصلنا إلى هذه النتيجة أيضًا.

تحدث جورج بصفته المتحدث الرسمي باسمنا. ووضح أننا سنفعل كل ما في مقدورنا لمساعدة السومطريين. كنا مستعدين للعودة لمتابعة الحفر -في الواقع، لم يتوقف فرانك عن الحفر قط- ولكن كان كياوانكا لديه عرض... عرض ناقشه مع شين من قبل.

قال الراجا: "يمكنكم أن تتحولوا إلى ذئاب".

نظر جورج لأعلى من خلال الأداة الخشبية التي كان يمسك بها. قلب مغرفة من التراب على الأرض من جواره، وقال: "هل يمكننا فعل ذلك؟".

توقف فرانك عن دفع المجرفة في الأرض الترابية، وقال: "لقد اعتقدنا أن السومطريين هم من يمكنهم التحول فقط".

أومأت برأسي، وقلت: "لقد افترضنا أنه أمر يتوارث بينكم!".

ابتسم كياوانكا نحونا، وقال: "لا. أخبرهم يا شين. أنت تتحدث أفضل مني".

"بلى، هناك طريقة تمكننا من التحول إلى ذئاب عند اكتمال القمر. ولكن عليكم أولًا معرفة كل شيء قبل أن تتخذوا قراركم. بعض ما ستسمعونه سيكون جيدًا، والبعض الآخر لن يكون كذلك. يريد الراجا أن تعرفوا كل شيء قبل أن تقرروا.

سألت: "نحن؟ نحن فقط؟". إذ كنت قلقًا بشأن انضمام شين.

قال شين وبابتسامة عريضة لم أرَ مثلها من قبل: "لقد تمت دعوتي أيضًا".

توقفنا عن الحفر، وذهبنا مع شين إلى كوخ الراجا حتى

يشرح لنا كياوانكا التفاصيل. وفور أن جلسنا، وضح لنا شين أنه إذا ما قررنا أن نصبح رجالًا ذئبيين، في عشية ليلة اكتمال القمر، بعد يومين من الآن، فلسوف نمر بعملية تحول مؤلمة للغاية.

لن تكون لدينا أي سيطرة على عملية تحولنا، وهو ما يعني أنه لن يمكننا إيقاف عملية التحول بمجرد أن تبدأ. ستدوم تلك الهيئة الجديدة حتى طلوع الفجر، حيث سنمر بعملية تحويل معاكسة لنعود إلى هيئتنا البشرية. وإذا ما متنا ونحن على هيئة الذئب، فلسوف نبقى موتى فى تلك الهيئة. يعتقد كياوانكا أن لدينا فرصة أفضل للبقاء على قيد الحياة إذا ما اخترنا هذا المسار، ولكن أيًّا كان الخيار الذي سنتخذه، فلسوف يحترمه، وسيبذل كل ما لديه ليبقينا في أمان.

كنت أعلم أن صديقيّ قد تأثرا بهذا العرض مثلي دون الحاجة إلى النظر إليهما. لقد حكى لنا شيوخ القبيلة وكبارها قصصًا عن هذه القوة المقدسة. قالوا إن الإله الفأر منح تلك القدرة للسومطريين فقط. ومع ذلك، ها هو كياوانكا يعرض علينا مشاركة هذه القوة. لقد دفعتنا عائلاتنا بعيدًا عنهم، ولكن هؤلاء الناس احتضنونا، والآن يعرضون علينا تشريفًا لا يمكن تقديره. لست خجلًا من قول إن عيني تبللتا بالدموع، ولا إن حلقي اختنق من المشاعر.

مع ذلك، كان لا يزال لدينا بعض الأسئلة.

أراد جورج أن يعرف مدة التحول، مثل إذا ما كان يمكننا إيقاف طبيعتنا الذئبية في تاريخ لاحق في المستقبل؟ وضح جورج سبب سؤاله قائلًا بأنه لا توجد ذئاب في موطننا. وإنه إذا ما عدنا إلى إنجلترا كذئاب، فلسوف يتم مطاردتنا وقتلنا بكل تأكيد!

تفاجأ كياوانكا من هذا، وقال: "ألن تحميكم قبيلتكم؟".

قلنا في صوت واحد: "لا".

قال كياوانكا: "أي نوع من العائلات تلك التي لا تحمي أطفالها؟ أي نوع من الآباء لا يضحي بحياته من أجل أطفاله؟ بالتأكيد ليس أبًا جيدًا! وأمكم؟ ألن تبذل حياتها من أجل حمايتكم؟ أنا سأفعل أي شيء من أجل حماية أطفالي". تسبب احتداده في تحول وجهه إلى الأحمر القاني من شدة الغضب. بصق كياوانكا على أرضية كوخه كطريقة يلعن بها آباءنا.

بالطبع، لا يعرف الراجا آباءنا ولا ثقافتنا، ولكننا كنا على قدر كبير من التهذيب بحيث لا نشير إلى ذلك. أتساءل أكثر وأكثر، من هم البشر المتوحشون؟ ومن هم البشر المتحضرون؟

طلبنا من كياوانكا إذا كان يمكننا أن نتناقش فيما بيننا في كوخنا؛ بما أن هذا قرارٌ هامٌّ. أثناء مغادرتنا، قال شين: "سأقبل بعرض الراجا. أفضل الموت على أن أعيش حياتي كعبد مجددًا. لم يعد يفرق معي الأمر كثيرًا إذا ما مت هنا أو في إنجلترا".

وما أن أصبح ثلاثتنا بمفردنا، قال جورج: "مما رأيناه، فإن عملية التحول إلى ذئاب لا تستمر لأكثر من ست أو سبع ساعات ولليلة واحدة من كل شهر. أتذكر أن والدي اعتاد على الذهاب إلى ناديه في لندن لعدة أيام متواصلة. وإذا ما تمكنا يومًا ما من العودة إلى وطننا؛ فلنختبئ فقط مرة في كل شهر، سيكون هذا كافيًا للتغلب على هذه المشكلة، ما رأيكما؟".

فيما أكد فرانك أننا من الممكن أن نموت هنا مثل أي مكان آخر بسهولة. توقعت أنه سيقترح علينا الهروب والاختباء بعيدًا، لكنه فاجأني عندما قال: "لن يكون عادلًا أن ندع السومطريين يقاتلون بمفردهم. لقد كانوا لطفاء معنا. ناهيك عن أن الهولنديين أعداءٌ لشعبنا وبلادنا!".

أما بالنسبة لي، فقد توصلت في قرارة نفسي إلى حقيقة أننا سنموت هنا في كل الأحوال، وبطريقة ما أو بأخرى. إنني أتابع الكتابة في دفتر اليوميات هذا على أمل واه في أن يعثر أحدهم عليه بعد موتي، ولأن يمنح لعائلتي نوعًا من الراحة عند معرفتهم بأنني كنت أفكر بهم كثيرًا، وأنني آسف لأي ألم سببته لهم.

لكن عائلتي بعيدة جدًّا عني، كذلك هم من أرسلوني بعيدًا. أنا موجود هنا، ولقد تعلمت الاعتماد على هؤلاء الأشخاص، الموجودين من حولي.

إنني مدين للسومطريين بولائي لهم، مدين لهم بإظهار قوتي التي يمكنني حشدها داخل جسدي هذا.

أريد أن أعترف اعترافًا صغيرًا: عندما هربنا من مدرسة أنطون، أخذت معي منديلًا من الكتان، والذي يعود إلى أمي. لقد نجحت في إبقائه بأمان عبر مغامراتي. الآن، ومجددًا، حينما أكون وحيدًا، أدفع بالمنديل إلى وجهي، لأشم رائحة عطر ماما. رائحته مزيج من أزهار اللافندر، وزنبق الوادي، والورود الإنجليزية. في تلك الأوقات، أكافح بشدة لأمنع نفسي من البكاء. في إحدى المرات، وجدني جورج بمفردي بينما كنت أدفن أنفي في المنديل. خفت من أنه قد يطلق بعض الدعابات بخصوص مشاعري الرقيقة. ولكنه بدلًا من ذلك، وضع يده على كتفي برفق، وقال: "أعلم أن الأمر صعب. أنا أيضًا أفتقد عائلتي".

فكرت في ذلك المنديل الكتاني عندما أخبرت صديقيّ بأنني سألتزم بقرارهما. كانت لتكون أمي فخورًا بي على أقل تقدير. قلت: "لقد قطعنا شوطًا طويلًا معًا. لا أجد أي سبب يجعلنا نختار طرقًا مختلفة بعضنا عن بعض. لم أكن لأنجو بدونكما. إذا كنا سنموت، فلنمت معًا".

كان من الواضح جدًّا ما يجب علينا فعله. عندما غادرنا إنجلترا، كانت بلادنا تقاتل الهولنديين. لو لم نغادر بلادنا، لربما كنا انضممنا إلى جيش جلالتها بحلول هذا الوقت. هل

كان ليكون ذلك مختلفًا عما نواجهه هنا الآن؟ هل من المهم حقًّا إذا قاتلنا على هيئة شبان أو ذئاب؟ بالتأكيد، ستتوفر لنا ميزة إذا ما كنا في هيئة الذئاب! إذًا، ألن نكون حمقى لو لم نقتنصها؟ بلى، كانت فكرة أن نكون ذئابًا تبدو سخيفة للغاية إذا ما كنا موجودين في إنجلترا، بل ربما تكون مرعبة حتى. ولكن هنا، سنوجد بين مجموعة من المخلوقات ذات تفكير مشابه. ثم، ألسنا ندين للسومطريين بالولاء، ناهيك عن حيواتنا؟ لقد عاملونا بلطف وعدل وكرم. لقد شاركوا معنا كل ما يملكونه من ممتلكات على الرغم من قلتها.

في رأيي، لم يكن هناك أي خيار. كان هنالك مسار واحد علينا أن نسلكه، ولقد كنا نمشي بالفعل عليه. لن يمكننا فعل أي شيء لو كنا في هيئة ثلاثة صبية قادمين من إنجلترا. أما لو كنا ثلاثة ذئاب، فسنكون بمثابة قوة خطيرة تؤخذ بعين الاعتبار.

كنا على توافق في قرارنا، ولم يكن هناك من وقت لنضيعه. غادرنا الكوخ، وذهبنا لنتحدث مع شين والراجا. تلقى كياوانكا ما توصلنا إليه في صمت. لم يبد سعيدًا. قال شين موضحًا: إن الراجا يعلم أننا اتخذنا قرارًا صعبًا، وإنه يظهر احترامه لنا على ذلك، ولكن ما سيتبع ذلك لن يكون سهلًا، كذلك لا يوجد أمامنا وقت كاف.

حاول شين قصارى جهده في توضيح خطوات عملية التحول، إذ أخبره كياوانكا عنها من قبل. دُهشنا عندما علمنا

أن تلك الفئران الكبيرة هي ناقلة لداء الذئب (ترددت في وصفه بالداء، ولكن لم يسعني إيجاد كلمة أخرى لوصف قوة التحول تلك). فسِرُّ ذلك هو تقدير السكان الأصليين للفئران. يعبد السومطريون الفئران لأنه قبل عدة أجيال مضت، كانت هناك وحوش مفترسة كبيرة أخرى تتجول في أرجاء هذه الجزيرة، ولم يكن بمقدور الناس حماية أنفسهم. منحت القدرة على التحول إلى ذئاب طريقًا للنجاة والبقاء على قيد الحياة للسكان الأصليين. ومنذ ذلك الحين، قتل الرجال الذئاب الحيوانات المفترسة الضخمة، وهكذا أصبحوا ممتنين للفئران على هذه الهدية.

فعندما يُلدغ شخص من أحد الفئران المقدسة، فإنه يتحول إلى ذئب لمرة واحدة في الشهر في ليلة اكتمال القمر. فيما عدا ذلك الوقت، لا يمكن لأي أحد تخمين أن الرجل الذئب مختلف عن أي شخص آخر. ومثلما توقعت، كانت رائحة الياسمين الهندي طاردة للذئاب. كذلك لا تتحول النساء الصغيرات إلى الهيئة الذئبية إلا عندما يتوقف أطفالهن عن الاحتياج إليهن. وإلا فلن يستمر وجود البشر طويلًا: كانت هناك احتمالية مفادُها أن خضوع الأمهات لسيطرة الطبيعة الحيوانية ستجعلهن يأكلن صغارهن. فكان هذا هو السبب وراء رؤيتنا للأمهات الصغيرات في الأقفاص؛ إذ إن حجزهن داخل الأقفاص، ولبسهن لورود الياسمين الهندية، كان من أجل حمايتهن.

طرح جورج سؤالًا هامًّا: "بعد عملية التحول، هل يفكر الأشخاص كالذئاب، أو البشر؟". قال الراجا إن ذلك الأمر يختلف من شخص إلى آخر. يحافظ الأشخاص الأقوياء على قدر كبير من إنسانيتهم. ومع ذلك، فإن الرغبات والدوافع الذئبية تظل قوية بدورها. أردنا أن نعرف ما إذا كانت الذئاب تكتفي بأكل اللحوم فقط أم لا. فقال الراجا إن هذا صحيح. هذا هو ما يبدو عليه الأمر. بالطبع، يمكننا أكل أنواع الطعام الأخرى فور أن نعود إلى هيئتنا البشرية.

نبهنا كياوانكا إلى أن هذا القرار هام، وأننا يجب أن لا نتخذه بسهولة. ومجددًا، وعدنا بأنه في حالة عدم رغبتنا في التحول، فلسوف يبذل السومطريون قصارى جهدهم في حمايتنا من الهولنديين.

شكرنا الراجا على تقديم الفرصة لنا، في أن نصبح رجالًا ذئبيين. كنا مصممين مثل أي ثلاثة صبية آخرين يمرون بظروف مثل هذه. مجددًا، أشار الراجا وشين إلى أنه ليس لدينا وقت كثير. كانت أشرعة السفن البيضاء لا تزال تبدو صغيرة في الأفق. ولكن هذا الوضع قد يتغير سريعًا. إن كان هذا هو الطريق الذي يتوجب علينا أن نسلكه، فعلينا أن نسلكه بسرعة. والسبب في ذلك أننا لسنا سومطريين، إذ كان الراجا قلقًا من أن أجسادنا ربما لن تتحمل عملية التحول بصورة جيدة، أو ربما لن تتحملها نهائيًّا. لذلك، تطوع شين بأن يكون الشخص الأول، فقال: "أنا لست إنجليزيًّا، ولكنكم ستعرفون إذا ما كان

التحول ممكن الحدوث لأي شخص آخر عدا السومطريين". شكرنا شين على ذلك، ولكنه لم يكن قد انتهى من حديثه بعد. وضح شين أنه في حال كانت عضة الفأر قاتلة؛ فإن ذهابه أولًا سينقذنا من ذلك المصير.

أود أن أشارككم شيئًا بخصوص هذا: كنت أجد ذلك غريبًا، لقد علموني دائمًا أن الأشخاص من ذوي البشرة الداكنة والبشرة الصفراء ليسوا متحضرين مثلنا، ومع هذا، أجد في كل منعطف في مغامرتنا هذه، أن الخطر الذي يهدد حياتنا دومًا ما يكون مصدره أشخاصًا آخرين من ذوي البشرة البيضاء! لقد عاملنا الأشخاص من ذوي البشرة الداكنة والصفراء بلطف وقاموا بحمايتنا. هذه مجرد تساؤلات، وآمل أن تتاح لي فرصة التعمق في دراسة هذه الفكرة.

أشار كياوانكا إلى أحد مستشاريه بأن ينفخ في البوق المقدس. تجمع كل السومطريين مع سماع صوت البوق المصنوع من صدفة البحر. شرح الراجا لهم ماهية التعهد الذي أخذناه على أنفسنا. هتف السكان الأصليون في ابتهاج، وربتوا على أكتافنا كآباء فخورين، وهو ما كانوا عليه فعلًا وبأغرب طريقة ممكنة. من هناك، توجهنا صوب الحظائر حيث توجد الفئران المقدسة. كانت هناك حجرة معينة تم بناؤها وتزيينها من أجل عملية التحول من البشر إلى... ماذا؟ لا يمكنني الإجابة على هذا السؤال.

تقدم شين أولًا. كان ذلك في غاية الشجاعة منه. أعطت إحدى زوجات كياوانكا شين نصف قشرة جوز هند ممتلئة بمرهم ما، وأمرته بأن يدهن جسده به. خمنت أن هذا المرهم نوعٌ من الدهن الحيواني. وبالفعل، كانت رائحته مثل رائحة شرائح لحم الخنزير التي كنت أستمتع بتناولها في منزلي. فرك شين المرهم على ساقيه بعد أن انتهى من دهن ذراعيه بحرص تام. وعندما تم التحقق من أنه مغطًّى بالدهن بالكامل، شرع الراجا في الدندنة بتعويذة ما، ثم أشعل النار في عود بخور تشبه رائحته رائحة الكنيسة في أيام الآحاد. وسرعان ما داعب الدخان أنفي.

بنيت الغرفة المقدسة بعناية شديدة. كانت هناك نقوش على هيئة فأر محفورة على الزخارف الخشبية المنتشرة في عدة مواضع مختلفة. كان ذلك الرمز هو ذاته الرمز الذي ظهر على هيئة ندبة على جبين الراجا. في الأرجاء، انتشرت العديد من الثقوب الشبيهة بثقوب الباب ليتمكن الحضور من رؤية ما يوجد بداخل الغرفة. كان هناك باب ثقيل يشير إلى موضع الدخول والانصراف للأشخاص. كذلك، كان هناك باب منزلق صغير عند قاعدة الجدار الذي يفصل الغرفة عن حظيرة الفئران.

فتح الراجا الباب المؤدي إلى الغرفة، ودلف شين إلى داخلها. وقف بقيتنا في الخارج، وبدأنا نراقب ما يحدث من خلال الثقوب الصغيرة. كان هناك مذبح في منتصف الغرفة

يصل طوله إلى قدم تقريبًا. كانت هناك أزهار أوركيد طازجة، وفواكه حلوة، وقطع لحم صغيرة متناثرة في أوعية صغيرة من حول المذبح. على الأرجح، كانت هدايا للفئران. كان الأثاث الوحيد المتوفر داخل الغرفة هو عدة وسائد فخمة على الأرضية الترابية. من خلال الوقت الذي قضيته على هذه الجزيرة، كنت أعرف أن الأقشمة المتاحة هنا يصعب تطريزها، إذ كان يتم جمع ونسج كل الخيوط عن طريق اليد، لذلك فقد كانت تلك الوسائد بمثابة رمزٍ يعبر عن الإخلاص الشديد للسكان الأصليين. كان القماش مصبوغًا بدرجات مختلفة من اللونين البرتقالي والأصفر، وهو ما جعلني أفكر أنه ربما تم تلوينه باستخدام الكركم، وهو أحد البهارات التي يستخدمها شين بكثرة في طبخه.

بمجرد دخوله، جلس شين على إحدى الوسادات. سُحب الحاجز المنزلق الصغير عند قاعدة الجدار، ليركض الفأر المقدس داخل الغرفة. رفع الفأر أنفه الوردي عاليًا ليتشمم الهواء في حماسة. ركض الحيوان ناحية شين، ثم عض ذراعه بشكل مفاجئ. يُحسب لشين أنه لم يصرخ، ولكنه لم يقدر على منع نفسه من الارتجاف. كان الفأر يمسك بشين بقوة لدرجة أنه عندما وقف الطباخ الصيني على قدميه، كان الفأر لا يزال عالقًا بذراعه. عند هذه النقطة، دخل حارس الفئران إلى الغرفة، وبدأ يقدم للفأر قطعًا من الطعام صغيرة، والتي كانت تمثل إغراء أقوى للفأر من لحم شين، ثم شجع الحارس الفأر على ترك

شين. في الوقت الذي كان يطعم فيه الحارس الفأر المزيد من الطعام، هرع شين إلى خارج الغرفة.

كنا متحمسين لسماع رأي شين، لذلك عندما قال: "أنا لا أشعر بأي شيء مختلف"، أحسسنا بخيبة أمل. اكتفى كياوانكا بالابتسام، ثم علق قائلًا: "هذا ما يكون عليه الأمر".

بعد ذلك، حل دورنا. أجرينا قرعة لمعرفة من سيذهب أولًا. سحب فرانك أقصر الأعواد، لذلك كان دوره هو الأول، ثم جورج، وأنا في النهاية. كان الوضع مشابهًا تمامًا لما حدث مع شين. عض الفأر ساق جورج بقوة. أما فرانك فقد تم عضه في قدمه. كلاهما أخبراني أن الألم لم يكن شديدًا. حتى لو كان العكس صحيحًا، فإنهما لن يخبراني بذلك، كنت أعلم أنهما يخفيان علي الحقيقة.

تمنيت لو كنت من ذهب أولًا، وتخطيت تلك المحنة سريعًا. أحسست بالغثيان، وظننت أني سأتقيأ. أخذت أتلمس المرهم ذا الرائحة الشحمية بطريقة خرقاء، وأسقطت قشرة جوز الهند التي تحتويه مرتين. كانت أعصابي قد تمكنت مني. وما زاد من قلقي هو رؤيتي لتعامل أصدقائي مع الأمور بشكل جيد. كنت خائفًا من أن أخيب ظنهم، بأن أصرخ من الألم. تطلب الأمر مني حشد كل ذرة من الشجاعة التي أملكها لأقدم الساق تلو الأخرى بينما أمشي صوب غرفة الاحتجاز. وبمجرد أن وصلت إليها، غرقت في الأرض الترابية -مجازيًّا- ودعوت الرب أن يأتي الفأر سريعًا قبل أن أفقد أعصابي.

لم تكن هناك حاجة للقلق. ففي لمح البصر، هجم الفأر علي. كانت عضته مؤلمة، خمنت أن الفأر رآني طعامًا شهيًّا لأنه أخذ يعضني مرارًا وتكرارًا بدلًا من أن يختار بقعة واحدة في جسدي ليتعلق بها. استخدمت أقصى ما أملكه من قدرة على ضبط النفس في مقاومة رغبتي في خنق ذلك الوحش الصغير. ولكونه بهذا القرب، أُتيحت لي الفرصة لرؤية هذا الحيوان المقدس العجيب على نحو مفصل، ويمكنني أن أُخبركم بثقة أنه يشبه معظم الفئران الأخرى، عدا كونه أضخم بثلاث مرات منها. كان فراؤه مغطًّى بشعيرات طويلة، أكثر طولًا وخشونة من الفروة الناعمة من أسفله. كان لونه رماديًّا في العموم، بينما كان لونه أنفه ورديًّا فاتحًا، وكذلك لون جلد ذيله، وبطانة مخالبه. عندما توقف عن العض، أخذ فترة كافية للتحديق في وجهي، ثم توهجت عيناه باللون الأحمر بوحشية، لدرجة جعلتني أتراجع معها للوراء وأقفز على قدمي. تسببت حركتي السريعة في سقوط الفأر بعيدًا عني. صرخت: "أخرجوني!". وفور أن فتح باب الغرفة المقدسة، ترنحت في خطواتي لمغادرة هذا المكان المروع، وما أن وصلت خارجًا حتى سقطت على الأرض فورًا.

حملتني الأيادي عاليًا، ورأيت وجوهًا تبتسم إلي. لقد صرت واحدًا منهم، أيًّا كان معنى ذلك.

مضت الليلة كما لو أنه لم يحدث أي شيء. فيما عدا علامات العض الموجودة على أجسادنا، لم تظهر علينا أي

علامات أو أي نوع من الأحاسيس التي تشي بأننا انضممنا بالفعل إلى ذلك المجتمع الغريب. في البداية، أحسست بخيبة الأمل. ولكني أقنعت نفسي بأنه يجب أن أكون سعيدًا، لأن مراسم الانضمام الغريبة تلك قد انتهت.

تاريخ غير معروف

في صباح اليوم التالي، استيقظ الجميع في وقت مبكر. كان لا يزال لدينا يومان لننهي فيهما إعداداتنا قبيل وصول البحارة الهولنديين. اقترب نحونا أتونكا -وهو أحد أفضل محاربي القبيلة- إذ طلب منه الراجا أن يجهزنا للمعركة التي تلوح في الأفق.

حاول السكان الأصليون تعليمنا كيفية الدفاع عن أنفسنا أمام الحيوانات البرية خلال الفترة القصيرة التي عشناها بينهم، كان ذلك هدفهم الأساسي. الآن، هذه المعلومات التي يطلعنا عليها أتونكا في غاية الأهمية. ويجب أن أعترف، لقد وجدت صعوبة في استيعاب كل ما يقوله أتونكا. في ضوء النهار البارد، بدت فكرة التحول وأن نصبح ذئابًا ونقاتل كالحيوانات سخيفة للغاية. أحس أصدقائي بذلك أيضًا، وبالكاد استطعنا منع ضحكاتنا. بعد مرور ساعة على ذلك، جاء شين ليرى ما نفعله. كان غاضبًا حينما رآنا نتصرف بهذا النوع من التصرفات الصبيانية. تحدث إلينا بنبرة جادة: هذا الأمر لا يستدعي الضحك. لقد شاهدت بنادق الهولنديين وهي تمزق معدة

رجل. لقد سقطت أحشاؤه على الأرض، ليمتلئ الهواء برائحة دمائه وفضلاته النفاذة... ولساعات تألم الرجل خلال سكرات موته. كان ينزف بدون توقف، ويتوسل إلينا حتى نقتله وننهي معاناته، لكن الهولنديين لم يفعلوا أي شيء سوى الضحك عليه. قد يكون هذا مصيركم. لا تخطئوا في اعتقادكم وتحسبوا أن هذه مجرد لعبة".

حينها التزمنا السكوت.

فقال أتونكا: "أنصتوا إلي أيها الإخوة الصغار، دعوني أخبركم كيف تبقون على قيد الحياة خلال المعركة. عندما تحل الفورة الأولى، لا تركضوا قدمًا. دعوا المحاربين القدامى يتقدموكم. إنهم يعرفون ما يتوجب عليهم فعله: انتظروا. راقبوا. أمعنوا النظر. شاهدوا كيف يقاتل المحاربون الآخرون. ستكون أمامكم طريق طويلة لتعلم هذه الأساليب، ولكن إن كنتم أذكياء، فسيمكنكم معرفة كيف يمكنكم القتل. ستكون أنيابكم في الهيئة الذئبية بطول الخناجر. إذا كان بوسعكم القفز، فافعلوا ذلك، واستهدفوا العنق. بخلاف ذلك، عضوا الأذرع في الأماكن التي تتدفق فيها الدماء والقريبة من الجلد. عضوا أُرْبِيَّتهم من عند نهاية الساق. أسقطوا فريستكم أرضًا واستهدفوا أعناقهم. مزقوها بأسنانكم. وراقبوا ما يحدث من حولكم في الأرجاء. ساعدوا بعضكم بعضًا. واعتنوا بعضكم ببعض".

بعد مغادرة أتونكا، تناقشنا ما قاله فيما بيننا. وأكد شين على صحة كلام أتونكا قائلًا: "يمكن للمعركة أن تستمر لفترات طويلة. أتونكا محق بقوله إنكم يجب أن تعتنوا بعضكم ببعض. هذه ربما تكون فرصتكم الوحيدة للنجاة".

كان لهذه الكلمات أثرٌ قويٌّ علينا. لم يتحدث أحد منا من قبل عن قتل أشخاص آخرين. بلى، صحيح أنني رافقت أبي للصيد، أو مع أصدقاء عائلتنا في ضيعات مختلفة، وأنني رأيت الحيوانات وهي تموت. كان أبي دومًا حريصًا على الحيوانات، بحيث لا يجعلها تعاني كثيرًا أثناء احتضارها. ولكن كيف كان ليتصرف أبي في أرض المعركة؟ كان هذا سؤالًا لا يمكنني الإجابة عليه.

تاريخ غير معروف

أعلم أن كل هذا سيبدو غير قابل للتصديق (بل ومضحكًا) لأي شخص قد يعثر على دفتر يومياتي. من المحتمل ألا يرى هذا الكتاب النور أبدًا. وإذا كان ذلك صحيحًا، فلن يعرف أي أحد عن القرار الفظيع الذي وجدنا -نحن الصبية البريطانيين- أنفسنا مجبرين على اتخاذه.

لكن إذا كنت تقرأ هذه اليوميات، فإنني أترجاك ألا تحكم علينا، وأن تتخيل نفسك أو أولادك في موضعنا. لم يكن معنا آباؤنا ليرشدونا. وبقدر ما نعرفه وما يعرفه السومطريون، لقد

كنا أول الأشخاص الذين وجدوا أنفسهم في ذلك الموقف الغريب، أن يكون لدينا الاختيار بشأن أخذ الهيئة الحيوانية. بالنسبة للسومطريين، كان التحول بمثابة جزء متوقع من حياتهم. أما بالنسبة لنا، فقد كان ذلك حدثًا غير عادي، ويتخطى كل الحدود.

إذا ما نجوت وأصدقائي من هذا، فلن يكون هناك أدنى شك في أنه سيتم تحميلنا عواقب اتخاذ هذا القرار. أدعو الله ألا يتم الحكم علينا بقوانين المجتمع البريطاني؛ فتلك القوانين لا تنطبق هنا. نحن بعيدون جدًّا عن الوطن... فعليًّا ومجازيًّا. ومثلما قال جورج؛ إن معضلتنا هيّنة جدًّا: يجب أن نفعل كل ما بوسعنا فعله من أجل النجاة.

في الواقع، عند فحص ما فعلناه في ضوء ما حدث، فإن كل قرار نتخذه، كل شيء نتعلمه، إما أن يساهم في مساعدتنا أو إعاقتنا. ولذلك، كنا نقلل من عملية اتخاذ القرارات إلى أيسر الحدود الممكنة.

ليلة الغد هي ليلة اكتمال القمر. حذرنا الراجا ومستشاروه مرارًا وتكرارًا من أن خطتنا ستنجح فقط إذا ما تمكن السومطريون من الصمود حتى منتصف الليل. وفي حالة تقاتل السومطريون والهولنديون قبيل أن يرتقي القمر قمة سماء الليل، فسيكون النصر من نصيب تجار التوابل بلا أدنى ريب.

ما الذي يمكننا فعله لتأخير أي صراع مع التجار الهولنديين؟ كان هذا هو السؤال الذي يدور في أذهاننا جميعًا.

***

في صباح هذا اليوم، أبحر قارب شراعي صغير قادم من السفينة الهولندية إلى سواحلنا. كان على متنه ثلاثة رجال يشكلون فرقة استطلاع. ولأن شين يتحدث لغتهم، فقد أرسله السكان الأصليون للترحيب بهم.

بعد مغادرتهم، دعا كياوانكا إلى انعقاد مجلس. قال شين مبينًا إنه تم إخباره بأن القبطان الهولندي أرسل رجاله للإبلاغ عن حالة أشجار الفلفل. قال القبطان إنه يريد أن يعرف عدد الأشجار الموجودة وموقعها. ولكن شين لا يصدق كلامهم. يعتقد شين أن القبطان يرغب في معرفة عدد السومطريين الموجودين على الجزيرة. كانت أسئلته تخص السومطريين وليس أشجار الفلفل. بذل شين قصارى جهده ليظهر حيرته وتفسيره لكلام الهولنديين بشكل خاطئ عامدًا. مع ذلك، يعتقد شين أن الهولنديين يخططون للمجيء إلى الشاطئ، وأسر أكبر عدد ممكن من السومطريين لبيعهم كعبيد لاحقًا.

عاد فريق الاستطلاع إلى القارب الهولندي. يجب أن نمنع وصولهم حتى موعد اكتمال القمر! سيكون أمامنا يومٌ طويلٌ. وإلا، فلن نتمكن من حماية أنفسنا.

تحدث الراجا ومستشاروه وشين فيما بينهم. كانت لديهم بضعة أفكار. أولًا وقبل أي شيء آخر: سيبذلون ما في وسعهم لتعطيل سفينة الهولنديين. ثانيًا، طلبوا من شين أن يبلغ الهولنديين بأن السكان الأصليين يخططون لإقامة حفل ضخم للاحتفاء بزائريهم. ستكون هناك وليمة ورقص. يعتقد شين أن إقامة الحفل فكرة جيدة. فقد قضى معظم حياته في البحر، وقال إن الرجال الهولنديين متململون، ولمَّح إلى أنهم يشعرون بالوحدة ويفتقدون وجود النساء.

أفضى الراجا بذلك إلى زوجته، والتي قالت إن النساء السومطريات سيفعلن ما بوسعهن للترفيه عن الرجال الهولنديين.

حدق جورج نحونا بنظرة تكشف عن غضبه. لم يكن في حاجة لقول أي شيء. كنا جميعًا نفهم ما يعنيه ذلك الكلام. فكرت في أختي الصغيرة جيليان، فأحسست بالغثيان.

بالإضافة إلى ذلك، قرر الراجا إرسال ستة من أفضل رجاله إلى القبطان الهولندي كبادرة حسن نية منه. هؤلاء الرجال الستة هدية منه. وللقبطان مطلق الحرية في الاحتفاظ بهم أو بيعهم كعبيد. يأمل الراجا من خلال ذلك أن يصدق الهولنديون أن السومطريين لا يضمرون لهم أي شر.

سيرافقهم شين (لأنه يتقن كلتا اللغتين) ويوصل تلك الرسالة: "يرسل الراجا تحياته. وإنه يعلم أن قومه لا يمكنهم

مواجهة الهولنديين. وإنه يأمل أن يقبلوا بهؤلاء الرجال هدية منه. بالإضافة إلى أن الراجا يطلب منك ومن رجالك أن تكونوا ضيوفه على مأدبة تقام على شرفكم غدًا عند غروب الشمس. سيكون هناك طعام وفير، ورقص، ونساء حسناوات".

سيعود شين إلى الجزيرة فور أن يتلقى ردًّا من القبطان (على أقل تقدير، هذه هي الخطة).

كان جورج قلقًا من أن الهولنديين لن يهتموا بتلك الرسالة. ويعتقد أن الحفل والهدايا ليست كافية. وضح شين أن الهولنديين ليسوا طماعين فحسب، بل كسالى أيضًا. بالإضافة إلى هذا، هل نملك أي خيارات أخرى؟

طلب الراجا ستة متطوعين. أبدى جورج استعداده للتطوع، ولكن كِلا الراجا وشين أخبرانا أن وجودنا يجب أن يبقى سرًّا. وإلا فإن الهولنديين سيعتقدون أن هناك قوات بريطانية مختبئة في الجزيرة. تقدم رجال آخرون للتطوع بسرعة إلى الأمام. منحتهم القبيلة بأكملها وداعًا دافئًا -ومعهم شين- أثناء صعودهم إلى الزوارق ليجدفوا صوب السفينة. كان أتونكا من ضمن المتطوعين الستة. شكره ثلاثتنا على مساعدته لنا وتمنينا له التوفيق قبل مغادرته. كنت حزينًا لرؤيته يذهب هكذا. في اعتقادي الشخصي، كان كل المتطوعين رجالًا شجعانًا، إلا أن أتونكا كان بمثابة واحدٍ من أفضل الرجال الذين قابلتهم في حياتي كلها.

لم نتقبل فكرة رؤية شين وهو يصعد الزورق الصغير، ولكن كان ثلاثتنا نعرف تمامًا أنه يفعل الشيء الصحيح. بعد دفع الزوارق في المياه، تسلق ثلاثتنا مع صبية سومطريين آخرين الجرف العالي الذي يطل على الشاطئ. من مكاننا هناك، كان يمكننا مراقبة شين وأتونكا، والرجال الخمسة الآخرين، وهم يقتربون من السفينة الهولندية. عندما وصلت الزوارق بالقرب من السفينة، طلب شين الإذن بالسماح لهم بالصعود إلى متن السفينة. أعطى القبطان موافقته. وصعد شين السلم المصنوع من الحبال، وتفاوض مع القبطان.لا شك بأن محادثتهما قد سارت على ما يرام؛ لأن المتطوعين غادروا زوارقهم بعد فترة قصيرة من صعوده، ليلتحقوا به على متن السفينة.

إليك ما لا يعرفه الهولنديون: مارس السومطريون خدعة مع الهولنديين. كان السكان الأصليون سباحين ماهرين، وكان يمكنهم حبس أنفاسهم لفترات طويلة جدًّا جدًّا! وباستخدام الزوارق كغطاء لهم، سبح العديد من أفضل الغواصين بجوار المحاربين، متجهين إلى السفينة الهولندية. وفور اقترابهم من السفينة، سيغطس السباحون المختبئون عميقًا في المياه، ويخرقون بدن السفينة الهولندية باستخدام أحجار حادة. تلك الثقوب لن تكون كافية لإغراق السفينة، ولكنها ستكون كافية لجعل الهولنديين يشرعون في إصلاحها على الفور، ليتجنبوا امتلاءها بالكثير من مياه البحر. عندما يحل الظلام، سيعود السباحون إلى الجزيرة. كان يؤمل أن تدفع "الهدايا" من العبيد،

والثقوب في بدن السفينة، إلى تأخير وصول الهولنديين إلى الجزيرة حتى مساء يوم الغد، حينما يبدأ الاحتفال الذي سيقام على شرفهم. بطريقة ما، يجب علينا منع الهولنديين من القتال إلى أن يحل موعد اكتمال القمر! فقط عندئذ، ستكون لدينا فرصة للنجاة!

في وقت مبكر، أحسسنا بالبهجة عندما قبل القبطان بالرجال السومطريين كهدية، وأرسل شين عائدًا إلى الجزيرة، بينما تتبعه الزوارق الفارغة من ورائه. لكن سرعان ما تحولت تلك البهجة إلى يأس. للاحتفال بنصرهم الوشيك -فهذه هي الطريقة التي فسر بها الهولنديون الأمر، بأنه نصر عظيم- أقام الهولنديون احتفالاتهم الخاصة على متن سفينتهم. بالطبع، كانوا بعيدًا للغاية بحيث لا يمكننا رؤية ماذا كانوا يأكلون ويشربون! ولكن من أصواتهم القادمة عبر المياه، لم يكن هناك أدنى شك في أنهم تناولوا مشروبات روحية قوية. وسرعان ما أصبح البحارة الهولنديون أكثر صخبًا. باتت الأغاني التي يغنونها أكثر صخبًا وتتسم بالبذاءة.

اعتقد جورج أن هذه علامة جيدة بالفعل. وقال: "ستتراخى دفاعاتهم". وكان فرانك متفائلًا أيضًا، لقد سمحوا لشين بالعودة إلى الجزيرة. أما أنا فقد بدوت كما لو أن معدتي قد انعقدت على هيئة عقدة كبيرة. فكرت في داخلي بأنني يجب أن أكون سعيدًا عندما ينتهي كل هذا. سعيدًا جدًّا، حقًّا!

عدنا إلى العمل مجددًا، كنا نؤدي بعض المهام المتنوعة. بالإضافة إلى حفر المزيد من الحفر. كذلك انشغلنا في إعداد الطعام من أجل مأدبة الغد. كنت أسحق الجذور لأحولها إلى ما يشبه المسحوق حينما رأيت كشاف نوبة المراقبة يهرع عائدًا من قمة الجرف حيث أُمر بالبقاء لمراقبة السفينة الهولندية. بعد ذلك، بدأ الكشاف بالحديث مع الراجا بطريقة سريعة. كان شين هو الوحيد فيما بيننا الذي يتقن لغتهم لدرجة تجعله يترجم عبارات الكشاف السريعة. كان بمقدورنا تخمين أن هناك شيئًا ما خاطئًا من خلال رؤية تعابير وجه شين. تكرر اسم أتونكا خلال حديث الكشاف لمرات عديدة.

في هذا الوقت، كانت قد مرت بضع ساعات على حلول الظهيرة، أكثر ساعات اليوم حرارة. تلون وجه كياوانكا باللون الأحمر القاتم. ظننت ذلك بسبب الشمس، ولكني كنت مخطئًا في اعتقادي هذا. أسرع الراجا والكشاف عائدين إلى قمة الجرف المطل على البحر. كان المحيط لا يزال ساكنًا وبلون أزرق لطيف وهادئ. تبعنا الراجا والكشاف، وكذلك فعل شين أيضًا. عند قمة الجرف، صوب الراجا بصره نحو السفينة الهولندية. عندئذ، سمعت صوت صفير حاد. كان ذلك صوت سوط مصنوع من الجلد، من النوع الذي يتكون من تسع شرائط منفصلة، والتي تقطع الهواء. كان نائب القبطان يضرب أتونكا بالسوط. امتقع وجه شين. في حين نكزه جورج مطالبًا توضيح ما يحدث لنا. أخبرنا شين موضحًا أن أشرطة الجلد

التسع تنتهي بنهايات معقودة. وعندما يضرب المرء بها، فإنها تمزق طبقة من الجلد. كانت تلك عقوبة فظيعة ووحشية.

تحمل أتونكا ضربات السوط دون أن يصدر أي صوت. راقبنا ما يحدث في خوف تشوبه قلة حيلة، بينما أخذ يضرب نائب القبطان أتونكا مرارًا وتكرارًا.

سأل فرانك وهو يكاد يوشك على البكاء: "لماذا؟ ما الذي فعله أتونكا ليستحق هذا؟".

قال شين: "لا شيء. أومن أن القبطان الهولندي يضربه بالسياط كنوع ما من الرياضة. تذكر! ألم أخبرك من قبل أن البحارة يبدون متململين".

توقف نائب القبطان بعد دزينة من الضربات أو ما يقرب من ذلك. أومأ القبطان إلى أحد البحارة، والذي سرعان ما ألقى بدلو من مياه البحر الباردة على ظهر أتونكا. لا شك أن الألم كان لا يطاق، لأن أرجل صديقنا بالكاد تمكنت من حمله. ولو لم يكن مقيدًا من عند ساعديه لسقط على سطح السفينة. وكما بدا عليه الأمر، ترنح جسد أتونكا في وقفته.

قال جورج: "سأجعل الهولنديين يدفعون الثمن غاليًا على ما فعلوه لأتونكا. أقسم على ذلك".

وافق فرانك على كلامه قائلًا: "من قبل، لم أكن أعرف إذا ما كان بمقدوري قتل أحدهم. لكن الآن أنا متيقن من استطاعتي فعل ذلك. والتر، هل أنت معنا؟".

قلت: "أنا معكما". كانت هذه العبارة هي أكثر العبارات إثارة للحزن، والتي تفوهت بها في حياتي. إذا كنت تقرأ هذه اليوميات، فربما تظن أن عضة فأر ما حولتني إلى وحشٍ. لا، لم تفعل. من حولني إلى وحش مفترس هو رؤيتي واستماعي للهولنديين وهم يعذبون صديقي. اليوم، عشت آخر أيامي كشخص بريء. كنت متعطشًا للدماء، ومستعدًّا للقتل.

لكن، هل كنت قادرًا ذهنيًّا وجسديًّا على إخماد حياة أحدهم؟ كنت الأقل مهارة في الصيد من بين ثلاثتنا. لقد حاول أصدقائي ألا يضحكوا علي عندما أرمي بسهامي بعيدًا عن الهدف متسببًا في هرب فريستنا. مع ذلك، كنت أستخدم النبلة بشكل أفضل بقليل. إذا ما حدث ونشب القتال قبل أن نتحول إلى ذئاب -وإذا تحولنا فعلًا إلى ذئاب- فهل سأمثل أي إضافة على أرض المعركة؟ هل سأبرئ ذمتي بكرامة على الأقل؟ أم هل سأهرب وأختبئ بعيدًا؟

ما هي تلك القدرات التي ستظهر عندما أتحول إلى ذئب؟ هل ستجعلني طبيعتي الحيوانية أكثر شجاعة؟ أو هل سأجبن وأهرب بعيدًا؟ هل سأموت على هذه الجزيرة الغريبة؟ هل ستتذكرني أختي الصغيرة مجددًا؟ ماذا ستقول حينما تعرف ما كنت أعد نفسي لارتكابه؟ وماذا عن أمي؟ هل ستشعر بالعار أم بالفخر؟

أما بالنسبة لأبي، فلقد ساورتني أفكار مختلفة عنه. بعد عيش كل هذه السنوات مع السومطريين، قررت أن هناك مسارًا

آخرَ يمكن للمرء أن يصبح من خلاله أبًا. مسارًا مختلفًا تمامًا عن المسار الذي اتخذه أبي.

عذبتني كل تلك التساؤلات.

تاريخ غير معروف

إذا ما كان القبطان الهولندي يأمل في إثارة غضب السكان الأصليين من خلال تعذيب أتونكا؛ فقد حقق ذلك أكثر مما كان يتخيل. اندفعت موجات من الغضب عبر عروقي، وكان بوسعي رؤية وجوه المحاربين الآخرين وهم بالكاد يحاولون السيطرة على مشاعرهم العداونية. لم تتغير ملامح كياوانكا الرصينة، وبدا كما لو كان منحوتًا من الصخر.

بدت الشمس كما لو أنها لن تغرب أبدًا. تسلقت برفقة فرانك وجورج شجرة البانيان العملاقة حتى لا يتمكن الهولنديون من ملاحظة وجودنا. ذكّرنا شين قائلًا: "إذا لم تتمكنوا من الالتزام بالخطة، فقد تهدر العديد من الأرواح. إن السومطريين شجعان؛ وأنتم أيضًا يجب أن تكونوا شجعانًا".

أرسل الراجا فرقة صغيرة للترحيب بالزوار الهولنديين. حملت مجموعة من النساء قلائد من الزهور، وكان واضحًا أنها خالية من أي أثر لزهور الياسمين الهندي. كذلك رحب رجال القبيلة المرموقون بالهولنديين. تظاهر الجميع بأنهم لم يسمعوا أصوات تعذيب أتونكا.

سمح الهولنديون للنساء وممثلي القبيلة بقيادتهم إلى مركز المجمع مباشرة أسفل شجرة البانيان. عُرضت كل أصناف الطعام: خنزير مشوي، ثعبان مطهو، موز غارق في الصلصة، جذور نباتات مشوية، لبن جوز الهند مخلوطًا بالتوت، خبز مكون من الجذور، معكرونة مصنوعة من نباتات مختلفة تم سحقها لتتحول إلى دقيق، والكثير، والكثير. هجم الرجال الهولنديون على الطعام مثل مجموعة من الحيوانات الجائعة. شربوا النبيذ أثناء الأكل. عزف الموسيقيون الألحان، ورقصت النساء. ثم سرعان ما بدأ الرجال الهولنديون بمد أياديهم نحو النساء أثناء رقصهن. لم أقدر على مشاهدة ذلك.

متى... آه، متى يصبح القمر مكتملًا؟

فجأة، حل الصمت على الجميع. لا يمكنني تحديد إن كان ذلك بسبب بدء تحول النساء ودهشة الرجال الهولنديين، أم بسبب أن النساء لم يعدن يصرخن طلبًا للمساعدة. كان السبب الذي يجعلني غير قادر على تحديد ذلك هو أني كنت أتحول بدوري، وقد أرعبني ذلك بشدة.

كان التحول أبطأ مما توقعت، وهو الأمر الذي وجدته جيدًا إذ وفر لنا الوقت المناسب للهبوط من على الشجرة. ربما كنا نتحول ببطء لأننا كنا حديثي العهد على التحول إلى هيئة الذئاب. أو ربما يبدو التحول سريعًا عندما تراقب الآخرين يمرون به، وليس عندما تمر بعملية التحول بذاتك. أيًّا كان السبب، استمر

التحول دون توقف، وبدا كما لو أنه استغرق عدة ساعات، بينما أخذت تنمو أظافري وتتحول إلى مخالب. استطالت أطرافي. ونما فرائي بسرعة كبيرة لدرجة أنني تمكنت من مشاهدته وهو ينمو على بشرتي. انطبق جسدي وتلوى، وكافح عملية التحول. ارتجت معدتي، وانتاب رأسي ألم شديد. ثم تغيرت رؤية عيني... في البداية كنت بالكاد أتمكن من المشي بسبب الصداع الذي سببه التغيير، ولكن سرعان ما تغلبت على ذلك؛ إذ باتت حاسة الشم هي القوة الرئيسة الدافعة لي. نمت شعيرات شاربي، على جانبي المنطقة الواقعة بين أنفي وفمي. وحينما وقفت على أطرافي الأربعة، أدركت غريزيًّا أن شعيرات الشارب تلك ستساعدني على تحديد معالم العالم من حولي. ومع التقائها بسطح الأرض على جانبي، أدركت أين أقف وإلى أي اتجاه أسلك عندما أرغب في الاختباء. مررت لساني على أسناني، وتفاجأت عندما أحسست بمدى حدتها بعد التحول. بعد ذلك، لاحظت أن لساني نما بشكل مبالغ فيه للغاية.

بالطبع، لم تكن هناك أي مرايا على الجزيرة، ولم يكن بوسعي رؤية انعكاسي سوى على سطح المياه، لذلك ربما قد يكون وصفي غير دقيق. مع هذا، كان يمكنني تسجيل عملية التحول عندما نظرت إلى شين وجورج وفرانك.

نما الشعر في كامل أنحاء أجسادنا. تضخم فخذا فرانك وتكتل أسفل جسده، وتحولت أظافره إلى مخالب، وبدا الخاتم العائلي الذي يلبسه دومًا غريبًا للغاية حول عظام أصابعه

الملتوية والمشعرة. نما أنف جورج بشكل كبير، وأصبح طرفه غليظًا ليتشكل على هيئة زر. ثم نظرت إلى أسفل لأرى عملية تحول كلتا يدي الذي يكاد يقترب من الانتهاء، إذ تحولت أظافري إلى مخالب تحمي بطانة كفي. كنت أقف على أربع دون أن أدرك متى فعلت ذلك. أحسست بالألم في عظمة ذيلي كما لو أنني صدمتها بقوة في شيء ما. بعد ذلك، نمت عقدة عند قاعدة عمودي الفقري. وقبل أن أتمكن من ملاحظة الأمر؛ وجدتني أمتلك ذيلًا كبيرًا مغطًّى بالفراء، والذي ساعدني على الإحساس بالتوازن بشكل غريب. في تلك الأثناء، بدا مرفقاي في وضع القرفصاء الدائم.

تغيرت رؤيتي. كان يمكنني رؤية العالم من زاوية مختلفة. مددت يدي لأتلمس الخطم الطويل الذي يفصل بين موضع عيني.

أخيرًا... انتهى التحول...

لقد أصبحت ذئبًا.

كان عقلي منقسمًا إلى قسمين. قسم يمثل ذلك الشخص الذي كان يدعى ذات يوم باسم والتر. والقسم الثاني وحش مفترس، مخلوق ضخم وشرس يشبه الكلب. بكل تأكيد، كان والتر البشري أضعف بكثير من الجانب الحيواني. أراد والتر السابق أن يمسك بزمام القيادة، لكن لسوء الحظ، كل ما كان يمكنه فعله هو إصدار طلباته في صمت.

ببطء، انتصرت الغريزة الحيوانية. إلى حد ما، أتذكر أنني ألقيت بنفسي على ظهر بحار هولندي. غرزت أسناني في حلقه، مخترقة الغطاء الرفيع المكون من اللحم. كان طعم دمائه ملحيًّا لذيذًا وغني المذاق. في واقع الأمر، كانت دماء ضحيتي الثمينة تقويني، وانتشرت معها موجة من الطاقة الاستثنائية عبر كامل أنحاء جسدي. لا يمكنني إخباركم عن كيف كانت عملية قتلي الأولى من حيث طول مدتها، أو كيف كنت قاسيًا، وما إلى هذا. كل ما أعرفه هو أنني انتصرت، وأن هذا الإحساس العظيم ترددت أصداؤه عبر كامل أنحاء جسدي، شعرت معه بأني حي أكثر مما كنت عليه في أي وقت مضى!

هاجمت بعض الذئاب مجموعات صغيرة من البحارة، بينما طاردت مجموعة أخرى من الذئاب فرائسها. وبينما كان القمر يرتفع أكثر وأكثر في سماء الليل، أضاف نور القمر توهجًا مخيفًا على المشهد الغريب من حولنا. فيما بدا السومطريون أنهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم.

اختفت كل الشكوك التي تملكتني. لم أتحول إلى ذئب فحسب؛ بل تحولت إلى قاتل أيضًا.

الفصل الحادي عشر

عندما أغلق هولمز دفتر اليوميات، جلس ثلاثتنا في صمت يشوبه الذهول. استقر الدفتر أعلى حضنه في براءة؛ وكأن تلك الصفحات المهترئة لم تحكِ عن أكثر القصص تعاسة سمعتها في حياتي. حاولت البحث عن تعبير مناسب، أو دعابة ساخرة، أو عبارة مشجعة لوصف الموقف، إلا أن رأسي كان مثل منشفة وجه مبللة. اعتلى وجه المحقق العظيم تعبير يشي بصدمة رجل انتهى لتوه من الاستماع لقصة استثنائية يعجز المرء عن استيعابها. تفهمت ما يدور في عقله؛ لأني كنت متأثرًا بشدة من الاستماع لهذه القصة.

سألتُ الآنسة بينسون: "هل هناك احتمال أن يكون شقيقك قد كتب قصصًا خيالية من قبل؟".

التفتت إليَّ بوجهها الشاحب. لو كانت هناك أي ذرة من الحيوية على وجهها من قبل؛ فهي لم تعد موجودة الآن. كذلك أكدت نبرة صوتها المتعبة على أنها قد استنفدت أعصابها، فهمست قائلة: "لا"

قال هولمز بنبرة سريعة يشوبها الانزعاج: "بالطبع لا. هذه القصة هي التفسير الوحيد الممكن لما رأته الآنسة كالدويل من النافذة. أليس كذلك؟ ثلاثة ذئاب... ثلاثة شبان يافعين تحولوا إلى كلاب قاتلة، يتواثبون في سعادة تحت ضوء القمر. كنت تعرفين أن شقيقك على وشك التحول يا آنسة بينسون، أليس كذلك؟ أردتِ أن تغادر إينيس كالدويل هذا المكان، أن تعود إلى لندن، حتى تكون بأمان. ومع ذلك، كنت لتسمحي لها بالزواج من ذلك الوحش! ذلك المخلوق الذي كان شقيقك العزيز ذات يوم!".

ردت بنبرة صوت جعلت أطباق الخزف الصيني على صينية التقديم تهتز معها: "ذات يوم؟ والتر سيكون دائمًا أخي العزيز! لا ذنب له في كل ما حدث! لقد أرسله والدي بعيدًا عن هنا. الخطأ الوحيد الذي ارتكبه أخي هو -إن جاز التعبير- ولاؤه. لقد كان مخلصًا للسومطريين، ولم يكن ليقف مكتوف الأيدي ويراهم يقتلون أو يباعون كعبيد. لقد كان مخلصًا لصديقيه فرانك وجورج، لذلك لم يتخل عنهما عندما تم إنقاذهم أخيرًا من تلك الجزيرة. لقد تعهد ثلاثتهم بحماية سرهم، قطعوا على أنفسهم وعدًا بالدم لحماية العالم من لعنتهم!".

مال هولمز على مقعده، واهتز أنفه الحاد من الغضب: "ها! هذا ما تقولينه. ومع ذلك، ما لم أكن مخطئًا بشكل كبير، فقد تجولوا في التلال والأراضي الزراعية في تلك الضيعة

والضيعات الأخرى القريبة من هنا، بينما يشرعون في قتل الحيوانات الأليفة.

قالت الآنسة بينسون في غضب: "وأنت؟ ألا تأكل اللحم؟".

تجمد هولمز في مكانه؛ إذ تمكنت من اختراق درعه الذي يفتقر إلى المنطق.

قلت: "انظر يا هولمز، ما الذي تتهم به هؤلاء الصبية؟". إلا أنه سرعان ما تبين لي الأمر. لقد فهمت بالضبط ما حدث، وكذلك فعل هولمز. كانت تلك هي المعضلة التي ابتلي بها لاندوقر. هذا يفسر ما حدث للأرانب الميتة. لقد قام ثلاثة رجال من الذئاب خلال إحدى فترات تحولهم الشهرية بتعذيب وقتل الأرانب. وعلى الأرجح، فإنهم من قتلوا كلب الصيد الإيرلندي.

قالت جيليان بينسون بنبرة حادة: "سيد هولمز! أنت تحاكمني وتحاكم هؤلاء الصبية بصورة غير عادلة. لقد توسل إليَّ أخي وصديقاه بأن أحتجزهم داخل سقيفة المعدات. لقد فعلت ذلك! حتى إنني استأجرت رجلًا للقيام بذلك، حارسًا، ودفعت له بسخاء حتى لا يتسبب أيٌّ من والتر وفرانك وجورج بأي ضرر. انظر من حولك يا سيد هولمز. هل تظن أن كل هذه الثروة تراكمت عن طريق القيام بالأعمال الصالحة؟ ها! هذا ليس من المحتمل يا سيدي... ليس من المحتمل. إن مشكلة أخي تعد مشكلة صغيرة إذا ما قورنت بكل حماقات الأجيال التي سبقتنا من عائلتنا.

بالكاد نهض هولمز من مقعده، وقال: "تقولين إنك كنت حريصة، وإنك استأجرت حارسًا. إذًا اشرحي لي كيف تمكن شقيقك وصديقاه من ترويع المناطق الريفية من حولكم! إما أنك تقولين أكاذيب، أو لست صادقة معي تمامًا يا آنسة بينسون".

تراجعت في مقعدها للوراء كقطة تستعد للهجوم بأحد مخالبها، وقالت: "كيف تجرؤ! لقد سمعتهم يقولون إنك رجل عظيم يا سيد هولمز. لا أرى ذلك. ولكني أرى تعصبًا، أرى تحيزًا، أرى كبرياء. ربما ليس لديك أخ أو أخت. ربما لا يمكنك تفهم مدى عمق الحب العائلي. لكن هذا هو ما عليه الأمر. أنا أحب أخي من كل قلبي. لقد أعاده الرب إلينا. صحيح أن هذه المحنة غيرته، ولكن الرجال العائدين من الحرب يتغيرون عند عودتهم إلى الوطن أيضًا. أو هذا ما سمعته. لا أحد يبقى على الحال ذاتها إلى الأبد. اختبار الحب هو إذا ما كان يمكن للآخرين تحمل هذا التغيير أو لا. هذه لم تكن رغبة والتر كما تبين لك من قراءتك لشهادته الصادقة. كان عليه الاختيار بين الشرف والخوف. بين الولاء والجبن. بين الحياة والموت. كان يمكنه اختيار أن يُذبح على يد الهولنديين. هل كان ذلك ليرضي رغبتك في الحصول على العدالة؟ هل حياته لا تعني كثيرًا لدرجة أنك تفضل أن ترى رجلًا يموت عوضًا عن بضعة أرانب؟".

يا إلهي! إنها رائعة حقًّا! تلك الشعلة المتأججة تحاجُّ هولمز وجهًا لوجه، تقف في صف أخيها وصديقيه، وتعيد

تذكير صديقي بأنه ربما يكون تقديره للموقف ضعيفًا؛ لافتقاره إلى المخيلة. لم يكن بوسع هولمز تخيل مايكروفت في موقف مشابه، ولذلك لم يتمكن من تفهم مدى معاناة الآنسة بينسون.

لكني كنت مخطئًا في اعتقادي. كان لدى هولمز دافع مختلف كليًّا من وراء حديثه ذلك. ارتسمت ابتسامة على محياه، وقال: "حسنًا يا آنسة بينسون. هذا القدر يكفيني. أردت فقط أن أعرف إذا ما كنت تصدقين ما كتبه شقيقك في يومياته أم لا، وإن كنت تتقبلين بالفعل التعايش مع التغيّر الذي طرأ عليه".

قالت بصوت مهزوز يشي بشعورها بالإهانة: "هل تجرؤ على اختباري؟".

شبك هولمز أصابعه وقال: "نعم. لقد فعلت. أولًا، أردت أن أتيقن تمامًا من أنك كنت صادقة معنا. بعد كل شيء، فهذه اليوميات ربما تكون مزيفة".

قاطعته قائلًا: "هولمز... تحدث عن نفسك. لقد اعتقدت أن هذه اليوميات مقنعة تمامًا".

رد قائلًا: "واطسون... يجب على المرء دومًا جمع كافة الحقائق والدلائل قبل أن يبدأ في تحويلها إلى نظرية. أنت تعرف ذلك. عوضًا عن رؤية هذا التحول بنفسي؛ يجب أن أقلب كل حجر، وأسأل عن كل افتراضية، وأختبر كل رأي ومعتقد. وما أن أرى هذا التحول بنفسي أو أسمع عنه من مصدر مباشر؛ عندئذ سأشعر بقدر أقل من الحيرة".

سألت جيليان بينسون بينما توردت وجنتاها: "إذًا هل تشك بي؟ هل تظن أنني كاذبة؟".

قال هولمز في نبرة مطمئنة: "لا يا آنسة بينسون. لا أظنك كاذبة. ومع هذا، فإنني أفضل هضم واستيعاب الحقائق أولًا بدلًا من الاعتماد على الاستماع إلى أقاويل وأدلة غير مباشرة. وهذا هو ما عليه الأمر عند الحديث عن كتيب اليوميات هذا... مجرد أقاويل. كذلك لا يمكنك إثبات أن شقيقك لم يكتب هذه اليوميات وهو تحت تأثير بعض الاضطرابات العقلية أو مخدر قوي. لذلك، يجب علي العمل مع ما يتوفر لدي من أدلة وحقائق، وكل ما أملكه هو أنت يا آنسة بينسون. لذلك، وحتى أكون متيقنًا تمامًا من أنه لا يتم التعامل معي كمغفل؛ فإن الاختيار الوحيد المتاح لي هو ممارسة بعض الضغوطات عليك شخصيًّا. هل ترين المشكلة التي تواجهني؟".

كان لعبارات هولمز أثرٌ واضحٌ، إذ بدا عليها التردد. كان هولمز يبذل كل ما يمكنه فعله ليتحقق من أن المعلومات التي تحصل عليها حقيقية تمامًا. ففي ظل هذه الظروف حيث بدت المعلومات المتاحة معقدة وملتوية؛ لم يكن لديه خيار آخر سوى أن يختبرها. كان يتحتم عليه استبعاد أي احتمالية مهما كانت ضئيلة تشي بأن هذا الموقف ليس مجرد خدعة. وبما أنه لا يوجد سوى شخص واحد متاح أمامه؛ فإن هذه الشابة المسكينة أجبرت على تحمل تبعات حدة ذكائه.

بينما بدأ إحساسي بعدم الراحة يتنامى أكثر وأكثر؛ غير هولمز من تكتيكاته، وهي استراتيجية رأيته يوظفها بنجاح عظيم من قبل، إذ إنها أسهمت في الإيقاع بالعديد من المخادعين الذين لم يكونوا تحت أي طائلة شك. قال بنبرة هادئة: "الآن أعرف يا آنسة بينسون أنك تؤمنين حقًّا بقصة شقيقك. إذا ما حدث وتبين أنني خُدعت لاحقًا؛ فلن يكون لديك أي يد في إحراجي.

"سيدي، إذا اعتقد أحد أنك مغفل، فهذه ستكون مسؤوليتك. لقد تشاركت كل ما أعرفه معك، وكل ما رأيته. أنا أخبرك بكل صدق، رغم أنه لم يسمح لي برؤية عملية التحول؛ لأنه سيكون من غير اللائق رؤية رجال بدون ملابسهم، إلا أنني رأيت أخي وصديقيه يدخلون إلى الكوخ في ظهيرة يوم اكتمال القمر. وراقبتهم وأنصت إليهم طوال الليل، لينتهي بي الأمر بأن أرتعد خوفًا بعد ما سمعت أصوات نبش وعواء مخيفة لم أسمع مثلها من قبل في حياتي! لقد أغلقت الباب من ورائهم بهاتين اليدين حتى لا يخرجوا".

حدق هولمز نحوها في تركيز بينما أخذ ينصت إلى روايتها التي لا يمكن التثبت من حقيقتها. وقال متسائلًا: "ولكنهم خرجوا بالفعل. وأنت تقولين إنك عينت حارسًا؟ لقد هربوا في المساء عندما كانت الآنسة كالدويل لا تزال هنا. كيف حدث ذلك؟".

هزت جيليان بينسون كتفيها وقالت: "أتمنى لو كنت أعرف! ظننت أنه يمكنني الثقة بذلك الحارس، لكن في اليوم

التالي، وجدته مخمورًا في الحظيرة. صدقني، أنا لا أعرف كيف حدث ذلك! حتى يومنا هذا، ما زلت أتساءل إذا ما كنت قد تقاعست عندما وظفت ذلك الرجل. أما بالنسبة للحظيرة، فأخي وصديقاه حفروا طريقهم خارجًا. لم أكن على دراية كاملة بطبيعة الذئاب لأخمن حدوث شيء مثل هذا".

قال هولمز: "إذًا، أنت لم تكوني قادرة على احتوائهم". ولكنه بدا أنه يوجه تلك العبارة لنفسه أكثر من جيليان.

غطت جيليان بينسون فمها بإحدى يديها، بينما قبضت بالأخرى على ذراع مقعدها. شحبت مفاصل أصابعها. وانفلتت أنة من حلقها، وقالت: "ظننتني حريصة، بيد أني فشلت. الحقيقة العارية هي أن ما حدث كان مريعًا. إنني مذنبة بتدمير حياة أخي".

ظننت أنه من الحكمة عدم الإشارة إلى أن حياة شقيقها قد تدمرت منذ وقت طويل بالفعل؛ إذ أن تعليقًا كهذا سيكون قاسيًا وغير ضروريٍّ.

سألت بنبرة رقيقة: "هل شقيقك واثق من أنه لا يوجد أي ترياق لعلاج حالته؟ ألا يوجد أي شامان أو معالجين في القبيلة ذوي معرفة متخصصة ربما لا يعرف بها السكان الأصليون الآخرون؟ هل هناك أي إمكانية للتواصل مع أشخاص من تلك الجزيرة بحيث يمكننا طرح أي أسئلة عليهم؟".

هزت رأسها، وحدقت إلى أسفل باتجاه فستانها. وبظهر يدها، مسحت دمعة من على وجهها. قالت: "لا. لم تعد هناك قبيلة".

قفز هولمز على قدميه، وقال: "ماذا؟ فسري تعليقك هذا، وافعلي ذلك بسرعة يا آنسة".

قالت: "الأمر هو... أنه بعد مرور أيام قليلة على انتهاء المعركة مع الهولنديين. تم اصطحاب والتر، وفرانك، وجورج، والرجل الصيني على متن سفينة بريطانية بعيدًا عن الجزيرة... سفينة غريغور فاليز. في واقع الأمر، كان قبطان السفينة يلاحق السفينة الهولندية... تلك السفينة التي كانت تأمل في غزو جزيرة السومطريين. كما ترى، لقد تغلبوا على جميع الهولنديين وقتلوهم بعد أن صاروا ذئابًا. بعد ذلك، أشعل السومطريون النار في السفينة الهولندية على أمل أن يخفوا حقيقة ما حدث، إلا أن البحارة البريطانيين على متن سفين غريغور فاليز تمكنوا من ملاحظة الدخان المتصاعد في الأفق. وباستخدام أعمدة الدخان السوداء تلك كمرشد لهم، توجه البريطانيون إلى الجزيرة. رأى السومطريون هذه المجموعة الجديدة من الأشرعة البيضاء. ومجددًا، قرروا الاختباء. ولكن سرعان ما تعرف الصبية على أن هذه سفينة بريطانية، فهرعوا إلى حافة المياه ليستقبلوا الوافدين الجدد. وعندما تم تقديمهم إلى قبطان سفينة غريغور فاليز، كذبوا وقالوا إنهم القاطنون الوحيدون لتلك الجزيرة. وابتدعوا حكاية عن أن البحارة

الهولنديين تقاتلوا فيما بينهم، وأن هذا هو سبب إضرام النيران في سفينتهم".

قلت متسائلًا: "ماذا كان اسم القبطان؟ الرجل وراء مقود سفينة غريغور فاليز؟

رغم أنني لم انضم إلى البحرية، وكنت ملتحقًا بقوة المشاة، جراحًا ينتقل من موقع إلى آخر، إلا أنني أملك خبرة تغطي جميع فروع جيش جلالتها. واعتقدت أنه ربما أكون على معرفة بقبطان هذه السفينة".

قالت بدون تردد: "القبطان جوناثان بيكرينغ. هو الذي سلم والتر إلى والدنا شخصيًّا. ورغم أنني لم أطّلِع على كل محادثاتهما، إلا أنني سمعت بعض الأشياء. وما استخلصته من حوارهما كان كافيًا لإقناعي بأن بيكرينغ يكره الهولنديين بشكل مفرط. لقد قُتل ابنه على يد كتيبة من البوير في السودان، وأقسم بيكرينغ أنه سيقاتلهم حتى آخر رمق في حياته".

قال هولمز بنبرة يشوبها الانزعاج: "أرجوك، عودي إلى حكايتك السابقة. لقد قلت إنه لم يعد هناك أي وجود للسومطريين؟ على أي أساس توصلتِ إلى هذا الاستنتاج؟".

قالت: "دعني أصحح ما قلته لك. إن السومطريين الموجودين على تلك الجزيرة بالتحديد، جرفتهم المياه بعيدًا. فبعد إنقاذ والتر وأصدقائه. توقف القبطان بيكرينغ عند أقرب

ميناء من أجل التزود بالإمدادات. وأثناء وجودهم في الميناء، عاد أحد بحارة سفينة غريغور فاليز بعد ليلة طويلة من الثمالة، وذهب مباشرة إلى المقصورة التي كان يوجد بها الأصدقاء الثلاثة. هل تتذكرون سكون البحر؟ ذلك الطقس الهادئ والمخيف؟ كان ذلك الطقس يسبق عاصفة رهيبة. أومن بأنهم يطلقون عليها مسمى إعصار. تسببت الرياح في أمواج عاتية اجتاحت الجزيرة بالكامل. لم يكن هناك أي ناجين".

عندئذ، نهض هولمز على قدميه، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. ثم سأل: "لم يكن هناك أي ناجين؟".

قالت: "لا. للتثبت من حقيقة هذه القصة، سأل الصبية عن الجزيرة عندما وصلوا إلى ميناء آخر، فحصلوا على التقرير نفسه. ومؤخرًا، استأجر والدي عضوًا من الجمعية الجغرافية الملكية، أبحر ذلك الرجل إلى الجزيرة التي كان يوجد عليها أخي. ولكنه لم يعثر على أي أشخاص يقطنونها. وبالفعل، أرسل تقريرًا يقول فيه إنه لا توجد أي آثار للحياة".

حدق هولمز إلى الفتاة الشابة. في معظم الأوقات، كانت لتضعف عزيمة الآخرين تحت وطأة هذه النظرة الحادة، إلا أن جيليان قابلت نظرة هولمز باتزان كامل ودون أن تفقد رباطة جأشها. سأل هولمز: "كم طول مدة الرحلة من جزيرة السومطريين إلى مدينة ليفربول؟ أفترض أن ميناء ليفربول هو مكان رسو تلك السفينة؟".

قالت: "أنت محق تمامًا. مدينة ليفربول هي الميناء الرئيس لسفينة غريغور فاليز. دعني أفكر قليلًا يا سيدي. هل يمكنني الاطلاع على دفتر يوميات أخي؟".

مدت جيليان يدها النحيفة ليستجيب هولمز لإشارتها بأن مرر دفتر اليوميات لها. قلّبت جيليان الصفحات، ثم تطلعت بحرص إلى قمة إحدى الصفحات، ثم إلى عناوين الصفحات التي تلتها. قالت: "لقد توقفت سفينة فاليز في طريق عودتها إلى الوطن عند ما يقرب من عشرة موانئ. أتذكر والتر وهو يتحدث عن حمولة السفينة. كانت هناك توابل، وجلود، وسيوف من كل الأنواع، وحرير، وأنواع من النبيذ الغريبة. لا شك أنهم أبحروا في المياه لمدة شهر على أقل تقدير. وربما على الأرجح ستة أسابيع".

ارتعشت شفتها السفلى بعد إجابتها على هذا السؤال اليسير، ثم تابعت: "أرجوك يا سيد هولمز. تقبل التماسي، ولتبحث عن أخي. أما إذا كان سيتزوج من الآنسة كالدويل أو لا، فهذا لا يعنيني كثيرًا. أقول هذا بدون أن أحمل أي ضغينة ناحيتها. ما يهمني هو سلامة أخي. أريد أن أعرف أنه لا يزال حيًّا، أريد أن أعرف مكان إقامته. وما أن أعرف ذلك، فلسوف أكتب إليها رسالة أطلب فيها مسامحتي على تقصيري في احتجازه. عندما أعيده إلى ضيعتنا؛ سأقوم بترتيبات جديدة لحمايته خلال تلك الأوقات التي يصبح فيها متوعكًا. أعرف أنه بمقدوري إبعاد أخي عن المجتمع البريء. ألا يتضح لكما أنه لا يريد أن يؤذي

الآخرين؟ لقد قبل بنداء التحول لأنه لم يملك أي اختيار ممكن سواه. ألا يمكنكما أن تريا ما وراء تلك النتيجة المروعة، وأنتما تريان الإنسانية التي يبقي عليها في صميم قلبه؟".

لم يكن من السهل تغيير رأيي. لقد أعادت كلمات هذه اليوميات تذكيري بالمعارك التي خضتها. في النهاية، لقد أصبح الصبية قتلة. أو يمكنك القول أسلحة على هيئة ذئاب. كانت لدي شكوك بأنه يمكن التحكم بهم. علاوة على ذلك، لقد شككت في إمكانية الإبقاء على سر تحولهم تحت طي الكتمان. بصراحة، هذا التحول غريب جدًّا لدرجة أنه يصعب إبقاؤه سرًّا.

سألت: "ماذا عن الآنسة كالدويل؟ ماذا عن حاجتها إلى معرفة ما إذا كانت قد هُجِرتْ؟".

خفضت جيليان رأسها، وقالت: "سأسأل أخي عند عودته عما سيفعله تاليًا. لقد كانت ردة فعلها بخصوص حالته المتغيرة عنيفة للغاية، كان خوفها يبعث على الحزن الشديد، لدرجة أنني أشك أن أيًّا منهما قد يرغب في إتمام عملية الزواج. مع ذلك، فهذا الشأن يخصهما. إذا رغب والتر في أن أقوم بتمثيله أمام إينيس؛ فلسوف أفعل ذلك بكل تأكيد".

قلت بجمود: "لا يمكنني تخيل أي امرأة قد ترغب في الزواج من رجل يتحول إلى وحش: بدت الآنسة كالدويل متوعكة منذ آخر لقاء لها مع شقيقك وصديقيه. ربما كان

مصدر احتجاجاتها مبعثه حبها المبالغ فيه. أو ربما ليس لديها رغبة في أن تلقي بنفسها كأضحية بالطريقة نفسها التي أطعم بها الرومان عبيدهم إلى الأسود".

أشارت جيليان بينسون بإصبعها ناحيتي كما لو كانت معلمة غاضبة، وقالت: "هذا ليس عدلًا. لاحظ يا دكتور أنني أجلس أمامك دون أن أفقد أي جزء من جسدي وبدون أي شائبة. في تلك الليلة، أحضرتُ الطعام إلى والتر وصديقيه عند تجمعهم تحت ضوء القمر في طور الاكتمال".

أكمل هولمز: "زهرة الياسمين الهندي؟ الدجاجات؟".

تابعت جيليان في نبرة متحدية: "هذا صحيح. إننا نزرع هذه الأزهار في البيت الزجاجي. لقد وضعت العديد منها في شعري. كما أننا نربي هذه الطيور. لقد التهم أخي وصديقاه تلك الدجاجات. لم تكن هناك أي حاجة للاندفاع لالتهامها. لمرة أو اثنتين زمجر الصبية بعضهم تجاه بعض، ولكن -وهذا أمر يجب الانتباه إليه!- لم يعضوني قط. ولا حتى لمرة واحدة. إذا كان من المفترض أن يصوروا على أنهم قتلة بدم بارد، فلتفسرا ذلك إذًا! لا يمكنكما التفسير! إنني على قيد الحياة لأبرهن أنهم ليسوا قتلة طائشين. إن تصنيفهم كوحوش ضارية تم إثبات عدم صحته منطقيًّا".

عضضت على شفتي مبتسمًا. تلك الشابة اليافعة والذكية تعرف جيدًا كيف يمكنها التحدث مع هولمز. كانت حكيمة

بالقدر الكافي للتوصل إلى حقيقة أن عقله من نوعية العقول التي تتعامل بالمنطق وتتجنب المشاعر في تعاملاتها.

قال هولمز: "إن كنت تريدين مني مواصلة البحث عن شقيقك، فسيكون من الأفضل أن تضعي في حسبانك أن الطريق التي أمامنا شاقة. آمل ألا تكوني من ذوي القلوب الضعيفة، وإن كان لديك أي شكوك ناحية قرارك، فهذا لن يساعدنا إذا ما قررنا بدء هذه الرحلة. تفكري مليًّا في هذا الأمر يا آنسة بينسون. هل تريدين مساعدتي أم لا؟ لقد تعهدت لعائلة كالدويل بأن أتوصل لمعرفة ما حدث لشقيقك. وعند هذا المنعطف من الأحداث يمكنني أن أخبرهما بكل صدق بأنه قد هرب. وستكون نصيحتي لعائلة كالدويل بأن يتخلوا عن كل الآمال المتعلقة بإتمام الزواج بين الآنسة كالدويل وشقيقك. أو يمكنني أن أعود إليهم وأخبرهم بأنني ما زلت أبحث عن الشاب والتر".

قلت صارخًا: "ولكنه يحتاج إلى أن يعامل الآنسة كالدويل بصدق!". إذ كان لا يمكنني احتمال فكرة أن تستيقظ الفتاة الشابة من نومها لتجد ذئبًا ينام بجوارها على السرير.

قال هولمز: "بلى يا واطسون. ولكن يمكنهما التعامل كزوجين مع... مرضه. إنه لن يكون أول زوج يختار إبعاد نفسه عن منزله بسبب مخاوف من العدوى. وأؤكد لك... إنه لن يكون الأخير كذلك".

كان هذا صحيحًا بالتأكيد. كان مرض الزهري متفشيًا في لندن. ومع انعدام وجود أي علاجات ناجعة؛ اختار العديد من الأزواج حماية زوجاتهم عن طريق الامتناع عن ممارسة العلاقات الحميمية. كانت نوادي الرجال المحترمين ممتلئة على آخرها بالأزواج الذين فضلوا النوم هناك على أن يكونوا سببًا في زيارة هذا الوباء إلى زوجاتهم. ولكني لم أجد حاجة في مشاركة أفكاري تلك مع الآنسة بينسون. تلك الفتاة المسكينة لديها ما يكفيها لتقلق بشأنه!

ارتخى كتفا الآنسة بينسون، وأخذت نفسًا بينما ساورتها اختلاجة ما، وقالت: كما يمكنكما التخمين. لقد كان الأمر برمته صعبًا. لا يدري أبي أي شيء عن كل هذا. كل ما يعرفه هو أن جماعة من السومطريين الطيبين اعتنوا بأخي. لقد أرسل شخصًا للعثور عليهم حتى يتمكن من توصيل تقديره لهم. أما أمي فهي على دراية بما حدث. لقد كانت هي ووالتر مقربين بعضهما من بعض على الدوام. كما ترى، أبي ليس من نوعية الرجال الذين يمكن اعتبارهم رجالًا متساهلين. في الواقع، إنني ألومه بنسبة كبيرة على ما بات عليه والتر الآن. هل تعلمان أنه لم يكلف نفسه عناء التحقق من تلك المدرسة الشنيعة أو زيارتها حتى قبل إرسال والتر بعيدًا؟ عبارة من أحد الرجال في النادي المنضم إليه أبي كانت كفيلة بإقناعه بأن تلك المدرسة تستحق وضعها في حسبانه. يفتقر أبي إلى التعاطف مع الآخرين، ولا أستطيع احترامه على قراره بإرسال والتر بعيدًا.

في الواقع، إذا كان هناك شرير في كل هذه القصة؛ فإنني سأوجه أصابع يدي صوب أبي!".

ثم ترددت قليلًا قبل أن تتابع: "لذا، كما تريان... ليس من شأن والدي أن يتخذ قرارًا كهذا. ماما لديها مالها الخاص. يمكنني مشاركة محادثتنا معها... هي فقط. ومعًا يمكننا أن نتخذ قرارًا بشأن ما سنفعله تاليًا. ولكن... يجب علينا أن نحدد مكان والتر. الرب وحده يعلم أي آلام يعاني منها الآن. لقد رأيته وهو يلقي نظرة إلى النافذة حيث وقفت إينيس بينما شمعة وحيدة تضفي إضاءة خلفية لما وراءها. حتى وهو في... في هيئته الحيوانية، كانت عيناه تعكسان حزنًا عميقًا أثّرَ فيَّ أثرًا بالغًا. أظن أنه يختبئ بسبب شعوره بالعار. عار غير مستحق. لا، لا، لا. يجب أن لا ندع الأمر يمر هكذا. يجب أن تجده يا سيد هولمز. ابحث عنه وأحضره إلى المنزل. لن أتخلى عن أخي في الوقت الذي يحتاجني فيه".

قال هولمز وهو ينهض من على مقعده: "حسنًا. بمجرد أن أجده؛ ستكون مسؤوليتك هي احتجازه في الوقت الذي يكون فيه القمر مكتملًا، هل نحن متفقان؟".

ثم مد يده إليها، بأصابعه الطويلة والنحيفة، والتي ظلت معلقة في الهواء حتى نهضت الآنسة بينسون على قدميها لتصافح يده وتقول: "موافقة".

الفصل الثاني عشر

"ها!"

فرقع هولمز بإصبعيه كما لو أن هناك فكرة ما قد خطرت على عقله خلال وقوفنا في البهو الواسع لمنزل عائلة بينسون. استدار ناحية الآنسة بينسون وقال: "بالكاد نسيت أن أذكر هذا... هل من الممكن أن نلقي نظرة على غرفة شقيقك؟ ربما يكون هناك دليل على مكان وجوده الحالي. على أقل تقدير، سأطمئن لمعرفتي بأني فحصتها بدقة، ولم أُغفل أي شيء مهم قد يساعدني في مهمتي".

تردد صدى صوت هولمز على الأرضية الرخامية، لدرجة أن الألواح المنحوتة من خشب الجوز الإنجليزي، والتي تحيط بنا، لم تقدر على احتواء نبرات صوته العميقة التي ترددت عبر حلقه. بالطبع، كان هولمز محقًّا في طلبه. كانت حقيقة أنه لم يطلب ذلك في وقت مبكر من لقائنا تسببت في دهشتي، رغم أنه اعترف لاحقًا بأنه خطط لكل هذا مسبقًا. كان كل هذا جزءًا

من خطته، أن يفاجئها على حين غرة، وأن يطلب منها ذلك حينما يتأكد لها أنها انتهت من لقائنا.

"آه...". كان ردها ذلك أقرب لهمهمة صغيرة، أكثر من كونها كلمة مكتملة. فرددت قائلة: "غرفة والتر".

علمني هولمز فضائل الصمت من قبل. يتسارع معظم الناس في ملء الفراغ الذي يتبع طرح سؤالٍ ما. عادة ما نشجع الآخرين لملء ذلك الفراغ من خلال الإبقاء على صمتنا دون أن تبدر عنا أي حركة.نظر صديقي نحوي نظرة جانبية سريعة بينت أن هذا ما كان يخطط له بالضبط.

قالت ببطء: "حقًّا! هل هذا ضروري؟ يبدو الأمر تطفُّلِيًّا للغاية".

ضحك هولمز بطريقة لا تتناسب مع شخصيته، وتوحي بادعاء البراءة بهدف طمأنتها. آه... لو كان بمقدور الآنسة بينسون التنبؤ بما يمكن لهولمز استنتاجه من خلال مشاهدته لمسكن والتر الأخير، لما وافقت بسهولة! تحاشيت النظر إلى الشابة إذ كنت أخشى أن تفضحني تعبيرات وجهي وتكشف .عما كنت أفكر فيه: بالنسبة لهولمز، فإن جولة في غرفة أحدهم، مثلها مثل فتح صفحات موسوعة.

قال هولمز وبنبرة محذرة: "بلى، هذا ضروري. هذا إن كنت تريدين بالفعل أن أحدد مكان وجود شقيقك. أيضًا أي معلومات عن صديقيه ستكون ذات عون كبير لنا".

أشرقت عينا جيليان بينسون عند سماعها احتمالية العثور على شقيقها. قالت: "بالطبع. سأطلب من خادم والتر، دينسون، مرافقتكما. برجاء الانتظار هنا. سأذهب لأدون المعلومات التي ربما تكون في حاجة إليها".

ثم غادرت عبر الردهة الطويلة.

***

بعد مرور عدة دقائق، انضم إلينا رجل نحيلٌ للغاية، لدرجة لا يمكن تخيلها. قدم الرجل نفسه على أنه دينسون.

كان كل ما بمقدوري فعله هو منع نفسي من مطالبته بإجراء فحص طبي في الحال، إذ إني كنت متيقنًا من أن شحوبه وفقدانه للوزن يمثلان حالة مرضية حادة.

عندما التفتَ نحونا بعينيه البنيتين والدامعتين، لاحظت صفرة طفيفة فيهما، قررت أنني سأكتب ملاحظة إلى الآنسة بينسون، رسالة أقترح فيها حاجة هذا الرجل لتلقي العناية الطبية. لا شك في أنهم يبقون على هذا الرجل بصورة ما لإخلاصه وولائه للعائلة؛ لأن أسنانه المتعفنة، والرائحة الكريهة التي تنبعث منها، كانت كفيلة بإعطاء انطباع سيئ. فمجرد تعامل دينسون مع أي من ضيوف العائلة، ممن لديهم عزيمة أقل مما لدينا؛ كان ليتم رفضه وإبعاده عن هنا بكل سهولة.

سلم دينسون بطاقة عاجية اللون إلى هولمز، والتي يفترض أن الآنسة بينسون كتبت عليها التفاصيل الخاصة بصديقي شقيقها، ثم قال بنبرة رتيبة: "من هنا". ثم قادنا لصعود درج متعرج يحاوطه درابزين منحنٍ ومصنوع من خشب الماهوجني.

انعطف الخادم إلى اليسار ليأخذنا عبر ممر مفروش بالسجاد. عند نهاية مسارنا، كانت هناك غرفة رئيسة. كانت مساحة الغرفة تسر الناظرين، وبخاصة عند الأخذ في الحسبان الشكل الدائري للغرفة، والذي سمح بوجود العديد من النوافذ المطلة على الجهة الغربية، التي تظهر مساحات شاسعة من الأراضي البعيدة. وللاستفادة من تلك المناظر الطبيعية، توقفت عند إحدى النوافذ للاستمتاع برؤيتها. امتدت أسفل مني بانوراما عامرة بالألوان. تباينت نباتات الجولق الصفراء مع المروج الخضراء، بينما كان هناك دغل باللونين البني والأخضر يحيط بجدول صغير ذي مياه فضية زرقاء. إجمالًا، كان مشهدًا مريحًا للأعصاب. ولكن عندما يتم وضعه في مقارنة ذهنية مع الجزيرة الاستوائية، فإن المُشاهد سيجد هذه البيئة العائلية وديعة للغاية.

كان حجم غرفة والتر بينسون الشخصية مشابهًا لحجم الشقة التي استأجرتها مع هولمز من السيدة هدسون. كان ديكور الغرفة يمكن وصفه بغير الاعتيادي، على أقل تقدير. كانت هناك أرجوحة شبكية مصنوعة من الحبال معلقة بالسقف بدلًا من سرير قائم على أربعة أعمدة متينة. كُوِّر ذلك السرير المتأرجح

في إحدى زوايا الغرفة، بينما أحيط بستارة من الكتان، ويحتمل أن تكون من شراع سفينة ما. عندما لاحظ دينسون إلى أين كنت أنظر، قال بحزن: "عندما عاد السيد الشاب، وجد أن الفراش التقليدي لم يعد يعجبه. إنه خانق للغاية... هذا ما قاله. ما تراه الآن هو محاولته لمحاكاة منطقة نومه على تلك الجزيرة". ثم أخذ نفسًا عميقًا، وتابع: "كان السيد بينسون مستاءً من ذلك".

قال هولمز: "هذا مثير للفضول. أي تغييرات أخرى أجراها على مكان إقامته؟".

اعتلت الكآبة وجه دينسون، وقال: "سيدي، لا أعتقد أنه من المناسب...".

نظر هولمز عبر أنفه الطويل المعقوف، وقال متسائلًا: "... أن نجد ذلك الشاب قبل وقوع مكروه له؟". كان بوسع هولمز أن يصبح متعجرفًا عندما يتحداه أحدهم.

خفض دينسون رأسه للأسفل. تنهد وهو يشير إلى زاوية الغرفة وقال: "سيدي... يوجد هناك صندوق سفر من خشب الساج يعود للسيد والتر. هل ترى الوصلات النحاسية؟ أعتقد أن أحد البحارة صنعها خلال رحلة عودتهم إلى الوطن، واشتراها السيد الشاب منه. كما تعرف يا سيدي، فإن السيد الشاب قد غادر المدرسة بملابسه فقط؟ أما عن فترة وجوده على تلك الجزيرة، حسنًا، فلا يمكنني تحمل التفكير فيما فعله لتغطية نفسه هناك.

ثم استدار في دائرة محكمة، وأخذ يضع ما يحيطه في الحسبان. توقف عندما واجه الفاترينة الكبيرة، وقال: "تلك هي خزانة العجائب والأسرار. إنها تضم أغلب الأشياء التي جلبها السيد الشاب معه إلى المنزل. لقد كان حريصًا دائمًا على الحفاظ على... همم، بعض المواد غير الاعتيادية".

بلا شك، كنت قد تجاهلت الواجهة الزجاجية للفاترينة الضخمة أثناء افتتاني بالمنظر الريفي عبر النافذة. وللدفاع عن نفسي، كانت الخزانة بعيدة جدًّا عن النوافذ. وساعدت قلة الضوء مع الخشب الداكن للخزانة على اندماجها في محيطها من الألواح الخشبية القاتمة. كانت تلك خطوة حكيمة لحماية محتويات الخزانة.

تمتم هولمز بنبرة خافتة: "فاترينة". ثم بخطوات سريعة، تحرك صوب الفاترينة، ليكتشف أن بابها مغلق. كور يديه على هيئة كوب أمام عينيه، وحاول النظر إلى محتوياتها، إلا أن هيئته حجبت وصول الكمية الضئيلة من الضوء القادمة عبر النوافذ لتسمح له بالرؤية. سأل هولمز الخادم: "هل بحوزتك المفتاح؟".

قال دينسون: "لا. على الأرجح أنه مع السيدة الصغيرة".

اعتدل هولمز في وقفته، وحدق إلى الرجل، وقال: "من فضلك، اسألها إذا ما كان يمكننا استخدامه". كان يمكنني الإحساس بتزايد شعور هولمز بالانزعاج من دينسون لعدم

تقديمه المساعدة الكافية لنا. تابع هولمز قائلًا: "وافعل ذلك بسرعة. كلما زادت فترة محاولتي لتقصي أثر والتر بينسون، ازداد احتمال حاجته للمساعدة أكثر. هذا يجب أن يثقل من إحساسك بالمسؤولية".

قال الخادم: "كما تشاء". أكدت مغادرته البطيئة أنه لم يكن سعيدًا بزيارتنا تلك.

بمجرد أن تركنا دينسون بمفردنا، حرك هولمز يده ودسّها في جيب سترته، ثم أخرج صندوقًا صغيرًا يضم أدوات لفتح الأقفال. وبينما أخذ يتنفس بصوت مرتفع، دفع عودًا حديديًّا رفيعًا في فتحة القفل بيد واحدة، ثم ضغط أداة أخرى في الثقب نفسه، يفصل بينهما بضعة سنتيمترات. صدر صوت طقطقة عن القفل ليفتح بأكثر طريقة باعثة للرضا. أزاح هولمز أدواته جانبًا، وأشار باتجاهي حتى يتمكن كلانا من إلقاء نظرة قريبة على محتويات الفاترينة.

بالفعل، كانت الخزانة بمثابة كنز دفين وحقيقي من الأدوات البدائية. بينما كنت أتفحص سهمًا برأس يشبه صدف المحار، ابتعد هولمز عن الخزانة ليتفحص صندوق السفر المصنوع من خشب الساج. فتح هولمز قفل الصندوق أيضًا. في تلك الأثناء، أخرجت دفتر الملاحظات من جيبي، وكتبت العديد من الملاحظات حول محتويات الفاترينة الزجاجية وصندوق السفر. كانت كتابة هذه الملاحظات لغرض إعادة تنشيط

ذاكرتي لاحقًا، هذا إذا كانت هناك حاجة لذلك. كان هناك عقد في الفاترينة يحاكي اللآلئ الرمادية الكبيرة. لكنه في حقيقة الأمر ليس سوى جديلة مصنوعة من بذور رمادية ناعمة. وجدت ذلك الاكتشاف مثيرًا للاهتمام. كنت أمسك بزهرة تم ضغطها، عندما أطلق هولمز صوتًا يشي باستحسانه. استدرت ناحيته.

قال هولمز: "انظر إلى هذا!". كان يمسك بفأر عملاق. تفاجأت من رؤية ذلك المخلوق لدرجة أنني كدت أتعثر وأسقط أرضًا من هول المفاجأة. كان هولمز يمسك بالفأر من ذيله، كانت الحيوية البادية على جسد ذلك المخلوق بمثابة شهادة صامتة على مهارات الشخص الذي حنطه. وما أن استعدت رباطة جأشي، لاحظت أن حجم الحيوان يصل إلى ثلاث أقدام تقريبًا. كان ذيله ملفوفًا حول جسده. قدرت أنه قد يضيف ما يزيد على نصف متر بقليل إلى طوله أيضًا. بلغ طول الوحش من طرف أنفه إلى ذيله -وبصورة مدهشة- خمس أقدام!

تحدث هولمز بنبرة بطيئة وساخرة: "أعتقد أننا عثرنا على عينة محفوظة من فأر سومطرة العملاق".

قلت في ذهول: "أوافقك الرأي تمامًا! هذا المخلوق مذهل للغاية".

قال هولمز موافقًا: "بل أكثر من ذلك. هذا يثبت أن يوميات الصبي ليست كذبة. هذا الدليل مؤشر قوي على أن بينسون

الشاب قال الحقيقة في يومياته. وإلا فلماذا يملك مخلوقًا كهذا؟ تلك اليوميات تشرح وجود هذا المخلوق بالتفصيل".

التقطتُ خيط أفكار للمناقشة، وقلت: "وبالطبع، بما أن المخلوق حقيقي؛ فإن بقية حكايته ستكون صادقة أيضًا".

قال هولمز: "دعنا نتفق على أنها تميل إلى كفة الصدق أكثر من الكذب. رغم احتمالية كذب والتر بينسون في يومياته، إلا أن هذا المخلوق المحنط يجعل تلك الاحتمالية بعيدة جدًّا".

فركت ذقني، وقلت: "فكر في الأمر يا هولمز. لماذا قد يكذب الصبي حينما يكون مقتنعًا بأن يومياته لن ترى النور أبدًا؟ على من سيكذب من أجل إثارة إعجابه؟".

"عظيم يا واطسون. من فعلًا؟ أؤكد لك بنسبة كبيرة أنني أجد أنه من غير المرجح أن يكذب والتر عن شدته ومصابه. أولًا: إنه لم يكن بمفرده. إذا كان والتر كاذبًا، فستكون هناك فرصة جيدة لكشف كذبته".

قلت: "طالما رفاقه لا يزالون على قيد الحياة". ظننت أنه يجدر الإشارة إلى تلك النقطة.

قال هولمز: "هذا صحيح. وبالطبع، نحن نعرف أنهم نجوا من مغامراتهم تلك. إذًا لماذا سيهتم بتأليف كذبة غريبة ويضعها في يومياته، ويحتفظ بالدفتر دون أن يصنع شيئًا إزاء تلك الكذبة؟ ثانيًا، مثلما قلت الأمر بطريقة مقنعة، من الذي

يسعى لإبهاره بمذكراته تلك؟ لا أحد. لا يوجد لديه أي سبب للكذب أثناء كتابته لتلك المخطوطة؛ لأنه لا يعرف إذا ما كانت يومياته سترى النور يومًا ما. ثالثًا، هذا الفأر يعد حيوانًا مقدسًا طبقًا ليومياته. فلماذا يحضر شيئًا كهذا معه عند عودته؟ إن فكرة وجود هذا المخلوق المحنط تشي بأنه كان، أو لا يزال ذا أهمية. لاحظ، أنه تم حفظه بعيدًا في صندوق مغلق. فقد تتلف أشعة الشمس فراءه بمرور الوقت، ربما يتساقط شعره أيضًا. هذا الفأر لم يكن الغرض أبدًا منه وضعه كمادة للعرض أو كتحفة فنية. لذلك، يمكننا افتراض أنه يحمل معنًى آخر للصبي".

قلت مصححًا: "بالكاد يكون صبيًّا. إنه الآن في العشرين من عمره، أو هو قريب من ذلك. وصديقاه لم يعودا طفلين أيضًا".

أضاف هولمز: "وهناك ثلاثة منهم. ربما يجد رجل بمفرده صعوبة في إخفاء عملية تحوله. لكن عندما تضع ثلاثة رؤوس معًا لحل مشكلة واحدة؛ ربما يؤدي ذلك إلى نتائج أفضل. ومع وضع هذا في الحسبان، يمكنني الآن معرفة أين يمكننا الذهاب تحديدًا لبدء مسعانا في إيجادهم".

رفعت حاجبي، وقلت متسائلًا: "وأين ذلك؟".

رفع هولمز البطاقة التي كتبت عليها الآنسة بينسون بدقة عناوين منازل فرانك دونلي وجورج سانت ليدجر الريفية

والأخرى في المدينة، وقال: "نعلم أن والتر هرب برفقة صديقيه. وكان ثلاثتهم في هيئتهم الذئبية البديلة. خذ هذه يا واطسون، اقرأها أولًا ثم أخبرني إلى أين ستذهب إذا ما أردت الاختباء؟".

كشف الملمس الخشن للبطاقة عن أنها واحدة من المستلزمات المكتبية الباهظة الثمن. تفحصت الاسمين وعناوين منازل عائلتيهما. من بين الاثنين، فإن ضيعة والدي فرانك دونلي، ضيعة جريني، خارج قرية صنيندال، وهو ما يجعلها أقرب الأماكن إلينا. في واقع الأمر، قدرت أن ضيعة جريني لا تبعد سوى عشرين ميلًا عن هنا.

قلت مفكرًا، وبصوت مرتفع: "أتساءل، كم تبلغ المسافة التي يمكن أن يقطعها الذئب في يوم واحد!".

قال هولمز: "يمكن للحصان أن يقطع ثلاثين ميلًا في اليوم الواحد. عندما يفكر المرء في رياضة الصيد، ومدى تقارب سرعة الخيول والثعالب. لذا يمكننا القول بأن الحد الأقصى لسرعة قطيعنا من الذئاب يدور في فلك ثلاثين ميلًا".

قلت: "إذًا ستكون ضيعة جريني هي الملجأ الأكثر تفضيلًا من وجهة نظر الصبية. على الأقل، سيكون فرانك على معرفة تامة بموقعهم، وأي مبانٍ خارجية قد تلبي احتياجاتهم الشخصية". ثم أخرجت جدول مواعيد القطارات الذي دسسته في جيبي عند مغادرتنا للشقة، ومررت أصابعي على مسارات

السكك الحديدية المختلفة، وتابعت: "يمكننا اللحاق بالقطار المحلي إذا ما أسرعنا. رغم أن ذلك المسار يبتعد عن وجهتنا، إلا أننا سنصل إلى محطة يمكننا فيها تغيير القطار إلى القطار المتجه إلى مقاطعة بيركشاير. ومع أخذ خطورة الموقف الذي لدينا في الحسبان، فإننا كلما أسرعنا في الوصول إلى ضيعة جريني، كان ذلك أفضل".

ترددت في إعادة البطاقة إلى هولمز. فهو يتمتع ببصيرة حادة، وقد درب عقله على خوض العديد من السيناريوهات في سرعة البرق، لدرجة أنه يدعي أنه لم يعد يتذكر معها كيفية معالجتها داخل رأسه. بالنسبة لي، كان الكشف عن القرائن الخفية يتطلب مني تفكيرًا وجهدًا منهجيًّا كبيرًا. مع ذلك، في هذه القضية، وضعت نصب عيني الأسئلة التي لم يتم الإجابة عليها. لقد أمضى هؤلاء الصبية سنوات تكوينهم في البرية، وتعلموا على يد السومطريين المهارات التي تمكنهم من الاختفاء على عيون الحضارة. كيف يمكنهم توظيف هذه المهارات بأفضل طريقة ممكنة؟ ستوفر المدينة لهم العديد من أماكن الاختباء للدرجة التي تجعل الصبية معها قادرين على التحول بدون أي إحساس بالخوف من أن يتم اكتشافهم. ولكن البقاء في لندن لن يكون منطقيًّا. لأن مهاراتهم الخاصة، بوصفهم ذئابًا، تتناسب أكثر مع الفضاءات المفتوحة. ناهيك عن أنه لو تم رصدهم داخل المدينة؛ فلسوف يثيرون موجات من الهستيريا. ولكن خارج المدينة، ربما يظن المرء أن رؤية

ثلاثة ذئاب ليست إلا مجرد قصة خيالية يرويها بعض القرويين السذج.

كنا نقترب بسرعة من ليلة اكتمال القمر. ولا شك أن التجربة المروعة الأخيرة للصبية مع إينيس كالدويل، كانت كافية لإقناعهم بأنهم في حاجة إلى حليف ليحتجزهم. على الأقل، سيكونون في حاجة إلى مكان يمكنهم التحول فيه إلى هيئتهم الذئبية، وأن يتصرفوا على طبيعتهم بوصفهم ذئابًا مفترسة، مع عدم تسببهم في إيذاء أي أحد.

مجددًا، جعلني ذلك أفكر في أن الصبية في حاجة إلى أراضٍ برية، غير مأهولة. بقعة يتوفر فيها الحيوانات والنباتات للصبيان الثلاثة حتى يطلقوا العنان لغرائزهم البدائية. مساحة شاسعة من غابة غير مأهولة أو أراضٍ مغطاة بغطاء من الطبيعة؛ هي ما ستناسب احتياجاتهم.

قلت بينما أعيد البطاقة إلى هولمز: "ويندسور بارك. إذا رغبت في التحول إلى ذئب؛ فإنني سأبحث عن أرض صيد خصبة وواسعة. والحديقة تحاذيها أراضي الملكة. كذلك هناك العديد من الحانات التي تحاذي أطراف الحديقة. ناهيك عن أنه ليس بوسع أي شخص ممارسة الصيد هناك. إذ يتوجب على المرء تسجيل عضوية لدى حراس الحديقة أولًا. حديقة ويندسور الكبرى ليست مكانًا يمكن الصيد فيه بصورة عابرة، وإلا فقد يجد الشخص نفسه أمام فوهة بندقية دون سابق إنذار.

أما بالنسبة لرحلتنا، فمن الأفضل أن نسرع إذا ما أردنا أن نصل إلى المحطة المحلية في الوقت المناسب ونغير القطارات لنصل إلى بلدة ويندسور".

قال هولمز وهو يربت على ظهري: "عظيم... حقًّا عظيم".

الفصل الثالث عشر

لاحقًا، عندما عدنا إلى العربة، وفي طريقنا إلى محطة القطارات المحلية، وبعد أن قطعنا وعدًا لجيليان بينسون ببذل قصارى جهدنا في العثور على شقيقها، قال هولمز: "أراهن أن هناك ارتباطًا عميقًا لحاسة الشم في هذا الشأن. تلك الرائحة ذات أهمية خاصة، وإلا فإن الذئاب قد تقتل أفرادًا آخرين من قطيعها. يمكنني تخمين أن رائحة شقيقة والتر بينسون تشبه رائحته. وعملت رائحة الياسمين الهندي على إضافة عامل آخر للحؤول دون حدوث ذلك، كذلك هو الحال مع الدجاجات التي تم تقديمها. أنا على يقين من ملاحظتك لحقيقة أن المنازل المختلفة تتميز بروائح مختلفة. تلك الرائحة الفريدة التي غالبًا ما تكون مزيجًا من العادات الجسدية، والأكل، وعادات التدخين، واستخدام أدوات النظافة الشخصية. أيضًا، يمكن للملابس احتواء أو إخفاء روائح عديدة".

توقفت محادثتنا أثناء شرائي لتذاكر السفر إلى لندن، بينما هرع هولمز ناحية مكتب التلغراف لإرسال عددٍ من البرقيات.

بعد عدة دقائق، وجدنا مقعدين شاغرين عند نهاية عربة هادئة. عندئذ، وكما لو كان يوضح أطروحته السابقة عن الروائح الفريدة، سحب هولمز الفأر المحنط من تحت معطفه. حمدًا لله أننا كنا في جهة نهاية العربة! حتى اللحظة التي أخرج هولمز فيها ذلك الفأر؛ كان يبدو كشخصية كوميدية إلى حد ما؛ وذلك نظرًا إلى صدره الذي كان بارزًا بشكل كبير. في وقت سابق، دس هولمز رأس الحيوان داخل سترته ثم دفعه بالكامل إلى الأسفل. وهي خطة لم تكن لتنجح دون وجود فراغ كافٍ داخل سترته المفصلة ليسمح بحدوث شيء كهذا. قرب هولمز أنفه الأنيق من جثة الحيوان الميت، وأخذ يفحصها من أعلى إلى أسفل مرارًا وتكرارًا.

فكرت فيما ستكون عليه ردة فعل أحدهم إذا ما رأى مشهدًا مثل هذا، وقررت إخفاء تلك الفكرة المثيرة للتندر بدلًا من مشاركتها مع أعظم محققي العالم، والذي يشم أعضاء الفأر الميت في نشاط. حتى من موضعي، كان يمكنني الإحساس برائحة قوية هي مزيج من روائح غراء، ولحم ميت، وفراء رطب.

قلت متدخلًا: "نحن نعلم أن أنواع الحيوانات لديها روائح مميزة. وإلا فإن كلاب الهاريرز ستطارد بعضها بعضًا بدلًا من مطاردة الثعالب".

قال هولمز موافقًا: "ولهذا السبب تستخدم أسماك الرنجة الحمراء في إبعاد الكلاب وتشتيتها عن إكمال المطاردة.

نحن نعرف أن لرائحة الياسمين الهندي أهمية ما، كذلك أمكننا تخمين أن الروائح العائلية لها أهمية أيضًا. وإلا فإن مجتمع البشر الذئاب -ووفقًا لطبيعتهم الذئبية- يمكنهم تدمير قطيعهم، ومن ثم يضعون نهاية مبكرة لنوعهم".

كان هذا منطقيًّا تمامًا. لم أدرس عن قطيع الذئاب من قبل، إلا أن منطق هولمز -كعادته دومًا- غير قابل للجدال. إذا لم تتمكن الذئاب من السيطرة على رغباتها القوية؛ فلسوف ينقلب ثلاثتهم بعضهم على بعض بحلول هذا الوقت. وحقيقة أن موقفًا كهذا لم يحدث بعد، تؤكد على أن آراء هولمز صحيحة.

سألته: "ما الذي تقترح فعله حتى نعثر على الشاب والتر؟". وفكرت بصوت عال: "إن حديقة ويندسور أرض كبيرة للغاية".

ابتسم هولمز ابتسامةً لعوبًا وقال: "سنطارد قطيع والتر. فكر في الأمر. تلك الحديقة الملكية تأسست على يد ويليام الفاتح في القرن الحادي عشر. وهؤلاء القادمون للزيارة يفعلون ذلك لإظهار طاعتهم للملك. أو على أمل دفع خراج يعطيهم الفرصة في احتمالية مقابلة الملك. جميع الأفراد يعرفون كيف يجدون مكانًا قريبًا للإقامة، وينتظرون سماع خبر بأن الملك وجماعته حظوا بيوم صيد جيد. وبالمثل، إذا لم يحظوا بيوم صيد جيد؛ ينتظر طالبو المساعدة الملكية وراء أبوابهم المغلقة، ويدعون أن يحظى الملك بصيد وفير في اليوم التالي. هناك العديد من النزل المتاخمة لأراضي الحديقة. وهذا هو هدفي: الحصول

على غرف لإقامتنا. وغدًا، تحت ضوء النهار، يمكننا التحدث مع عائلة فرانك دونيلي. وفي حالة إذا ما رفضوا استقبالنا، يمكننا على أقل تقدير التحدث إلى حارس الحديقة، وتحذيره من أن هناك مخلوقات طليقة يمكنها التعدي على ممتلكات جلالة الملكة".

"ولكن ماذا لو قرر قتلهم؟ لا شك أن التنبيه إلى وجودهم، قد يعرضهم للخطر!".

"هذا إذا لم نخبره بأنها حيوانات ثمينة تعود إلى حديقة حيوانات خاصة، والتي تسللت على غفلة من الحارس الملكف بالعناية بها. كذلك سأؤكد على أن هناك مكافأة سخية لإعادتهم إليّ سالمين".

منعت نفسي من الاعتراض، وقلت: "هذا شيء مخيف، ولكنه مناسب للموقف الذي بين أيدينا. حفنة من القطع المعدنية ليست سوى علاجٍ للعديد من المشكلات".

"للأسف هذا هو ما عليه الحال. لدينا ثلاثة أيام حتى اكتمال القمر. وخلال تلك المدة تحديدًا، ربما يكون الأصدقاء الثلاثة أقوى بكثير منا، ومع ذلك، أشعر بأنه لا يوجد لدينا أي اختيار آخر عدا مواجهتهم في حالة عدم تعاونهم معنا. على الأقل، إذا حظينا بمساعدة حارس الحديقة، فإننا لن نواجه هذه المشكلة بأنفسنا. لا أعرف إذا كان لديك خبرة بذلك أم لا، ولكني للأسف الشديد أفتقر إلى الخبرة اللازمة لصيد الحيوانات البرية".

"كذلك هو الحال معي".

بعد مغادرتنا القطار في محطة بادنغتون، طلب هولمز مني شراء بضع صحف، بينما ذهب إلى مكتب التلغراف من جديد. اشتريت الصحف التي أرادها، وكوبين من الشوكولاته الساخنة لكل منا. ومع انتهائنا من تلك المهام الصغيرة، أوقفنا عربة لتنقلنا عبر شوارع لندن، ولتوصلنا إلى غرفنا في شارع بيكر.

وبينما انطلقت العربة بنا، ارتسمت على ملامح هولمز تلك النظرة الحالمة، وهي علامة خارجية تشي بأنه انسحب إلى عالمه الداخلي ليفكر في خطواتنا التالية.

كانت نصف عينيه مفتوحتين، ويداه مسترخيتين تمامًا على حضنه، وكان يمكن اعتباره -بسهولة- وهو في تلك الوضعية على أنه زعيم طائفة هندية، وليس أعظم محقق في العالم. عوضًا عن إزعاجه، فكرت في الإجابة عن سؤال كيف يمكننا العثور على هؤلاء الصبية. حتى لو أننا وجدناهم، فما الذي سنقوله لهؤلاء المنبوذين الثلاثة؟ هؤلاء الشباب ليس لديهم أي سبب للثقة برجال بالغين. على الأقل، لن يثقوا برجال بريطانيين. بعد كل شيء، كان رجال مثلنا هم من أرسلوا هؤلاء الصبية إلى مدرسة ثبت مدى سوئها، لدرجة أن الصبية خاطروا بحياتهم من أجل الهروب منها. كانت خطتهم تلك جريئة وخطيرة. في النهاية، كان يمكن أن يلقي بهم القبطان إلى خارج السفينة، ولم يكن ليسمع أي أحد بذلك.

كانوا ليموتوا لو لم يصلوا إلى هذه الجزيرة. كان يمكنهم أن يغضبوا الراجا، ويجدوا أنفسهم وقد أصبحوا قرابين بشرية تقدم لآلهة السكان الأصليين. وحتى لو نجحوا في اجتياز جميع هذه العقبات؛ كان يمكنهم الموت على أيدي الهولنديين، سواء كان ذلك خلال قتالهم لهم أو كسجناء مذعنين. باختصار، عندما تفكرت في مدى صغر سنهم لم يكن أمامي سوى الإعجاب بقدرتهم على الصمود.

كيف ستكون ردة فعلهم عندما يكتشفون أننا نطاردهم؟ هل سنكون أكثر حظًّا إذا ما ناشدناهم وهم في هيئتهم البشرية، أو هل من الأفضل لنا طلب المساعدة من حارس حيوانات متمرس، وأن نحاصر الصبية كما لو كانوا حيوانات برية اختاروا أن يتحولوا إليها؟ لم أكن واثقًا من أي المسارين يمكنه أن يؤدي إلى نتيجة مثمرة أكثر من الآخر.

على حسب تقديري، لا تزال هناك ليلتان تفصلاننا على مرور شهر كامل منذ أن راقبت المسكينة إينيس كالدويل المشهد المخيف عبر نافذة غرفتها، والذي تسبب بهرب والتر بينسون واختفائه. كم تبلغ مساحة الأراضي التي يمكن أن تقطعها ثلاثة ذئاب في ليلة واحدة؟ خمنت أنها ستكون مسافة كبيرة. ففي النهاية، يمكنهم الركض في هيئتهم الحيوانية أولًا، وما أن يُخلي القمر المكتمل المجال لشمس الصباح، يمكن للشباب استئناف سفرهم في هيئتهم البشرية. بالطبع، هذا في حالة إذا ما كان لدى الأصدقاء الثلاثة الوسائل لدفع مقابل

تنقلاتهم. أوحى ذلك إلي بفكرة. انتظرت حتى فتح هولمز عينيه لمشاركة فكرتي معه عندما توقفت العربة عند أحد تقاطعات الشوارع.

قلت في تردد: "أعتقد أننا فوتنا علي أنفسنا فرصة هامة". لم أكن واثقًا من كيفية عرض آرائي، ولكني كنت واثقًا من رغبتي في مشاركتها.

رفع هولمز حاجبه، وسأل: "كيف ذلك؟".

قلت: "إننا كنا نصُب كامل تركيزنا على هؤلاء الصبية في هيئتهم الذئبية البديلة. وهم ليسوا حيوانات... ليس الآن. إنهم شباب. ورغم أن والتر بينسون أحرج نفسه أمام خطيبته، إلا أن الصبيين الآخرين -وعلى حد علمنا- نجحا في الحفاظ على سرية حياتهما البديلة.

أدار هولمز رأسه نحوي، وقال: "ما الذي تريد الإشارة إليه يا واطسون؟".

قلت: "هذان الصبيان لم يضعا في حسبانهما حاجتهما للهرب والاختباء. لقد وصلا إلى قصر آل بينسون الريفي معتقدين أنهما سيتم احتجازهم من قبل جيليان بينسون لليلة واحدة فقط. ليلة اكتمال القمر، السادس والعشرين من شهر مارس. لو لم ترهم إينيس كالدويل في هيئتهم الحيوانية؛ كانوا ليقضوا أسبوعًا أو اثنين في راحة تحت سقف قصر آل بينسون. ولكن لسوء حظهم، أصيبت الآنسة كالدويل بشدة في

كاحلها لدرجة أنها أجبرت على البقاء في قصر آل بينسون. كان وجودها، وحقيقة أنها تمكنت من رؤيتهم، هو ما أجبرهم على الفرار. لذلك، من المنطقي أنهم يفتقرون إلى الأموال الكافية لقضاء احتياجاتهم. لأن تلك كانت مخاطرة ليست من ضمن توقعاتهم. أقترح أن نتقصى أمر البنوك التي يبقون أموالهم بداخلها. من المؤكد أن فردًا أو اثنين من بين ثلاثتهم سحب أموالًا من حسابه الشخصي. إنهم في حاجة للنقود من أجل توفير الطعام والمأوى لأنفسهم".

ابتسم هولمز، وقال: "واطسون... لقد دربتك جيدًا".

"بالفعل يا هولمز. ربما يظن أحدهم أنني كنت أخرقَ قبل مقابلتك".

"لا. لا أقول ذلك. ولكني أومن بأنك كنت مستعدًّا لتصديق كلام الآخرين كما هو عليه بسهولة. الآن، للأسف، بات بوسعك رؤية العالم بالدلالات الشريرة أنفسها التي أراه عليها. نعم، نعم، أعرف أنك رأيت الموت على أرض المعركة، لكن هذا كان واضحًا في هيئته العامة... طرف يتصارع ضد طرف آخر علانية. للأسف، أعتقد أن هناك الكثير من الدماء التي تسفك من وراء ستائر المجتمع المحافظ. قرارات تُصنع، تحالفات تُعقد، وأشخاص يتم تنحيتهم جانبًا إما ليعيشوا أو ليموتوا على حسب مقدرتهم". ثم تنهد. وتابع: "لقد عززت من حدة قدرات تفكيرك الفطرية، وصرت خبيرًا في كيفية

عملي في حل القضايا التي أواجهها. في الواقع، البرقيات التي بعثتها من محطة بادنغتون كانت موجهة لصديق لديه إمكانية الولوج للعديد من السجلات البنكية. من المفترض أن تتوفر لدينا قريبًا معلومات عن أي عمليات سحب من قبل أي عضو من أعضاء عائلات الشبان الثلاثة. أعتقد أيضًا أننا ربما نسمع خبرًا من صديقك توماس هنري. في الوقت الحالي، قررت أن أخي كان مخطئًا".

ثم ألقى هولمز ناحيتي بإحدى الصحف التي ابتعتها قبل قليل. لم أكن قرأت هذا العدد بعد، وهو يعلم ذلك. تفحصت رؤوس العناوين، ثم لاحظت تقريرًا صادرًا من الشرطة عن الجريمة البشعة التي شاهدناها قبل وقت قصير من مغادرتنا للمدينة. أعرب مفوض الشرطة عن أسفه لموت الضحية الخامسة -والتي تعود لبائعة هوًى- خلال ذلك الهجوم العنيف. واصل المفوض تطميناته للعامة بأن حادثة القتل هذه ليست لها علاقة بجرائم القتل التي تعرف الآن بسلسلة جرائم "جاك السفاح". في واقع الأمر، أشار إلى أنه لا يوجد أي أوجه تشابه في عملية وقوع القتل.

تركت الصحيفة تسقط على حجري، وعلقت: "يا للعجب!".

قال هولمز: "نعم. أعرف. أنهم يفعلون أفضل ما بوسعهم لتغطية الأمر. وما هو أسوأ من كل هذا هو اعتقادي أن مايكروفت يسايرهم في هذا العبث لأسباب تثير غضبي".

سألت: "مثل ماذا؟". إذ لم أتمكن من فهم مغزى هولمز رغم تلميحه.

قال: "أخي على دراية وفهم بهذه القضية أكثر من أي شخص آخر! إنه يعرف أن تلك الشابة الأخيرة ليست بائعة هوًى. كما أنه يملك تحت يديه التقارير التي تثبت أن طريقة قتلها نفذت بطريقة مشابهة جدًّا -هذا إذا لم تكن مطابقة تمامًا- لجرائم قتل النساء الأخريات في تلك المنطقة".

مررت أصبعي على شاربي مفكرًا. انتقاد مايكروفت سيكون بمثابة استراتيجية خاطئة، ومع ذلك، تساءلت لماذا يتبنى مايكروفت هولمز موقفًا مثل هذا، وهو من الوهلة الأولى يعلم أن كل هذا غير دقيق. بعناية شديدة، قلت: "برأيك ماذا يكون دافعه من وراء هذا السلوك؟".

رفع هولمز يديه في الهواء، وقال: "الترقية! لقد أخبرني بصورة شخصية أن مديره المباشر رجل غير قادر على التفكير العميق، ناهيك عن عدم امتلاكه لأي قدرة على التخطيط الاستراتيجي. لسنوات عديدة، كان على مايكروفت بذل قصارى جهده لتنظيف الفوضى التي يخلفها اللورد هيسلوب من ورائه، مبعوث الملكة الخاص، والذي تم تكليفه بالعمل بمثابة حلقة وصل بين سكوتلاند يارد وقصر باكنغهام".

أصدرت همهمة تعبر عن امتعاضي. كم يبدو غريبًا أن مايكروفت هولمز يعشق السياسة، بينما هولمز على الجهة

الأخرى يشمئز منها. ربما يكمن الفرق في أن مايكروفت، باعتباره الأخ الأكبر، استخدم السياسة لتحقيق أهدافه، في حين أن هولمز نجح في تحقيقها بناءً على كفاءته.

"لقد أخبرت مايكروفت مرارًا وتكرارًا أنه إذا ما كان يريد وضع جاك السفاح تحت يد العدالة، فكل ما يحتاجه هو السماح لي بالوصول إلى ملفات القسم. يمكنني حل هذه القضية بسرعة من خلال النفاذ إلى المعلومات الصحيحة. أشك في أن مايكروفت يريد حل هذه القضية بسرعة. كلما مر يوم جديد وطال أمد هذه القضية، وقتلت امرأة أخرى، ازداد الضغط على هيسلوب. لأنه من نوع الأشخاص الذين ينسبون الفضل لأنفسهم عندما يحدث شيء جيد، ويلقي باللوم على الآخرين حينما يقع شيء سيئ. وكنتيجة لذلك، فإن مرؤوسيه يخافون القيام بأي حركة! إنهم كذلك بالفعل، إنهم متجمدون في مكاتبهم حرفيًّا، وغير قادرين على إحراز أي نوع من التقدم".

"وما هي خطة مايكروفت؟".

"هذا هو جوهر الأمر. خطته هي أن ينأى بنفسه عن كل هذا. هدفه هو أن يدع هيسلوب يقع في شر أعماله".



الفصل الرابع عشر

قضينا ليلة مضطربة في محل إقامتنا، إذ كان ليوميات والتر بينسون أثرٌ عميقٌ علينا. بموجب اتفاق مسبق بيننا، غادرنا المنزل رقم ٢٢١ من شارع بيكر مع أول شعاع ضوء من صباح اليوم التالي. استقللنا عربة إلى محطة بادنغتون. هناك، أرسل هولمز عددًا من البرقيات من جديد بينما ابتعت كوبين من القهوة وفطيرتين لكل منا، وهو إفطار خفيف، ولكنه يلبي حاجتنا. بحلول العاشرة صباحًا، وصلنا إلى ويندسور. كنا محظوظين لأن القطارات انطلقت في مواعيدها المحددة. ومع وصولنا إلى المحطة، وجدنا عددًا من البرقيات في انتظارنا. بدت أنها طبعت حديثًا حيث إن رائحة الحبر النفاذة لا تزال عالقة بها. أخيرًا، حصل هولمز على المعلومات التي طلبها من المصرفيين. كل فرد من الصبية الثلاثة قام بسحوبات تقدر بعشرة جنيهات إسترلينية لكل شخص منهم. كانت تلك السحوبات من حساباتهم الشخصية.

علق هولمز عند خروجنا من محطة القطار المظلمة إلى ضوء الشمس الربيعي الساطع: "هذه النقود بالكاد تكفي لدفع ثمن طعامهم وإقامتهم لمدة زمنية لا بأس بها".

رمشت بعيني بينما كنت لا أزال أحاول أن أتأقلم مع التغيير المفاجئ من ظلام المحطة إلى الأجواء المضيئة، بينما مشى هولمز باتجاه الرصيف وأشار إلى عربة أجرة لنستقلها -وهي ثاني عربة لهذا اليوم- وما أن استقللت العربة حتى استحسنت الجلوس بداخلها على الفور. كانت العربة نظيفة على غير العادة، ولها رائحة تشي بأن مالكها استعمل قدرًا كبيرًا من خليط الليمون بالماء لمسح المقاعد. كان الجلوس بداخلها يمثل متعة حقيقية!

قرقرت معدتي معبرة عن ترقبها لوجبة غداء جيدة. أعتقد أن هولمز أحس بآلام الجوع أيضًا؛ لأنه مال برأسه إلى خارج النافذة، وسأل الحوذي أن يذهب بنا إلى مكان جيد لتناول الطعام. صاح الحوذي: "ذا وايت هارت. إنه ليس بعيدًا".

تابع هولمز موجهًا حديثه إلي: "لن تدوم هذه السحوبات الصغيرة طويلًا، وخاصة بالنسبة لثلاثة شباب يتمتعون بصحة جيدة. أراهن أنه بمقدورهم استنفاد كل هذه النقود خلال وجبة أو وجبتين هانئتين".

قلت: "إذن يمكننا الافتراض أنهم لا يتوقعون دفع ثمن الإقامة أو وجباتهم. فهذا المبلغ الضئيل يؤكد أنهم لن يقدروا

على تزويد أنفسهم بمؤونة تضمن لهم عدم تلقي المساعدة من الآخرين. لذا، وبحكم الضرورة، لا بد وأنهم قرروا البحث عن مأوًى في أحد منازل عائلاتهم حتى حلول موعد اكتمال القمر التالي. ومع الأخذ في الحسبان حقيقة أن اكتمال القمر يحدث بشكل شهري، فإنه لا يزال لدينا يومان قبل أن يتحولوا مجددًا".

"هذا صحيح. ولذلك سنزور تلك الأماكن المألوفة على الفور، بعد أن نعرج على حديقة ويندسور الكبرى".

وكما وعد، أوصلنا السائق إلى حانة ذا وايت هارت، وهي مبنًى من الآجر المزين بعوارض خشبية داكنة تبرز طلاءها الكريمي. انحنى هولمز في طريقه إلى داخل الحانة؛ لأنه لو لم يفعل ذلك كان ليرتطم رأسه بالعارضة الخشبية العتيقة من خشب السنديان، والتي تجري بطول واجهة المبنى الأمامية لتشكل العتبة العلوية للباب. استقبلنا صاحب الحانة في حماس، كما لو أنه يستمتع بأداء عمله حقًّا، وأشار ناحية لوحة كُتب عليها بعناية وجبات اليوم المميزة. اختار هولمز شرائح من لحم البقر المشوي، وبطاطس مقلية مقرمشة. كنت أتضور جوعًا بدوري، لذلك اخترت وجبة من النقانق، وتشكيلة متنوعة من الأجبان، ورغيفًا صغيرًا من الخبز، وصحنًا من حساء الخضراوات. وجدنا طاولة مغطاة بالخربشات عند الزاوية الخلفية مناسبة لجلستنا. لذلك اخترناها بينما أخذنا نتبادل حديثًا متقطعًا بينما انتظرنا تقديم الطعام.

في تلك اللحظة، كان الشيء الوحيد في العالم الذي يزعجنا هو مدى عدم ثبات تلك الطاولة. وبعد محاولة تحمُّل سطحها غير المستقر لعدة دقائق، لم يكن من هولمز سوى أن يطلب من النادل علبة ثقاب ليضعها أسفل إحدى أقدام الطاولة من أجل تثبيتها.

ولأننا كنا في حانة ذا وايت هارت بالفعل، فقد قررنا أن الغرف هنا ستكون كافية لغرض إقامتنا. وحقيقة أن صاحب الحانة قد وعد بتزويدنا بوجبة إفطار في اليوم التالي، كان هذا بمثابة حافز لا يمكن مقاومته. بعد أن انتهينا من فحص غرفنا التي وجدناها أكثر من مقبولة، عدنا إلى الحانة حتى يكون بمقدورنا متابعة الحديث.

قال هولمز: "أظن أنه يمكننا الافتراض بدون أي قلق، أن الشبان يخططون للبقاء في أحد منازل أسرهم. وإلا لكانوا سحبوا المزيد من النقود من حساباتهم البنكية".

قلت موافقًا: "هذا في حالة عدم احتفاظهم بأموال مخبأة بعيدًا".

قال هولمز: "هذا صحيح". ثم أخذ يفكر بينما ينقر بإبهامه على شفتيه الرفيعتين، وتابع: "هممم، دعنا نزرْ ضيعة جريني أولًا. لو كنا محظوظين، فربما نجد الصبية الثلاثة هناك".

***

أوصلنا الحوذي إلى قرية أسكوت، والتي تعرف بمضمار سباق شهير. لقد نمى إلى علمنا وبشكل سريع أن ضيعة جريني تقع على بعد خمسة أميال من مضمار السباق، لذا قاد الحوذي العربة عبر طريق من الأشجار المتينة، والتي تشي بأنها كانت شاهدة على العديد من القرون والأحداث التاريخية. كانت أشجار الصنوبر تلقي بحبوب اللقاح بينما تتفتح أزهارها التي يصعب رؤيتها. سريعًا ما اكتست حافة باب العربة طبقة من اللون الأصفر الزاهي، ليغطي على الصبغ الأسود بطريقة ماكرة. علق هولمز: "الربيع مختلف هنا. إن المعيشة في قلب لندن تجعلنا بالكاد نلاحظ كيف يستيقظ العالم".

قلت: "استيقاظ العالم وتلبية نداء التكاثر. هل تلاحظ البتلات البيضاء والوردية أعلى أشجار التفاح، والأزهار الصغيرة والمكتنزة على أشجار التوت. وبالطبع باقات الأزهار باللون الخوخي على شجيرات السَّفَرجَل. هناك رائحة حلوة وعذبة في الهواء، رائحة البراءة الأولى. كل هذا تمهيدًا لظهور الفاكهة. لست واثقًا إذا ما كان يمكنني العيش خارج مدينة لندن النابضة بالحياة، لكن يجب أن أعترف أن كل زيارة تصل بأقدامي إلى الريف تعيد تذكيري لماذا يحتفظ الرجال الميسورون ببيت ريفي بالإضافة إلى منزلهم في المدينة. هما يمثلان وجهين لعملة واحدة، أليس كذلك؟".

قال هولمز موافقًا: "بالتأكيد إذا ما رغب المرء في ذلك، فإنهما يجمعان بين أفضل ما يقدمه العالمان. بالطبع إلا

إذا تحول ابنك إلى حيوان بري يجول الكوكب بحثًا عن فريسته".

تساءلت بصوت مرتفع: "هل تظن أنه ربما يكون الصبية مصابين بداء الكلب؟ ربما ما نبحث عنه هو ثلاثة كلاب مصابة بالفيروس. أو ثلاثة شباب مصابين به".

قال هولمز وهو يحدق إلى خارج النافذة: "أشك في ذلك. في الواقع، أعتقد أن هذه البلاد ستكون خالية من داء الكلب والمعاناة المصاحبة له عما قريب. أخبرني مايكروفت بأن وزارة الداخلية بذلت كل ما في استطاعتها للقضاء على هذا المرض الحيواني. وأنه يؤمن بأنها مسألة وقت قبل أن يعلن خلو بلادنا من هذه المشكلة كليًّا".

عند هذا الموضع من حديثنا، أخذت العربة طريقًا محفوفًا بأشجار الدُّلْب، والتي شكلت فروعها قبة لطيفة. انقسمت فروعها المتدلية وكشفت عن مبنًى مهيب على طريق ضيق نسبيًّا وممهدٍ بالحصى. شد الحوذي اللجام ليوقف العربة معلنًا عن وصولنا إلى نهاية الرحلة.

قال هولمز للحوذي: "انتظر هنا من فضلك". ثم التفت إلي وقال: "نحن لم نرسل إليهم أي تنبيه مسبق لزيارتنا. من الأفضل أن نذهب معًا. رجلان غريبان يمكن أن تترك زيارتهما انطباعًا أقوى من زيارة رجل واحد بمفرده".

كان هولمز محقًّا في كلامه. في اللحظة نفسها، أحاطت بعربتنا مجموعة من الكلاب النابحة، ولكنها لم تكن حيوانات شرسة. لا، لقد كانوا مجموعة متناغمة من كلاب من سلالة فارس الملك شارل، وتتمتع بألوان مختلفة من الفراء، من الأحمر النحاسي إلى الأسود، وحتى باللونين البني والأبيض. جاء رجل مسرع إجابةً على نباح الكلاب. كان الرجل يعتمر قبعة باللون الأخضر الداكن، وسحبها لتغطي جزءًا من وجهه. كان هناك تبن وقش عالقان ببنطاله الداكن، كما لو كان يجز القش. وكانت هناك رقع جلدية على سترته الصوفية عند مرفقيه. بدت سترته كما لو كانت مغطاة بمعطف رقيق من نشارة الخشب. "أوه!"، هذا ما قاله عند رؤيتنا. بعد ذلك، عاد لينشغل في مهمته في ملاحقة الكلاب بتركيز، لدرجة أنه تجاهل عربتنا تمامًا.

فتح هولمز باب العربة من ناحيته جزئيًّا، ثم ترجل منها، وقال: "أيها السيد؟ بماذا يمكنني أن أناديك؟".

رد الرجل صاحب القبعة وقال: "ومن تكون أنت؟"، ثم تابع: "عد إلى هنا أيها الشقي، يا...". وكانت عبارته الأخيرة تلك بمثابة تمهيد للإمساك بأحد الكلاب. أما الكلاب الأخرى فقد أخذت ترقص على قدمين، وتدور في حركات بهلوانية من حول الرجل ذي القبعة.

مد هولمز يديه وقال: "اسمي هو شيرلوك هولمز. وأنا محقق استشاري".

ردد الرجل ذو القبعة بينما يمسك بأحد الكلاب أسفل ذراعه: "أنا باركلي. وأنت ماذا تكون؟ ماذا؟ استشاري ماذا؟".

قال هولمز: "محقق استشاري. يتم الاستعانة بي حينما يحتاج الناس إلى المساعدة. مثل الآن. أتساءل إذا ما كنت قد رأيت فرانك دونلي؟ أو صديقيه... جورج سانت ليدجر ووالتر بينسون؟".

نظر باركلي إلى هولمز بنظرة هازئة، وقال: "أليس السيد الشاب بصحبتكم؟".

هز هولمز رأسه نافيًا، ثم تابع في محاولة للشرح: "لا، ولكن طُلب مني العثور على ثلاثة شبان. طلبتْ مني شقيقة والتر بينسون تحديد مكانه".

ربط الرجل ذو القبعة الطوق بلجام حول رقبة الكلب الذي يحمله، ثم وضع الحيوان الجميل على الأرض. انبعثت تموجات عبر الفراء الحريري الطويل للكلب بينما تلوى في مرح، وأخذ يلف لجامه حول قدم الرجل على الفور. قال الرجل: "اسمع. أنا باركلي، وأنا المسؤول عن هذه الكلاب. إنها حيوانات عرض. كما تلاحظون؟ أنا لم أر السيد الشاب أو صديقيه منذ ليلة أمس".

ليلة أمس! كان بمقدوري سماع كل شيء من على مقعدي داخل العربة. قررت مواصلة الاستماع إليهما في اهتمام بدلًا

من مقاطعة حديثهما؛ لأنه لو كان هذا الرجل قد رأى الشبان الثلاثة فعلًا، فهذا يعني أن عملية بحثنا ربما تصل إلى نهايتها!

سأل هولمز: "هل تناولوا وجبة العشاء معك؟".

كرر باركلي مثل الببغاء وضاحكًا بعض الشيء: "هل أكلوا معي؟ هذا ليس محتملًا. على الإطلاق. كنت أتناول وجبتي في المطبخ. وهذا هو المكان الذي كنت فيه عندما جاء ثلاثتهم، وبدؤوا بحزم الطعام لأخذه معهم. إنهم حتى لم يطلبوا من موفيت حزمه لهم، موفيت هي فتاة المطبخ. لا يا سيدي، لقد استخدموا الورق البلاستيكي وجهزوه على هيئة حقيبة قماشية، فقط هكذا".

سأل هولمز: "هل قالوا إلى أين سيذهبون؟".

"حسنًا، قالوا ولم يقولوا في الوقت نفسه أيها السيد".

"أرجوك وضح كلامك". تعرفت إلى تلك النبرة. هولمز على بعد ثانيتين من فقدان أعصابه. عادة ما يتسبب انعدام صبر هولمز في وقوعه في الأخطاء. أرجو ألا يجعل ذلك ينال منه الآن. لأنه إذا ما حدث ذلك؛ فلن نتمكن من الحصول على المعلومات التي نحتاج إليها.

كرر الرجل مجددًا: "لقد قالوا ولم يقولوا في الوقت نفسه. لقد قالوا بأنهم سيمضون الليلة في الخارج، ولكنهم لم يأخذوا عربة أو حصانًا ولا أي شيء من هذا القبيل. لذلك، لم يقولوا

تحديدًا إلى أين سيذهبون، ولكن لا ريب أنهم لم يذهبوا لمكان بعيد".

انخفضت حدة صوت هولمز، وقال: "هذا سؤال مهم... ما نوع الملابس التي كانوا يرتدونها؟ هل كانوا يحملون أي شيء بخلاف الطعام؟".

قال حارس الكلاب: "كانوا يحملون الطعام الذي أخبرتك عنه فقط. كانوا يرتدون كنزات وبناطيل، كما لو أنهم في طريقهم لمشاهدة مباراة كريكيت أو شيء من هذا القبيل".

كانت تلك المعلومات هي كل ما تمكن هولمز من الحصول عليه من ذلك الرجل. بدأ اليوم الطويل يتسبب في إحساسي بالإرهاق، ولكن لا يزال علينا العودة إلى حانة ذا وايت هارت قبل أن نتوصل إلى استنتاجات نختتم بها جهودنا. لا شك أن صديقي قد تنبه للوقت أيضًا. فقال: "أرجوك ابعث بأحدهم للتواصل معي في حالة عودتهم إلى المنزل في هذا المساء. سأقضي الليلة في حانة ذا وايت هارت".

ثم مد هولمز يده، ودس بعض العملات النقدية في جيب الرجل كطريقة لشكره مقدمًا على مساعدته. في الواقع، ذهب هولمز إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ قال: "أيها السيد، دعني أساعدك في إبقاء كلابك تحت السيطرة. هل لديكم وجار للكلاب؟".

قال الرجل: "أجل، ولكن هذه كلاب منزلية، إنهم لم يقضوا ليلة واحدة داخل وجار الكلاب قط".

بالفعل، لقد كان ثلاثتهم كلابًا رائعة وجميلة. وعلى وجه الخصوص ذلك الكلب الذي بين يدي الحارس، والذي كان يتطلع إلى الأخير بعينيه البنيتين اللامعتين.

قال هولمز: "أيها السيد، لا أريد أن أتجرأ وأخبرك عن كيفية القيام بمهام عملك، ولكن إذا ما سمحت لي ببعض الصراحة معك؛ فإن سبب زيارتنا إلى هنا يعود جزئيًّا إلى أننا نتقصى آثار حيوان بري. ربما تكون حيوانات مسعورة، لقد تسببوا في إيذاء وقتل الماشية في عدد من الضيعات القريبة من هنا. ربما من الأفضل أن تبقى هذه الحيوانات اللطيفة قريبة من عينيك حتى لا تتعرض للهجوم".

عدل الرجل من وقفته في توتر ملحوظ وقال: "هل هذا صحيح؟ سيدة المنزل قد تتناولني على العشاء لو حدث أي مكروه لأحبائها الصغار، ولن يمكنني لومها على ذلك. لا يوجد قطيع من جراء الكلاب بمثل وداعتهم على سطح هذه الأرض. هل يمكنك مساعدتي في تقييدهم جميعًا؟".

قال هولمز وهو يحرك رأسه لأعلى وأسفل: "بالطبع"، بينما كان يحاول جمع الكلبين تحت أقدامنا. ضحكت بينما تخيلت هولمز وهو يطارد تلك الحيوانات الصغيرة والنابضة بالحياة. عندما انتهى من ربط الألجمة إلى أطواقها، عاد هولمز ليذكر

حارس الكلاب بالخطر الكامن في الأرجاء. وما أن انتهى من تقديم شكره للرجل حتى عاد إلى داخل العربة. بات معطفه مزينًا بالعديد من الشعيرات المتناثرة. وعند مستوى ركبته، طبعت عليها مجموعة من آثار أقدام صغيرة من التراب.

قلت: "يا إلهي... مظهرك فريد".

تنهد وقال: "أعرف. ولكن يجب أن أعترف، مجموعة الكلاب هذه تعد فخرًا لسلالتها. ومجرد التفكير في أنهم قد يتعرضون للالتهام تسبب في شعوري بالغثيان".

للعديد من المرات تمكن هولمز من إدهاشي. أن يفاجئني على حين غرة. وهذه المرة هي واحدة منها بكل تأكيد.

***

قلت: "مجددًا، أجد نفسي منجذبًا إلى حديقة ويندسور الكبرى". عدنا إلى حانة ذا وايت هارت ليتمكن هولمز من تنظيف الشعر والغبار عن ملابسه. أيضًا، كان الوقت يقترب من موعد وجبة العشاء. وكنت أشعر بالجوع.

بعد أن انتهى هولمز من تعديل هندامه، عدنا إلى طاولتنا الأصلية في ركنٍ الحانة. وبعد أن طلبنا فطيرة الراعي وكوبًا من بيرة ستاوت لكلٍ منا، قلت: "حديقة ويندسور هي أكبر قطعة أرض مفتوحة بالقرب من عائلة دونلي. أين سيجد الصبية مأوًى غير تلك الحديقة؟ لا يوجد أي مكان آخر غيرها يستطيع

أن يوفر لهم بيئة وفيرة لصيد الطعام، والاختباء، وإيجاد ملجأ، والبقاء بعيدًا عن عيون السلطات. أضف على ذلك، إذا ما أقاموا في القصر الريفي حتى وقت التحول؛ فإن بإمكانهم الانتقال ذهابًا وعودةً بين القصر الريفي والحديقة بكل سهولة. وهناك سببٌ آخر قد يجعل زيارتنا لحديقة ويندسور مفيدة... حارس الحديقة. إنه يتحكم فيمن يمكنه الصيد في محيط الحديقة، وعدد مجموعات الصيد، وأي نوع من الأسلحة يمكنهم استخدامه، وإلى آخره". أنهيت قطعة من البطاطس المهروسة من طبقي. كان لا بد من الثناء على الطباخ لأن الوجبة كانت ممتازة. ثم تابعت قائلًا: "رجلٌ مثله قد يمثل عونًا لنا. فأنا ليس لدي أدنى فكرة عن كيفية الإمساك بثلاثة ذئاب، ماذا عنك؟".

قال هولمز في تردد: "لا. لا أعرف. أتساءل من يكون حارس الحديقة في الوقت الحالي. سأحتاج إلى إرسال برقية أخرى. لا بد وأن هناك شخصًا أو آخر من بين مصادري يمكنه توجيهي نحو الخادم الذي وظفه التاج".

قادني هذا إلى سؤال آخر بينما كان النادل يضع الفاتورة، فقلت: "ما الذي تقترح أن نقوله للرجل؟ حارس الحديقة؟ مرحبًا؟ هل رأيت أي قطعان من الذئاب مؤخرًا؟".

عدل هولمز من مستوى كتفيه، ثم أمعن التفكير لبضع لحظات قبل أن يقول: "لا أرى أنه من الحكمة الإفصاح عن غرضنا بشكل صريح تمامًا. الموقف برمته لا يصدق، حتى

بالنسبة لنا! ونحن رأينا العديد من الأدلة أكثر من أي شخص آخر باستثناء الآنستين بينسون وكالدويل".

ثم تابع مستنتجًا: "أعتقد أنه يجب علينا المراوغة والتهرب من قول الحقيقة. أفضل اختيار متاح لنا هو قول كذبة بيضاء. أن نخبر حارس الحديقة بأننا نبحث عن ثلاثة كلاب برية، ربما يكون ذلك كافيًا. كذلك يمكنني مطالبته بإخطاري في حالة رأى عصبة كلاب شبيهة بما وصفته".

قلت مذكرًا إياه: "لا. من الأفضل أن تخبره أن الكلاب نادرة ومن سلالة أصيلة وثمينة، وأن مالكهم يريد إعادتهم".

بعد ذلك، دفعنا فاتورة الطعام، وتوجهنا إلى الدرج المؤدي إلى غرفنا.

قال هولمز: "انتظر لحظة واحدة". ثم دار على عقبيه، وذهب ليتحدث مع صاحب الحانة. عاد بعد مرور عدة دقائق وهو يحمل كيس دقيق فارغًا. فقال موضحًا: "من أجل الفأر. أصبح حمله داخل سترتي غير مريح".

تثاءبت وقلت: "لدينا يوم طويل غدًا. والقمر الجديد سيجبرهم على التحول، وعندما يحدث ذلك، سيكونون مميتين".

قال هولمز موافقًا: "ستدفعهم غريزتهم الذئبية إلى البحث عن فريسة. آمل أن يكون لديهم شخص أمين وموثوق به ليعمل

على حجزهم. ولكن إذا ما فشلوا في إيجاد هذا الشخص؛ فلسوف يخرجون في جولة ليلية بلا أدنى شك. بدون وجود شخص يطعمهم مثل جيليان بينسون الرائعة؛ فقد يهجمون على الماشية...".

أنهيت كلماته: "أو حتى يهاجمون أشخاصًا".

قال هولمز: "أقترح أن نعرج على منزل حارس الحديقة أول شيء في صباح الغد. يجب علينا تحذيره على أقل تقدير".

قلت بينما مشينا عبر الممرات الضيقة صوب غرفنا: "لست أرى أي فائدة مرجوة من ذلك. بالتأكيد، أنت لن تخبر الحارس بأن يأخذ حذره من قطيع من الذئاب! سيظن أنك دجال يا هولمز! أو قد يضحك على ما تقوله. في كلتا الحالتين، فلسوف يرفض القبول بفكرة أن هناك مجموعة من الشباب من عائلات عريقة يمكنهم التصرف كحيوانات مفترسة وخطيرة. بالأحرى أظن أنه لن يصدقك على الإطلاق! فتفكر في الأمر. ستحتاج إلى خطة أفضل من ذلك".

مال هولمز على الجدار المغطى بورق حائط وردي بهتت ألوانه بمرور السنين، وفاحت منه رائحة رطبة، وانفلت وتقشر عند إحدى حوافه. حك هولمز جسر أنفه بيد واحدة، بينما أمسك بكيس الدقيق الفارغ باليد الأخرى. "حسنًا، سنذهب أولًا إلى حديقة ويندسور الكبرى للتحدث مع حارس الحديقة. أظن أنه من الأفضل أن نقترح أن هناك ثلاثة كلاب أصيلة باهظة

الثمن هربت من مالكها. وبهذا يمكننا تحذير الحراس، وحماية حيوات الصبية".

قلت: "وفي حالة إذا ما تمكن حارس الحديقة من الإمساك بالكلاب... همم، الذئاب. فتفكر في الأمر، كم سيكون هذا رائعًا! بالتأكيد يمكننا إيجاد طريقة لاحتجازهم مرة كل شهر، وبهذا يمكنهم العيش حياة طبيعية لمعظم أيامهم على هذه الأرض".

"يا لطيبة قلبك يا واطسون. رغم أنني أتوقع أن معظم الناس لن يتعاملوا مع هذه الرؤية بفطرتك السخية نفسها، مع ذلك، فأنت محق في كلامك. هؤلاء الصبية لم يقدموا على هذا الاختيار لدوافعٍ شريرة أو طائشة. لقد اختاروها تماشيًا مع الصفات التي يقدِّر وجودها أي رجل بمثابة خصال الرجل الإنجليزي المثالي... الشجاعة، والوفاء، الإيثار، وفوق كل شيء... الواجب. يجب أن لا نجعلهم يعانون، ولا أن يفقدوا الأمل في عيش حياة سعيدة".

وبذلك، اختتمنا حديثنا وتمنينا بعضنا لبعض ليلة سعيدة، وانسحب كل منا إلى غرفته.

الفصل الخامس عشر

في صباح اليوم التالي، استقللنا عربة فوق تلال صغيرة، وعبر المروج الخضراء. كانت رحلة لطيفة. كان لظلال أشجار الجوز والتفاح أثرٌ مريحٌ، إذ استغرقت معها في غفوة قصيرة، والتي سبقتها وجبة الإفطار. كان مضيفنا صادقًا في وعده لنا، إذ أيقظنا على رؤية صواني محملة على آخرها بالطعام. حامل شرائح الخبز ممتلئ عن آخره بالخبز المحمص، مربى البرتقال برائحته الفواحة، قهوة قوية النكهة، والكريمة الناعمة، وشرائح اللحم المقدد. كل هذا أقنعنا بأننا اتخذنا قرارًا جيدًا بالبقاء في حانة ذا وايت هارت. عندما أشار هولمز إلى أنه يشتاق إلى أكل بيضة نصف مسلوقة؛ تم تحضيرها له على الفور. كان المكان بمثابة معجزة في الطهي، كنا محظوظين بتلك الفرصة!

لذلك، كنا في حالة معنوية عالية عندما ركبنا العربة في طريقنا إلى حديقة ويندسور. وضع هولمز كيس الدقيق -الذي يضم بداخله حمولته الثمينة- بعناية على أرضية العربة.

يميل المرء إلى نسيان مدى اتساع الأراضي التي تنضوي تحت يد التاج، إلى أن يجد نفسه يعتزم دخولها. تمتد حديقة ويندسور على مساحة خمسة آلاف فدان، وتقع على حدود مقاطعتي ساري وبيركشاير. كانت الحديقة بمثابة المكان المثالي لقطيع من الذئاب نظرًا لقطعان الغزلان التي تجوب التلال المتموجة، وبحيرة فيرجينيا ووتر القريبة، وكذلك المخابئ، والغابات التي تتناثر فيها أشجار البلوط العتيقة.

ضحك الحوذي حينما طلبنا منه أن يأخذنا إلى حديقة ويندسور، وقال: "نعم، وعلى الأرجح سأقضي الجزء الأكبر من اليوم في الذهاب بكم إلى هناك وهناك إلى ما لا نهاية. لمَ لا تخبرانني عما تبحثان عنه بالضبط؟".

التزامًا بالرواية التي اخترعناها، قال هولمز: "نحن نبحث عن ثلاثة كلاب مفقودة. كلاب قيمة جدًّا. كما ترى، كلاب أصيلة من سلالة هاريرز. هربوا من سيدهم، وقد تم توظيفنا من أجل إعادتهم إلى المنزل مجددًا".

ضحك الحوذي مجددًا. كانت قهقهته من القلب هذه المرة، وقال: "أشخاص يرتدون ملابس مثل ملابسكما هذه يبحثون عن كلاب؟ أوه، هذه مزحة جيدة يا صاح. ولكن من أكون؟ إيه، تيري دوجمان في خدمتكما. وإذا كنتما لا تمانعان سماع رأيي، فأنتما سترغبان في رؤية نائب الحارس. سآخذكما إلى مسكنه".

عانيت وهولمز قدرًا قليلًا من الإحراج بسبب توبيخ دوجمان. كان الحوذي محقًّا في كلامه تمامًا. إذ إنه لا يوجد أي أوجه تشابه بيننا وبين رجلين يتطلعان إلى استعادة كلاب هاربة. لحسن الحظ، كنا في حاجة إلى إقناع نائب الحارس بمدى عدالة موضوعنا فقط. وبما أن نائب الحارس يخدم صاحبة السمو الملكي؛ يمكننا الاعتماد على اسم مايكروفت لإنقاذنا في حالة إذا ما وقعنا في ورطة. أو هذا ما فكرت فيه. تسببت ضحكات السيد دوجمان في إعطائي الفرصة لإعادة التفكير في مدى غرابة ما مررنا به من مجهودات شاقة. كانت البداية من خلال تقديم المساعدة بناءً على طلب عائلة الآنسة كالدويل، ثم انتقلنا إلى منزل عائلة خطيبها والتر بينسون، لنكتشف حدثًا غريبًا ومنافيًا للمنطق تمامًا، لدرجة أني ما زلت أجده مربكًا ومقلقًا حتى الآن. سمح بينسون وصديقاه لأنفسهم طواعية بأن يتعرضوا للعض من قبل فأر عملاق، ونتيجة لعضة الفأر بات في مقدورهم التحول إلى ذئاب لليلة واحدة من كل شهر، حينما يصبح القمر مكتملًا. الآن، نحن نأمل بأن نحذر حارس الحديقة من احتمالية أن هؤلاء الرجال - الذئاب ربما يتجولون في أنحاء حديقة ويندسور... يا للروعة!

يعتمد الكثير على قدرتنا في صياغة طلبنا بطريقة مقنعة. يجب أن تتكون قناعة لدى نائب حارس الحديقة بأنه يجب القبض على هذه "الحيوانات"، وعلى قيد الحياة، مهما كانت التكلفة. وإلا فإننا -بلا شك- سنرى دماء تسفك، واحتمالية

موت ثلاثة شباب، الذين كانت جريمتهم الوحيدة هي الهروب من ناظر مدرسة قاسٍ. انتابني إحساس قوي بالحكة في أصابعي، تدفعه الرغبة في تسجيل انطباعاتي عن كل ما مضى من أحداث، وكل ما هو على وشك الحدوث. لكن الشوارع الممهدة بالحصى، والمؤدية إلى المسكن، الذي خدم أجيالًا وراء أجيال من حارسي الحديقة، كانت غير مستوية، وهو ما يزيد من اهتزاز العربة، ويجعل من نشاط محدد، مثل الكتابة، عملية يصعب تحقيقها.

تقدمنا في طريقنا ناحية أقصى نقطة في شمال غرب أراضي حديقة ويندسور، لينعطف الحوذي بالعربة ناحية منزل مكسو بطبقة من اللون الوردي الفاتح بين الأشجار الناضجة. كانت هناك بوابة خشبية بيضاء مثبتة إلى دعامتين باللون الوردي. وزينت شجيرات خضراء بصفوف من النباتات الوردية والصحروابة، والتي تدرّجت فيها الألوان بين الأحمر والوردي والأبيض. رحبت بنا مجموعة من أشجار الماهوجني الرائعة، والتي كانت أغصانها محملة بالزهور البيضاء.

قال الحوذي: "يجب أن تريا الأشجار عندما تزهر في الخريف. ستجعل قلبيكما يمتلئان بالبهجة. إنها حقًّا تفعل ذلك".

لم يرد هولمز. كان الحوذي سعيدًا بما يكفي حتى ينتظر عودتنا؛ إذ كنا نعتقد أن زيارتنا لن تستغرق وقتًا طويلًا. وبشكل حكيم، ترك هولمز كيس الدقيق داخل العربة.

عندما فتح الباب الأمامي للمنزل، وجدنا أنفسنا في خضم تجمع محموم. طلبت منا الخادمة الخجول الانتظار في الردهة بعد أن قالت موضحة: "إنه مشغول جدًّا الآن. دعاني أخبركما بأنكما اخترتما أسوأ موعد للزيارة".

قال هولمز بنبرة جادة: "لقد قطعنا كل هذه المسافة قادمين من لندن من أجل شأن شديد الأهمية".

عادت الخادمة إلى الداخل في خطوات قصيرة وسريعة، كانت تنورتها السوداء تتمايل، بينما قدماها تسرعان عبر المنزل. كان يمكننا الاستماع -ومن موضعنا القريب من باب المنزل- إلى أصوات كلمات مكتومة صادرة عن عدة أصوات ذكورية تشي بوجود حالة ملحة وعاجلة. كان صوت أحدهم عاليًا بما يكفي لنسمعه يقول: "مجزرة! عندما أكتشف من فعل هذا...".

قوطعت صرخته. وارتفع صوت خطوات عالية تقترب منا، ليظهر معها رجل ضخم قادم في اتجاهنا. كان وجهه مسمرًّا بسبب الساعات الطويلة التي قضاها خارج المنزل، وشعره شبيهًا بأشواك القنفذ، إذ بدا مدببًا عند نهاياته. كانت عيناه زرقاوين وباردتين، وتحملان غضبًا من النوع المميت. ورغم أنه كان يرتدي سترة من الصوف مرقعة بالجلد عند المرفقين، إلا أن ملابسه كانت مناسبة لطبيعة عمله التي تحتم عليه المشي في الحديقة.

سأل بطريقة تشي بأنه لن يقبل بسماع أي هراء: "بماذا يمكنني أن أساعدكما أيها السيدان؟".

قدم هولمز نفسه، وأنا بالمثل، إلى إيدوين سولفان، نائب حارس الحديقة. ثم قال: "لقد جئنا في مهمة عاجلة. تم توظيفي من أجل استعادة ثلاثة كلاب أصيلة فقدوا مؤخرًا، حيوانات ذات قيمة كبيرة".

انعقد وجه السيد سولفان كما لو كان كتلة من الخيوط المتشابكة، وقال: "عذرًا؟ مع كامل احترامي، إنني أتعامل مع أزمة هنا على أراضي الملكة، وأنت تريدني أن أطارد بعض الحيوانات الأليفة المفقودة لشخصٍ ما؟".

رد هولمز: "ليس بالضبط. مثلما قلت من قبل، هذه الكلاب قيمة للغاية، ولدينا سبب للاعتقاد بأنها توجهت إلى هنا. يجب الإمساك بهم أحياءً مهما كان الثمن".

فغر سولفان فاهه. ازداد لون وجهه احمرارًا، وتطاير البصاق من فمه عندما قال: "حقًّا؟ اسمع، أنا لدي أمور أكثر أهمية هنا من مطاردة كلاب أحد الأثرياء. إذا كنت متحمسًا جدًّا لاستعادتهم دون أن ينالهم أي أذى، أقترح عليك أن تتمشى عبر الخمسة آلاف فدان التي لدينا هنا، وأن تنادي على كلابك حتى تجدهم. أنا لدي هنا خمسة غزلان ميتة، تم تمزيقهم إربًا، ستقطع الملكة رأسي وتضعه على طبق من فضة بسبب ذلك، وأنت تريدني أن أضيع وقتي في قضاء مهمة سخيفة...".

قلت: "هل تم إخراج أحشائها؟ وأكلت من الداخل إلى الخارج؟".

نكزني سولفان بإصبعه في صدري وقال: "كيف عرفت ذلك؟ إلا إذا كنت أنت الجاني الذي فعلها!".

استرعت نظرة الحيرة البادية على وجه هولمز انتباه سولفان. استدار المحقق ناحيتي وقال: "مستحيل! هذا مستحيل! الليلة ستكون هي ليلة اكتمال القمر!".

ضحك سولفان: "ها! لا أعرف عمَّ تتحدثان، ولكن القمر كان مكتملًا ليلة أمس. الآن ارحلا. ابتعدا عن ناظري".

قال هولمز: "هيا يا واطسون. لم يعد هناك شيء يمكننا فعله هنا".

***

ما أن عدنا إلى العربة، حتى قال هولمز: "خذنا إلى قلعة وندسور".

قال الحوذي: "حسن يا سيدي!". لا شك وأن علامات الكآبة البادية على وجوهنا قد حذرته بألا يطلق العنان للسانه. لم أتمكن حتى من النظر إلى هولمز لما ساورني من حرج شديد. كيف يمكننا أن نخطئ في حساب يوم اكتمال القمر؟

هززت رأسي. خطرت على بالي فكرة: عندما التقينا لأول مرة، وأصبحنا شريكي سكن. كنت أبذل قصارى جهدي

لمعرفة طبيعة شيرلوك هولمز. أعددت قائمة تبين نقاط قوته وضعفه أيضًا. الآن أتذكر أنه لا يعلم أي شيء عن علم الفلك، ولما أخبرته أن الأرض تدور حول الشمس، قال: "عظيم. الآن سأحاول بذل جهدي لنسيان تلك المعلومة". وأتبع ذلك مفسرًا أنه لا يريد أن يملأ رأسه بمعلومات غير ضرورية.

لا شك أن هولمز قد تذكر محادثتنا تلك، إذ إنه حدق ناحيتي وقال: "إذا تجرأت على الإشارة إلى مدى حرصي على نسيان معلومة أن الأرض تدور حول الشمس، وبقية المعلومات الأخرى، فلسوف ألقي بك إلى خارج العربة على الفور".

انفجرت ضاحكًا وقلت: "وأنت الذي قلت إنها معلومة غير مفيدة!".

قال معترضًا: "هي كذلك! آنذاك، كانت معلومة غير هامة! الإجابة الوحيدة عن خطأ حساباتنا تلك هي أن القمر في طور البدر ليس بالضرورة يحدث كل ثلاثين يومًا. هناك اختلاف طفيف بين الشهر القمري والشهر الشمسي من حيث عدد الأيام".

كان هذا الفشل من جانبنا مهينًا للغاية! مجرد التفكير في أنه في الوقت الذي كنا نتسامر فيه ونستمتع بتناول فطيرة الراعي، كان يمكننا أن نجد هؤلاء الصبية، ونجمعهم، وأن نتحقق من جعل مستقبلهم آمنًا. كان بمثابة أمرٍ مروعٍ لإعادة التفكير فيه. لوهلة، دهمتني رغبة قوية في سؤالِ هولمز عن سبب توجهنا

إلى قلعة ويندسور من بين كل الأماكن التي يمكننا أن نذهب إليها، ولكني في النهاية لم أتمكن من حشد الشجاعة الكافية لطرح ذلك السؤال.

بعد فترة قصيرة، عبرنا بوابة هنري الثامن، ووصلنا إلى سور القلعة الخارجي. ومن ثم إلى كنيسة القديس سانت جورج، والتي كشفت عن جدرانها الحجرية المهيبة ذات التصميم القوطي. توقف الحوذي وقال: "لا يمكنني الذهاب لما هو أبعد من هذه النقطة. عليكما أن تمشيا عبر الكنيسة، ثم تستديرا إلى الناحية الأخرى. ستجدان المكتبة هناك".

الطقس اللطيف، وغناء الطيور، وذكرى رائحة الزهور في الحديقة قبل قليل، كل ذلك ساهم في التخفيف من حدة أمزجتنا. لم تكن لدي أدنى فكرة عما يخطط له هولمز أو سبب مجيئه إلى هنا، ولكني اخترت عدم طلب الإفصاح عن غرضه من الزيارة. بدلًا من ذلك، تمشيت بجواره. وما أن وصلنا إلى المكتبة التي تقابل الكنيسة في الجهة الأخرى، تطلعت إلى البناية الشاهقة. أوه، كم من أحداث تاريخية كانت شاهدة عليها!

انتهزت الفرصة لأغمر نفسي بكل هذه العظمة. قررت الانتظار خارجًا بينما شق هولمز طريقه إلى داخل المكتبة. ومع عودته، كانت يحمل قصاصة ورقية في يده. صعد إلى العربة، وصاح ناحية الحوذي: "إلى محطة القطارات"، ثم تابع

متذمرًا: "تسعة وعشرون يومًا ونصف يوم. هذه هي المدة التي تفصل بين كل قمر مكتمل وآخر. وليست ثلاثين يومًا مثلما افترضنا. وهو ما جعلنا نخطئ. لدي في حوزتي الآن جدول كامل للتقويم القمري للعام الماضي وحتى شهر يناير المقبل".

ثم اعتلت وجهه نظرة مزعجة بينما دس الورقة في جيب معطفه.

سألته: "ما الذي تقترح علينا فعله؟".

قال: "أفعل؟ أفعل! حقًّا؟ هل أبدو لك مثل رجل يتجول بحثًا عن الحيوانات الأليفة المفقودة؟ هل هذا ما انحدر إليه حالي! واطسون، أنا لم أقبل أي قضية لشخص مفقود فقط لأنه اختفى ويجوب في أرجاء الريف على هيئة حيوان بري! من أكون؟ صائد كلاب؟".

أنزلنا الحوذي عند محطة القطار. كنا قد وصلنا في الوقت المناسب للحاق بالقطار العائد إلى محطة بادنغتون بلندن. لم يشعر كلانا بالرغبة في الحديث. لم نتناقش حتى في إمكانية زيارة منزل فرانك دونلي. لم تكن هناك فائدة ترجى من ذلك. كانت فرصتنا للإمساك بهم في هيئتهم الحيوانية ضئيلة للغاية. هناك احتمال بأن الصبية قد عادوا إلى ضيعة جريني. ومن الممكن أيضًا أنهم مضوا قدمًا في طريقهم بعد ما فعلوه في الليلة الماضية.

ظننت أن هولمز قد تخلى عن هذه القضية بسهولة شديدة، ولكن فيما عدا جمع مجموعة من الصيادين، يركبون الأحصنة في ليلة اكتمال القمر من الشهر القادم للإمساك بهم، فما هي الخيارات الأخرى المتاحة لنا؟ أما بالنسبة لتقصي أثر الشباب، فمن الواضح أنهم ذهبوا إلى منزل ما من منازل عائلاتهم، وإلا لسحبوا مبالغ أكبر من حساباتهم. كانت فكرة التقرب منهم الآن في غاية الحماقة. لقد أشبعوا جوعهم مؤخرًا، ولا يوجد لديهم أي سبب يجعلهم يثقون بنا... لا شيء على الإطلاق!

محصلة هذه المسألة، هي أنه ليس من الحكمة المضي قدمًا هكذا. إطلاقًا.

فضلت عدم الافصاح عن أفكاري حتى يصبح هولمز مستعدًّا لطلب رأيي. لم نتبادل أي حديث فيما يخص أخبار اليوم حتى وقت متأخر من تلك الليلة، وبعد الانتهاء من وجبة العشاء في مسكننا في شارع بيكر. أشعل هولمز غليونه، بينما كنت أستمتع بتناول كأس من الشيري. وُضع الفأر المحنط في مكان بارز، على أعلى خزانة داخل غرفة هولمز. عندما علمت بمكان الفأر الجديد، اقترحت على هولمز أن يحجب ذلك المخلوق بكيس الدقيق حتى لا تفزع الخادمة عند رؤيته وتفقد وعيها. لم يعر هولمز أي اهتمام لتخوفاتي تلك. وبدلًا من ذلك، قال: "لقد قررت ما سأفعله. سأرسل ملاحظة إلى الآنسة كالدويل، أقترح فيها أن تكتب رسالة إلى والتر بينسون وتبعثها إلى عائلتي آل دونلي وآل سانت ليدجر. ما خطر على بالي هو

أن لدي طريقتين فقط لاستدراج هؤلاء الشبان الجامحين. إما أن أستخدم إينيس كالدويل أو جيليان بينسون".

تسارعت أنفاسي فقلت مرتعبًا: "تستدرجهم؟ هولمز، هل تسمع ما تقول؟! هل أصبتَ بالجنون؟".

قال بهدوء، وهو يعبئ غليونه بالتبغ: "لا. أنا، وكعادتي دومًا، أملك سيطرة مطلقة على قدراتي العقلية، وأحاول أيضًا حل هذه المعضلة بصورة منطقية تمامًا. يمكن للصيادين -ممن هم مستعدون لوضع الفخاخ- الإمساك بهؤلاء الشباب الثلاثة حينما يكونون في طورهم الحيواني. رغم أن الرب وحده يعلم ما إذا كانت الفخاخ ستوقع بهم بشكل إنساني أم لا. ولكني أشك في هذا. ولذلك، أفضل طريقة متاحة لنا هي تشجيع هؤلاء الشباب على العودة إلى عائلاتهم أو السلطات، ومطالبتهم بأن يتم احتجازهم. فقط، هاتان الشابتان لديهما ما يجعلهما قادرتين على التأثير على والتر بينسون. فهو الوحيد الذي يبدو محافظًا على علاقات قوية بالآخرين من بين الشباب الثلاثة. ربما واحدة منهما قد تتمكن من إقناعه بأنها لا تزال تهتم بشأنه. كذلك، أشك أن أي محاولة مني لاستدراجه في الحديث قد تجدي نفعًا".

هززت كتفي وقلت: "هذا علاج جزئي للمشكلة. إنه لا يزال يحتاج لاتخاذ قرار بشأن تلك الليالي التي يتحول فيها إلى وحش، وكيفية تصرفه خلالها".

قال هولمز بجمود: "هذه ليست مشكلتي". لم أرد. حاول هولمز تخفيف وقع كلامه، فقال: "هل تظن أن امرأة مثل الآنسة كالدويل يمكنها أن تحب رجلًا تحاوطه مثل هذه الظروف؟ ما هي حدود الحب؟ هل من العدل أن يطلب منها أن تكون زوجة له؟".

في الواقع، كنت قد فكرت في هذا السؤال لفترة طويلة، وكانت لدي إجابة جاهزة. قلت: "لقد عرفت رجالًا لم يكونوا سوى وحوشٍ مع زوجاتهم كل يوم طوال الشهر يا هولمز. عندما كنت لاً أزال طبيبًا شابًّا، وفي عامي الأول من ممارسة المهنة، كنت أتبع زميلًا كبيرًا مثل ظله، السيد ماكموراي. لقد فتح هذا الرجل عيني على الطرق والوسائل التي يمكن للرجل أن يضرب بها امرأته دون أن يترك أثرًا عليها. كذلك أخبرني عن الآلام الخفية التي تشعر بها المرأة عندما يتجاهل زوجها مشاعرها الأكثر رقة. يمكنني أن أخبرك بكل ثقة أن ليلة تحول واحدة من كل شهر هي ثمنٌ ضئيلٌ إذا ما أقر كلا الطرفين بالمشكلة، وحاولا التعامل معها معًا".

الفصل السادس عشر

في صباح اليوم التالي، امتلأت الصحف بأخبار هجوم آخر من قبل جاك السفاح. ورغم أنه لم تمر فترة طويلة منذ العثور على الجثة، إلا أن الطبيب الشرعي يعتقد أن الضحية قد قتلت قبل يوم أو يومين. عدا ذلك، كانت التفاصيل الحزينة لموتها مشابهة تمامًا لما حدث مع الضحايا الأخريات؛ وهي أن الشابة المسكينة عانت من العديد من الإصابات في جسدها. وقد تم العثور عليها من قبل بائع ملابس قديمة كان يتجهز لبداية يوم عمل من البحث في صناديق القمامة على أمل إيجاد بعض الخرق البالية. يشتبه الرجل المسكين في أنه سيعاني من الكوابيس لبقية حياته. أو هكذا ما قاله لمراسل جريدة ذا تايمز عندما أجرى حواره معه. كان ليستراد حاضرًا في مسرح الجريمة بفترة كافية ليدلي ببيانٍ إلى المراسل: "لم نعثر على أي أثر بعد. سنكون ممتنين للغاية إذا زودنا أي شخص بالمعلومات لتسليط الضوء على هذه القضية".

نهض هولمز من على مائدة الفطور غاضبًا مما قرأه، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا مثل حيوان محبوس داخل قفص،

ثم قال غاضبًا: "لماذا لا يسمح لي مايكروفت بحل هذه القضية؟ إنها، وبلا أدنى شك، أكثر الجرائم الشريرة والفريدة، والتي ستخلد في صفحات التاريخ. لعشرات السنين القادمة، سيتحدث خبراء علم الجريمة عن جاك السفاح. ومع ذلك، ها أنا ذا... المحقق الاستشاري الأبرز في العالم، ولكن أخي لا يسمح لي بالعمل على حل هذه القضية الغارقة في أفعال من الفجور والعربدة، والتي يندى لها الجبين! ماذا علي أن أفعل حتى أقنع مايكروفت بالسماح لي بتقديم المساعدة؟".

فردت طبقة من مربى الخوخ على شريحة من الخبز المحمص، وقلت: "الجواب سهل".

قال هولمز: "أخبرني! أي فكرة شريرة تجعلك تبقي الجواب لنفسك،هذا لو كنت محظوظًا وذكيًّا لمعرفة حل معضلتي؟".

قلت: "الجواب هو...". ثم توقفت من أجل إحداث تأثير درامي، وتابعت: "لا شيء! لا يمكنك أن تفعل أي شيء. ولا شيئًا واحدًا يا هولمز. إذا لم يتم دعوتك إلى الحفل، فلا يمكنك أن تصعد إلى حلبة الرقص. أنت تعرف جيدًا يا هولمز أنني محق في كلامي. أي شخص ليس بصديق حقيقي لك، قد يملأ رأسك بالأكاذيب والوعود والمؤامرات. ولكنني أخبرك بالحقيقة، وأنت تعلم ذلك. الآن، لتجد لنفسك لغزًا يشغل عقلك اللامع هذا". أنهيت آخر قضمة من الخبز المحمص، وأتبعته برشفة من الشاي، ثم استرسلت: "بالرجوع إلى محادثتنا من ليلة أمس، ماذا تخطط لإخبار كالدويل وابنته؟".

قمنا بوضع خطة. سيكتب هولمز رسالة إلى الكولونيل كالدويل وابنته يقول فيها بأننا ما زلنا نحقق في الأمر، لكننا تحققنا من أن والتر بينسون على قيد الحياة. سيتبع هولمز هذه الرسالة بمزيد من المعلومات بمجرد أن يحصل على إذن من عائلة آل بينسون. بعد ذلك، سيكتب رسالة إلى جيليان بينسون يخبرها بما لدينا من شكوك إزاء ما حدث في حديقة ويندسور. ورغم عدم ثقتنا التامة بتورط شقيقها في ذلك، إلا أنه توفر لنا عدد من الأسباب الكافية لتقنعنا بأن والتر وصديقيه هم المشتبهون الرئيسون في حادثة الهجوم الوحشي على غزلان الملكة.

قال هولمز: "سأسأل الآنسة بينسون عن رأيها في كيفية التعامل مع هذا الأمر أيضًا، وخاصة فيما يتعلق باستفسارات الآنسة كالدويل. لا يمكنني القول صراحة بأني عثرت على والتر. بالطبع، باركلي رآه من قبل، ولذلك فأنا واثق من أنه بخير. وأعرف أن الشباب الثلاثة قد سحبوا مبالغ ضئيلة من حساباتهم من بنك لندن. وبناءً على ذلك، يمكنني الافتراض -وبدرجة عالية من الدقة- أنهم قرروا البقاء معًا، وأنهم على الأرجح يبحثون عن مكان للإقامة في بيت من بيوت عائلاتهم. بعد الانتهاء من المهام التي لدي هنا في لندن، يمكنني العودة إلى ضيعة بروكهافن، ومحاولة الحديث مع والتر الشاب، هذا إن كان لا يزال موجودًا هناك. وفي حالة أنهم غيروا من مسكنهم بالفعل، فإنهم بكل تأكيد توجهوا إلى برمنغهام حيث تقيم عائلة سانت ليدجر".

ثم تنهد، وتابع: "المحصلة النهائية، لقد تحولت هذه الحالة إلى قضية مملة عن شخص مفقود".

رددت بحدة: "كيف يمكنك قول هذا؟ هل سمعت عن شيء شبيه بذلك؟ حالة رجل مفقود لأنه يتحول إلى ذئب مرة واحدة كل شهر؟ حقًّا يا هولمز. ألا تخطط للعودة إلى ضيعة بروكهافن على الفور وتعقب أثر الشاب؟". بدا الأمر بالنسبة لي كما لو أن هولمز قد استسلم مبكرًا في حل القضية.

قال: "لا أرى أي جدوى من فعل ذلك. إذا كان في حوزتي خطابٌ من الآنسة بينسون، فربما يمكنني تمريره إلى شقيقها. وربما يتسبب حب شقيقته له في عودته إلى المنزل، ولكن فيما عدا الإمساك به وحبسه، فأنا لا أتخيل أي طريقة أخرى تمكنني من إقناعه بالعودة. ماذا عنك؟".

لا. في واقع الأمر، ليس لدي طريقة لإقناعه. ولقد تعبت من محاولة التفكير في الأمر. الحل الوحيد الذي أراه هو أن يأتمن الشباب الثلاثة أنفسهم إلى جيليان بينسون. لقد مر هؤلاء الثلاثة بالكثير، ولقد فعلوا ذلك بدون أي دعم أو حب أبوي. في واقع الأمر، يمكن للمرء أن يقول إن هذا الحب الأبوي هو السبب في دفع والتر بينسون بعيدًا عن حضن عائلته في المقام الأول.

أومأت برأسي وقلت: "لقد فكرت في هذا مرارًا وتكرارًا، وأظن أنك محق في كلامك يا هولمز. ربما من الأفضل أن

نترك ذلك لجيليان بينسون بدلًا من أن تخوض مطاردة عبثية لن تحقق شيئًا. ستعتني جيليان بأخيها وصديقيه جيدًا. لقد رأتهم في أسوأ حالاتهم، ومع ذلك ما زالت تحتفظ بحب عظيم لأخيها. أومن بأنها أفضل شخص يمكنه إقناع والتر وصديقيه بالتفكير في مستقبلهم. ربما إذا ما جلست معهم، وفكروا في الأمر معًا، ربما عندها يمكنهم أن يتوصلوا إلى فكرة ما إزاء خطوتهم التالية".

انتهى حديثنا عند هذه النقطة بسبب قدوم ساعي بريد يحمل رسالة لي. كانت الرسالة من توماس هنري نوف. كان يتساءل إذا ما كنت قد عدت إلى المدينة، وإذا ما كنت قد أحرزت أي تقدم بخصوص المريض الغريب من مستشفى بيت لحم. أيضًا، كان يريد أن يطلعني على أنه عُثر على السيد رين وهو يجوب شوارع لندن في حالة بائسة جدًّا من حيث هيئته العامة ونظافته الشخصية.

تمتمت: "بئس الأمر". ثم وضعت الرسالة جانبًا، وتابعت: لقد نسيت أمر السيد رين تمامًا. لقد عاد إلى مستشفى بيت لحم. أليس هذا غريبًا؟ يقول توماس هنري بأنه عُثر عليه وهو يجوب شوارع لندن مجددًا. يعتقد أنه يجب عليّ الذهاب لرؤية السيد رين".

قال هولمز كما لو أنه لم يسمعني: "أتساءل... ماذا سيقول السيد فلور إذا ما رأى الفأر العملاق؟ هل تعتقد أنه يمكننا

مشاركة العربة نفسها، وأخذ منعطف قصير في طريقنا؟ يمكننا الذهاب من المتحف البريطاني إلى مستشفى بيت لحم. ومن هناك يمكننا الانطلاق إلى نادي ديوجينيس حيث يمكنني كتابة الرسالتين، إلى كل من الآنسة كالدويل والآنسة بينسون".

الفصل السابع عشر

بالطبع، وافقت على طلب هولمز، وسمحت له بأخذ رحلته الجانبية تلك.

في الحقيقة، لم تكن لدي رغبة في العودة إلى مستشفى بيت لحم، حتى لو كنت أشعر بالفضول إزاء حالة السيد رين. كان شعوري بالواجب تجاه توماس هنري نوف كطبيبين ورفيقين في السلاح يضعف تدريجيًّا. ارتعدت وحاولت عدم التفكير في خط سيري الثقيل هذا عندما وصلنا إلى أمام المتحف البريطاني.

أسرعت برفقة هولمز عبر الدرج الواسع وإلى داخل البناية. كان صديقي قد أحضر معه كيس الدقيق. كانت هيئة كيس الدقيق المكتنز تكشف عن أنه يحمل في ثنياته الفأر الغريب الذي وجدناه في غرفة والتر بينسون مجددًا. إجمالًا، كان طوله يكاد يصل إلى أربع أقدام تقريبًا، هذا إذا ما أخذت طول ذيله في الحسبان. وبلا شك كان فراؤه الرمادي البني أكثر نعومة من أي قوارض رأيتها من قبل -بما أن المرء يمكنه رؤية فئران

وجرذان ميتة بصورة شبه يومية في شوارع لندن- فقد تمكنت من ملاحظة الفارق في جودة الفراء فيما بينهم.

قلت في صبر نافد، إذ إن هيئة كيس الدقيق تفصح عما يحمله: "حقًا يا هولمز. كم استغرقت في التخطيط لإحضار هذا التذكار الشنيع معك في الأرجاء؟".

رد قائلًا: "على الأقل حتى أحصل على بعض الإجابات". الآن، كنا نتحرك ناحية هدفنا. استعاد هولمز حالته الودود من جديد، ثم تابع: "وعلى وجه الخصوص، أريد معرفة إذا ما كان فلور قد رأى شيئًا يشبه ذلك من قبل".

قلت: "هل تخطط لإخباره عن الصبية الهاربين ومغامراتهم؟". كنا قد قطعنا نصف الردهة. تجمد هولمز في موضعه على إثر سؤالي البريء.

قال: "واطسون. أنت عبقري. إن كان هناك أي شخص يجب أن يعرف بهذه الحكاية الغريبة فلا يوجد أحد أنسب من فلور. إنه الشخص المناسب بكل تأكيد. في رأيي، من الممكن أن يكون قادرًا على اقتراح علاج لمرضهم".

قلت ساخرًا: "أنت تعلق الكثير من الآمال على الرجل يا هولمز. ربما يكون فلور عبقريًّا ولكنه ليس رجل معجزات، وهذا بالتحديد ما تحتاج إليه مشكلة كمشكلتنا هذه... رجل معجزات. أيضًا، هناك جانب أخلاقي يجب أن تضعه في

الحسبان. ألا يبدو أن هناك تقصيرًا من جهتك في مشاركة الأسرار التي عرفناها؟".

قال هولمز: "لقد كُلفت بإعادة والتر بينسون إلى المنزل. والسيد فلور شخص يمتلك سمعة جيدة. إذا لم أطلب مساعدته، فمن المحتمل أن أفقد فرصة لإتمام عملي".

قلت بانزعاج: "ظننت أنك استسلمت!".

ابتسم تلك الابتسامة الماكرة التي يمتاز بها، وقال: "فقط، أثناء ذلك الوقت. ولكني وجدت هدفًا جديدًا عندما فكرت في فلور".

طلبنا من المرشد أن يشير إلينا نحو الطريق المؤدي إلى مكتب فلور، ولكنه لم يكتفِ بالإشارة فقط إلى مكان المكتب، بل أخذنا مباشرة إلى وجهتنا. في منطقة استقبال صغيرة خارج باب زجاجي، وصلت إلى مسامعنا أصوات عالية. "أبدًا! هذا ليس الهدف الذي بنيت عليه مؤسسة كالمتحف البريطاني! لا، لا، لا! أنت لن تحوِّل هذا المكان إلى سلاح! سأمنعك من تحقيق ذلك! والآن، إذا لم يكن لديك أي تهديدات أخرى، فأنا لن أريك الطريق إلى الباب!".

تحركت وهولمز جانبًا لنفسح الطريق للورد ريجينالد هيسلوب، وزير الدفاع، والوسيط الذي اختارته الملكة بين سكوتلاند يارد والجيش، ليمر من أمامنا بسرعة. كان من الواضح أن هيسلوب يشعر بالألم على إثر رفض فلور لطلبه؛

لأنه لم يلاحظ حتى وجودنا. كانت عيناه تركزان فقط على الطريق من أمامه.

قال هولمز: "جميل، جميل، جميل، ألم نره في مكتب مايكروفت منذ مدة ليست بالطويلة؟".

كنت أحدق إلى ظهر الرجل وهو في طريقه إلى الخارج، وقلت: "بلى، هذا صحيح. يبدو هيسلوب شخصًا مزعجًا بالنسبة لرجل من المفترض أن يكون مسؤولًا عن حماية أمن المملكة، أليس كذلك؟". لم أكن لأرغب في أن أكون في وظيفته أبدًا، حتى لو عرض علي كل الذهب بين مجوهرات الملكة. كانت ذكريات سقوط إخوتي في السلاح تطاردني كل يوم تقريبًا. كانت مجرد فكرة إرسال الشباب ليلقوا حتفهم كافية لتثير القشعريرة في جسدي.

وفور أن رآنا فلور خارج مكتبه، قال بنبرة سعيدة تعبر عن سروره: "هولمز! واطسون!". ثم وجه حديثه إلى مرشدنا: "ريتشارد، شكرًا لك على إحضار ضيفي إلى هنا".

قال ريتشارد: "إنه من دواعي سروري يا سيدي!". فاجأتني نبرة صوته لأنه بدا أصغر بكثير مما كنت أحسبه. وعاتبت نفسي على عدم توليتي المزيد من الاهتمام نحو الرجل عندما تقابلنا لأول مرة. على الناحية الأخرى، كنت متيقنًا من أن هولمز عرف كل سر من أسرار ريتشارد، بما في ذلك مقاس حذائه.

قال فلور: "تفضلا، تفضلا، خذا راحتكما". ولكن بدا ذلك مستحيلًا إذا أخذنا في الحسبان حجم الأوراق الضخمة، والمنشورات، والكتب، والحالة الفوضوية التي عليها المكتب. وبعد أن تفقدنا الغرفة الغارقة في الفوضى، قررت وهولمز في الوقت نفسه أن نبقى واقفين في أماكننا.

قال هولمز: "لن تستغرق زيارتنا وقتًا طويلًا. لقد أحضرت معي شيئًا ما. وكنت آمل أن تتمكن من التعرف عليه".

فتحت فمي محاولًا الاعتراض؛ لأننا كنا نعرف تمامًا طبيعة المخلوق الميت، ولكني سرعان ما أعدت النظر في الأمر، إذ شرع هولمز في تلفيق حكاية قائلًا: "أحد الأصدقاء طلب منا إذا ما كانت لدينا أي فكرة عن طبيعة هذا المخلوق. على حسب ما أعتقد، فإن جده قبطان بحري، وهذا المخلوق يعتبر كنزًا عائليًّا، إذ عثر عليه جده خلال إحدى رحلاته البحرية". عندئذ، أخرج هولمز الفأر من الكيس.

ندت صرخة عن فلور تعبر عن سعادته: "دعاني أقلْ بأني لم أر مخلوقًا كهذا من قبل! أوه. برافو يا هولمز! لا شك أنني سأصبح مشغولًا جدًّا بالتعرف على ماهية هذا المخلوق الصغير. هل يمكنني الاحتفاظ به؟".

قال هولمز: "فقط لأسبوعين أو نحو ذلك! للأسف يجب أن أعيده إلى مالكه. هذا الفأر جميل، أليس كذلك؟".

قال فلور: "إنه بالفعل كذلك". بينما أمسك بالفأر الميت في رقة كما لو كان أبًا محبًّا يحمل طفله المولود حديثًا. وعاد ليكرر: "إنه حقًّا كذلك".

رفع هولمز حاجبه وقال: "إذًا، أنت لا تعلم أي شيء عن هذا... المخلوق؟".

قال فلور بحماسة عظيمة: "إطلاقًا. مع ذلك، فإنني حريص على التعرف عليه خلال تفحصي له".

خارج المتحف البريطاني، أشار هولمز إلى إحدى عربات الأجرة لأخذنا إلى نادي ديوجينيس، واقترح تناول غدائنا هناك. لم يكن بوسعي مجادلته في ذلك. عندما ركبنا العربة، صاح باسم النادي إلى الحوذي ليأخذنا إلى وجهتنا.

لم نكد نقطع بضعة شوارع حتى التفت هولمز ونظر خارج النافذة، ثم قال بنبرة تعبر عن رضاه: "إنه لا يزال معنا".

سألته: "ماذا تقصد؟".

"تتم ملاحقتنا منذ عودتنا إلى لندن. هناك رجلٌ يلاحقنا الآن".

"هذا سخيف".

"ليس حقًّا. هل تتذكر حينما غادرنا نادي ديوجينيس آخر مرة؟ لقد تتبعنا آنذاك".

"ولم تجد حاجة لتخبرني بذلك؟".

هز هولمز كتفيه، وقال: "وماذا يمكنني أن أقول؟".

قلت: "ربما كنت حذرتني!".

"هيا يا واطسون. إنه يلاحقنا فقط. لم يتسبب في أي أذًى لنا".

أحسست بالغضب، ولكن هولمز تجاهل ذلك، وقال: "هذه الزيارة تعتبر طريقًا مسدودًا آخر. لم أر سببًا لإثقال كاهل فلور بتفاصيل مهمتي، لأنه لم يكن على علم بوجود هذا الفأر قبل زيارتنا".

هززت رأسي في عدم تركيز. كنت قد أحسست بخيبة أمل من رد فلور أيضًا. أتفهم احترام الرجل للوسائل العلمية، ولكني أحسست بالأسف لحقيقة أنه لا يهتم بإعطاء أي نوع من أنواع الفرضيات الحدسية. في الواقع، وجدت عناده مثيرًا للغيظ. مجمل القول، لم يسرْ هذا اليوم مثلما أملت. بدا هولمز كأنه تخلى عن إيجاد والتر بينسون. وأنه يلقي بالمشكلة إلى شقيقة بينسون. لم يكن لدى فلور أي شيء يضيفه بخصوص الفأر العملاق. وعلى ما يبدو، فإن شخصًا ما يتبعنا. وتوماس هنري لا تزال لديه مشكلات بخصوص السيد رين.

فجأة، فكرت في أني كنت لأفضل العودة إلى حديقة ويندسور والاستمتاع بعروض الزهور، بدلًا من كل هذا. ولكن

بالتفكير في الأمر، يمكن لوجبة لطيفة في نادي ديوجينيس أن تكون بمثابة نقطة صغيرة مضيئة ضمن يومنا الذي يوشك على أن يصبح يومًا كئيبًا. وصلنا إلى حافة الرصيف، ولاحظت في اهتمام كيف توقفت العربة التي تتبعنا بطريقة مفاجئة أيضًا، رغم أنه لم يخرج منها أحد.

همهم هولمز بينه وبين نفسه أثناء نزولنا من العربة: "همممم. الرجل المكلف بمراقبتنا ليس واثقًا مما يجب عليه فعله. هذا جيد".

وما أن أصبحنا بداخل النادي، حتى أشار هولمز إلى أحد الموظفين: "يوستون، أنتم تحتفظون بالنسخ القديمة من جريدة ذا تايمز، أليس كذلك؟".

قال يوستون في رتابة: "بالطبع يا سيدي. نحتفظ بنسخ من الأعداد حتى عام واحد سابق". كانت نبرة يوستون رتيبة لأن أعضاء نادي ديوجينيس يفضلون الصمت واللا مبالاة على إبداء أي نوع من الاهتمام والحماسة.

دس هولمز قصاصة من الورق في يد يوستون، وقال: "أرجوك أحضر إلي الأعداد الموافقة لهذه التواريخ، وكذلك اليوم الذي يسبقها ويليها. سأكون في غرفة الطعام مع الدكتور واطسون". وبهذا، انطلق هولمز ناحية غرفة الطعام وأنا من ورائه. للحظة، فكرت في سؤال هولمز عما تكون هذه المهمة، ولكني في النهاية وجدت أن رائحة الدجاج المشوي أكثر إثارة

من كومة من الصحف القديمة. أخذ هولمز وقته حتى يختار جيلاتين الطماطم، والبازلاء الخضراء، والبطاطس المقرمشة، والدجاج المشوي. لم آكل أي شيء جيلاتيني من قبل، فقلت: "سأحصل على الشيء نفسه، من فضلك".

كنا نحتسي كأسين من النبيذ عندما عاد يوستون للظهور. أو للدقة، ظهرت كومة من الصحف ومن أسفلها زوجان من الأرجل تلبسان بنطالًا مجعدًا. أقول ذلك، لأن كومة الصحف وصلت إلى أعلى عيني يوستون. سحب الرجل كرسيًّا فارغًا بواسطة قدميه، ثم ألقى الصحف فوقه بطريقة تعوزها اللباقة.

قال هولمز: "واطسون، أريد مساعدتك. دعنا نقسم كومة الصحف هذه. أريد من كل واحد منا تفحص الجزء الخاص به".

أشرت إلى النادل بأن يعيد ملء كأسي، وسألت: "ما الذي نبحث عنه تحديدًا يا هولمز؟".

"أي حالات شاذة. حوادث موت غريبة. تقارير عن موت بعض الأشخاص. تقارير عن الجرائم من سكوتلاند يارد. حتى التصريحات التي أدلى بها السياسيون المتميزون. فقط في أعداد الأيام الموجودة أمامك، مفهوم؟". كانت عينا هولمز تتلألأان بينما تزداد حماسته مع الاحتمالات التي قد تتكشف أمامه. ثم دفع بقصاصة الورق البالية ناحيتي. تثاءبت وقلت: "حسن".

أخذنا قرارًا باستخدام دفتر ملاحظاتي لتسجيل ما سنجده. التزمنا بكتابة تاريخ اليوم، والأشخاص المعنيين، ونوع السلوك، وما إلى ذلك. أيضًا، طلب هولمز تسجيل أماكن وقوع كل الحوادث المثيرة للاهتمام.

أبقتنا هذه المهمة مشغولين حتى أصبحت وجباتنا جاهزة. وصلت يخنة الطماطم، والتي كانت رائقة ولامعة. كانت تحتوي على لحم البقر اللذيذ مع طماطم بداخلها. لم يكن المذاق رائعًا. لن أرشح هذا الطبق لأي أحد، ولكن هولمز أحبه، لذلك أعطيته طبقي. أما بقية الوجبة فقد كانت ممتازة. أكل كلانا بنهم، وتلذذنا بكل لقمة. وبمجرد أن خف مستوى جوعنا؛ بدأنا بفحص الصحف بينما كنا نحتسي أكواب الشاي. بالفعل، كنا مشغولين بهذه المهمة لبعض الوقت لدرجة أن نادلنا ظهر لعدة مرات، وقد ارتسمت على وجهه تكشيرة تشي بأنه يتمنى من كل قلبه أن ننتهي من مهمتنا الفوضوية تلك ونرحل. ولكننا لم نكن في عجلة من أمرنا. وأخذنا بصورة منهجية نحرث هذه الأرض الخصبة من الأوراق. أمسك هولمز بالورق من دفتر ملاحظاتي فور أن انتهينا. مرر سبابته فوق قائمة الملاحظات، وشرع يقرؤها في سرعة، ثم دسها في جيبه وقال: "ممتاز".

وما أن وقع هولمز على فاتورة حسابنا حتى نهضنا من مجلسنا، وتحركنا باتجاه الباب. كان المخرج مسدودًا إذ تصادف مجيء رجلين تبدو عليهما الأهمية من جهة الردهة.

كان رأساهما متقاربين ليتمكنا من تبادل حديثهما السري. كانا منخرطين تمامًا في محادثتهما لدرجة أنهما لم يعبأا بحقيقة أنهما يسدان الطريق من أمامنا، إذ كانا يتحركان ببطء شديد وهما يتحدثان فيما بينهما بنبرات خفيضة وجدية.

نظر أحد الرجلين فيما حوله ليتعرف على موضع قدميه وإلى أين يتجه. كان هذا الرجل هو هيسلوب، أما الرجل الآخر الذي يرافقه، فقد بدا من الزي الذي يرتديه أنه قبطان من سلاح البحرية. كان يرتدي معطفًا أزرقَ طويلًا ذا ثمانية أزرار ذهبية، بالإضافة إلى بنطال أزرق مع خيط من الدانتيل الذهبي على جانبيه، وكان هناك عددٌ من الميداليات المثبتة على صدره.

قال هولمز لنفسه متعجبًا: "أتساءل ما الذي يخطط له هيسلوب، ومن هذا الرجل الذي يرافقه؟ لا شك أنه قد انتهى لتوه من رؤية مايكروفت. لا يوجد سبب آخر غير هذا لمجيئه إلى هنا".

سألته: "هل ترغب في زيارة شقيقك؟". في تلك اللحظة، كنا قد نجحنا أخيرًا في مغادرة صالة الطعام.

بدا هولمز كما لو أنه ينظم أفكاره. وفي النهاية، قال: "لا. ولكني ما زلت في حاجة لكتابة بعض الرسائل. في الواقع، كتابة هذه الرسائل باتت ملحة أكثر من أي وقت مضى. سأطلب من أحد العاملين هنا بعض الأدوات المكتبية".

وهذا ما فعله بالضبط. سمح لنا بدخول غرفة هادئة، تحتوي على مكتب، ومقعد، ومجموعة من الكتب. من وقت لآخر، يحتاج أعضاء النادي، ولا سيما ممن يعملون على مهام صعبة إلى مكان هادئ، وهكذا تم توفير بعض الغرف للرجال الذين يحتاجون بقعة هادئة حيث يتمكنون من كتابة تقاريرهم أو الرد على مراسلاتهم. أراح هولمز قبضتيه على وركيه، وقال: "انظر من حولك يا واطسون. هذه الجدران شاهدة على ميلاد القوانين، والمعاهدات، وما شابهها. أليس هذا رائعًا؟".

قلت: "بلى، أعتقد ذلك". ثم التقطتُ أحد كتب شكسبير من على أحد الرفوف، وجلست بأريحية على أحد المقاعد الوثيرة. في الواقع، كنت مرتاحًا للغاية لدرجة أني غرقت في غفوة قصيرة. وعندما استيقظت، رأيت هولمز يغلق ثلاثة أظرف. قال: "هيا. لقد انتهيت من الكتابة. سأترك هذه الرسائل مع مدير النادي عند المكتب الأمامي مع تعليمات صارمة بأن يضعها في صندوق البريد. هيا يا واطسون. دعنا نرَ أي نوع من الأسرار سيكشفه لنا مستشفى بيت لحم".

***

ما أن جلسنا داخل العربة في طريقنا إلى مستشفى بيت لحم، حتى سألته: "ما الذي وجدته في هذه الصحف؟".

ابتسم هولمز ابتسامة قصيرة، وقال: "أفضِّل أن أُبقي أفكاري لنفسي في الوقت الحالي. لدي افتراضية ما زالت في

طور التكوين. وكما تعرف، لن يفقس الفرخ من بيضته إذا ما نقرت على قشرتها الرقيقة والحامية قبل الأوان".

وجدت رده غير مرضٍ تمامًا، وأخبرته بذلك. فرد قائلًا: "ومع ذلك، هذا ما سيكون عليه الوضع للوقت الحالي". ثم أخذ يحرك يديه أمام وجهه كما لو أنه يعيد ترتيب قطع بازل خيالي في الهواء، وأضاف قائلًا: "هناك صورة ما تتكون. أرجوك امنحها الوقت الكافي لتتضح أكثر. أخبرني، ماذا قال صديقك توماس هنري عن وقت خدمته في جيش صاحبة الجلالة؟ هل يشعر بالشجاعة عندما يعود لتذكر هذه الأوقات؟".

عقدت حاجبي إذ لم يكن بوسعي إخفاء حيرتي، وقلت: "ما الذي يجعلك تسأل مثل هذا السؤال يا هولمز؟ إن توماس هنري كان يرغب في نسيان تلك الفترة ووضعها خلف ظهره مثله مثلنا جميعًا ممن خدمنا في جيش جلالتها".

قال هولمز في انزعاج: "نعم. نعم". ثم حرك يديه كما لو أنه يصرف إجابتي بعيدًا، وتابع: "ولكن، أنت يمكن أخذك كمثال حي، لقد عدت مصابًا من أفغانستان، ومع ذلك كان يملؤك شعور بالواجب ناحية الملكة والوطن. لم يسمعك أحد تتشكى من المعاملة التي تلقيتها على يد قادتك".

قلت بنبرة مليئة بالمشاعر: "هناك سبب لذلك. لقد مات العديد من الجنود اليافعين تحت رعايتي. كانت هناك بعض الحالات ميئوس منها. وكان هناك آخرون يمكن أن ينتهي

بهم الحال إما إلى هذا أو إلى ذاك، ولكنهم في نهاية المطاف افتقروا إلى القوة أو العزيمة للنجاة. كما كان هناك عدد قليل منهم يبدون أمواتًا أكثر منهم أحياءً بعد إسعافهم وإعادتهم إلى الوطن. أخبرني، كيف لا أعد نفسي رجلًا محظوظًا بعد أن رأيت كل هذا؟".

توقفت العربة أمام مستشفى بيت لحم. وما أن هبطنا من العربة، حتى غادر الحوذي بأسرع ما يمكنه مبتعدًا عنا، لم ينتظر حتى إغلاق أبواب العربة. هز هولمز رأسه في استياء على إثر هذا التصرف الوقح من قبل الحوذي، ولكني كنت أتفهم شعور الحوذي، فقلت: "لا تلمْه يا هولمز. لو كان لدي خيار، لفضلت أن أكون داخل العربة معه، عائدًا إلى شارع بيكر. هذا المبنى من أمامنا، كان الهدف المرجو من وراء بنائه هو تقديم الراحة وتهدئة الخاطر، ولكنه الآن يعطي إحساسًا بالتهديد والوعيد لكل من يراه".

تجاهل هولمز تعليقي. وببطء رفع عينيه صوب الجدران الشاهقة. ارتجفت لا إراديًّا عندما أشار إلينا أحد الحراس بالمرور عبر البوابة. كان يمكننا سماع صوت جريان المياه من وراء جدران النفق من أمامنا. لتندفع عبر شبكة صرف المياه الحديدية من تحت الأرض. كان علينا المرور من خلال هذه الجدران السميكة، والتي تنضح برطوبة ثقيلة على النفس، لمتابعة طريقنا قدمًا. عندما وصلنا إلى مساحة مفتوحة مرة أخرى، حدقنا مجددًا ناحية البناية المتهالكة، والتي تضم داخل

جدرانها المجانين، وتلقي علينا بظلالها. تألقت القضبان الحديدية عند النوافذ كما لو كانت أسنانًا معدنية طويلة تشكل ابتسامة شريرة. كانت تسبب إحساسًا مزعجًا.

حدق هولمز ناحية البناية بفم مغلق، كما لو أنه وصل إلى نتيجة ما، وقرر الالتزام بها. ضاقت عيناه، وارتجف جسده بالكامل بطاقة نابضة. لحقت بصديقي عبر الطريق الطويل والمتعرج، الذي يلتف من حول البناية الشاهقة. في الأعلى، كانت هناك قبة تحدق نحونا كما لو كانت طائرًا جارحًا يتطلع لاصطيادنا. أحسست بمدى ثقل مغامرتنا أثناء مرورنا بستة أعمدة أيونية ضخمة. صعد هولمز السلالم الحجرية في سرعة، ولكنه تردد فقط عندما وقف أمام المدخل الرئيس للمستشفى. بدا صديقي كما لو كان قزمًا أمام الأبواب الخشبية الثقيلة. رفع قبضته، وإذا لم أكن مخطئًا، توقف لبعض الوقت قبل أن يطرق على الأبواب الثقيلة بصورة مستمرة. لم يكن لدي أدنى شك بأنه كان يفكر في البؤس الذي ينتظرنا على الجانب الآخر من ذلك الحاجز!

فتح أحد مساعدي التمريض الباب. بدا كما لو أنه من نوعية الرجال الغِلَاظ، كما هو الغالب على من يشغلون هذه الوظيفة. افترضت أن سترته كانت بيضاء اللون ذات يوم، ولكنها مع بقايا الدم المجفف، وبقايا الطعام، والقاذورات، بالإضافة إلى اللون الرمادي المصاحب للأوساخ عامة، باتت بلون عش الغراب، ومثيرة للاشمئزاز، وغير صحية. بالإضافة إلى ذلك، كان مظهره العام يكشف عن إحساسه بالانزعاج من مجيئنا.

سأل مساعد التمريض عن أسمائنا بطريقة فظة. كان اسم المساعد فيلبوت. وعندما عرفت عن نفسي وعن شيرلوك، اهتزت عينا فيلبوت كما لو أنه تعرف علينا، ليزداد معه عبوس وجهه. كانت أوراق اعتمادي قد تم التأكيد عليها منذ مدة طويلة، وكذلك كنت مدرجًا على قائمة الأطباء الزائرين. أحسست بالامتنان لهذه الحقيقة، لأنني خشيت من أن أي توقف قد يحدث للتحقق من هويتنا، قد يعطل من خططنا. كشفتُ عن سبب زيارتنا، وأننا هنا للتحدث مع الدكتور نوف. ولكن بدلًا من أن يفسح لنا فيلبوت الطريق، اقترب أكثر منا، ليمنع علينا طريق الوصول إلى مكتب توماس هنري.

قال فيلبوت كاشفًا عن أسنانه الحادة: "إنه مشغول. أخبرني الدكتور نوف تحديدًا بهذا: ألا أسمح بدخول أي زائرين. قال أن أخبر الجميع أيًا كانوا بأنه مشغول تمامًا، وأن أخبرهم بأن يأتوا في وقت لاحق".

خطا هولمز للأمام. دس يده في جيبه ثم أخرجها، لاحظت وجود عملة ذهبية في يده، وكذلك لاحظها فيلبوت. قال هولمز بنبرة ودود: "لا بأس بذلك. في واقع الأمر، نحن لم نأت إلى هنا لرؤية الدكتور نوف. لقد سمعنا خبرًا بوجود صديق قديم لنا هنا. ولقد وعدنا زوجته بزيارته والاطمئنان عليه".

حمل هولمز العملة المعدنية بين أصابعه في محاولة لإظهار البريق الذهبي للرجل الذي يقف حائلًا بيننا وبين دخول

المستشفى. ثم تابع: "في الواقع، يعرف الدكتور واطسون مكان احتجاز المريض. لذلك لا نحتاج إلى إزعاج الدكتور نوف. لا داعي لأن يعرف أي شخص بوجودنا هنا. نحن لن نتسبب في إزعاجك ولو للحظة يا فيلبوت".

كانت عينا المساعد مثبتتين على العملة المعدنية. وأخرج لسانه الوردي ليلعق به شفتيه. انتقلت عيناه بين العملة المعدنية وبين هولمز الذي تبدو على وجهه أمارات الترقب. بدا كما لو أن فيلبوت قد استوعب الأمر برمته.

فقال: "بما أنكما لن تزعجا الدكتور نوف، فإنني لا أرى مانعًا من زيارتكما".

قلب هولمز يده حتى تستقر العملة على راحته، ليلتقطها فيلبوت في غمضة عين، ثم قال: "تابعا طريقكما".

قبل أن يتمكن الرجل من تغيير رأيه، قدت هولمز عبر الممرات التي تنضح جدرانها المتداعية بالرطوبة والعفن. ورغم أن معرفتي بتفاصيل هذا المكان ليست عميقة إلا أنني قمت برسم مخطط لطوابق البناية عند زيارتي الأولى من أجل استخدامي الشخصي. منذ ذلك الوقت، بذلت قصارى جهدي لإكمال الفراغات الناقصة في مخططي خلال متابعتي للتعرف على المكان. في الواقع، كانت هناك العديد من المناطق في مخططي غير معلمة، بينما حددت مناطق أخرى بعلامات مثل: "بلاط الأرضية يتغير هنا" و "الزنزانة رقم ٦٧ ستجدها عند

الزاوية". مع نزولنا على درج زلق، ملأت الأجواء رائحة كريهة وعفنة، رائحة أجساد لم تستحم لفترات طويلة، أكل متعفن، ودلاء مليئة بالفضلات.

كان تذكري للمخطط كافيًا لتحقيق هدفي حتى بدون وجود الخريطة بين يدي. كالعادة، حاولت ألا أظهر تأففي. ففي النهاية، ستعتاد حواسي على المكان، ومعها ستصبح الرائحة أقل نفورًا. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن للمرء من خلالها التأقلم على هذا المكان: أن يتكيف مع الظروف النتنة ويحجبها كليًّا. دفعت نفسي نحو تجاهل صرخات الألم، والتوسلات، والأنين العام، اللائي يرتفعن شيئًا فشيئًا كلما تعمقنا أكثر داخل المصحة. وبالعودة إلى ذكرى أيامي خلال معسكر تدريب الجيش، جعلت عيني منصوبة مباشرة ناحية الأمام، في انتباه وتركيز تام. أراد كتفاي الانكماش نحو الداخل لحمايتي من محيطي، ولكنني أجبرت نفسي على فردهما، وأن أرفع رأسي عاليًا. لم أجرؤ على النظر إلى هولمز لمعرفة تأثير أجواء هذا المكان الكئيب عليه. فقط، واصلت طريقي قدمًا ناحية هدفنا.

همس هولمز قائلًا: "واطسون. لقد كنت أفكر في ذلك المريض الغريب... السيد رين، وتوماس هنري. كما تعرف، أنا لا أثق في صديقك القديم. أظن أنه يخفي شيئًا ما. ومن الواضح أن هناك شيئًا ما يدور في هذا المستشفى. لدي خطة. ما أن نصبح داخل مكتب توماس هنري، سأدعي أني أمر بحالة من

الصرع، فقط ما يكفي لجعل توماس هنري يعتقد أنها حقيقية. وأنت العب دورك، لتدع توماس هنري يصدق تمامًا أنني كنت أعاني من نوبات من الصرع في الماضي. وأنا سأتولى البقية من بعد ذلك.

التفت وحدقت إليه: "وما غرضك من وراء كل هذا؟".

فرد قائلًا: "أن أقضي الليلة هنا".

قلت: "يا إلهي، لا". ثم أمسكت بذراع صديقي، وهمست: "على أي أساس بنيت فكرتك الحمقاء هذه؟ هل صُدم رأسك في سقف العربة أثناء مجيئنا إلى هنا؟ أيًّا كان ما لديك ضد المسكين توماس هنري، تجاوزه. هذه المغامرة التي خضناها خلال الأيام الفائتة تسببت في إشعال مخيلتك، وبطريقة ما، بات توماس هنري شخصًا مثيرًا للإزعاج من وجهة نظرك، ولكنك الآن تجاوزت الحدود. هيا، دعنا نعدْ، دعني أرافقك إلى المنزل. بمجرد أن نعود إلى شارع بيكر...".

ولكنه نزع ذراعه من قبضتي، وقال: "مستحيل يا واطسون. هناك شيء ما سيئ يحدث هنا. أنا على ثقة من هذا".

قلت: "بالطبع، هذا مؤكد! لا يمكن أن يكون لديك مبنًى حافل بالمجانين دون حدوث أي شيء سيئ. هذه هي طبيعة هذا الوحش. ولكن إذا كنت تعتقد أن هذا يستحق المجازفة بحياتك حقًّا، فلا يسعني القول سوى أنك في أمس الحاجة إلى جرعة من المهدئ. هولمز، ثق بي. لقد جئت اليوم إلى هنا

لأنني أدين لرفيق في السلاح بالرد على ندائه طلبًا للمساعدة. لقد أراد توماس هنري أن أفحص السيد رين، وهذا ما سأفعله".

قال هولمز بنبرة حانقة: "وهذا ما أفعله بالضبط. ألا تستطيع رؤية ذلك؟ هذا الرجل المسكين هرب مرتين. ونحن لا نعرف أي شيء عن ماضيه عدا أنه عاش جزءًا من حياته في البحر بكل تأكيد. ومع هذا، ها هو يحتجز هنا رغمًا عن إرادته. لو كان هناك مشردٌ في موقف مثل موقفه، لكان رحب بزنزانة مخصصة له بمفرده، ودفء اللحاف، ووجبة ساخنة، وسقف فوق رأسه. ولكن ليس هذا الرجل. أخبرني، ما حكايته؟ ولماذا أصدق أن شخصًا كاذبًا مثل توماس هنري نوف قد يريد الاعتناء بشخص فقير هكذا؟".

قلت: "هذا ليس سببًا كافيًا ليجعلك تقضي ليلة بين أكثر مواطني لندن تشويشًا واضطرابًا".

قال هولمز: "لدي حدس!".

كنت متيقنًا من أن هناك تعبيرًا من الصدمة اعتلى وجهي بينما فغرت فمي على إثر احتجاج هولمز. قلت: قبل ساعتين، ذكرت أنك تريد إرسال خطابات مهمة إلى الآنسة كالدويل والآنسة بينسون. بعد ذلك، أردت أن تجعل فلور يفحص جثة الفأر المسكين. وبعدها، طلبت أن نذهب إلى نادي ديوجينيس لتفحص أعدادًا من الصحف القديمة. وهناك كتبت خطابات إلى ثلاثة أشخاص وليس اثنين. والآن، تقول إننا يجب أن نزور

توماس هنري، وهو رجل قررت مسبقًا أنه كذاب! أوه، والآن، أنت مصمم على قضاء ليلة في تلك المصحة الجنونية! ولأي سبب؟ هولمز، ما الذي تفعله بالضبط؟ أتقول حدس؟ منذ متى وأنت تتعامل بناءً على الحدس والافتراضات؟".

تبدلت ملامح وجه صديقي. وفي لحظة، تحولت من الشغف إلى الغضب.

قال: "أخبرني يا واطسون، ماذا يكون الحدس؟ استعمل رأسك! يطرأ الحدس عندما يستقبل العقل كل المعلومات غير المحددة والمنظمة، ثم يحاول إعطاء معنًى لها قبل أن تتعرف المواد البروتينية داخل رأسك على ماهيتها الحقيقية! كل ملكاتي العقلية الثاقبة والتي تم تدريبها جيدًا؛ تخبرني بأن هناك مشكلة هنا، وأنها تخص السيد رين، لذا يجب أن أرى هذه المشكلة بأم عيني، وأن أحاول حلها. الآن، إذا انتهيت من ثرثرتك الشبيهة بثرثرة السناجب هذه، فأقترح عليك أن نتابع طريقنا".

كل خطوة خطوتها كانت ثقيلة على قلبي. كان ضوء النهار ساطعًا بالخارج، ومع ذلك كان الجو هنا مظلمًا ورطبًا، ما تسبب في جعل رائحة البناية كريهة، وزادت من حدتها روائح العديد من الأجساد المنتنة. حاولت عدم النظر إلى الوجوه البائسة والعيون الجوفاء التي حدقت نحونا من وراء الزنازين المغلقة بينما كنا نمر من أمامهم. كانت الغرف الأكثر راحة

والمخصصة للمرضى المتحضرين في الطوابق العليا. أما بالنسبة لهؤلاء ممن يقيمون في الطوابق السفلية، فهم أرواح مسكينة تخلت عن كل أمل. لم أرغب في معرفة قصصهم وحكاياتهم. قال يسوع إن الفقراء سيكونون دائمًا بيننا، لكن هل كان ضروريًّا أن يعانوا هكذا؟ ألا يمكننا أن نجد طريقة لمساعدتهم؟

لمرتين، حاولت فتح فمي للتحدث مع هولمز، ولكنني هززت رأسي في النهاية، لأنني لم أجد الكلمات المناسبة. كان يمكنني تخمين نية هولمز، فجعلني ذلك أشعر بالقشعريرة.

توقفت عندما وصلنا إلى زنزانة السيد رين. ومثلما كان من قبل، تكوم الرجل على نفسه في أبعد ركن من الزنزانة، وبعيدًا عن الباب بقدر ما يمكنه.

للوهلة الأولى، قد تبدو الزنزانة فارغة. كان القش والعشب طازجين، وكان هناك لحاف قذر مكوم في أحد الأركان. فتح هولمز قفل الباب سريعًا مستخدمًا مجموعة أدواته من الملاقط الصغيرة. وبعد اختبار قصير لمفصلات الباب، أدرك هولمز أنها قد تتسبب في إحداث صريرٍ عالٍ، لذلك لم يكن منه سوى أن يبصق عليها، بادئًا من أعلاها إلى أسفلها. وما أن نجح لعابه في أداء مهمته لتشحيم المفصلات حتى فتح الباب بكل ثقة.

جلسنا القرفصاء بجانب كومة من اللحافات، ولوهلة، خشيت من أن نكون قد خُدعنا، وأنه قد تم نقل السيد رين

بعيدًا. ولكنه كان هنا. عرفنا ذلك عندما خرجت قدمه العظمية من تحت الأغطية القذرة. مد هولمز يده، وبرفق نقر على نتوء عظمي عند قمة الكومة. خمنت أن هذا النتوء ليس سوى جزء بارز من الكتف.

مع ذلك، لم يحدث شيء. في الواقع، بدا السكون مخيفًا. هل مات السيد رين؟ كان هذا حدثًا متكررًا هنا في مستشفى بيت لحم، إذ لم يعد يملك قاطنو هذه الزنازين أي أسباب للاستمرار في العيش، فقط انسلوا من بين ثنايا قبضة هذا الجحيم البائس الموجود على الأرض. ولكن هولمز لم يكن سوى شخصٍ مثابرٍ إذ مد يده وأمسك بكتف السيد رين، وأخذ يهزه بخفة، ليبرز رأس الرجل من أسفل كومة البطانيات. حاول فتح عينيه. ولكن عندما فحصته من كثب، وجدت قشرة جافة شكلت مادة لامعة صفراء وخضراء ملتصقة بعينيه ما يحول دون فتحهما.

قلت: "انتظر هنا". ثم ركضت عبر الردهة باتجاه صنبور مياه في إحدى زوايا جدار من الجص. فتحت الصنبور، بللت منديلًا نظيفًا من القطن بالمياه، ثم عصرته بلطف، وعدت إلى زنزانة السيد رين. برفق، ضغطت بالقماشة المبللة على عينيه. أحدثت المياه الباردة تأثيرًا منعشًا على الرجل. خفف البلل من قساوة المادة التي أطبقت على جفونه، ومن ثم أخذت أمسحها برفق. ببطء، فتح جفونه ثم حدق نحونا. طويت المنديل، ثم استخدمت الجزء النظيف منه في تنظيف بشرة السيد رين.

وتحت ضوء الزنزانة الباهت، تمكنت من رؤية وجهه لأول مرة. قلت: "يا إلهي، إنه ليس مصابًا باليرقان. إنه آسيوي!".

قال هولمز: "بالضبط".

قال السيد رين بينما أمسك بي من ذراعي: "ساعدني". كادت رائحة الرجل الكريهة تتغلب علي، فانتفض أنفي محتجًّا. كانت قبضة السيد رين قوية أكثر مما كنت أتوقع، لم يرغب في أن يتركني، وقال: "أتوسل إليكما أيها السيدان... ساعداني".

قال هولمز: "نحن هنا لهذا السبب تحديدًا. أعدك بذلك". خلال مساعدتي السابقة للسيد رين، راقبني هولمز باهتمام يشبه اهتمام أب حنون ينتظر ميلاد طفله.

مع ذلك، لم يبد أن هولمز سيتمكن من الإيفاء بوعده، إذ إننا سمعنا أصواتًا قادمة من نهاية الممر.

الفصل الثامن عشر

همس هولمز للسيد رين: "تشجّع. ولا تقل شيئًا لأي أحد. سأعود إليك لاحقًا. أعدك بذلك".

أومأ السيد رين برأسه.

هرعت وهولمز إلى خارج الزنزانة. سحب هولمز الباب وأغلقه من ورائنا.

خلع معطفه، ولفه حول القفل ليكتم صوت التكة. ومضت عينا هولمز بوميض غاضب وهو ينظر من حوله داخل المبنى المروع، فقال في أسًى: "لم أتخيل شيئًا كذلك أبدًا". ثم انطلقنا عبر الردهة، نسلك الطريق ذاته الذي جئنا منه، وبعيدًا عن الأصوات المتقدمة، ونتحرك بأسرع ما يمكننا. بفضل الخريطة التي حفظتها داخل رأسي، تمكنا من إعادة تتبع مسارنا السابق، وبدلًا من الاكتفاء بصعود الدرج والتوقف عند الطابق الأرضي، استمررنا في صعودنا حتى الطابق الذي يوجد فيه مكتب توماس هنري.

أمسك هولمز بي من كتفي، وحدق في عيني، ثم قال: "يجب أن أقضي الليلة هنا. أرجوك، عد من أجلي غدًا عند الساعة التاسعة صباحًا، ولكن في حالة ما فشلنا، ستجدني على السطح في الساعة الحادية عشرة ظهرًا. كل شيء تم ترتيبه مسبقًا".

صرخت: "ماذا! تفاصيل! أحتاج إلى تفاصيل".

قال هولمز: "لا. لن تنجح خطتي إذا ما أفصحت عن معلومات أكثر من هذه".

تمتمت بالعديد من اللعنات من التي تعلمتها في أفغانستان بصوت يكاد يكون مسموعًا.

ومع ذلك بدا أن هولمز قد فهم مغزى ما أقوله.

كنا قريبين بما يكفي من مكتب توماس هنري لنسمع عدة أصوات قادمة منه.

من تلك الأصوات، بدا وكأننا على وشك أن نقاطع اجتماعًا ما. كان هناك ثلاثة أشخاص على الأقل يتحدثون بخلاف توماس هنري.

"العديد من الأرواح...".

"ستسعد الملكة بذلك...".

"تضحيات صغيرة. قوات قتالية متفوقة...".

"ستكافأ على خدماتك ومساهماتك...".

أمسكني هولمز من ذراعي وهمس قائلًا: "تذكر... كل شيء يعتمد عليك".

همست بدوري: "لا يمكنك أن تكون جادًّا يا هولمز!".

قال وهو لا يزال ممسكًا بكم ذراعي: "إذا ما فشل الأمر، فستجدني على السطح".

دفعته بعيدًا، وقلت: "يا لهذا الهراء! لن تفعل شيئًا كهذا. ستعود معي مثلما جئنَا".

كرر قائلًا: "السطح".

وبدون أي تحذير مسبق، ركض هولمز عبر الغرفة الخارجية، وفتح باب غرفة مكتب توماس هنري. إذا لم أتبعه، فسيدخل صديقي المكتب بدوني! أسرعت بدوري وراء شيرلوك هولمز العظيم.

الفصل التاسع عشر

كان توماس هنري يجلس من وراء مكتبه، ويمرر حزمة من الأوراق لأحدهم، وكان يمسك بقلم حبر مصنوع من حجر العقيق اليماني في يده اليسرى. أما الرجل الذي جلس قبالة توماس هنرى فلم يكن سوى اللورد هيسلوب، وبجواره القبطان البحري الذي رأيناه سابقًا في نادي ديوجينيس. بدا توماس هنري وضيوفه مذهولين من رؤيتهم لنا. كانت ردة فعل اللورد هيسلوب متأخرة، إذ قفز على قدميه حرفيًّا وقال: "شيرلوك! لقد رأيت أخاك في وقت مبكر من اليوم. كيف حالك يا ولدي". ولكن كانت بهجته مصطنعة، فتساءلت في سري عما إذا كان إبداؤه لتلك السعادة مجرد غطاء لأمر ما. ولو كان هذا حقيقيًّا بالفعل، فما السبب؟

رد هولمز: "بخير حال يا سيدي".

عقد اللورد هيسلوب ذراعيه فوق صدره، وباعد بين ساقيه متخذًا وضعية كانت لتكون ملائمة أكثر على سطح سفينة بحرية. كان كل ما ينقصه هو منظارًا زجاجيًّا. قال: "هل تبقي نفسك مشغولًا؟"

"نعم يا سيدي".

"ما زلت تركض في الأرجاء، وتفعل... ماذا؟ تبحث عن معلومات تخص بعض الناس؟".

أحس هولمز بالغضب، ولكن قبل أن يتمكن من الرد، قال اللورد هيسلوب: "ولكن مجددًا، أنت الابن الثاني. أومن بأن شقيقك مايكروفت قد جعل والدك فخورًا".

كان تعليقه محسوبًا بدقة ليتسبب في إيذاء هولمز على الصعيد المعنوي.

ثم التفت نحوي، وتابع: "أما بالنسبة لك يا جون واطسون، فإن سمعتك تسبقك أيضًا. جندي فاشل. أُصبتَ في أرض المعركة، والآن عاطل عن العمل وتتقاضى بدل إعانة من الحكومة".

ازدردت ريقي بصعوبة إذ إن كلماته أصابت الهدف تمامًا.

نادرًا ما تجد شخصًا يتسبب في كل هذا الأذى للآخرين دون الاعتماد على سلاح مميت مثلما يفعل اللورد هيسلوب الآن. تصاعدت العصارة في جوفي ووصلت إلى حلقي. كنت أكره تلقي معاش التقاعد. كان يتسبب ذلك في إحساسي بالإحباط وقلة القيمة. من بين الألمين اللذين ألمَّا بي... جرحي وكبريائي، كنت أجد تلقى المعونة المالية أكثر إيلامًا. في محاولة للتغلب على إحساسي بعدم الارتياح، صببت جل تركيزي نحو هولمز.

صحيح أن هولمز سلك مسارًا غير تقليدي، إلا أنني أجد من واجبي الإشارة إلى أنه لولا وجود الأشخاص غير التقليديين فيما بيننا، فلن تتقدم البشرية للأمام في أي مجال. كما أن الطريق غير المألوف يمثل تحديًا فريدًا، لأنه دائمًا ما يكون جديدًا، وكل عقبة وتحدٍّ يحملان معهما مفاجأة. إذًا، ألا يتوجب علينا الاحتفاء بهؤلاء الأشخاص الذين تخلوا عن الطرق المألوفة والمتوقعة، وقاموا بشق طرق جديدة حتى يمكننا جميعًا الانتفاع بها؟ أومن بذلك.

طيلة هذا الوقت، اكتفى القبطان البحري بمراقبة كل شيء. في البداية حملق ناحية هولمز ثم نحوي. انتفض جسدي، وانتظرت الضابط أن يفعل شيئًا ما؟ ولكن ماذا بالضبط؟

قال على نحو مفاجئ: "سأذهب الآن". ثم نهض من على مقعده الخشبي. مارًّا من أمامي دون التعريف عن نفسه. غادر القبطان البحري الغرفة، ولوهلة بدا هيسلوب كما لو كان حائرًا، ولكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه.

قال هيسلوب وهو يضع قبعته فوق صدره، ويومئ برأسه في لطف مصطنع: "أتمنى لكم يومًا جيدًا". ثم غادر هو الآخر.

انعقد حاجبا هولمز كعادته عندما يفكر بعمق.

أما بالنسبة لي، راصدٌ متمرسٌ وطبيبٌ مدرب، فقد أجبرت نفسي على التراجع خطوة للوراء مجازيًّا، ومراجعة الموقف برمته. لقد بذل هيسلوب قصارى جهده لإخافتنا، لنتراجع عن

موقفنا ونهرب بعيدًا. لماذا؟ ما لعبته؟ هناك شيء ما شرير يحدث هنا، شيء أكثر شرًّا مما كنت أحسب في السابق. أحس هولمز بذلك أيضًا. لم يكن بوسعي الانتظار للرحيل عن هذا المكان.

في تلك اللحظة، ارتفعت صرخة حادة لدرجة تكاد تخترق الجدران معها. صوت شنيع لدرجة أنه وصل إلى عظامنا. قفز هولمز للخلف، ليصطدم بالباب في رعب. وأخذ يطرق برأسه على السطح الصلب بصوت عال بينما ينزلق بجسده تدريجيًّا إلى أرضية المكتب.

صرخت: "هولمز!". تمكنت من الإمساك بأطرافه ورفعه على قدميه. أحسست بالمعاناة في محاولة للإبقاء على توازني، إذ كان هولمز أكثر طولًا مني، ويزن مثل وزني تقريبًا.

أسرع توماس هنري من وراء مكتبه ناحيتنا، ولف ذراعه حول وسط هولمز لمساعدتي. غيرت من وضعيتي إلى أسفل كتفيه لأدعمه على الوقوف. وبجهد شديد، تمكنت وتوماس هنري من إرشاد المحقق إلى الأريكة الصغيرة، وجعله ينام عليها. رفرفت عينا هولمز، وتسارعت أنفاسه، وأصبحت قصيرة. تكونت رغوة عند جانبي فمه بينما بدأ جسده يتحرك بطريقة عنيفة!

صحت في ذعر: "إنها نوبة صرع!".

صاح هولمز وهو يخمش بكفيه ناحية وحوش خفية: "كفى! كفى!".

قال توماس هنري في نبرة آمرة: "أمسكه جيدًا! سأذهب لاحضار حقيبتي ومهدئٍ!".

عانيت أثناء محاولتي لإخضاعي صديقي، محاولًا إبقاءه هادئًا وساكنًا. توقف هولمز عن الحركة بمجرد أن غادر توماس هنري الغرفة. عادت عيناه إلى وضعهما الطبيعي بينما غمز نحوي وهمس قائلًا: "عظيم يا واطسون. أنا بخير. فقط تابع خطتي، واقترح عليه أن أقضي الليلة هنا. أخبره أن هذه ليست نوبتي الأولى. كانت كلماته سريعة خلال محاولته لإعطائي التعليمات قبيل عودة توماس هنري.

همست بدوري: "هولمز، توقف عن هذا! دعنا ننهِ هذه الخدعة! لقد نلت كفايتي من هؤلاء الناس!". كان قلبي ينبض بقوة بينما أحسست بقلق شديد.

قال هولمز بنبرة خفيضة لدرجة أنني بالكاد سمعتها: "ليس الآن يا واطسون. أنصت إلي جيدًا. لا تدع توماس هنري يعطيني المهدئ. حاول أن تجد أي عذر... هل تفهمني؟ يجب أن أقضي الليلة هنا! عد غدًا في التاسعة صباحًا، وإذا لم تجدني، فعليك أن تعود مجددًا في الحادية عشرة. سأقابلك على السطح. الآن، سايرني في الأمر. أخبر توماس هنري بأنني عانيت من هذه النوبات من قبل. كل شيء يعتمد على مهاراتك التمثيلية يا صديقي العزيز! لا تنس يا واطسون. بالضبط عند الساعة الحادية عشرة على السطح!".

أومأت برأسي بينما تساءلت في داخلي عن كنه الخطة التي تدور في رأسه. ثم ارتفع صوت خطوات قادمة من الردهة.

همس هولمز: "إنه قادم!". ومجددًا، استعاد هيئته السابقة التي يبدي فيها أعراض نوبة الصرع.

أسرع توماس هنري إلى داخل الغرفة بينما كان يحمل إبرة في إحدى يديه. استخدمت ذراعي حاجزًا عندما مال ليحقن هولمز بجرعة المهدئ. أبقيت توماس هنري بعيدًا عن هولمز، وقلت موضحًا: "لا توجد حاجة لهذا يا توماس هنري. إنني على دراية بهذا النوع من الفترات التي يمر بها هولمز. كل ما يحتاج إليه هو القليل من الهدوء والسكينة".

مع سماع صوتي، هدأ هولمز، وأغلق عينيه. وبتنهيدة خفيضة، تظاهر بكونه في عالم آخر.

سأل توماس هنري بينما لا يزال يحمل الإبرة في يده: "ما الذي حدث؟".

هززت رأسي، ورددت: "لست أدري. ولكنه مر بهذا النوع من النوبات من قبل. منذ آخر قضية لنا... أخشى أن أصول اللباقة تحتم علي ألا أشي بالمزيد عن حقائق هذه الجريمة، ولكن دعني أؤكد لك أنها كانت أكثر الجرائم عنفًا. وكما ترى بنفسك، فإن طبيعة ذلك التحقيق تركت انطباعًا قويًا على هولمز".

أومأ توماس هنري برأسه رغم أنه بدا متحمسًا للاستماع إلى المزيد. أما أنا فقد أحسست بضرورة وضع حد لنهاية هذه

المحادثة قبل أن تنكشف خدعتنا. قلت: "توماس هنري، لم أكن أتمنى لأي شخص أن يبقى في هذا المكان، ناهيك عن لو كان هذا الشخص صديقي شيرلوك هولمز، ولكني أجد نفسي بدون أي خيارات، ولا أجرؤ على المخاطرة باحتمالية تعرضه لنوبة أخرى داخل العربة خلال عودتنا إلى شارع بيكر. هل تعتقد أنه من الممكن أن يقضي هذه الليلة هنا؟ بالطبع ليس في جناح المستشفى بل هنا في مكتبك؟".

"بالطبع يا جون. ولكن أرجو أن تدعني أفحصه". كان توماس هنري لا يزال ممسكًا بالإبرة. كانت تعبيرات وجهه تشير إلى أنه يصدقني، على عكس وقفته التي تقول بأنه يحتاج إلى سببٍ ليقتنع به.

توتر جسد هولمز على إثر سماعه لاقتراح توماس هنري. تدخلت على عجل: "لا يوجد داع لذلك". ثم تابعت مؤكدًا وبنبرة هادئة بقدر الإمكان: "مثلما أخبرتك من قبل، أنا على دراية بهذا النوع من النوبات، وكل ما يحتاج إليه هو بعض الراحة. لن يمثل فحصه سوى تضييع لوقتك الثمين. بالإضافة إلى أن هولمز قد يغضب مني للسماح لك بفحصه دون إذن مسبق منه. إنه شخص شديد الخصوصية".

رد توماس هنري بجمود: "حسنٌ. سأفعل مثلما تقول، ولكن هذا لا يعني أنني أحب ذلك. ماذا لو استيقظ ولم يجد أحدًا هنا؟".

لم أضع هذا الموقف في الحسبان. لأكون صادقًا، لم تتح لي الفرصة للتفكير في مثل هذه الأفكار الهامشية والعديمة الأهمية. ترددت للحظة بينما نظر إلي توماس هنري في فضول منتظرًا سماع إجابتي.

أحسست أن أي تأخير في الرد من جانبي قد يزيد من شكوك الطبيب الطيب. بسرعة، توصلت إلى خطة... خطة ستعتمد كليًّا على إتقاني لفن الخداع وخفة اليد. قلت: "هممم، معك حق. لأخذ احتياطاتنا، ربما ستكون هناك حاجة لإبرة بجرعة مهدئة. ناولني الإبرة وقطعة من القطن من فضلك".

توتر جسد هولمز بعض الشيء. كنت آمل أن يؤدي لطفي وأسلوبي الواقعي إلى إرخاء دفاعات كُلٍّ من المحقق، وزميلي القديم. ثم مرر توماس هنري الإبرة إلي.

حدقت نحوها، وقلت: "أين قطعة القطن؟ يجب أن أطهر المنطقة أولًا. هولمز مناعته ضعيفة أمام العديد من الأمراض. وأنا لا أريد أن يكون أحدها منتشرًا في هذا المكان".

مشى توماس هنري باتجاه طاولة صغيرة، ثم أزال كرة قطنية من زجاجة الكحول لتهجم علي الرائحة الحادة بقوة. كان كل هذا حقيقيًّا. صحيح أن هولمز يتظاهر، ولكن كل شيء حقيقي. مرر توماس هنري إلي قطعة القطن المبللة، ومال بجسده للأمام لدرجة أنه -حرفيًّا- ألقى بوزنه على ظهري.

كان علي أن أصرف انتباهه، فقلت: "هل يمكنك أن تشمر كم سترته؟".

نفذ الطبيب ما طلبته منه، وهو ما وفر لي مساحة للحركة. نقرت الإبرة بإصبعي لتحرير أي فقاعات هوائية داخل المحلول. نظفت بشرة هولمز المكشوفة بقطعة القطن المبللة بالكحول، ثم ضغطتها على أحد عروق المحقق. كان يمكنني الإحساس بتزايد عدد ضربات نبض هولمز بينما كنت أقرب طرف الإبرة المدبب من جلده، ولكنه ظل ساكنًا في مكانه دون أي حركة. كانت ثقته فيّ مطلقة. قلت بنبرة هادئة: "هذا من أجل مصلحتك يا هولمز". ثم عدلت من موضعي حتى أحجب الرؤية عن توماس هنري، بينما ضغطت بقطعة القطن المبللة بالكحول على بنطالي، وعصرتها بشدة لأخرج أكبر قدر من الكحول منها. ثم تظاهرت بأنني أنظف بشرة هولمز بقطعة القطن. غرزت طرف الإبرة في جلده، ولكني قمت بتغطية طرفها بقطعة القطن في سرعة، ثم سحبتها من جلده. فقط عندئذ، بدأت أضغط على مكبس الإبرة. تدفق السائل خارجًا لتمتصه قطعة القطن على الفور. وعندما أصبحت فارغة، مسحت موضع قطرات الدم الصغيرة من على ذراع هولمز، ثم رميت قطعة القطن جانبًا. ألقيت نظرة سريعة نحو توماس هنري، وابتسمت له. أومأ برأسه ناحيتي في رضًا. مهما كان توماس هنري قلقًا، فقد رآني أعطي شيرلوك هولمز جرعة قوية من المهدئ.

الآن، وبما أن هولمز بات على دراية بخدعتي، فقد تصرف على نحو يتناسب مع شخص أخذ جرعة مهدئة لتوه؛ إذ لم تصدر عنه أي حركة. نجحت حيلتي تمامًا مثلما خططت لها.

بعد أن أحسست بالفخر من الخدعة التي قمت بها، ضممت ذراعي هولمز إلى صدره. أحضر توماس هنري لحافًا من الصوف من خزانة الإمدادات من غرفة الانتظار بالخارج، ثم غطى صديقي العزيز. لم أحب فكرة خداع توماس هنري وأن أجعله يبدو أحمقَ، ولكني كنت متيقنًا من أن هولمز لديه أسبابه الخاصة لفعل كل هذا.

قلت: "لا أعتقد أنه سيسبب أي مشكلة يا توماس هنري. من الأفضل أن ندع هولمز يرتاح في جو من الهدوء. ثم نهضت من على الأريكة، وأشرت إلى توماس هنري بأن نغادر غرفته. بطريقة شبه آلية، أقفل الطبيب باب المكتب من ورائه، ووضع المفتاح في جيب سترته. في البداية، أحسست بالهلع، ولكني سرعان ما ضحكت. كان محض فكرة احتجاز هولمز في غرفة مغلقة مضحكًا! لماذا! لأن فتح الأقفال بالنسبة لهولمز يعد بمثابة لعب أطفال!

"ما الذي يضحكك هكذا يا جون؟".

فاجأني توماس هنري بسؤاله على حين غرة مني، تعثرت في محاولة للوصول إلى إجابة. قلت: "أوه. لا شيء. كنت

أتخيل ردة فعل هولمز عندما يعلم أنه قضى ليلة داخل مستشفى المجانين".

حدجني توماس هنري بنظرة غاضبة وقال: "لا أرى ذلك مضحكًا يا جون! كذلك نحن لا نحبذ اسم مستشفى المجانين. العديد من الأمور الغريبة حدثت هنا مؤخرًا، وأنا لا أريد أن يحدث شيء غير متوقع لأي منكما".

تراجعت خطوة للوراء. هل هذا تهديدٌ؟!

تورد وجه الطبيب، ثم قال توماس هنري شيئًا زاد من إزعاجي: "لا تسئِ الفهم. ما نفعله هنا ينطوي على فائدة! ما نتعلمه من الجنود الذين نعالجهم سيساعدنا في حماية وطننا! لن تكون هناك حاجة لإرسال المزيد من الشباب الذين لا حول لهم ولا قوة إلى أرض المعركة!".

اندفعت يده لتغطي فمه واتسعت عيناه، ثم تابع: "أنا آسف. أعاني من الكثير من الضغوطات مؤخرًا".

أدركت أنني رأيت جانبًا آخر من توماس هنري لم يكن من المفترض أن أراه. تسببت نوبة هولمز، وضحكي، في إسقاط توماس هنري لقناعه كليًّا. انزعجت من حماسته المفرطة وتعصبه. ثم سرت رعدة في كامل أنحاء جسدي إذ إني على وشك ترك صديقي العزيز هنا! ورغم أن هولمز داهية؛ فهل سيكون قادرًا على إتمام مهمة النجاة في هذا المكان المريع؟ أحسست بالقلق على سلامة المحقق الشخصية. تصارعت

العديد من الأفكار في داخلي. تبًّا لهولمز ولأفكاره الخطيرة! كيف يمكنني أن أتركه في حفرة الجحيم تلك؟

فجأة، كنت على وشك التراجع عن العملية برمتها، وكنت مستعدًّا لتحطيم الباب من مفاصله -إن لزم الأمر- لتحرير صديقي! ولكن قبل أن أتمكن من فعل أي شيء، هز توماس هنري رأسه ببطء ليتخلص معه من فورة غضبه في حركة تشبه حركة الكلب وهو ينفض المياه عن نفسه بعد الاستحمام.

قال: "سامحني".

أحسست بالتأنيب والإحراج من محاولتي الضعيفة للتعافي من طريقة تفكيري غير الصائبة. كنت لا أزال أشعر بالانزعاج. هناك خطب ما بصديقي القديم وعلى نحو مريع. توماس هنري لديه أجندته وأهدافه الخاصة. أجندة تهمه على المستوى الشخصي. ولكن قبل أن أتمكن من محاولة جس نبضه وسبر أغواره، ابتسم في خجل، وكرر قائلًا: "سامحني على حماقتي تلك. إنه هذا المكان. إنه ينال من الجميع. أنت تعرف أن لديه هذا التأثير... هذا التأثير الطاغي. لقد شعرت به أنت أيضًا".

بلى، كلانا كان على يقين من تلك الحقيقة.

قادني توماس هنري إلى غرفة الاستشارات عند نهاية الممر. كانت الغرفة فارغة عدا من مكتب ومقعدين بظهر مستقيم. أخذت أحدهما وسحبته إلى خلف المكتب بينما انتظرت توماس هنري أن يسحب مقعده الخاص ويضعه في

الجهة المقابلة لي. ولفترة بدت طويلة، أخذ يتفحص وجهي كما لو كان يبحث عن أي علامات تظهر خيانتي. دعوت الله في سري ألا يجد أيًّا منها.

لا شك أنه قد تم الإجابة على تضرعاتي إذ بدا توماس هنري هادئًا. بعد أن وضعنا خلافنا خلف ظهورنا، أخذنا نتحدث لبعض الوقت عن حالة السيد رين. وفقًا لكلام صديقي، فإن السيد رين كان على وشك الموت عندما عثر عليه. تغيرت نبرة صوت توماس هنري، وبدت أكثر حدة. وواجه صعوبة في الحفاظ على ثبات يديه خلال حديثه، فقال: "لا يمكنني إيجاد سبب مقنع لمحاولات السيد رين الفرارَ بعيدًا عن هنا. على حد علمنا، لا توجد لديه عائلة. أظن أنه عاني من حالة من فقدان الدم، وهو أمر غريب جدًّا، لأنني لا أعرف كيف ولماذا حدث هذا. ولكن كفى عن هذا الحديث، وأخبرني عن صديقك هولمز. هل أجهد نفسه واستنزفها أكثر من اللازم؟".

أثار تغييره المفاجئ لموضع الحديث من شكوكي.

قلت: "ليس أكثر من المعتاد. هولمز هو هولمز".

لكن توماس هنري تابع طرحه لأسئلته التي تشبه التحقيق: "هل عمل على أي قضايا مرهقة مؤخرًا؟ أعرف أنكما كنتما خارج المدينة. أين ذهبتما تحديدًا؟ ماذا كنتما تفعلان؟ ماذا عن شقيقه مايكروفت؟ لقد سمعت أنه موظف حكومي. ماذا يفعل؟ إلى أين سافرتما ومتى عدتما؟".

ظل يطلق أسئلته علي. أخبرتني غريزتي بأن استفسارات توماس هنري لم تعد بريئة. بذلت قصارى جهدي للرد عليه بإجابات ليست صادقة تمامًا، ولكنه بات محققًا عدوانيًّا، فلم يكن مني سوى أن ألجأ إلى الردود القصيرة: "لا. نعم. الريف. نتطلع إلى الزهور. نزور أحد الأصدقاء القدامى. مايكروفت بخير. إنه موظف حكومي. عدنا إلى المنزل يوم أمس".

في البداية، كنت آمل أن تكون هذه مجرد مخيلتي، وأنني شديد الحساسية، ولكن مع استمراره في طرح أسئلة أكثر دقة، بدأت أتشكك في اهتمامه. إذا استمر الوضع هكذا لوقت أطول، فلن أكون قادرًا على صد استفساراته تلك. تظاهرت بالنعاس في محاولة يائسة لإيجاد طريقة للانسحاب. في النهاية، تثاءبت بشكل وقح في وجه توماس هنري في محاولة لاختلاق عذر لإنهاء محادثتنا!

قلت: "يجب أن تعذرني يا توماس هنري. لقد ظللت وهولمز مستيقظين حتى الساعات الأولى من الصباح. كنت أحاول الاطلاع على ما فاتني من مراسلات، بينما كان يقرأ الصحف. كلانا فقد إحساسه بالوقت. أرجو أن تسامحني، ولكن أعتقد أنني في حاجة للعودة إلى المنزل والنوم".

حدجني توماس هنري بنظرة أخبرتني بأنه كان منزعجًا من محاولتي لإنهاء محادثتنا. مع ذلك، لا بد وأنه انتبه إلى أنه يثير من شكوكي بمتابعته الضغط علي ولاستفساراته العديدة عن هولمز.

سرعان ما استعاد توماس هنري رباطة جأشه بعد اعتذاري، ليسترجع سلوكه المهذب والمهني الذي حرص على إنمائه لفترة طويلة. قال: "دعني أجد لك عربة أجرة يا صديقي القديم". ثم نهض من على كرسيه، وفتح باب المكتب. سمعته يخبر أحد مساعدي التمريض بأن يوقف عربة. حمدًا لله، لم يكن فيلبوت موجودًا في أي مكان قريب منا. لم أكن أعرف كيف سأفسر له وجودي هنا مع توماس هنري في الوقت الذي وعدته وهولمز سابقًا بأننا لن نزعج الطبيب.

أخبرت توماس هنري بأنني سآتي للزيارة غدًا لأرى حالة هولمز.

عندئذ، ازداد حذر توماس هنري، وقال: "ألا تثق بي؟ هل أنت قلق على صحة صديقك وهو تحت رعايتي؟ حقًّا، يا واطسون...".

قلت: "انظر، أنا وهولمز شريكا سكن. بالطبع، سأسأل عنه غدًا. سأفعل الشيء نفسه لو كنت أنت في موضعه". وبهذا، تمكنت من تهدئة أعصاب توماس هنري.

في الوقت الذي رافقني فيه مساعد التمريض إلى مدخل المصحة، أدركت أني مرهقٌ بالفعل وليس كما تظاهرت سابقًا، وعلى الرغم من الغفوة القصيرة التي حصلت عليها في نادي ديوجينيس، كنت تعبًا حتى النخاع وممتنًّا، وفي الوقت نفسه أحسست بالتوتر لمغادرتي مستشفى بيت لحم. وما أن ركبت

العربة حتى نظرت خلفي إلى البناية الوحشية حيث سيقضي صديقي العزيز -أعظم محقق في العالم- ليلته هناك.

بدت رحلة عودتي إلى شارع بيكر وكأنها ستستمر للأبد، إذ كنت قلقًا على سلامة صديقي. عندما وصلت إلى المنزل، غيرت ملابسي وارتديت بجامة النوم، وأمسكت بمسدسي في نزوة عابرة. سحبت مقعدًا من غرفة المعيشة إلى النافذة الموجودة في غرفة نومي، جلست عليه في رضًا. اتكأت بذراعي على إفريز النافذة وحملقت في ظلام الليل. بالطبع، لم يكن بوسعي رؤية المصحة من مكاني هذا. مع ذلك، فمجرد جلوسي هنا، والتحديق نحو الاتجاه العام للمصحة، جعلاني أشعر بنوع ما من الراحة. وللغرابة، أحسست بمدى قربي من هولمز أكثر مما لو كان موجودًا في غرفته الآن.

كانت الواجهات المظلمة والكئيبة للمباني من أمامي توحي بأنها تخفي ألف شرير بداخلها، لكن في هذه الليلة، بينما كنت أراقب الشارع الخالي من الحياة من تحتي، لم تكن هناك أي حركة. دقت الساعة الموجودة أعلى رف المدفأة بعد مرور ربع ساعة، فشعرت بثقل جفني. غرقت في نوم متقطع بينما أحسست بالوزن المريح لمسدسي في حضني.

نهضت فزعًا عندما وقع مسدسي على الأرض. وجدت أنفاسي تسببت في تكوين طبقة من الضباب على زجاج النافذة. نظرت إلى الساعة لأجد عقاربها تشير إلى السابعة والنصف

صباحًا. تأوهت لعدم إحساسي بالراحة. كانت عظامي متيبسة، وتحدث صوت طقطقة بعد وضعية نومي غير المعتادة. هذا هو أحد الأسباب الوجيهة لعدم نوم المرء طوال الليل على المقعد. مع ذلك، نهضت ببطء من على المقعد، ثم أعدته إلى موضعه السابق في غرفة المعيشة.

خامرني إحساس مزعج ومستمر ينبئني بخطر وشيك، بينما كنت أنتظر إحضار السيدة هدسون لوجبة الإفطار والصحف اليومية. حاولت التخلص من هذه الأحاسيس غير المرغوب فيها وغير المُسوَّغة، ولكن دون فائدة تذكر. شرعت أمشي داخل الشقة جيئة وذهابًا في صبر نافد. تسبب ذلك في إحداث ضوضاء كافية لتعلم السيدة هدسون بأنني مستيقظ، ولم يمر وقت طويل قبل أن أسمع طرقها اللطيف على الباب يصاحبه روائح القهوة الساخنة والكعك إلى داخل الشقة. شكرتها على سرعة حضورها، وصببت لنفسي كوبًا من القهوة بينما وضعت صحيفة ذا تايمز جانبًا.

ولأنني كنت أعرف أن مظهري الأشعث قد أثار من قلقها، لم يكن مني سوى أن أرافقها حتى باب الشقة. لم يقدم لها تصرفي المفاجئ هذا أي نوع من التوضيحات أو الراحة. سرت بمفردي، وشرعت في أكل الكعكة بينما أتصفح الجريدة في سلام. لحسن الحظ، كانت المرأة اللطيفة معتادة على هذا النوع من تصرفات المستأجرين الغريبة!

الفصل العشرون

بعد مرور عدة دقائق، قرع ليستراد الباب. كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحًا. شككت أنه اختار هذا الوقت ليتزامن مع موعد تقديم السيدة هدسون لوجبة الإفطار. سأل: "أين هولمز؟"، ثم جلس على المقعد الذي يستخدمه صديقي في الأوقات العادية.

قلت في حذر: "لماذا تسأل؟".

قال: "لقد أرسل لي هذا"، ثم ألقى بظرف على المائدة، بالكاد أخطأ طبق مربى البرتقال. أدركت المغزى من وراء حركته تلك، فقدمت إليه حامل شرائح الخبز المحمص ليصبح على مقربة منه، وقلت: تفضل. سأرن الجرس لأحضر إليك كوبًا من الشاي. أم أنك تفضل القهوة؟".

قال ليستراد بينما يمسك بشريحة من الخبز المحمص ويغطيها بطبقة من المربى المنزلي الممتاز الذي أعدَّته السيدة هدسون: "لا بأس بكوب من الشاي الإنجليزي الجيد". قمت برن الجرس لطلب السيدة هدسون وسألتها أن تحضر المزيد

من الشاي، وشرائح الخبز المحمص، والمربى. ثم عدت إلى مقعدي، وفتحت الظرف. وجدت خربشة هولمز تقول:

عزيزي ليستراد

أعلم من هو جاك السفاح. تعال غدًا إلى المنزل رقم ٢٢١ من شارع بيكر في تمام الساعة الثامنة صباحًا. سيقوم واطسون بإطلاعك على المزيد من التعليمات.

ش. هولمز.

قال ليستراد: "هل هذه مزحة من نوعٍ ما؟". كان وجهه الشبيه بالجرذان يذكرني بفأر سومطرة العملاق. ترى ما الذي يفعله فلور مع تلك الغنيمة الآن. ولكني سرعان ما عدت إلى الموضوع الحالي، وجاوبت: "ليس لدي أدنى فكرة".

قال ليستراد: "إذًا دعني أسألك من جديد، أين هولمز؟ فأنا ليس لدي الوقت للعب ألعابه تلك". ولكن محاولته للظهور بمظهر المهدد والمتوعد تآكلت بدرجة كبيرة لوجود بقع لامعة من المربى على شاربه.

قلت: "إنه في مستشفى بيت لحم، أو على أقل تقدير كان هذا هو المكان الذي تركته فيه في وقت متأخر من ظهيرة يوم

أمس. وهو ذاته المكان الذي أخطط لمقابلته فيه عند التاسعة من صباح هذا اليوم. هل تريد الانضمام إلي؟". ثم مسحت برفق على شاربي للاطمئنان من أنه لا توجد أي بقايا مربًّى عليه.

ضحك ليستراد فرحًا، وقال: ها! لطالما حسبته مجنونًا. دعني أنتهِ من شرب كوب الشاي أولًا. هل ستأكل النصف الآخر من شريحة الخبز المحمص هذه؟ ما الذي تظن أن هولمز يخطط له؟ أعني بخصوص هؤلاء النساء اللائي مزقن بضراوة على يد جاك السفاح؟".

بكل صراحة، كان يمكنني اختيار تجاهل أسئلته.

بعد أن صعدنا إلى العربة، سأل ليستراد: "كيف انتهى به الحال إلى مستشفى المجانين هذا؟". كانت نبرة صوته لا مبالية، كما لو أنه لم يهتم بأي شكل من الأشكال، فهو لم يعتقد أن دخول هولمز لهذا المكان يتعارض مع شخصية الأخير.

قلت: "لديه حدسٌ ما". كلما اقتربت العربة من المستشفى زاد قلقي. لقد قضى هولمز طيلة الليلة هناك. لقد رأيت سابقًا العلاجات الموجعة التي يخضع لها المرضى باسم العلم. ولكن ليس واحدٌ منها يحمل أي قدر من الفائدة. هل سينحدر الحال بتوماس هنري إلى إجبار هولمز على هذا النوع من العلاجات البربرية؟ ارتعدت على إثر تلك الفكرة.

سألني ليستراد: "هل أنت بخير؟"، ثم تفحصني بعينيه الصغيرتين، وتابع: "هولمز في المصحة بصفته محققًا استشاريًّا، أليس كذلك؟ أنت لا تعني أنه...".

قلت معترفًا: "نعم ولا". بدا أنه من الأفضل أن يكون ليستراد على علم بما يحدث، إذ ربما تكون هناك حاجة لاتخاذ بعض الإجراءات الصارمة.

صرخ ليستراد قائلًا: "نعم ولا؟! ما الذي تتحدث عنه يا دكتور واطسون؟ أعترف أن هولمز شخصٌ غريبٌ بكل تأكيد، ولكني لن أرسل ألد أعدائي إلى هذا المكان. مستحيل! إنه مكان مخيف. هل تعني بكلامك أن السيد هولمز لا يمكنه التحرك بحرية داخل ذلك المكان؟".

أومأت برأسي وقلت: "صراحة، لا يمكنني أن أضمن إذا ما كان حرًّا في فعل ما يشاء أو...".

"يا إلهي! كنت أحسبك صديقه! أيًّا كان الشيء الذي استحوذ عليك لتسمح له بـ...". لحسن الحظ، لم يستكمل ليستراد شتائمه لأن عربتنا توقفت خارج مستشفى بيت لحم. أمر ليستراد الحوذي بأن ينتظرنا.

سأكون مقصرًا إذا لم أعترف -أنه خلال رحلتي القصيرة هذه مع ليستراد، وثرثرته اللا نهائية- بأنني أحسست بتعكر مزاجي على نحو ملحوظ. ظل ليستراد يلاحقني بأسئلته التي لم يكن بمقدوري الإجابة عليها بينما كنا نسرع نحو المدخل

الأمامي للمستشفى. قادنا أحد الموظفين إلى المنطقة الإدارية حيث جلست امرأة وراء مكتب، وسألتنا عن غرض زيارتنا. عادة ما يرحب بي مساعدو التمريض ويسمحون لي بفعل ما أريده، إلا أن هذه المرأة عدَّتْ نفسها نوعًا ما حارسة للمكان.

حدقت نحوي في برود بينما كنت أعاني في محاولة لشرح الغرض من مهمتنا هنا.

تسبب رداؤها المتزمت، وأسلوبها المتعالي في إحساسي بالنفور منها على الفور.

لم أكن لطيفًا في الرد على طلبها لرؤية أوراقنا الثبوتية. قلت: "سيدتي الفاضلة، إنني دكتور جون. إتش. واطسون، وهذا هو المفتش ليستراد من سكوتلاند يارد. نحن هنا لأخذ السيد شيرلوك هولمز، والذي قضى الليلة الفائتة في ضيافة الدكتور توماس هنري نوف. والآن، إذا ما تكرمت، هل يمكنك إبلاغ السيد هولمز والدكتور أننا هنا؟ وبعدها يمكنك متابعة مهام عملك".

أوقع ذكر اسم شيرلوك هولمز رد فعل غريبًا لدى المرأة. شحب لون وجهها. تباين لون شعرها الأسود مع لون وجهها الشاحب، ولم يضف لون ثوبها الرمادي الباهت أي لمحة من الجمال إلى تعبيراتها. حملقتُ إلى أنفها الحاد، وشفتيها الرفيعتين. ارتعشت يداها، وفتحت فمها على نحو غير جذاب

تمامًا بينما أخذت تفحص أوراقها (خمنت أنها تبحث عن اسم هولمز في القائمة).

في النهاية، قالت: "آسفة يا سيدي. ولكن لا يوجد أي سجل لوجود مريض يدعى شيرلوك هولمز هنا".

صرخ ليستراد قائلًا: "مريض؟ ماذا؟".

قلت مقاطعًا: "أنا لم أقل أي شيء يشير إلى أن شيرلوك هولمز مريضٌ هنا! إنه ضيف الدكتور توماس هنري نوف. ارتفعت نبرة صوتي لتعبر عن ضيقي، بينما تردد صدى كلماتي عبر جدران المكان.

خطا ليستراد أمامي. كشف عن شارته. وواجه المرأة قائلًا: "الآن أنصتي إليّ. أنا المفتش ليستراد من سكوتلاند يارد! إما أن تحضري شيرلوك هولمز أو تتواصلي مع أي شخص قادر على فعل ذلك. الأمر سيان بالنسبة لي. دعيني أوضح لك ما يحدث هنا مباشرة... سيحدث هذا بتعاونك أو بدونه. فماذا ستختارين؟".

ردت المرأة ببرود: "أيها المحقق. يمكنك أن تهددني بقدر ما تريد، ولكني أؤكد لك أن السيد هولمز ليس هنا. من المخالف لسياسة المستشفى أن يسمح للزائرين بقضاء الليل هنا. وفيما يتعلق بالدكتور نوف، فقد تم استدعاؤه لمهمة عاجلة. في الواقع، لقد تم إبلاغي بأنه غادر المستشفى في وقت متأخر من ليلة أمس بعد أن أنهى جولاته على المرضى.

ولذلك، من المستحيل أنه تحدث مع السيد هولمز خلال ليلة أمس! والآن إذا لم تكن في حوزتك مذكرة تفتيش لهذا المكان، فإنني سأتمنى لكما يومًا طيبًا".

ثم نقرت على أوراقها لتعيد ترتيبها، وأدارت ظهرها لنا. وبطريقة متعمدة ومحسوبة، فتحت دفترًا ما، وأخذت تنسخ بعض الأرقام. كانت أصابعها الرفيعة تتحرك بسرعة مدهشة.

قلت متلعثمًا: "ولـ... ولـ... ولكن...".

أمسكني ليستراد من ذراعي، وأشار إلي باتجاه الباب وقال: "من الأفضل أن تأتي معي يا دكتور واطسون. لو كانت هذه مطاردة أخرى، لا فائدة منها، قمت بطهيها أنت والسيد هولمز لتجعلاني أبدو أحمقَ، فإنني أؤكد لك أنها لن تنتهي بصورة جيدة مع رؤسائي".

دفعني دفعًا نحو مدخل المستشفى الخارجي. ثم صاح نحو الحوذي بينما نركب العربة: "إلى سكوتلاند يارد!".

وما أن أغلق باب العربة، حتى استدرت ناحية المحقق، وقلت: "ليستراد، إنني أخبرك أن هولمز موجود هناك. لقد تركته ليلة أمس في غرفة مكتب الدكتور نوف. من المحتمل أنه في خطر داهم!".

أصدر صوتًا يعبر عن امتعاضه، وقال: "دكتور! على الأرجح أن هولمز قد عاد إلى شقتكما، يضحك ويقهقه، ويمكنني أن أضيف، أنه يفعل ذلك على حسابي".

صرخت قائلًا: "ليستراد. أنت أحمق!". اجتمعت مخاوفي مع ندمي المرير على الترتيبات الخاصة بالسيد رين، فإذا ما اكتشف توماس هنري اهتمام هولمز بحالة السيد رين، فمن يمكنه ضمان عدم حدوث شيء للرجل الآسيوي البائس؟".

طلب ليستراد أن نذهب إلى سكوتلاند يارد، لذلك استقللنا عربة أخرى وقمنا برحلة إلى هناك بدون أن نتبادل الحديث. أحيانًا يصبح ليستراد شخصًا أحمق وناقمًا، فبمجرد وصولنا إلى مدخل سكوتلاند يارد، فتح باب العربة ودفعني خارجًا، ليتبعني بدوره إلى الخارج وهو يقفز من العربة حرفيًّا. ثم طرق على العربة ليشير للحوذي بأن يمضي في طريقه. وقال: "أنا واثق أنه يمكنك العودة إلى منزلك يا دكتور دون أي مساعدة مني. وإذا لم يكن هناك شيء آخر...".

صحت بينما أمسكه من ذراعه: "انتظر! لا يمكنك فض يديك هكذا. هذا الأمر ليس مزحة. إنني أخبرك أن هولمز قد توقع كل هذا. ليستراد، أعطني الفرصة لشرح قضيتنا لك".

قال المفتش غاضبًا: "من الأفضل أن يكون لديك سببٌ جيدٌ. دعنا نذهب إلى الداخل حتى نتمكن من التحدث".

***

بعد وقت قصير وصلنا إلى مكان يشبه الخزانة، وهو ما يصفه ليستراد بأنه مكتبه. أطلعت المحقق على قصة السيد

رين. قلت: يصر توماس هنري على القول بأن الرجل قد اختفى، ثم تم العثور عليه مجددًا. في كل مرة أرى فيها هذا الشخص البائس والمسكين، أجده في حالة سيئة. لماذا؟ لا أعرف. لا أظن حتى أنه أحد مواطني بلادنا! وأتساءل إذا ما تم احتجازه هنا رغمًا عن إرادته".

سأل ليستراد: "ماذا تقصد؟". كان يجلس وراء أكثر المكاتب فوضوية رأيتها في حياتي كلها. في واقع الأمر، استقر كوب الشاي الخاص به أعلى كومة من الأوراق المعنونة بـ: "مستند رسمي! سري للغاية!"، إلا أن ليستراد استخدم هذه التقارير كما لو كانت مفرش مائدة. لم استطع تصديق أنه يتصرف بهذه الطريقة اللا مبالية تجاه تلك التقارير، والتي أعتقد أنها تعني إما العدالة أو السجن، الحياة أو الموت، الفقر أو تركة الميراث، لعدد لا يحصى من المواطنين، ولكن هذا شأن يمكن الحديث عنه في يوم آخر.

قلت: "السيد رين آسيوي. لقد قضى وقتًا من حياته على متن سفينة في المحيط. وهو بلا أدنى شك لا يقدم نفسه مواطنًا من مملكتنا هذه". توقفت لإعادة تنظيم أفكاري على شكل حجة متماسكة، إلا أنه -وللأسف- لم يسعفني تفكيري المنطقي بالقدر الكافي. قلت: "كما ترى، لا يبدو كل هذا منطقيًّا على الإطلاق. طلب توماس هنري مني، على نحو خاص، زيارتَه لنتشاور معًا بخصوص حالة ذلك الرجل... السيد رين. لاحظ هولمز مغالطة في حديث توماس هنري معنا. وعندما

ضغط هولمز على توماس هنري، لم يكن منه -توماس وليس هولمز- سوى أن يهرب مثل أرنب مذعور. ومع ذلك، عاد توماس هنري مجددًا لمطالبتي بزيارته لفحص السيد رين بعد عودة الأخير إلى مستشفى المجانين. وليلة أمس، فعل هولمز ما اعتاد على فعله دائمًا. قام بتحليل كمية كبيرة من المعلومات، وتصفح العديد من الصحف، وفكر بطريقته التي تجعله ينظر لأبعد مدًى، ثم أخبرني بعدها أنه يريد اختبار فرضية ما".

حاول ليستراد تتبع خط أفكاري المتعرج، ولكني لم أسهل عليه الأمر. في واقع الأمر، كنت حائرًا أنا الآخر.

قلت: "ليستراد، ظن هولمز أنه لن يتم إطلاق سراحه. الآن، لماذا قد يحدث ذلك؟ إلّا إذا كانت هناك مؤامرة شريرة نوعًا ما تدور في الأرجاء. لماذا لم يرسل توماس هنري هولمز إلى شقته مثلما قد يفعل أي طبيب بعد معالجة مريضه بنجاح من آثار نوبة صرع بكل يُسر؟".

قال ليستراد: "ربما كان هولمز مريضًا أكثر مما كنت تتخيل؟".

قلت: "حتى لو كان الأمر كذلك، لماذا لم يخبرني بذلك؟ لماذا لم يطلب استدعاء مايكروفت، شقيق هولمز؟". عدلت من جلستي على المقعد، وقلت: "تلك هي يا ليستراد. علينا أن نزور مايكروفت. هو من سيكون لديه علم بما حدث".

عندما لاحظت أن ليستراد ليس مقتنعًا تمامًا بأنني توصلت إلى خطة عمل مثمرة، استفضت في محاولة لتوضيح حجتي: "هناك رجلان يستمران في الظهور على هامش حياتنا مرارًا وتكرارًا. كما لو أنهما يتتبعاننا أو نحن من نتبعهما. بالطبع نحن لا نتبعهما. على الأقل، ليس عن قصد. ولكن تلك المصادفات العديدة تستحق التحقق من إذا ما كانا يتتبعان خيط التفكير نفسه الذي يتبعه هولمز أم لا".

رفع ليستراد يديه في الهواء، وقال: "ليس لدي أدنى فكرة عما تريد قوله يا دكتور واطسون. حديثك ليس مفهومًا".

أعلم ذلك بالفعل. مثلما وضح هولمز الأمر من قبل، كنت أضع قطع الأحجية بعضها إلى جوار بعض. ولكن في الوقت الحالي، لا أملك سوى عدد قليل من القطع التي وضعتها في أماكنها.

قلت: "تعال معي للتحدث مع مايكروفت هولمز. افعل ذلك، ولن أضايقك مجددًا أيها المفتش".

عندما بدا التردد على ليستراد، أضفت: "إذا ما وجد هولمز هوية جاك السفاح بالفعل، ألن تريد أن تكون موجودًا لينسب الفضل إليك في اكتشافه؟".

تلون وجه ليستراد بدرجة من اللون القرمزي غير جذابة، وقال: "هذا لن يكون صائبًا".

"أوه، ولكني أعتقد عكس ذلك. تذكر... هولمز أرسل لك الملاحظة. إنه يريد أن ينسب الفضل إليك. لتفكر فيما يمكنه أن يضيف ذلك لمكانتك داخل سكوتلاند يارد".

كانت تلك الكلمات كافية لانتزاع ليستراد المتردد من موضع راحته وسط مكتبه الفوضوي، وإلى الشارع حيث أوقفنا عربة أخرى.

داخل نادي ديوجينيس، أوضحت للمدير عن غايتي في رؤية مايكروفت هولمز، قلت: "وهذا هو المفتش ليستراد من سكوتلاند يارد. إنه يرغب في رؤية مايكروفت هولمز أيضًا".

قال مدير النادي: "هاه... من المؤسف أنك لم تحضر قبل عشر دقائق".

سألته: "هل فوتنا مقابلة مايكروفت هولمز؟".

"لا يا سيدي، ولكن السيد هولمز أرسل رسالة شخصية إليك يطالبك فيها بعدم إزعاجه. كان هذا ليوفر عليك مشقة المجيء إلى هنا". ثم لوح المدير بيده، مشيرًا إلى دفتر السجلات، والذي يتوجب على كل الأعضاء والزائرين أن يوقعوا عليه وبيان الغرض من زيارتهم. وقعت اسمي بالفعل إلا أن ليستراد كان لا يزال مأخوذًا بالمكان من حولنا. كان يقف في الردهة كصبي مذهول من رؤية حبيبته الأولى. تمتم قائلًا: "يا للعظمة، لم أتخيل هذا المكان بتلك الصورة".

دفعت دفتر السجلات بطرف أصبعي ناحيته، وقلت: "تحتاج إلى التوقيع هنا. الجميع مطالبون بفعل ذلك".

بينما أخذ ليستراد يوقع بدقة تامة في الصفحة اليمنى على مهل، لاحظت توقيع هيسلوب وبيرسفيل على الصفحة اليسرى، والذي يشير إلى مجيئهما ورحيلهما. لقد سبقانا بالمجيء إلى هنا قبل نصف ساعة أو نحو ذلك. وهذا يؤكد... على ماذا تحديدًا؟ أن جهودهما تتشابك مع ما نحن -أنا وهولمز- منخرطان فيه بطريقة ما؟

قدت ليستراد إلى مكتب مايكروفت رغمًا عن الرسالة المزعومة الموجهة إلي، والتي تحثني على مغادرة المكان. حدجني شقيق هولمز الأكبر بنظرة غاضبة عندما طرقت الباب لمرة واحدة قبل أن أدخل. حاول أحد أتباعه منعي إلا أن مايكروفت لاحظ من النظرة البادية على وجهي أنه لا يمكن الاستهانة بي. في واقع الأمر، كان مسدسي العزيز في جيبي. سأخرج هولمز من تلك المصحة بطريقة أو بأخرى.

تراجع مايكروفت في مقعده في دهشة، وشبك أصابعه معًا، وقال: "نعم؟".

قلت: "شقيقك محتجز في مستشفى بيت لحم. وبصفتك أقرب أقربائه، يعتمد الأمر عليك بالكامل في إخراجه. وبالمناسبة، هذا هو المفتش ليستراد من سكوتلاند يارد".

كانت لدي شكوك في أن مايكروفت يعرف ليستراد بالفعل، ولكنني لم أرغب في المخاطرة لحدوث أي سوء تفاهم.

كان ليستراد يبذل أفضل ما لديه ليبدو غير مهتم بما يدور حوله، إلا أن رؤية عشرات الرجال وهم يكتبون، ويرتبون الملفات، ويعملون على مكاتبهم هنا في الأسفل، لم يكن بوسع المرء معها سوى الإحساس بالإرهاق. كانت هذه هي حكومة الظل. وكان هذا المكان بمثابة مجموعة عمل لإدارة شؤون أمتنا مثله مثل البرلمان أو الصندوق الأحمر للملكة. لم تكن هناك حاجة لإهانة ذكاء ليستراد لأخبره بحقيقة هذا المكان. لقد أدرك الرجل كل هذا غريزيًّا.

حدق مايكروفت إلي، وقال: "لا".

"عفوًا؟".

"لا. لن أوقع على طلب خروج شيرلوك. ليس في الوقت الحالي". ثم ابتسم ابتسامة ماكرة رأيت فيها ظلال شقيقه، ولكن على عكس ابتسامة شيرلوك الماكرة -والتي تولد من سرعة بديهته- كانت ابتسامة مايكروفت مخادعة إلى حد ما.

كدت أقفز فوق المكتب. كنت لأفعل ذلك حقًّا لولا أن ليستراد أمسكني من ذراعي ومنعني من فعل ذلك.

قلت: "هل ستترك أخاك هناك؟ في بيت المجانين هذا؟ وسط تلك الأرواح الممسوسة والبائسة؟".

بدا مايكروفت مسرورًا للغاية بنفسه، وقال: "نعم، سأفعل ذلك في الوقت الحالي".

انتفضت في غضب وقلت: "لا يمكنك أن تكون جادًّا. مايكروفت هولمز... أي نوع من الإخوة تكون؟".

قال: "في الوقت الراهن، يجب ترك أخي حيثما يوجد من أجل المصلحة العامة".

ثم مال برأسه كما لو أنه يتفحصني، وتابع قائلًا: "بالتأكيد، لقد كنتَ رجلًا عسكريًّا، وكنت على استعداد للتضحية بحياتك من أجل بلادنا، فأنت تشاركنا نفس حبنا لوطننا".

"كيف تجرؤ على مقارنة حياتي العسكرية بما يحدث مع شقيقك؟! لقد أرسل إليك رسالة. ولا شك أنه طلب مساعدتك فيها!".

أمسك مايكروفت بكرة ورقية مجعدة استقرت أعلى قمة سلة مهملاته، وقال: "هذا صحيح. لقد أرسل إلي رسالة بالفعل. وأنا أرسلت إليك رسالة أخبرتك فيها ألا تزعجني. لقد قلت لك إنني سأساعده. ولكن ليس الآن".

سحبني ليستراد من ذراعي في محاولة لإبعادي عن مايكروفت. كنت غاضبًا للغاية لدرجة أنني رأيت وميضًا أحمرَ ساطعًا. نادرًا ما شعرت بهذا النوع من الكراهية حتى في خضم أرض المعركة، وبالتأكيد لم أشعر بمثل هذا النوع من الغضب

أيضًا. لو كانت لدي القدرة، كنت لأنتزع رأس مايكروفت هولمز عن جسده.

***

في الشارع، تنهد ليستراد وقال: "لم أكن لأفعل شيئًا كهذا قط. هل لديك أي أشقاء؟".

وبدون أن ينتظر ردي، تابع قائلًا: "نحن ستة أشقاء. ثلاثة ذكور وثلاث بنات. لا يوجد هناك أي شيء لا يمكنني فعله من أجل أسرتي. لا شيء. دعني أخبرك: الأسرة تأتي في المقام الأول حتى لو أنني أقسمت على خدمة جلالتها. أي شيء غريب هذا. مجرد التفكير في أن شيرلوك هولمز لا يستطيع الاعتماد على شقيقه. من كان ليتوقع هذا؟".

"حسنًا... شيرلوك هولمز يمكنه أن يعتمد علي". ثم أخذت بضع خطوات للأمام، وأشرت لإيقاف عربة، وقلت: "لقد توقع أن يحدث كل هذا. كانت كلماته الأخيرة هي: إذا لم أستطع رؤيته في التاسعة صباحًا فعلي العودة مجددًا وسأجده على السطح في الحادية عشرة".

فتح ليستراد باب العربة وقال: "ماذا؟ السطح؟ هذا كلام لا معنى له".

عندما أصبحنا بداخل العربة، قلت: "قد يكون ذكره للسطح لا معنى له بالنسبة لك، ولا حتى أنا. ولكن لا بد وأن لهولمز

خطة ما. فهو ليس من عادته أن يتصرف بغرابة هكذا، وبخاصة عندما يكون الموضوع هامًّا مثل هذا. كنت موجودًا عندما أخبر السيد رين أن يتحلّى بالشجاعة، وأنه سيخرجه من مستشفى بيت لحم. ورأيته عندما أرسل ثلاث رسائل. واحدة إليك، وثانية إلى مايكروفت، وثالثة لشخص لا أعرف هويته. ولكني أراهن على أن إرساله لتلك الرسائل كان بمثابة نقطة البداية لتنفيذ خطته".

قال ليستراد: "حسنًا. يمكنني دائمًا أن أخبر رئيسي في العمل بأنني كنت ألاحق خيطًا يتعلق بالسفاح. أنا معك يا دكتور واطسون. ما الذي تقترح أن نفعله؟".

قلت: "أرى أن نقف خارج مستشفى بيت لحم وننتظر الإشارة. لم يطلب هولمز أن أقتحم بوابات المستشفى، وهو يعلم أنني بمقدوري فعل هذا. ولم يطلب مني أن أجبر مايكروفت هولمز على أن يتدخل، ولم يطلب مني أن أتسلل داخل المبنى وأخرجه منه... كانت هذه احتمالات عديدة متاحة أمامه، كان بإمكانه أن يطلب مني فعل أي منها، ولكنه لم يفعل. لم يطلب منك أن تفعل أيًّا منها أيضًا، أليس كذلك؟".

أومأ ليستراد برأسه مفكرًا: "هذا صحيح. أي نوع من العلامات تعتقد أنه سيرسله؟".

قلت: "لا أعرف. كل ما أعرفه هو أنني سأقف خارج المستشفى آملًا ومتيقظًا. وعندما تظهر الإشارة، سأفعل ما

يتوجب علي فعله لمساعدة صديقي. أما بالنسبة لك، فأعتقد أنك ستفعل الشيء نفسه، لأن الفرصة لا تزال موجودة وأن هولمز لا يزال بإمكانه مساعدتك في القبض على السفاح".

قال ليستراد: "بالتأكيد. أنا معك".

الفصل الحادي والعشرون

وهكذا وجدنا أنفسنا نقف على الرصيف بطريقة مُحرجة في الجهة المقابلة لمستشفى بيت لحم مباشرة. سألنا الحوذي إذا ما كنا نريد منه أن ينتظرنا أم لا. أخرجت ساعة الجيب من سترتي، ووجدت أن الساعة تقترب من الحادية عشرة.

قلت: "انتظرنا رجاءً". إذا ما كان هولمز صادقًا في وعده، وهو أمر أثق به تمامًا، فهذا يعني أنه سيحضر السيد رين معه عند هروبه. وحتى لو كانت حالة هولمز تسمح له بالوقوف في انتظار عربة الأجرة، فأنا ليس لدي أدنى فكرة عن الحالة التي سيكون عليها السيد رين. لذا من الأفضل أن نكون مستعدين.

استند ليستراد إلى جذع شجرة دُلب، وقال: "عندما أفكر في الأمر أجده طريفًا. لم أظن أبدًا أن هناك شخصًا قد يرغب في دخول هذا المكان طواعية".

أحسست بالقشعريرة، فقلت: "صدقني... لن يفعل أي أحد ذلك. أحس هولمز أنه من الضروري فعل ذلك. وليس بوسعي

التفكير سوى أنه كان على علم بمؤامرة وضيعة، وإلا لم يكن ليقترح هذا الأمر المحفوف بالمخاطر...".

بيد أني لم أتمكن من متابعة خيط أفكاري، فقد رأيت هلالًا أزرق اللون يرتفع من خلف المستشفى. في البداية، لم أفهم ما الذي أراه بالضبط. أخذت أرمش أولًا، ثم ضيقت من عيوني، وأخذت أحدق إلى ذلك الشيء.

قال ليستراد: "انظر! إنه واحد من تلك المناطيد الطائرة". كان إصبعه السبابة يشير مباشرة أمامنا مثل أنف كلب صيد حسن التدريب. بينما أخذت أتبع اتجاه أصبعه، بدأ الهلال يكبر شيئًا فشيئًا. يا له من منظر رائع! كان البالون الحريري قد صُبغ بلون أزرق لامع، مثل أزهار الجريس التي تزهر في الغابات الإنجليزية. وفي الوقت الذي ارتفع فيه في بطء وعظمة، تمكنت من تمييز خطوط الحبال التي امتدت من أعلى إلى الجانب، وعندئذ...

ارتفع المنطاد قليلًا لتظهر سلة مصنوعة من الخيزران. تباين لون السلة الذهبي مع اللون الأزرق اللامع للبالون، والأزرق اللطيف للسماء الصافية من وراء المنطاد. كانت هناك نقاط من السحب البيضاء شكلت خلفية مثالية للمنظر برمته.

ارتفع صوت هدير لهب، لتندفع شعلة من النار الزرقاء إلى الأعلى، ونحو فم البالون، لتسخن الهواء على نحو يجعله يرسل المركبة الهوائية إلى أعلى وأعلى.

خلال هذا الوقت، تجمع حشد صغير من المتفرجين. ركض الأطفال الذين كانوا يلعبون الحجلة إلى منازلهم لينادوا أمهاتهم. نساء يرتدين مآزرهن خرجن لرؤية الكرة الزرقاء وهي تكبر شيئًا فشيئًا، وتنجرف في اتجاه المستشفى أكثر وأكثر.

عندئذ رأيتهما. هولمز وطيف آخر هزيل، والذي كان متمايلًا ومتثاقلًا في مشيته. كان صديقي يقف على سطح المستشفى، وكان يمكنني التخمين من طريقة مشيته أنه يرشد السيد رين في خطواته، ولكن إلى أين؟ حجبت الشمس بإحدى يدي، وحدقت بشدة ناحيتهما. كانت الشمس في ظهورهما مما صعب من عملية رؤيتهما. ولكن لاحظ ليستراد ما فاتني.

أشار إلى سلم مجدول من الحبال يتدلى من أسفل السلة، وقال: "انظر! هناك سلم! يتدلى هناك!". التوت حواف السلة اللينة وتمايلت، بينما واصل المنطاد صعوده نحو السماء. تذكرت ما قاله إس. إيه. أندريه من قبل خلال محاضرته في نادي ديوجينيس.

قلت مكررًا ما سمعته من المسكتشف السويدي: "هناك تيارات هواء مختلفة على ارتفاعات مختلفة. ومن خلال ضبط نفاثات الهواء الساخن، واستغلال مدى ارتفاع المنطاد، يمكن للطيار فور عثوره على تيار الهواء المناسب أن يتحرك به شمالًا أو جنوبًا، شرقًا أو غربًا".

قال ليستراد ملاحظًا: "هذا المنطاد لن يذهب بعيدًا".

"لمَ لا؟".

"إنه مقيد. ألا ترى؟ هناك حبل يقيده إلى شيء ما وراء مبنى المستشفى. إنه يمنعه من الطيران بعيدًا. والآن! انظر هناك؟ هل تعتقد أن هذا هو هولمز؟". ثم أشار ناحية هيئتين متقاربتين. بدا أن أحدهما يبدو على وشك القفز باتجاه السلم المتدلي من المنطاد.

قلت: "نعم، نعم، أنا واثق من هذا". ولكني فكرت في داخلي: هولمز، لا أعرف إذا ما كنت عبقريًّا أم أحمق. كيف سيحمل السيد رين معه خلال هروبهما؟ بالتأكيد هولمز قويٌّ ورياضيٌّ. ولكن أن يحمل رجلًا آخر مع إدراكه التام أن سقوطه سيكلف الرجل حياته، كان بمثابة مخاطرة كبيرة. بدا السيد رين واهنًا. وشككت بشدة في كونه قادرًا على التمسك بالسلم، حتى ولو لدقائق معدودة. إذا تطلب المنطاد وقتًا أطول لإعادة سحبه، فمن المحتمل أن يسقط السيد رين ويلقى حتفه!

سأل ليستراد: "ما الذي يخططه هولمز؟". بدا كما لو أن سؤاله خارج من فمي. لم يكن بمقدوري الإجابة. بدلًا من ذلك، تابعت النظر إلى المشهد الذي يتكشف من أمامنا، فسألت نفسي: ماذا كنت سأفعل لو كنت مكان هولمز؟

كان السلم المصنوع من الحبال يتأرجح بطول السطح، بينما كان هولمز والسيد رين يقفان في المنتصف تمامًا. وبينما كنت أراقبهما، امتدت يد هولمز ناحية السماء في ترقب

للإمساك بالسلم أثناء مروره من أمامه. بشكل غريب، انتصب السيد رين واقفًا إلى جوار هولمز. هل من الممكن أن يكون هذا الرجل المريض أقوى مما كنت أظن؟ لقد قال توماس هنري من قبل إنه ذهل من رؤية عضلات مريضه، على الرغم من كونه هزيلًا. وحتى لو كان هذا صحيحًا، كان من المخاطرة الثقة تمامًا بأن السيد رين يمكنه التعلق بالسلم. مقامرة حياة أو موت. وبالمثل، كانت ثقة هولمز في التمسك بالسيد رين، تُعدّ مخاطرة من جانب صديقي. ما هي الخيارات الأخرى المتاحة لدى هولمز؟ طغى علي إحساس مؤقت باليأس، إلى أن رأيت خطته الجريئة تلك.

حبست أنفاسي. بيد واحدة ممدودة للأمام، نجح هولمز في الامساك بالسلم.

ازداد صخب الأصوات مع تزايد أعداد المتفرجين. تصاعد العدد من دزينة من الأشخاص، إلى ثلاثين أو أربعين شخصًا يقفون إلى جوارنا على الرصيف، ويحملقون في العرض المذهل في السماء. سأل طفل صغير: "هل هذا سيرك؟" تمنيت لو كان بمقدوري الضحك، ولكني كنت قلقًا للغاية على سلامة الرجلين.

أمام أعيننا، تكشف المشهد الخيالي، والمثير، والمخيف. كانت الألوان بمفردها حابسة للأنفاس: اللهب الأزرق الهيدروجيني الشاحب، السلة الذهبية المصنوعة من سلال

الخيزران، والأشرطة الجلدية البنية على السلة، زرقة السماء الخافتة، والسحب البيضاء التي تطفو عبرها، وغلاف البالون الحريري بلون أزهار الجريس الزرقاء الزاهية. مع مرور إحدى تلك الغيوم أمام قرص الشمس لتضعف معها وهيجها، بات بإمكاني رؤية هولمز وهو يعقف إحدى قدميه فوق السلم، ثم حشرها بين سلمتين. وهو ما نتج عنه تثبيت الجزء السفلي من جسمه في موضعه. كان يتشبث بالسلم بكلتا يديه، وكان السيد رين ملتصقًا به بطريقة ما، أو هكذا ما بدا عليه الأمر. ولكني لم أتمكن من معرفة كيفية فعله لذلك.

كم من الوقت يمكن للطيار أن يبقي المنطاد في موضع واحد؟ هل ستكون الفترة كافية حتى ينجح هولمز في اتخاذ ترتيباته التي يحتاجها أيًّا كانت ماهيتها لضمان سلامة المريض؟ تسارعت ضربات قلبي، وبدت مسموعة، حتى مع صراخ الحشد الذي تجمع من حولي وحول ليستراد في حماسة.

ارتفعت شعلة من النار في هدير قوي، لتنتج هواء ساخنًا رفع المنطاد برفق إلى أعلى. أحسست بالعرق يتجمع فوق جبهتي. لم أر بعد ما الذي يربط هولمز والسيد رين معًا، ولكن مع ارتفاع المنطاد تدريجيًّا في السماء، أخذ الحشد يهتف بصيحات التشجيع. صراخ امرأة، صياح طفل. ببطء ارتفع المنطاد أكثر من ذي قبل.

وببطء شديد، بدأ المنطاد بالهبوط. في البداية، شككت في ما أراه. هل كان غلاف المنطاد يتحرك أم لا؟ صوبت عيني

على المنطاد، وبدأتُ في عد الأشكال الماسية المتقاطعة التي شكلتها الحبال التي تربط الغلاف بالسلة. بلى، انخفض عدد الماسات، وهو ما يعني أن المنطاد يتم سحبه إلى القاعدة التي تربطه بالأرض.

قلت لليستراد: "هيا بنا. يجب أن نغير مكاننا".

قال ليستراد بحكمة: "دعني أخبر الحوذي بأن يقابلنا في الخلف". إذ تزايدت أعداد المتفرجين، وأصبحت العربة غير قادرة على المرور عبر الجموع. ولمقابلتنا، كان على الحوذي أن يأخذ عدة منعطفات ويدور من حول بعض الشوارع. كنت بالكاد أستطيع رؤية سقف العربة من وراء رؤوس المتفرجين الذين تجمعوا هنا. بعد ذلك، انطلقت العربة مبتعدة عن الجموع الغفيرة والمتزايدة.

التحق ليستراد بي، وقال: "سيقابلنا هناك. يمكننا أن نسبقه ونصل أولًا". ثم أومأ برأسه، وشق طريقًا عبر المارة. عندما تملصنا من الحشد أخيرًا، بدأنا بالركض معًا. كان المبنى الرئيس لمستشفى بيت لحم مهيبًا، ضخمًا، ويمتد ليغطي مساحة تضاهي عدة بنايات في المدينة. بالإضافة إلى أنه ينتهي بجناحين عند كل طرف، ويماثلانه حجمًا. لذلك، وجدنا أنفسنا كما لو كنا نركض للأبد، فقط لنلتف عند إحدى الزوايا لنتابع الركض على طول الجناح قبل أن نأخذ منعطفًا آخر. عندئذ لاحظنا فريقًا أرضيًّا مكونًا من ستة أشخاص يدققون النظر في

غلاف المنطاد الطائر فوق رؤوسهم، بينما يسحبونه بالتناوب فيما بينهم. كان نشاطهم يتطلب الحذر والانتباه للتفاصيل. كان رئيس العمال يأمر فريقه بالتوقف الكامل في أي لحظة ينحسر فيها المنطاد إلى أحد الجوانب أو ينجرف بطريقة قد تجعله يصطدم بالأشجار القريبة، ويمدد جزءًا من الحبل الذي يمسك بالمنطاد على أمل أن يزيد من استقراره في الهواء. بدا أن عملية الهبوط مستنزفة للوقت، وخاصة لأن المنطاد كان قريبًا جدًّا من المبنى. وفي حالة علق النسيج الحريري لغلاف المنطاد به؛ فقد يتسبب ذلك في حدوث تمزق أو فتق. وكذلك سيتسبب تسرب الهواء الساخن في إسقاط المنطاد أرضًا، وسيكون تأثير هذا التمزق كارثيًّا، ستتحول معه عملية هبوط المنطاد من عملية يمكن التحكم بها إلى سقوط لا يمكن التحكم به.

انضممنا لمساعدتهم دون أن يطلبوا ذلك. أضفنا ثقل أجسادنا إلى الحبال التي تربط المنطاد. صاح أحد أفراد الطاقم: "اسحبوا!". ازدادت شدة الحبال، وبدت كما لو أنها تبذل أفضل ما عندها للعمل ضد إرادتنا لتسحبنا باتجاه السماء.

ذكرتني تلك العملية بصيد سمك السلمون الكبير. ترخي خيط الصنارة بما يكفي لمناورة السمكة خلال اصطيادها، ثم تسحبها نحوك عندما تتعب في النهاية.

لسوء الحظ، كان تموضعي يكاد يكون أسفل السلة مباشرة، لم يكن بمقدوري رؤية نوعية الحالة التي عليها هولمز. وهذا

يعني أنه لم تكن لدي أي فرصة للتحقق من كونه والسيد رين لا يزالان على متن المنطاد وآمنين. كل ما كان يمكنني فعله هو المساعدة في شد الحبل.

صاح أحد أفراد الطاقم: "إنه قادم إلى الأسفل. أمسكوا به!". استمر اثنان منهم في سحب الحبل بينما يوجهان الحبل السميك إلى أحد الجانبين، لمنعه من التشابك مع غلاف البالون. وبحركات تم التدريب عليها مسبقًا، أمسك الرجال الأربعة الآخرون بقاع السلة، وسحبوها باتجاه الأرض. حركوا السلة في حذر ناحية الأرض، لأن جوانب سلة المنطاد كانت لا تزال على ارتفاع أربعة أقدام، وما أن تهبط تمامًا إلى الأرض، سيحتاج الركاب إلى النزول منها. عمل الطيار على إيقاف محركات الهيدروجين بينما رفع رجلًا واهنًا برفق فوق أحد جوانب السلة الخيزرانية، ثم وضعه جانبًا. كان السيد رين ضعيفًا للغاية ليتمكن من الوقوف على قدميه بمفرده، لذلك هرعت ناحيته بصحبة ليستراد. كانت رائحة جسده الذي يفتقر للاستحمام ويحمل الوساخة المنتنة والمرض قوية للغاية لدرجة ظننت معها أنني قد أصاب بالغثيان.

سأل ليستراد بينما وضع ذراعه أسفل كتفي السيد رين: "من هذا؟". كانت لا مبالاة ليستراد تجاه نظافة الرجل الشخصية تعد بمثابة أكثر الأمور ترحيبًا في ظل هذه الظروف الصعبة.

قلت موضحًا: "هذا السيد رين. سأتولى أمره. يمكنك الذهاب لرؤية هولمز إذا ما أردت ذلك".

فعل ليستراد ما طلبته منه. عرض يده لمساعدة هولمز. رفع اثنان من أفراد الطاقم هولمز من تحت إبطيه، وثبت ليستراد صديقي أثناء نزوله من أحد جوانب السلة. رمقت هولمز بنظرة سريعة لأدرك أن الأخير في حالة يرثى لها، ولكنه كان بخير. ظهرت دوائر سوداء أسفل عينيه، وبدا وجهه النحيف أكثر نحولًا من ذي قبل. تبادل مع ليستراد التحايا قبل أن يترنح في خطواته في اتجاهي. كنت مسرورًا لرؤية صديقي القديم.

صحت: "هولمز! حمدًا لله أنك بخير!".

ولكن في تلك اللحظة، تعثر في خطواته، وكاد أن يسقط أرضًا. أمسكته من ذراعه، وسرعان ما أدركت أن الوقت الذي قضاه في بيت المجانين هذا، ومسؤوليته عن سلامة السيد رين قد استنفدا طاقته بالكامل، وعلى نحو خطير.

الفصل الثاني والعشرون

كان الثنائي هولمز والسيد رين مغطيين بالقذارة، ومتعبين، وجائعين، ويعانيان من جفاف حاد. هرعنا بهما عائدين إلى المنزل رقم ٢٢١ من شارع بيكر. ساعد ليستراد هولمز بينما ساعدت السيد رين في صعود الدرج. بمجرد وضع السيد رين على الأريكة، وهولمز على سريره، لن يكون من الصعب علي الاعتناء بهما وبخاصة بعد عملي في المستشفى الميداني العسكري سابقًا.

قال ليستراد: "من الأفضل أن أعود إلى مركز الشرطة. أعلمني بالأمر عندما يتعافى هولمز وهذا الرجل. وسأعود لمقابلتهما. على ما يبدو فإن هناك عدة أشياء سيئة تدور في ذلك المستشفى. وإلا فلمَ لمْ يسمحوا لهولمز بعودته إلى منزله؟ هذا ليس منطقيًّا على الإطلاق. سيخمنون أنك لن تجعل الأمر يمضي بسهولة بعد إطلاق سراحه".

قلت موافقًا: "لا يمكنني بعد تخمين السر من وراء سلوك مايكروفت الغريب".

ما أن علمت السيدة هدسون أن لدينا رجلين في الشقة في صحة سيئة؛ حتى بدأت تتحرك في الأرجاء كما لو كانت فلورنس نايتينغيل بشحمها ولحمها. كرست نفسها لهولمز بشكل خالص، ولكن سرعان ما جعلت طبيعتها الطيبة توسع نطاق رعايتها لتشمل زائرنا الجديد السيد رين. حملت مالكة المنزل العزيزة أباريق تحتوي على كميات كبيرة من المياه الساخنة، بالإضافة إلى مجموعة من الملابس الداخلية، وقطع صابون جديدة. لم يكن هولمز متسخًا بنفس قدر السيد رين، لذا بمجرد أن تناول بضعة أكواب من المياه، كان قادرًا على العودة إلى غرفته لتنظيف نفسه. وبعد أن انتهى من ذلك عاد ليستريح في كرسيه المفضل، وشرع يحتسي عدة أكواب كبيرة من الشاي بينما تناول مجموعة من الشطائر الصغيرة التي كانت مخصصة بالأساس لطعام الغداء في الكنيسة. قالت السيدة هدسون: "أنا واثقة من أن سيدات الكنيسة سيتفهمن الأمر".

كانت مهمة تحميم السيد رين غير سارة بالمرة، كذلك لم يكن بإمكاني إيكالِها إلى شخص آخر. لم يكن ليرتاح ضميري لو فعلت ذلك. لقد رأيت مرضى أسوأ من حالته بكثير عندما كنت طبيبًا في الجيش. أتاح لي نزع أسمال الرجل القديمة الفرصة لفحص جروحه المتنوعة. تيبست ملابسه بسبب الدماء الجافة عليها، ولكنها لم تبد أنها دماؤه. كانت هناك علامات إبر حقن تشي بأنه كان يُحقن بجرعات من المهدئات، أو أن الدماء

كانت تسحب منه. ومع الأخذ في الحسبان مستوى جفافه، كنت لأراهن على أن الاحتمال الثاني هو الأكثر ترجيحًا.

كان هناك القليل مما يمكن معرفته. كما أدركت أن السيد رين آسيويٌّ بالفعل. لا بد وأن لون شعره تحول من الأسود إلى الأبيض، عدا ذلك فقد عاد جسده إلى لون بشرته الطبيعي. حاولت محادثة الرجل، التمعت عيناه لتشيا بفهمه لكلامي، ولكن الرجل المسكين كان مرهقًا للغاية لدرجة لا تسعفه للتواصل معي.

بعد عدة محاولات فاشلة لطرح الأسئلة، اخترت أن أعيد تكرار بضع عبارات مهدئة مرارًا وتكرارًا. وما أن انتهيت من عملية تنظيفه، ساعدته على ارتداء زوج من منامتي القديمة، وقدته إلى الأريكة. تكرمت السيدة هدسون بتغطيتها بملاءة نظيفة أولًا، ثم ساعدتني على وضع السيد رين على الأريكة.

شرعت المرأة الطيبة في إطعام السيد رين مرق العظام. ويا له من مشهد غريب! أعني، كونها تمثل جوهر روح الفضيلة، والرجل المضطجع على أريكتها الذي تم معاملته كمشرد سابقًا. يا له من تناقض غريب! لا توجد أم بمثل طيبة ولطف السيدة هدسون.

بعد أن استغرق السيد رين في النوم. ترددت السيدة هدسون عند باب شقتنا قبل مغادرتها. كانت تمسك في إحدى يديها وعاءً فارغًا يحتوي على آخر قطرات الحساء، بينما

أمسكت بمنشفة كانت تستعملها في مسح بقايا الحساء من تحت فم السيد رين في يدها الأخرى. سألت وهي تنظر ناحية السيد رين: "ماذا حدث لهذا الرجل المسكين؟ يبدو كما لو أن أحدهم حاول عصره عصرًا".

قلت: "بصراحة، لا أعرف. هذا هو بالضبط ما كنا نحاول كشفه عندما حدث كل هذا. أعلم أن هولمز سيبدي امتنانه لك بمجرد أن يحصل على قسط وافر من الراحة. أنت حقًّا رائعة يا سيدة هدسون".

احمر وجهها، وسعلت، وقالت: "إنني أفعل ما يأمرنا به الكتاب المقدس".

إذا كانت فكرة وجود رجل صيني تحت سقف منزلها تزعجها؛ كانت لتواجه صعوبة في تمالك أعصابها. فقد كان هذا مستوًى آخر ومختلفًا تمامًا عن الحماقات المعتادة التي نظهرها أمامها بصورة دورية، كنت مسرورًا من كل قلبي بأن عطفها وتعاليمها الدينية امتدت لتشمل رجلًا من عرق آخر يعاني.

نام هولمز لمدة ثماني عشرة ساعة متواصلة بعد طيرانه داخل المنطاد. استيقظ ليشبع جوعه، ووعدني بأنه سيكشف عن تفاصيل مغامراته عندما يحين الوقت المناسب. وجدت هذا غير مرض للغاية. وعندما طلب مني إرسال رسالة قصيرة إلى مايكروفت ليخبره من خلالها بعودته إلى المنزل رقم

٢٢١ب من شارع بيكر، لم يسعني سوى أن أرفض طلبه رفضًا قاطعًا. قلت: "لا يمكن التغاضي عن سلوك شقيقك الفظ. إن كان يهتم بسلامتك حقًّا؛ فعليه أن يثبت ذلك. أنا لن أكون هذا الشخص الذي يلعب دورًا لتحسين مزاجه الشخصي وقلقه. إذا كتبت إليه بالفعل، فيمكنك أن تضيف عدة سطور تخبره فيها بأنه سيتعين عليه تقديم العديد من الاعتذارات، إذا كان لا يزال مهتمًّا بأن أبقي على انطباعي الجيد عنه".

على الرغم من رفضي، تمكن هولمز من كتابة بضعة سطور قبل أن يرسل الرسالة عبر البريد. لم يبد أن الرسالة قد أثرت في مايكروفت بشكل ما أو آخر.

هذا أمر مؤكد، لأنه لم يكلف نفسه عناء الرد عليها. كان مايكروفت هولمز هو الشخص الوحيد في لندن الذي لا يبدي إعجابه بشقيقه! أخبر المارة والمتفرجون -ممن شاهدوا عملية الإنقاذ- الصحفيين بأن شيرلوك هولمز هو أشجع رجال لندن بلا أدنى شك! أفاض المتفرجون بعواطفهم لرؤيتهم لعملية الإنقاذ الجريئة التي تصدى لها هولمز.

بالإضافة إلى شيرلوك هولمز، فقد تلقى إس. إيه. أندريه إشادة من الصحف العديدة. كان هناك اعتراف عام بشأن جهوده وجهود طاقمه، إذ وصفوا بكلمات من نوعية: "بطولية، وتتحدى الموت، ومدهشة".

كنت قد عبّرت عن امتناني لقائد المنطاد وطاقمه شخصيًّا عندما حملنا هولمز والسيد رين إلى داخل العربة، ولكني رأيت

أن امتناني ليس كافيًا، لذلك كتبت إلى السيد أندريه رسالة أثني فيها على مهاراته وتدخله في الوقت المناسب. ووعدته بأنه إذا ما وجد نفسه في حاجة إلى تمويل لاستكشافاته؛ فإنني سأبذل كل ما في جهدي لمساعدته في جمع الأموال.

خلال الأيام التالية، استعاد السيد رين قوته أكثر وأكثر، وواصلت السيدة هدسون في التحقق من أن ضيفنا يطعم بصورة مناسبة. وبالفعل، لقد اهتمت به بالطريقة نفسها التي يعتني بها المرء بالشخص المريض. في اليوم الثالث من إقامة السيد رين في شقتنا، ذكر للسيدة هدسون وصفة اعتادت أمه على إعدادها كوجبة مقوية لاستعادة الصحة والحيوية. فقالت السيدة هدسون في حماسة حقيقية: "سأكون مسرورة إذا ما علمتني طريقة إعداد هذا الحساء. ستكون تلك إضافة مرحبًا بها إلى قائمة وصفاتي القليلة. سأذهب إلى السوق لإحضار المكونات إذا ما زودتني بقائمة بما تحتاجه".

سألتُ: "هولمز؟ هل ستخبرني يومًا ما عما حدث؟". بينما مررت إليه صحيفة ذا تايمز في صباح اليوم، بعد مرور أربعة أيام على هروبه. وتابعت سؤاله بينما كان السيد رين في المطبخ بالطابق الأسفل يرشد السيدة هدسون إلى طريقة عمل الحساء المقوي للصحة: "أو حتى مجرد فكرة عن المدة التي سيبقى فيها السيد رين ضيفًا علينا؛ ربما معرفة ذلك قد تكون مفيدة".

أخرج هولمز غليونه من فمه، وقال: "هل أنت حريص على التخلص منه سريعًا هكذا؟ هل يزعجك؟".

قلت ساخرًا: "على الإطلاق. ولكنك أنت من يفعل ذلك. أنت تطلب الكثير مني يا هولمز، وفي المقابل تمنحني القليل. لديك إجابات على الأسئلة التي أزعجتنا، ولكنك ترفض مشاركة ما توصلت إليه معي أو حلك لهذا اللغز. حتى هذا اليوم، ما زلت لا أعرف لماذا أصررت على قضاء تلك الليلة في مستشفى المجانين، وبخاصة وأنت تعلم تمامًا أنه سيتم احتجازك سجينًا هناك. تبًّا لكل هذا! لقد كنت قلقًا للغاية!".

ضحك ضحكة خافتة، وقال: "واطسون المسكين، والذي أسيء معاملته. لدي الرغبة في مشاركة كل التفاصيل الصغيرة. ولكن، عليك الإقرار أيضًا بأن هذه هي حكاية السيد رين ليحكيها. وقبل أن يتصاعد غضبك ناحيتي، أريد أن أخبرك بأننا تناقشنا معًا عن حاجتك إلى معرفة بواطن الأمور. ولكنه ترجاني بأن ننتظر عدة أيام حتى يتمكن من استعادة قوته، ولكنك ستنضم إلينا في مناقشتنا على الفور".

وكما تبين، فقد حلت التفسيرات في وقت أسرع مما كنت أحسبه. في صباح اليوم التالي، دعت السيدة هدسون السيد رين مجددًا إلى مطبخها ليشرف على طريقة إعدادها للطبق الصحي. كانا يقطعان الأعشاب في الوقت الذي زارنا فيه اللورد هيسلوب وكابتن بيكرينغ في شقتنا بالطابق العلوي.

قال هيسلوب بطريقة فظة وهو يدفعني بوقاحة ليدخل إلى غرفة معيشتنا: "أين هو؟".

نهض هولمز على قدميه بوقار عظيم، وقال: "ما معنى هذا؟ منذ متى وقعت مدينتنا تحت الأحكام العرفية؟ من الذي أعطاك الإذن لتقتحم مسكننا الخاص؟".

وصل هيسلوب ليقف أمام هولمز. كان وزير الدفاع على بعد بضعة سنتيمترات من وجه هولمز، وواقفًا في وضع يوحي بالتهديد، عاقدًا كلتا قبضتيه، بينما عروق رقبته نافرة وتنبض بقوة. قال: "أنا هنا باسم الأمن القومي وباسم التاج!".

قال هولمز وهو يتراجع على عقبيه: "إذًا، لا بد وأنك تحمل معك أوراقًا تثبت ذلك". لم يتحاشَ نظرة هيسلوب الحديدية مطلقًا، وتابع قائلًا: "أشك أنك قد تتخذ قرارًا مثل هذا من تلقاء نفسك. ما نوع الطلب القانوني الذي تحمله معك؟".

صاح هيسلوب: "لا شيء. فقط إنني خادم الملكة المطيع. أنت يا سيدي، تؤوي شخصًا هاربًا. سلمه إلينا!".

طوال هذا الوقت، كان بيكرينغ يقف بينما يضع إحدى يديه على مقبض سيفه، ويسد مخرج باب شقتنا، محاكيًا وضعية العديد من التماثيل التي تعود للورد نيلسون. لكن تظاهره هذا لم يكن فعالًا على الإطلاق. في الواقع، بدا سخيفًا. كان بيكرينغ وهيسلوب يحطمان كل الحريات المدنية التي أرسيت منذ فترة طويلة داخل أمتنا العظيمة. في حقيقة الأمر، خامرتني رغبة قوية في أن أصفر لإيقاف عربة، وأن أقترح عليهما أن نأخذ جولة إلى مقاطعة رانيميد، لنبدي احترامنا للجزيرة التي وقعت فيها وثيقة الماغنا كارتا.

قال هولمز: "كما تريان، إننا وحدنا تمامًا. نحن شريكا سكن. ولا يوجد شخص ثالث هنا. إذا لم تصدقاني، فيمكنكما أن تبحثا بنفسيكما. أقترح أن تبدأا بالبحث أسفل الأريكة أولًا. وربما يمكنني تقديم منشفة تنظيف لكما! فهناك بعض الغبار أسفل الأريكة والذي يحتاج إلى التنظيف".

ازداد وجه اللورد هيسلوب احمرارًا مع كل ثانية تمر. كنت أحتفظ بالمسدس في جيبي. أحسست بأن ثقله يمثل راحة كبيرة، وبخاصة بعد الأحداث التي جرت في المستشفى. بطبيعة الحال، لم تكن لدي أي رغبة في استعمال المسدس الصغير، ولكن في الوقت نفسه، أردت أن تنتهي تلك الزيارة الغريبة أيضًا.

سأل القبطان بيكرينغ: "إذًا، أنت تخبرنا بأنك لا تعرف مكان وجود شين وين؟ مواطن صيني هارب، والذي ربما ينشر فيروسًا بغيضًا وخطيرًا أثناء حديثنا هذا؟".

انعقد حاجباه بصورة عميقة، وكذلك اتخذ وضعية وقوف قيادية. بينما حاول هيسلوب ترهيب شيرلوك هولمز، فقد اختارني بيكرينغ هدفًا لترهيبه.

بصراحة، كنت قد نلت كفايتي مما يجري، فقلت: "انظرا هنا. إذا كانت لديكما عريضة بالاتهامات، فأظهراها لنا. وإذا لم تكن لديكما، فعليكما مغادرة هذا المكان أو أنني سيتوجب علي أن ألقيكما خارجًا من حلمات آذانكما. لا يوجد أحد هنا

سواي وهولمز. أنتما مرحب بكما لتفتيش المكان، ولكني أحذركما... طبقة الثلج التي تسيران عليها تصبح أرق وأرق بمرور الوقت. صديقي هنا يحتفى به كبطل قومي تقديرًا لشجاعته. يومًا ما، حينما تستعيدان رشدكما، ستعيدان النظر في أحداث هذا اليوم، وستجدان أنكما اخترتما الجانب الخاطئ من هذه القضية، أنا على ثقة من هذا. لا يوجد أحد أكثر شجاعة ولا أكثر وطنية من شيرلوك هولمز. إذا كنتما تشكان في هذه الحقيقة، فيمكنكما سؤال شقيقه مايكروفت".

سأل هيسلوب: "ومن تعتقد الذي أرسلنا إلى هنا؟".

أحس هيسلوب بالندم بمجرد أن خرجت تلك الكلمات من فمه. كان يمكنك أن ترى عقله يحاول اللحاق بما يقوله لسانه. مع ذلك، وجد هولمز الموقف برمته مضحكًا، فقال: "أرسلك مايكروفت إلى هنا؟ يا إلهي. لدى أخي العزيز كلاب حراسة باهظة الثمن، أليس كذلك يا واطسون؟ كيف تشعران حينما تزال قيودكما؟".

عندئذ، التفت هيسلوب على عقبيه، وقال: "بيكرينغ؟ هيا بنا. لقد انتهينا هنا".

الفصل الثالث والعشرون

التفت نحو هولمز بمجرد أن غادر الرجلان، وقلت: أنت لا تلعب معي بشكل عادل. لقد تجاهلت الإجابة عن أسئلتي. والآن، تم تضييق الخناق علينا وتم دفعنا نحو الحائط بينما أجهل سبب تصرفك الذي لا يطاق هذا معي. ألم أظهر لك دعمي متى ما سألت؟ أومن أنني فعلت ذلك، ولكن لا يمكنك أن تطلب مني الدفاع عن شيء لا أعلم تفاصيله!".

تنهد هولمز بعمق بينما انهار على أحد الكراسي ذات الظهر المستقيم الموضوعة حول مائدة طعامنا، ثم حدق بعينيه في اللا مكان، وقال: "أنت محق. لقد ظننت أنني كسبت بعض الوقت. ولكني أخطأت في تقديري، لقد احتاج السيد رين بعض الوقت لاستعادة قوته...".

قلت غاضبًا: "هذا هراء. أنت تماطل فحسب".

قال هولمز: "هذا صحيح".

"لماذا؟ ماذا عساك تجني من..."، ولكن تصاعد صوت طرق آخر على باب شقتنا ليقاطع احتجاجي. أثار هذا التدخل

الجديد من إحساسي بالمزيد من الغضب. صحت: "تبًّا لكل هذا. منذ متى تحولت شقتنا إلى محطة قطارات؟".

رد هولمز بنبرة متعبة وحزينة: "منذ أن قررت أنه لم يعد بإمكاني مواصلة التخمين". في الواقع، لم أره من قبل منهزمًا إلى هذا الحد. كتفاه المتهدلان، اكتئابه الشديد، وحتى تهدل فمه، كل هذا أشار إلى مدى تعاسته.

قلت: "من الأفضل أن تجيب على الطارق". كنت لا أزال محتفظًا بغضبي، وكنت مترددًا في التخلي عنه تمامًا. أيًّا كان ما يخفيه هولمز عني، فقد عاملني بشكل سيئ. كنت أستحق نيل المزيد من الاعتبار. قلت: "دعنا نرَ ما الذي جلبته أَلاعيبُك إلى منزلنا".

إذا كان يمكن وصف المرء بـ"جرجر قدميه" حقيقة وليس مجازًا، فهذا ما فعله هولمز بالضبط. كانت مشيته نحو الباب شاقة. وعندما لمست يده مقبض الباب، تردد لفترة طويلة ليشد كتفيه، ويرفع ذقنه لأعلى. ومع ارتفاع صوت تكة في الهواء، فتح القفل، ومع صوت صرير، فتح الباب، وفجأة أدركت أنني أنظر إلى ثلاثة شبان يافعين. افترضت أنهم بينسون، ودونلي، وسانت ليدجر.

قال هولمز: "تفضلوا. لقد كنت أنتظر وصولكم".

كتمت أنفاسي من المفاجأة. رغم أننا لم نر صورًا للصبية المفقودين، إلا أن أوصافهم كانت أكثر من كافية للتعرف

عليهم. كان سانت ليدجر هو أطولهم، وكان من الواضح أيضًا أنه أكثرهم بلوغًا، بينما بدا دونلي أصغر سنًّا. أما بينسون فقد اعتلى وجهه أكثر التعبيرات مأسوية، وهو ما أكد على حقيقة كونه عاشقًا بائسًا، وأدركت في تلك اللحظة أنه يحب إينيس كالدويل من كل قلبه. كان التشابه بينه وبين شقيقته ملحوظًا.

وقف الشبان الثلاثة جنبًا إلى جنب، وظهرت عليهم العلامات المستدامة لنمط حياة وعر وقاس، ومع الأخذ في الحسبان لون بشرتهم المحمر، وأجسادهم الهزيلة، والتجاعيد الصغيرة من حول عيونهم وأفواههم، والتي نادرًا ما توجد في شباب المجتمع المتأنقين في مثل أعمارهم. كانت مصافحتهم قوية وحاسمة، ومع ذلك فقد انعكست في عيونهم ملامح آلام دفينة، وعذابات شبه حارقة. كذلك من الجدير بالملاحظة تجمعهم بعضهم بالقرب من بعض، جورج سانت ليدجر في المقدمة، والشابان الآخران على جانبيه، كما لو كانوا يشكلون تشكيلة قتالية توحي بقضاء فترة ما في جبهات القتال.

أشار هولمز إليهم ناحية الكراسي والأريكة ليشجعهم على الجلوس. جال جورج ببصره في أرجاء المكان قبل أن يجلسوا، وسأل: "أين هو؟".

تعمد هولمز إظهار وجه خال من التعبيرات، وهو يفعل ذلك غالبًا عندما يحاول إبداء تجرده وموضوعيته من أجل إثارة إجابة ما من الطرف الآخر. قال: "هو؟".

التفت جورج ناحية هولمز، بينما التمعت عيناه بالغضب، وقال: "أنت تعرف بالضبط من الذي أشير إليه".

انتظر هولمز في صمت، وهو تكتيك يتبعه لإثارة غضب الآخرين من أجل حثهم على الاستفاضة في الحديث. وبلا أدنى شك، أخذ جورج سانت ليدجر زمام المبادرة، فتابع: "لا تحاول أن تمارس ألاعيبك معنا يا سيد هولمز. لقد مررنا بالكثير. السبب الوحيد لمجيئنا إلى هنا هو اصطحاب شين معنا. أين هو؟". وبينما كان يتحدث، أخذ يفرك راحتيه في بنطاله. كرر هذا لعدة مرات، بطريقة توحي بأنها عادة يفعلها عندما يشعر بالعصبية.

قال هولمز: "إن كنت تقصد بكلامك السيد وين شين فهو في المطبخ في الطابق الذي أسفلنا".

كانت هذه العبارة بمثابة تأكيد بأن السيد رين هو في واقع الأمر "وين شين" أو "شين" كما ذكر في يوميات والتر بينسون.

قال هولمز بنبرة هادئة وتتسم بالقوة: "على حسب ما أعتقد فإن صديقكم القديم حاليًّا يعلم مالكة منزلنا كيفية إعداد أحد أطباقه المفضلة. هل ترغبون في مناقشة الحالة التي بين أيدينا في حضوره أو عدم حضوره؟ سأترك لكم الخيار أيها السادة الأفاضل".

وللإجابة عن هولمز، قال جورج، والذي يبدو من الواضح أنه المتحدث باسم المجموعة: "بالطبع نريد أن يخوض شين

هذا الحديث معنا. نحن لم نكن لنكون أحياءً حتى اليوم لولا تدخله و...". امتلأ صوته بالمشاعر الجياشة، وأحسست بوجع في قلبي من أجله. قلت: "هولمز؟ سأذهب لاحضار شين. ربما يمكنك أن تقدم لهؤلاء الشباب بعض المشروبات أثناء غيابي".

وبذلك، غادرت المجموعة. عند هذه النقطة من موضع حكايتنا سيكون من غير الإنصاف تجاهل الإشارة إلى مدى التأثير العميق الذي أحدثه هؤلاء الشبان الناجون في نفسي. قبضت بيدي على درابزين الدرج في قوة لدرجة أخافتني معها! همست لنفسي: توقف عن هذا. لقد رأيت معارك فعلية، رأيت رجالًا يهربون من طلقات البنادق، وبالطبع، رأيت رجالًا يموتون بأعداد كبيرة، ولكن رؤية هؤلاء الشبان الثلاثة مع إدراكي أنهم اشتركوا في طقوس حولتهم إلى حيوانات برية تسببت في اضطراب مشاعري. أي نوع من الخيارات توجب علينا أخذها! كم ثمين البقاء بالنسبة لنا؟! والأكثر أهمية من كل هذا... كم أذهلني مدى نبل الجنس البشري.

فهولاء الثلاثة وضعوا حيواتهم على المحك من أجل بعضهم بعضًا، ومن أجل قبيلة صغيرة لم يشتركوا معها إلّا بالقليل جدًّا من القواسم المشتركة. إذ إن الأمر مختلف تمامًا عن الذهاب إلى الحرب، وأنت تعلم بأن مجهوداتك مدعومة ويتم الإشادة بها من قبل الأمة بأكملها. بيد أن اختيارهم هذا تطلب الكثير من الشجاعة؛ لأنه يرتبط بإخلاصهم وولائهم إلى

مجموعة أخرى ليست بعائلتهم الحقيقية أو موطن ميلادهم. أثبت لي قرار المنبوذين الثلاثة أن روابط الصداقة يمكنها أن تكون أقوى من روابط الدم.

كنت دومًا ما أشك في وجود هذا النوع من الروابط، والآن رأيت الدليل على وجوده.

***

تصاعدت رائحة مبهجة قادمة من المطبخ، تعدنا بأن وجبتنا التالية ستكون وجبة لذيذة حقًّا. انحنت السيدة هدسون فوق قدر كبير، وأخذت تقلب سائلًا ذهبيًّا له رائحة جذابة وغير عادية. امتلأت أجواء المطبخ بروائح الكمون والقرفة والكزبرة. كان السيد وين يقف بجوارها، ويضيف الخضروات المقطّعة بعناية إلى الخليط. كان من الواضح جدًّا أن كليهما يستمتعان بعملهما. لم يكن بوسعي سوى الابتسام لأنني لم أر السيدة هدسون وهي تؤدي واجباتها المنزلية من قبل، وقد أحسست بالسرور لرؤيتها سعيدة هكذا. لدرجة أني كرهت أن أقاطعهما، ولكني فعلت.

"سيد وين؟ رجاءً، انضم إلينا في الأعلى. أصدقاؤك الشباب هنا: السيد بينسون، ودونلي، وسانت ليدجر. أظن أن الآنسة بينسون أوضحت لهم تورطنا في مأزقهم". حاولت بذل قصارى جهدي لإظهار تعاطفي في نبرة صوتي. إذ أخبرتني

غريزتي الداخلية بأن هذا اللقاء سيكون حلوًا ومرًّا في الوقت نفسه. أكدت طريقة تلقي السيد وين لدعوتي على صحة تخميني. في تأن شديد، وضع لوح التقطيع الذي استخدمه جانبًا. عندئذ لاحظته يمسك بالسكين في يده اليمنى. تسارعت نبضات قلبي. كان الهارب السابق قريبًا جدًّا من السيدة هدسون بحيث يمكنه إنهاء حياتها إذا ما أراد ذلك. في داخلي، لعنت نفسي على عدم ملاحظة السكين قبل شروعي في الحديث.

كان قلقي ليس له أساس من الصحة. وضع السيد وين السكين جانبًا. ضغط كلتا راحتيه معًا ليشكل ما يشبه وضعية الصلاة. انحنى للسيدة هدسون تعبيرًا عن تقديره لها. قال بنبرة واضحة بلا أي لكنة: "شكرًا جزيلًا لك يا سيدة هدسون. لقد وجدت الوقت الذي قضيناه معًا ممتعًا للغاية. آمل أن تكوني قد حصلت على المعلومات التي تحتاجين إليها لنسخ هذه الوصفة".

ضمت السيدة هدسون شفتيها في إشارة واضحة على قلقها، وقالت: "لقد استمتعت بذلك حقًّا. هل تقول يا سيدي إني لن أراك مرة أخرى؟".

قال: "أعتقد ذلك بنسبة كبيرة". ثم انحنى لها مجددًا معبرًا عن شكره، وتابع قائلًا: "لذلك، أتمنى لك كامل التوفيق أيتها السيدة الطيبة. أرجو أن تستمتعي بهذه الوجبة، وأن تتذكري الرجل المسكين الذي عالجتِهِ بإحسان".

وكما لو كان رجلًا عسكريًّا، التفت السيد وين ناحيتي، وقال: "دكتور واطسون؟ تفضل، سأتبعك".

***

أثناء صعودنا الدرج، تساءلت في سريرتي إذا ما كان علي أن أطلب من السيدة هدسون أن تقدم لنا بعض المرطبات، ولكن سرعان ما تراجعت عن تلك الفكرة عندما فتحت باب الشقة. كان هولمز قد قدم للشبان الثلاثة كؤوسًا كبيرة من أفضل أنواع البراندي التي يمتلكها. اختار الثلاثي الجلوس على الأريكة بينما يحتسون مشروباتهم. ولأن هولمز نادرًا ما يقدم أفضل أنواع مشروباته لضيوفه، فقد ازداد شعوري بالقلق. بالطبع، ألقى السيد وين التحية على زوارنا الجدد دون أن يخفي محبته لهم. مرر هولمز كأسًا من المشروب الذهبي لكل منا، ودعانا للجلوس.

شرع هولمز قائلًا: "أود حقًّا معرفة إذا ما كانت استنتاجاتي دقيقة، أم إذا ما كان هناك خطأ فادح في عملية تفكيري. لأن حل الألغاز هو مصدر رزقي، أرجو أن تسامحوني بينما أروي عليكم ما أحسبه قد يكون حكايتكم. هل ذلك مقبول لكم؟".

أومأ جورج سانت ليدجر برأسه، وهو ما فعله الآخران. كان والتر بينسون يحمل كأسه بقوة لدرجة أنني قلقت من أنه قد يحطمه في قبضته. أما فرانك دونلي فقد بدا مسترخيًا. رفع

السيد رين أصبعه كإشارة على رغبته في الحديث. قال: "أولًا، يجب أن أقول هذا: شكرًا لك على إنقاذ حياتي يا سيد هولمز. أنا لن أجعلك تندمٍ على هذا. لقد خاطرت بحياتك لإنقاذي، وأنا ممتن لهذا حقًّا. ثانيًا، اسمي الحقيقي هو وين شين. في ثقافتي، يأتي لقب العائلة أولًا. هؤلاء المتوحشون في مستشفى بيت لحم ظنوا أني أقول إن اسمي هو 'رين'".

قال جورج سانت ليدجر متفاجئًا: "مستشفى بيت لحم؟ شين؟ أيًّا كان ما حدث، هل أنت بخير؟".

حدق شين إلى أعماق مشروبه الكهرماني اللون. أضافت رائحة الصندوق الخشبي حيث احتفظ بالمشروب نكهة دخانية نفاذة في الهواء، وقال: "جورج، أعتقد أن السيد هولمز على وشك أن يطلعكم على التفاصيل".

أومأ جورج برأسه، وخفت حدة عصبيته.

قال هولمز: "إذًا كما فهمت، أمل ثلاثتكم في الهروب من الظروف القاسية للمدرسة الداخلية. وانتهى بكم الحال مسافرين هاربين على متن سفينة ماتيلدا بريغز، وهي نفسها السفينة التي كان يعمل عليها السيد وين طباخًا".

كان صمتهم بمثابة علامة على موافقتهم، لذلك واصل هولمز قائلًا: "ترككم القبطان على أقرب جزيرة حيث تعرفتم على قبيلة من السومطريين، السكان الأصليين لتلك الجزيرة، والذين عاملوكم بلطف وقبلوا بكم بمثابة أعضاء في قبيلتهم.

سار كل شيء على ما يرام حتى حلول أول موعد لاكتمال القمر أثناء وجودكم على تلك الجزيرة. في ذلك الوقت، جمعوكم في أقفاص، ورفعوها عاليًا في الهواء باستخدام حبال ربطت إلى فروع شجرة بانيان. وقد تم احتجازكم من أجل هدف وحيد، وهو ضمان سلامتكم الشخصية. تحولت القبيلة بالكامل باستثناء عدد محدود من الأمهات الصغيرات وأطفالهن الرضع إلى ذئاب طوال مدة اكتمال القمر".

أحسست بالتوتر والقلق. كانت القصة خيالية للغاية، وقد رواها هولمز بطريقة هادئة، مما يبرز التباين والمفارقة بين صوته وبين فحوى الحكاية. من في كامل قواه العقلية سيصدق قصة مثل هذه؟

تابع هولمز: "أصبح ذلك بمثابة عادة مقبولة. وفيما عدا تلك الساعات القليلة من كل شهر عند اكتمال القمر، لم تعيشوا حياة هانئة مع السكان الأصليين فحسب، بل تطورت وازدهرت أيضًا. لقد تعاملوا معكم بسعة صدر عظيمة، بالكاد كما لو كنتم ولدتم في قبيلتهم".

ازدادت وتيرة فرانك دونلي في فرك راحته على بنطاله القماشي، أما والتر فقد خفض رأسه ونظر للأسفل كما لو أنه يشعر بالعار والخزي، بينما بدت التعبيرات القلقة لجورج أكثر عمقًا، وتحول لون عيني الشاب وبات بنيًّا داكنًا.

"على الأرجح، كنتم لتقضوا بقية حياتكم هناك بين السكان الأصليين، فأنتم تعاملون كما لو كنتم أفرادًا من القبيلة، لولا

أن السفينة الهولندية وجدت طريقها إلى الجزيرة. في البداية، خططوا لاستغلال أشجار الفلفل إلا أنه سرعان ما قرر تجار التوابل أن بوسعهم الإمساك بالسكان الأصليين وبيعهم كعبيد، وهو ما سيجلب للرجال الهولنديين مكسبًا غير متوقع، بالإضافة إلى الوصول غير المحدود والحصري للعديد من التوابل التي تنمو في تلك الجزيرة. أدرك السكان الأصليون بسرعة ما كان يحدث عندما لاحظوا علم الهولنديين على السفينة. كانت لديهم خبرة كافية في تعامل الهولنديين، وذلك من خلال الجزر الأخرى المنتشرة عبر الأرخبيل، لتجعلهم يخمنون ما سيحدث تاليًا. زعيم القبيلة، كياوانكا، عرض عليكم اختيارين: يمكنكم جميعًا أن تبقوا حيث كنتم. يمكنكم العيش، والقتال، والموت كالرجال الذين أنتم عليهم اليوم. أو أن يتم عضكم من قبل فأر محلي، وهي الخطوة التي تسبق إتمام تحولكم لتصبحوا ذئابًا لمدة ليلة واحدة من كل شهر".

عند هذه النقطة، لم أستطع منع نفسي من تفحص الشبان الثلاثة في تركيز. هل من الممكن أن يكون هولمز قد أخطأ في كل شيء؟ هل سينفجرون بالضحك؟ أو غضبًا؟ أو يرحلون؟

كما تبين، لم يحدث أي من هذا. حدق جورج ناحية صديقيه، ثم تبادلوا إيماءة بالموافقة فيما بينهم. قال: "بلى. كان هذا الاختيار متاحًا أمامنا. في ذلك الوقت، لم يبد الأمر كاختيار قط. حتى عندما كنا في المدرسة، كنا قد سمعنا حكايات عن مدى تعطش الهولنديين للدماء. كنا نعلم أن

إنجلترا تقاتل هولندا عندما غادرنا البلاد. لو اخترنا البقاء على حالنا نفسها؛ لم يكن ليجد الهولنديين أي صعوبة في ذبحنا. لم نكن محاربين ماهرين. لم نملك أي أسلحة خاصة. كل ما تعلمناه هو كيفية استخدام الرماح البدائية لصيد الأسماك والخنازير البرية. كنا ندين للسومطريين بالكثير! لقد أخذونا تحت جناحهم، وتشاركوا معنا القليل مما يملكونه، وكانوا على استعداد للتضحية بحياتهم من أجلنا!".

وفجأة، قال فرانك بنبرة صوته المرتفعة والأُنثويَّة: "لم يشكل لون بشرتنا أي فارق معهم. وبمجرد أن أدركوا أنه لا يوجد معنا آباءٌ ليرشدونا؛ قاموا باحتضاننا على الفور. كنت لأفضل العيش مع كياوانكا على أن أعيش مع والدي! كان كياوانكا أكثر لطفًا معي. كيف يمكنني ألا أساعده في الدفاع عن عائلته؟ لا يمكنني! توقعت أني سأموت، ولكني أردت أن يكون هناك معنًى لموتي. أردت أن أموت من أجل غاية ما".

انطوى فرانك على نفسه؛ ليتهدل كتفاه ورأسه للأسفل. كان يجلس في منتصف الأريكة، وبدأ يذكرني ببعض الحيوانات التي تعيش داخل الجحور. كانت عيناه مثبتتين على أرضية الشقة.

أما والتر، فقد كان أكثر حيوية، إذ قال: "لقد نبذني والدي. ولكن كياوانكا، والدي السومطري، كان أكثر استعدادًا للتضحية بحياته من أجلي! كيف يمكنني ألا أنضم إليه في المعركة؟ لقد كنت فخورًا بالقتال إلى جانبه!".

قال هولمز: "بلى. شين وين، أعتقد أنك تشعر بالمثل أيضًا، أليس كذلك؟".

رفع شين وين عينيه المبللتين بالدموع، ومرر بصره بين الفتيان الثلاثة، وقال: "إنني فخور بكم جميعًا. لقد عشتم شجعانًا. وأظهرتم تقديركم واحترامكم للناس الذين فتحوا بيوتهم لكم. بوصفي رجلًا من أصول آسيوية، لقد تم مناداتي بالعديد من الألقاب... الصيني هو الأقل من بينها. لقد ركلت وضربت وقيدت كالكلاب. ولكن السومطريين عاملوني بوصفي إنسانًا. كنت لأفضل الموت على أن أعود وتتم معاملتي بوصفي صينيًّا في عالم من البشر ذوي البشرة البيضاء".

سأل هولمز: "أنتم الأربعة لم تتوقعوا النجاة من المعركة، أليس كذلك؟ كذلك لم تتوقعوا العودة إلى إنجلترا".

قال فرانك: "ولماذا قد نظن ذلك؟ أول سفينة تأتي إلى الجزيرة بعد مرور ست سنوات هي سفينة هولندية! لم يبعث آباؤنا أي أحد للبحث عنا. كذلك لم يكن من الصعب إيجادنا. كل ما يتطلبه الأمر هو بضعة أسئلة عند الميناء، وكانت لتكون كافية". ثم تابع في مرارة: "ولكن لم يرغب آباؤنا في عودتنا! أوه، ربما يقولون إنهم يريدون ذلك، ولكن أفعالهم تقول شيئًا آخر".

تابع هولمز قائلًا: "ولكنكم نجوتم في المعركة ضد الهولنديين، وعندما رست سفينة إنجليزية أخيرًا على شاطئ الجزيرة، قررتم العودة إلى الوطن في نهاية المطاف".

قال جورج: "زعيم القبيلة هو من اتخذ القرار بالنيابة عنا. كان كياوانكا يعلم أن الهولنديين سيعرفون بأمر المعركة قريبًا. كان يعرف أنهم سيعودون إلى الجزيرة ليحاولوا الانتقام. ولقد فعلوا ذلك. أباد الهولنديون العديد من أصدقائنا خلال المعركة الأولية. بعد ذلك، عاد الهولنديون وقضوا على أغلب السكان الأصليين. من نجا منهم فر للاختباء في الغابة. وفي وقت لاحق، عصف إعصار بالجزيرة. علمنا بهذا الدمار عندما رسا الكابتن بيكرينغ بالسفينة في أحد الموانئ".

تمتم شين غاضبًا: "بيكرينغ. إنه ثعبان. شخص حقير".

أومأ هولمز برأسه موافقًا، وقال: "رأى بيكرينغ تحولاتكم. بعد كل شيء، لقد كنتم على متن السفينة لمدة ستة أسابيع".

قال فرانك: "حبسنا أنفسنا في غرفتنا. كانت نيتنا عدم إيذاء أي شخص... إطلاقًا". واغرورقت عيناه بفيضان من الدموع الحبيسة. كان من الواضح أنه أكثر شخص حساسية من بين ثلاثتهم. ولهذا السبب أجلسه صديقاه في المنتصف على الأريكة لحمايته.

استأنف جورج خيط أفكاره، وتابع: "سمع بيكرينغ أصواتنا أثناء تحولنا. كسر الباب علينا. كان شخصًا طموحًا، وجائعًا من أجل الترقيات، ولديه أصدقاء في مناصب عالية. وكان يرغب في استخدامنا!".

قال فرانك: "لإصابة الجيش البريطاني بأكمله بتلك العدوى. أن يحوِّل رجال أبرياء إلى حيوانات حتى يمكنهم

قتال أعداء الأمة على نحو أفضل! لم يسألنا حتى إذا كنا نوافق على هذا أم لا! ظل يبقينا على سفينته لأطول فترة ممكنة. يسحب عينات الدماء منا، ويحاول اختبارها. في النهاية، تمكنا من الهرب بعد أن قمنا برشوة أحد البحارة، وإخباره بأن آباءنا سيدفعون له المال بمجرد عودتنا!".

قال شين بنبرة حزينة: "شجعتهم على المغادرة بينما قررت البقاء. لم يكن لدي مكان للذهاب إليه. كان البحار يعرف أنه لن يوجد أي شخص يدفع المال مقابل إطلاق سراحي. أخبرت الصبية أن بيكرينغ ربما يتركهم لحال سبيلهم إذا كنت لا أزال تحت يديه. لكني لم أتوقع...".

أنهى هولمز عباراته قائلًا: "أنه سيستعملك بطريقة غير أخلاقية. احتجازك في مستشفى المجانين حيث يمكنه مراقبتك بمعاونة توماس هنري نوف. وعندما تتحول، يحضر بيكرينغ نساء صغيرات إلى زنزانتك. كان يعتقد أنه يمكنك أن تجعلهن يحملن بالمزيد من الذئاب. وعندما فشلت تلك المحاولة، بدأ يأخذ عينات من دمائك".

قلت مقاطعًا: "هولمز. هل تقول إن شين الموجود هنا هو جاك السفاح؟".

دفع شين وجهه في يديه، وقال: "لم أقصد أذيتهن أبدًا. لم أكن أعرف ماذا أفعل. لقد حبس أولئك النسوة معي لأجدهن موتى عند استيقاظي. إنني أشعر بالعار من ذلك".

قال هولمز: "لم يكن لديك خيار في هذا الأمر. أنت لم تكن سوى تجربة علمية. لم يكن يعرف توماس هنري نوف ما هو متورط فيه. ليس في البداية على الأقل. هذا هو سبب دعوته لك يا واطسون. لقد كان حائرًا بالفعل. ولكن بعد ذلك، عرض بيكرينغ وهيسلوب عليه المال والشراكة، لينضم إليهما في خطتهما فجأة".

لم أسأل عن دور مايكروفت. لم أرغب في معرفة ما إذا كان متورطًا في الأمر أم لا.



الفصل الرابع والعشرون

فوجئنا جميعًا بصوت طرق شديد على باب المنزل. كان هولمز الأقرب إلى النافذة من بيننا. لذا، نظر خارجًا، وقال: "إنهم بيكرينغ وهيسلوب وتوماس هنري نوف".

انتفض الشبان الثلاثة في مجلسهم، يتطلعون فيما حولهم في أنحاء غرفة المعيشة بحثًا عن مكان للاختباء. في البداية، أحسست بالصدمة لسماعي عن مجيئهم، لكن سرعان ما تحول ذلك الشعور إلى الغضب. كيف يجرؤ هؤلاء الرجال على ملاحقة الصبية إلى هنا! وأن يأتوا إلى محل إقامتنا؟

قال هولمز مقترحًا: "لتختبئوا أسفل أسرتنا". ثم تابع: "سأحاول مماطلتهم، وبذل قصارى جهدي في إبعاد هولاء الأوغاد عن هنا".

ساعدت الرباعي على القيام بما اقترحه هولمز. وفي الوقت الذي فتح فيه صديقي الباب، كنت جالسًا على الأريكة، أقرأ كتابًا. في اللحظات الأخيرة قبيل دخولهم، لاحظت الكؤوس الست الفارغة من شراب السكوتش، فأسرعت أحيطها بأكوام

من الكتب. كان المنظر بائسًا للغاية عندما انتهيت، ولكنه كان كافيًا لأداء الغرض منه.

قال بيكرينغ مطالبًا: "أين هم؟".

فقال هولمز متسائلًا بينما يتمشى ناحية المدفأة ليستند إليها: "هم من؟".

قال هيسلوب: "شين والفتيان".

رفعت عيني عن مجلد الأشعار الذي كنت أقرؤه، وسألت: "شين؟ من يكون هذا؟".

احمر وجه توماس هنري غضبًا، وقال: "لا يمكنك أن تمنع عني هذا يا واطسون. إنني أستحق هذه المكافأة! وتدخلك هذا...". ثم ألقى بنفسه علي.

بيد أن هولمز مد قدمه ليعترض طريقه، فتعثر توماس هنري وارتطم بقوة بالطاولة الجانبية. تمزقت شفتاه، وتساقط خيط من الدماء على ذقنه خلال وقوعه على السجادة بطريقة خرقاء. استغللت حالة الارتباك لسحب مسدسي من جيبي، وقلت: "أي حق تملكونه لاقتحام شقتنا؟ اخرجوا من هنا!".

قال هيسلوب ساخرًا: "أنا هنا بالنيابة عن التاج الملكي. أنتما تخبئان شيئًا ثمينًا، شيئًا ضروريًّا لمصالح وطننا".

قال هولمز وهو يبدو مستمتعًا: حقًّا؟ هذا يبدو مثيرًا للاهتمام. أتساءل ما الذي تتحدث عنه!".

مسح توماس هنري دماءه بطرف كمه. ثم اعتمد على ركبتيه قبل أن ينهض من جديد ليقف على قدميه. لوح بسبابته ناحيتي كما لو كانت حربة، وقال: تبًّا لك يا واطسون. أنت تعرف ما تبدو عليه الحروب! لتفكر في الأرواح التي يمكننا أن ننقذها! جنود يمكنهم التحول إلى ذئاب؟ فكر في الرعب الذي يمكنهم أن يحدثوه في قلوب أعدائنا. سيشكل خوف أعدائنا من هذا التحول ميزة تكتيكية هائلة لنا!".

في الوقت نفسه، كان بيكرينغ يقف بالقرب من الباب ويغلي غضبًا. كانت نظرات عينيه تنتقل مرة تلو الأخرى بين المسدس الذي أحمله في يدي وبين هولمز. ارتعشت يداه كما لو كان يريد أن يخنقني، واحمرت أذناه من الغضب، ولكنه حاول جاهدًا الإبقاء على مستوى صوته في الحدود الطبيعية، قال: "دعونا نناقش هذا كرجال متحضرين. هناك قدر كبير من المال الذي يمكن كسبه إذا أمسكنا بهؤلاء الـ... الوحوش الأربعة. لقد رأيت بأم عيني نوع الإصابات التي يمكن أن يحدثوها في الجسم البشري. القائد العام على استعداد لدفع مبالغ ضخمة من أجل إعادتهم إلى المكتب الحربي. موتى أو أحياء... لن يهم أي من ذلك".

قاطعه توماس هنري قائلًا: "يجب أن يكونوا أحياء. حتى نتثبت تمامًا من تكرار عملية التحول. أريدهم أحياءً".

لوح بيكرينغ بيده مبديًا لا مبالاته، وقال: "نعم، نعم. الموضوع المهم هو أن لدينا الكثير على المحك هنا. لقد

خصص مبلغ ضخم من أجل الحصول على هؤلاء... الوحوش. إذا لم يكن ممكنًا أن نلتمس لديكما الحس الوطني لتسليمهم، فربما دفعة من المال قد تساعدكما على تصفية ذهنكما ورؤية الأمر من المنظور الصحيح. هولمز؟ لقد أُمر شقيقك بأن يتنحى جانبًا. كما أنه على علم تام بمدى أهمية هذه المخلوقات. أنت لست رجلًا غبيًّا. سنودع المال في حسابك البنكي متى ما أخبرتنا كيف يمكننا العثور عليهم".

ابتسم هولمز ابتسامة متصنعة، وقال: "ليس لدي أدنى فكرة عما تتحدث عنه. مثلما قال الدكتور واطسون، ليس لديكم أي حق في الوجود هنا، لذا أنضم إليه وأطالبكم بالمغادرة. الآن".

لوى هيسلوب فمه بطريقة فظة، وقال: "صدقني، لا أرغب في تضييع ثانية من وقتي في هذا المكان البائس. مع ذلك، فأنا هنا نيابة عن جلالتها... الملكة فيكتوريا، ولن أرحل حتى نحصل على مرادنا".

كنت قد سئمت من الأمر كله. صوبت مسدسي ناحية السقف بينما كنت لا أزال جالسًا في مكاني، وأطلقت النار. تسبب ذلك في تطاير قطع من الجبس فوق رؤوسنا جميعًا.

ثم نهضت من مكاني، وقلت: "غادروا وإلا فسأطلق الرصاص على كل واحد منكم. أومن بأن هيئة المحلفين سينحازون إلى جانب رجل يدافع عن منزله، أليس كذلك؟".

تراجع هيسلوب إلى الوراء حيث الباب ليصطدم ببيكرينغ. بينما هز توماس هنري رأسه، وقال: "لكن يا جون، لقد خدمنا معًا...".

صحت قائلًا: "لقد خدمنا معًا للدفاع عن أسلوب الحياة البريطانية. أم أنك نسيت ما قاله ويليام بيت الأصغر؟ ‹يمكن لأفقر الرجال أن يرفع راية التحدي أمام جميع قوى التاج داخل كوخه›، ولذلك أقول لكم... اخرجوا حالًا أو سأطلق الرصاص على كل واحد منكم!". وللتأكيد على صحة كلامي، أطلقت النار مجددًا نحو السقف.

في تلك المرة، غادر ضيوفنا غير المدعوين.

***

لحسن الحظ، لم تكن السيدة هدسون موجودة في المنزل، إذ ذهبت للخدمة المسائية في الكنيسة، وإلا كنا سنجد صعوبة في شرح سبب إطلاقي للرصاص.

أخذ الدخلاء عشر دقائق من وقتنا قبل مغادرتهم. بعد ذلك، ساعدنا ضيوفنا على الخروج من أسفل الأسرة. قال هولمز بينما يساعد شين للوقوف على قدميه: "لا يمكنكم البقاء هنا. لا أحد منا يمكنه البقاء هنا".

قال فرانك: "لكنهم بالتأكيد سيكونون في انتظارنا ويراقبون المكان". كان وجهه شاحبًا لدرجة جعلت نمشه يزداد بروزًا.

قلت موافقًا: "بلى. لكن هناك طريقة أخرى لمغادرة هذه البناية". ثم سحبت سلمًا مصنوعًا من الحبال من خزانة الملابس، وربطت نهايته إلى أعمدة سريري، ثم تابعت موضحًا: "مع حلول منتصف الليل، لن يكون هناك أي أحد في الخارج. عندئذ سنرمي هذا السلم من نافذة غرفة نومي. يمكننا النزول ومن ثم الركض عبر الحارات إلى الناحية الأخرى من المنطقة السكينة. ومن هناك يمكننا إيقاف عربة أجرة لتقلنا إلى محطة بادنغتون".

بما أن جورج هو العقل المفكر للمجموعة، سأل: "أين تقترح أن نذهب؟".

قال هولمز: "أقترح الذهاب إلى ضيعة بروكهافن. لدينا الكثير لمناقشته، كذلك فإن والدي بينسون ليسا هناك".

***

عند الساعة الرابعة صباحًا، كنا قد وصلنا أمام القصر الريفي في ضيعة بروكهافن. كنا قد استقللنا أول قطار متاح أمامنا من محطة بادنغتون، وللأسف، توقف القطار في عدة محطات وهو ما زاد من وقت رحلتنا. لحسن الحظ، لم يكن نوم جيليان بينسون عميقًا، إذ جاءت لتفتح الباب بمجرد طرقنا عليه. ألقت بذراعيها حول شقيقها، وبكت قليلًا، ولكنها كانت حصيفة بالقدر الكافي حتى لا تفقد كامل سيطرتها على مشاعرها.

كنا قد نمنا في القطار لبعض الوقت إذ كنا منهكين من شدة اليوم، ومرهقين من نزول السلم من خارج نافذة غرفتي، ومن التسلل في طريقنا عبر الحواري الخلفية. لاحظت جيليان مدى إرهاقنا، وسرعان ما قادتنا إلى عدة غرف داخل القصر الريفي لنحظى بقسط من الراحة.

في صباح اليوم التالي، استيقظنا جميعًا باكرًا. شككت أن ثقل الأمور التي تنتظرنا هو الذي سرق منا أي فرصة لأخذ قسط جيد من النوم في الساعات المتبقية من الليلة الفائتة. أرسلت جيليان الخدم بعيدًا. وقامت بإعداد عدة أوعية من الشاي القوي بنفسها، وكذلك أعدت شرائح من اللحم، والجبن، والخبز. وصل الشبان الثلاثة معًا إلى الأسفل، وسألونا إذا ما كان بإمكانهم قضاء بعض الوقت في المكتبة بدون حضور أي منا.

سأل هولمز: "أنتم لا تخططون للهرب، أليس كذلك؟ إذا كنتم ستهربون بالفعل، فلتخبرونا بذلك حتى نتمكن من وضع خطة تضمن سلامتنا".

قال جورج: "بالطبع لا".

وقال فرانك: "نحن فقط نريد بعض الوقت للتحدث فيما بيننا".

وأضاف والتر: "لنناقش الخيارات المتاحة أمامنا". ثم وجه حديثه إلى جيليان: "أختاه؟ هل يمكنك إرسال رسالة إلى

إينيس ومطالبتها بالانضمام إلينا؟ أرغب حقًّا في رؤيتها وأن أشرح لها ما حدث بنفسي".

كانت هناك دوائر سوداء حول عينيها المنتفختين. قالت: "سأفعل".

أما شين فقد مرر بصره فيما بينهم، وقال: "هل تريدون مني الانضمام إليكم في هذا الحديث؟".

قال جورج: "ليس بعد". بدا واضحًا أن جورج قائدٌ بالفطرة. أغلقوا باب المكتبة من ورائهم داخل القصر الريفي. ارتفعت أصواتهم في بعض الأحيان لتعبر عن اختلاف آرائهم، وتردد صداها عبر أنحاء المبنى، ولكنهم في النهاية توصلوا إلى خطة ما. فقط كل ما تبقى لديهم هو بعض الشكوك إزاء خطتهم، ولكنها سرعان ما تلاشت.

عادوا من جديد بعد مرور ساعة. كنا لا نزال نحتسي الشاي حول طاولة الطعام. اعتلت وجوه الفتية تعابير جادة، وبدت عيونهم تشي بنظرات حزينة وواضحة. قال جورج: "لقد انتهينا من مناقشاتنا. وهناك بعض الأسئلة التي أود أن أطرحها على السيد هولمز".

قال هولمز: "نعم؟"، ثم نهض على قدميه ليتمشى كعادته، ويصل إلى حافة إفريز النافذة العملاقة في غرفة الطعام ليستند عليه. واعتلت وجهه المهيب علامات الفضول والحذر.

قال جورج بنبرة متهدجة: "هل تعتقد -وتحت أي ظرف من الظروف- أن الحكومة البريطانية قد تتوقف عن مطاردتنا؟"

رد هولمز بسرعة: "لا. حتى ولو استسلم كلٌّ من هيسلوب وبيكرينغ ونوف. الآن، بعد أن انتشرت الأخبار عن حالتكم بين العديد من المستويات الحكومية، فإنني أعتقد أنه من المستحيل أن يتناسوا ما عرفوه بالفعل".

قال فرانك: "دكتور واطسون؟ هل هناك أي فرصة لعلاج حالتنا؟".

كنت قد فكرت في هذا الأمر من قبل. قلت في تردد: "ليس بمقدوري معرفة كيف قد يحدث هذا. على الأقل ليس خلال سنوات عمرنا هذه. تذكروا، لقد استغرق الأمر عدة عقود حتى نصل إلى علاج للجدري، وهو مرض شائع على عكس حالتكم الفريدة. يوجد أربعة أفراد منكم فحسب. وليس لدينا أي جهود وطنية موحدة للقضاء على هذا... المرض".

سأل والتر: "هل تعتقد أننا مُعْدُون يا دكتور واطسون؟ ".

قلت: "لا أعرف". كرهت الإجابة بهذه الطريقة، ولكني أردت أن أكون صادقًا.

سادت فترة من الصمت. في الأخير، قالت جيليان بينسون: "أعدكم بأنني سأبذل قصارى جهدي لاحتجازكم مرة في كل شهر. ولن أدخر أي نفقات في محاولة الوصول لأفضل طريقة ممكنة لإبقائكم معزولين".

مشى شقيقها ناحية كرسيها. ركع بجانبها ولف ذراعيه حول كتفيها، وقال: "جيليان... هذا ليس خطأك. لا يوجد شيء يمكنك فعله يا شقيقتي. حتى لو احتجزتِنا وأبقيتِنا بعيدًا، ستجدنا الحكومة في النهاية. إن لم يكن هذا الشهر، فسيجدوننا في الشهر التالي، أو الذي يليه".

"ولكن والتر، ماذا لو استقللنا سفينة وذهبنا إلى برمودا؟ أو أستراليا؟ أي مكان بعيدًا عن هنا!". فاضت عينا جيليان بالدموع، وتابعت: "أرجوك، أرجوك، أرجوك. لقد افتقدتك كثيرًا أثناء غيابك. والآن أنت عدت إلى المنزل، لا أريد أن أفقدك مرة أخرى".

طبع قبلة على خدها، قال: "سيأتون من أجلنا يا جيليان. ولن نكون في مأمن أبدًا. وإذا عثروا علينا، فلن يتوقفوا عن استخدامنا. سيحولوننا إلى أسلحة. وحتى إذا لم يجدوا طريقة لنقل هذه اللعنة، فلسوف يبقون علينا محتجزين، ويطلقوننا على أعداء التاج. ألا ترين؟ هم لن يعدونا بشرًا أبدًا. سنكون مجرد بيادق... أسوأ حالًا من العبيد؛ لأن العبيد يحققون لهم أكثر من غرض. أما نحن، فسيكون لدينا غرض واحد فحسب... وهو القتل".

سألته: "ماذا عن أزهار الياسمين الهندي؟ ألا يمكن أن نحيطكم بها؟".

ابتسم هولمز نحوي ابتسامة حزينة وقال: "إلى متى؟ ستشرع الحكومة في مطاردتهم مثل الحيوانات بمجرد انتشار خبر

وجود هؤلاء الأربعة. بالنسبة للآخرين هم ليسوا مجرد أربعة أشخاص بل أربعة أسلحة. أسلحة يمكن توجيهها وإطلاقها. هذا كل ما في الأمر".

قلت: "هل تريدون مقاتلة حكومتنا؟". كانت هذه محاولة يائسة أخيرة، ولكني أحسست أنه من العدل طرحها للمناقشة.

تبادلت مجموعة الشباب النظرات فيما بينهم. قال شين: دكتور... لقد رأيتَ ما الذي فعلته بهؤلاء النساء الصغيرات".

ولكن هولمز هو من رد... بدا وجهه مكفهرًّا، وقال: "لقد منحتك الحكومة مهلة قصيرة يا سيد وين. إنهم قلقون من أن شخصًا مقربًا من العرش وراء حوادث تشويه النساء. وفي هذا الصدد: أنت حر. هؤلاء الأشخاص ممن هم على شاكلة أخي لن يطاردوك. لقد قرروا أن يغضوا الطرف عن حوادث قتل السيدات. إنهم يرون مصرعهن المأسوي بمثابة عقوبة عادلة على حيواتهن الآثمة".

هز شين رأسه في حزن، وقال: "أكره نفسي على ما فعلته".

قال هولمز بحزم: "هذا ليس خطأك".

امتلأت عينا شين بالتعاسة. قال: "هذا حقيقي. كل الأشياء التي ارتكبتها لم تكن عمدًا. ومع ذلك فهي تطاردني. لقد وضعوا النساء في زنزانتي أثناء تحولي. وكانوا يستعيدون جثثهن في ضوء النهار البارد. لقد أثار ذلك اشمئزازي. إذا

حدث وقبض علي المكتب الحربي، فلسوف أنتحر. لا يمكنهم إبقائي على قيد الحياة. لن أسمح لهم بذلك. هؤلاء الأشخاص النافذون هناك سيستخدمونني بدون أي تمييز، لا يمكنني أن أكون طرفًا في ذلك".

اختار جورج أن يغير دفة الحديث، فقال: "أتطلع إلى لقاء إينيس كالدويل، فقد تحدث والتر عنها بحرارة كثيرًا. كما أن الطقس رائع. كيف يمكننا أن نقضي هذا اليوم الرائع؟".

ابتسم والتر في شجاعة، وقال: "نعم. هناك الكثير هنا مما يمكن استكشافه. أراضي ضيعة بروكهافن مليئة بجمال الطبيعة. أقترح أن نأخذ نزهة طويلة. جيليان؟ متى ستصل إينيس؟".

رفعت جيليان ذقنها لأعلى، وحاولت أن تعيد الابتسامة لشقيقها، وقالت: "ليس قبل بضع ساعات على الأقل".

مد والتر يده إلى أخته، وقال: "حسنًا. إذًا، دعونا نتمشَّ في الخارج حتى وصولها".

الفصل الخامس والعشرون

اليوم التالي، في ضيعة بروكهافن بعد الفجر بفترة قصيرة، تمشينا فوق المرج، والذي كان لا يزال باردًا من رطوبة هواء الليلة الفائتة. تعلق الندى بأحذيتنا، وأطراف بناطيلنا، خلال مسيرتنا الكئيبة. كانت إينيس برفقتنا، بعد وصولها خلال ظهيرة اليوم الفائت، تحدثت مع والتر لعدة ساعات وراء الأبواب المغلقة. وعندما عادا للظهور مجددًا، كانا يمسكان بعضهما بأيدي بعض، ليواجهانا بأعين محمرة، وبطريقة توحي بأنهما توصلا إلى قرار ثقيل.

مثلما اقترح الشاب سابقًا، قضينا جميعًا بعض الوقت للاستمتاع في الخارج، وإبداء الإعجاب بأراضي ضيعة بروكهافن. فعلنا ذلك جميعًا فيما عدا هولمز. كان يفضل استكشاف مكتبة آل بينسون الضخمة. في وقت لاحق من اليوم، التحقت به هناك. وجد كلانا راحة البال في التطلع إلى حكمة العصور التي سجلت داخل هذه الكتب.

كل ما فعلناه، كل ما قلناه، ساهم في ترسيخ وتدعيم إحساسنا بالهدف المنصب أمام أعيننا. الآن، ها نحن نتقدم في مسيرتنا كمجموعة متماسكة، ومتحدة على إثر قرارنا المرير. ومع كل خطوة نأخذها، تتحطم وريقات إبر الصنوبر من أسفل أقدامنا، لتطلق رائحتها النفاذة، وهو الأمر الذي أدهشني. راقبتنا الطيور في مسيرتنا، التي أخذت تحذر بعضها بعضًا من مجيئنا، مع أن عددًا قليلًا منها احتل أعلى الأغصان لتعمل كحراس مراقبة. فزع سنجاب رمادي كان يدفن ثمرة بلوط، ليركض هاربًا من أمام مجموعتنا، وليمر من أمام والتر الذي قاد الطريق في عزيمة وتصميم. كان قد حزم قراره منذ فترة طويلة. ولقد وصف لي ذلك بنفسه عندما تقابلنا في وقت مبكر حول مائدة الإفطار بـ"إنني متحمس لمغامرتي التالية".

دعوت أن نكون على وشك الوصول. لم أشعر بثقل مسدسي في جيبي بهذه الصورة من قبل قط. مع كل خطوة أخطوها، كان يصطدم في وركي، ليذكرني بمدى كفاءته الوحشية والباردة. طالما اعتبرت غرض مسدسي هو الحماية، ولكني أراه اليوم عدوًّا؛ بسبب المهمة المميتة التي تنتظرنا. تدلت يد هولمز اليمنى بينما كان يحمل مسدسًا. كانت فوهة المسدس طويلة جدًّا لتمنعه من وضعه في جيب بنطاله بصورة مريحة، ولذلك قرر حمله في يده بصورة فضفاضة إلى حد ما. أجاب لاندوڤر وديكي -حارسا المزرعة المسنان- طلبَنا لهما لمساعدتنا في مهمتنا. بدا الصديقان العجوزان مغتمين

وهما يحملان بندقيتيهما كما لو أنهما في طريقهما لصيد طائر التدرج. ولكن قد يجد أحد المشاهدين أنه من الغريب كيف ربطوا أربع نقالات على ظهريهما. إذ إن تلك النقالات تستخدم خلال المهمة الجليلة لنقل أجساد الموتى إلى عربة الموتى.

حملت إينيس كالدويل كيسًا صغيرًا من الكتان، وبداخله أربع عُصبات للعين تم نسجها باليد. ظلت إينيس وجيليان متسيقظتين طيلة الليل للانتهاء من العمل عليها. بادرة حب أخيرة. هكذا حفظت تلك الفكرة داخل رأسي؛ لأن هذا هو بالضبط ما تمثله تلك العصبات.

مشى الشبان الثلاثة في الأمام برفقة شين. بدت الكآبة على وجوههم، ولكنها لم تخلُ من عزيمتهم وإصرارهم. وللحفاظ على أفضل ملابسهم من أجل الرؤية الأخيرة، فقد اختار الأربعة ارتداء ملابسهم القديمة، والتي اختاروها بأعين مليئة بالعواطف واسترجاع الماضي. اختار جورج رداءه القديم المخصص للعبة الكريكيت؛ لعشقه للعبة. أما فرانك فقد ارتدى معطفًا ذا ذيل؛ لأنه أراد أن يتذكر حفلته الأولى، والفتاة التي رقص معها ولم يرها أبدًا بعد ذلك. بينما ارتدى شين ملابس محلية من موطنه، نوعًا ما من لباس قطني، ولكنه أضاف بنطالًا كإشارة وتحية لمشاعرنا الإنجليزية. ارتدى والتر ملابسه المخصصة للمشي لمسافات طويلة، ويجب أن أقر بأنه بدا أنيقًا للغاية. كنت أتساءل بين فترة وأخرى كيف ستتابع إينيس حياتها، ولكن مع كل مرة أنظر إليها، أجد فمها مغلقًا

بإحكام كما لو كانت لا تريد الإفصاح عما يدور داخلها، بينما كانت عيناها خاليتين من الدموع. أومن بأن هذه كانت هديتها الأخيرة لوالتر، محاولتها التظاهر بأنها علىٍ ما يرام تجاه القرار الذي اتخذه. ولكن أيعقل أن تكون بخير حقًّا؟ أنا لم أكن موافقًا على قرارهم، ولكني أيضًا قبلت بحقيقة أنه لا يوجد أي طريق آخر متاح أمامهم.

مع كل بضع خطوات، كان الرجال الأربعة يتبادلون النظرات فيما بينهم ليعرف كل منهم كيف يتحمل أصدقاؤه هذا العبء الثقيل. خشيت من أن تنهار الفتاتان تحت وطأة هذا الضغط، ولكن هولمز قال: "لديهما الحق في الوجود هنا، كما أنهما تتفهمان ما هو مطلوب منهما يا واطسون. لو كان هذا شقيقك أو حبيبتك، هل كنت لتتركهما يقابلان نهايتهما بمفردهما؟ لم أكن لأفعل ذلك. كنت لأضع كل مشاعري جانبًا، وأتحلى بالقوة، لوقت قصير على الأقل، وبعدها سأبكي على فراقهما".

بالطبع، كان هولمز محقًّا في كلامه. لقد تناقش الشبان الثلاثة وصديقهم الحكيم كل جانب من جوانب قرارهم، وفي النهاية توصلوا إلى تلك النتيجة الحزينة. على الأقل، لن يكون عليهم فعل ذلك بمفردهم.

لقد اتخذوا قرارًا لا يمكن لأي امرئٍ أن يتخذه بسهولة، وعلى الأخص عندما يكونون ثلاثة شبان صغار، لقد أبدوا نضجًا استثنائيًّا وعزيمة راسخة. بالنسبة لشين، فقد عاش حياة

جيدة، وقرر دعم تلاميذه الثلاثة في قرارهم مهما كانت النتيجة. كان شين هو الوحيد من بينهم الذي لديه رؤية واضحة عما قد يحمله لهم مستقبلهم إذا ما أمسكت الحكومة بهم. خلال يوم الأمس وحتى وقت متأخر من المساء، تناقشت وهولمز في العديد من الحلول الأخرى. فكرنا في صنع أقفاص من الحديد المطاوع لاحتجازهم، وفي مخدر يدخلهم في غيبوبة مؤقتة، ولكن في النهاية، كان علينا أن نتفق على أنه لا توجد طريقة لمحو سرهم الدفين، تلك النزعة الأصيلة للقتل التي تجدها في كل الرجال، والتي تتحرر ويطلق لها العنان مع هؤلاء الرباعي في ليلة واحدة من كل شهر، إلّا طريقة واحدة، طريقة واحدة فحسب.

كانت الشمس على وشك الطلوع. وعند قمة مرتفع صغير، وقف والتر مترددًا وهو يصوب بصره ناحية أصدقائه، والذين هزوا رؤوسهم ناحيته في اتفاق صامت. كانت جيليان تحمل سلة في إحدى ذراعيها، والآن أزاحت المنديل الذي يغطيها لتكشف عن زجاجتين من الشمبانيا الفاخرة. وبابتسامة تقطع القلب، سلمت الزجاجتين إلى شقيقها. تناول والتر الزجاجتين ومررهما إلى أصدقائه بينما نظر نحو أخته في حنو عظيم. كانت هناك خصلة متطايرة من شعرها أمام وجهها، فعدلها لها وثبتها بلطف خلف إحدى أذنيها الصغيرتين والورديتين، ثم قال: "كل شيء سيكون على ما يرام عزيزتي. هذا هو القرار الصحيح. أنت تعلمين ذلك. أنا أحبك".

أومأت برأسها بينما انحدرت دمعة على خدها، ولكنها لم تسمح لنفسها بالبكاء، فهي لا تملك رفاهية البكاء الآن.

أزال فرانك سدادة الزجاجة الأولى، وأزال جورج سدادة الزجاجة الثانية. مررا الزجاجتين إلى والتر وشين. بعد أن رفعا الزجاجتين إلى شفاههما ليرتشفا رشفات طويلة تشبع ظمأهما، أعادا الزجاجتين إلى فرانك وجورج من جديد. ولكن قبل ذلك، توقف والتر لفترة طويلة قبل أن يرفع الزجاجة الخضراء إلى فمه، وقال: "هناك الكثير من الجمال في هذا العالم. أثق بأنه ستكون هناك متعة مكافئة له في العالم التالي".

بعد بضع رشفات أخرى، أعاد الرجال زجاجتين نصف فارغتين إلى إينيس وجيليان، ثم عانقوا المرأتين، وبعدها تصافحوا معنا نحن الرجال، وبطريقة ما، تمكنوا من عدم النظر إلى الأسلحة التي نحملها معنا.

سأل والتر: "هل أنتم مستعدون؟".

تصافح الرباعي، وربتوا بعضهم على ظهور بعض. وبعد أن تراجعوا لبضع خطوات، ولاحظ والتر إيماءاتهم بالموافقة، قال: "حسنٌ". ثم قادنا عبر الطريق إلى قمة المرتفع. كانت الشمس في ظهورهم، وعكست ظلالهم بصورة بارزة. غنى عصفور من فوق رؤوسنا بأعذب الألحان، وحمل نسيم خفيف أوراق شجرة بلوط قريبة منا، ليزعجها من سباتها بشكل طفيف. زاد ضياء الشمس الساطع، والقادم من وراء الرجال الأربعة، من صعوبة تبين ملامحهم. تقدمت إينيس ناحيتهم،

وسلمت لكل واحد منهم عصبة العينين. وبينما كانت تتخبط في محاولة ربطها، عرضت عليها المساعدة مع جيليان حتى ننتهي من الأمر بسرعة.

بعد ذلك، احتاج الرجال المعصوبو الأعين إلى مساعدتنا حتى يقفوا بشكل منظم. برفق شديد، وبرفقة جيليان، أخذنا نوقفهم هنا وهناك عبر أنحاء المكان. وجدنا أنه من الأفضل أن نجعل بينهم مسافة لا تقل عن قدمين. كان ذلك بناءً على اقتراح الحارس لاندوڤر عندما عرضنا عليه الأمر. من بين جميع الموجودين هنا، كان لاندوڤر هو الشخص الوحيد الذي رأى شيئًا شبيهًا لما نفعله، كان ذلك إرثه الحزين من الذكريات التي تعود لمشاركته في حرب القرم. الآن، وجد لاندوڤر بقعة مناسبة لبقيتنا، حرك هولمز ناحية أحد الأطراف، ثم وضعني بجوار هولمز، ثم ديكي، ليترك آخر بقعة لنفسه. وفقًا لاتفاقنا، قررنا عدم استخدام أي أوامر شفوية. بدلًا من ذلك، ستكون الإشارة عندما تسقط إينيس منديلًا أرضًا.

أحسست بالغثيان عندما رفعت مسدسي لأعلى، وصوبته للأمام. كان جورج هو أطولهم، لذلك عدلت من زاوية هدفي، وصوبت الفوهة باتجاه قلبه. وقفت إينيس بعيدًا عند أحد الجانبين، تمسك بمنديلها الأبيض بأصابع مرتعشة، وتبدو كأتعس شخص رأيته في حياتي، ومع ذلك فقد منعت نفسها من النشيج. عندما أصبحت جميع أسلحتنا مصوبة ناحية أهدافها. أومأ هولمز برأسه لها.

رفرف المنديل الكتاني الأبيض في طريقه نحو الأرض كملاك ساقط. ولترتفع معه أصوات البنادق والمسدسات مدوية وتصم الآذان، بخاصة أنها أطلقت في الوقت نفسه تقريبًا.

بوم- بوم- بوم- بوم. فانتفضت الظلال الأربعة، وارتخت، لتصطدم بالعشب بصوت مكتوم. على الفور، تحولت من جلاد إلى طبيب، وقمت بفحص أجسادهم. أصيب الأربعة في قلوبهم مباشرة. ارتعشت أصابع والتر، ولكن لم يكن هناك أي نبض. عندما عدت لفحص أصابعه من جديد، وجدته يحمل مشبك شعر يعود لإينيس في راحة يده.

انتهت مهمتنا المريرة.

شكر وعرفان

هذا الكتاب لم يكن ليتم لولا مساعدة العديد من الأشخاص. أنا ممتنة لـ روبيرتا لوتون لثقتها في ائتماني بعمل زوجها الراحل سي. جيه. لوتون. أرجو أن أكون جعلته فخورًا.

إيلين فيتس ودون كرينكلاو لمساعدتهما كمحررين ومشجعين. بالفعل، لم يكن بالإمكان الاستغناء عنهما على عدة مستويات. كريج ستيفن كوبلاند لنصائحه الرائعة ولكونه خبيرًا شيرلوكيًّا مخضرمًا. فريق الإنتاج الخاص بي والمكون من ستاسي ديكر وسيلفيا ميهالجا... هما الأفضل بين الأفضل. لا أعرف ما الذي فعلته لأستحق وجود هاتين السيدتين الرائعتين في حياتي. وصبرهما معي؟ وتشجيعهما لي؟ هذا لا يصدّق. شكرًا لكما!

جيه. سي. إس



عن المؤلفين.

كيه. جيه (كارل جون) لوتون رجل محب لعصر النهضة "شخص لديه اهتمامات واسعة، وهو خبير في العديد من المجالات". بالإضافة إلى خدمته في الجيش الأمريكي لأربع سنوات في ألمانيا، عمل كارل جون في العديد من الوظائف خلال حياته: حفر القبور، إدارة محل للطباعة، امتلاك وكالة إعلانية، التدريس في مؤسسة إصلاحية، والعمل في مدرسة للتعليم الثانوي. حتى أنه حاول اللعب في موقع لاعب الوسط في فريق نيويورك جيتس! كتب طوال حياته. من بين أعماله الأخرى، أنهى كتابة أربع كتب، وكان لديه عدة دفاتر لكتب أخرى تظهر شيرلوك هولمز، وشريكه دكتور جون واطسون.

جوانا كامبل سلان هي مؤلفة لأكثر من ٤٠ كتابًا تشمل كتبًا خيالية وغير خيالية. وهي واحدة من أكثر المؤلفين مبيعًا ضمن قائمة يو إس إيه توداي، وضمن قائمة أمازون لأفضل ١٠٠ كاتب للروايات البوليسية، ومن ضمن أفضل الكتاب مبيعًا على المستوى الوطني.

حازت روايتها التاريخية موت طالبة مدرسة على جائزة دافني دو مورييه للتفوق.

للمزيد من المعلومات زر موقع:

www.thesh- erlockstories.com

شيرلوك هولمز
وفأر سومطرة العملاق




جوانا كامبل سلان

كانت مؤامرة قد دُبّرت على أعلى المستويات في الحكومة البريطانية.

تبدأ المغامرة عندما حُذِّر هولمز من التحقيق في جرائم "جاك" الشنيعة، رغم مهارته المعروفة في كشف المعلومات والتوصل إلى النتائج. في المقابل تم تكليفه بالبحث في قضية اختفاء أحد عاشقيْن إثر شجار صغير بينهما، لكن هذه المسألة ستقوده إلى اكتشاف مسائل أكثر خطورة تدور أحداثها في جزيرة سومطرة.

هذه المغامرة - سريعة الوتيرة - ستأخذ هولمز وصديقه واطسون في رحلة غريبة ومناطق متعددة وسيتعامل مع طبقات اجتماعية مختلفة، الفقراء والنبلاء، العقلاء والمجانين، المجرمين والملتزمين.

شيرلوك هولمز والفأر السومطري العملاق، مغامرة تاريخية ممزوجة بأجواء خارقة للطبيعة، رحلة مثيرة ستحبس أنفاس القراء حتى النهاية.



كيه. جيه. لوتون



Info@daralkhan.com

@DarAlkhan_kw